محمد ابراهيم العلي

الغراب

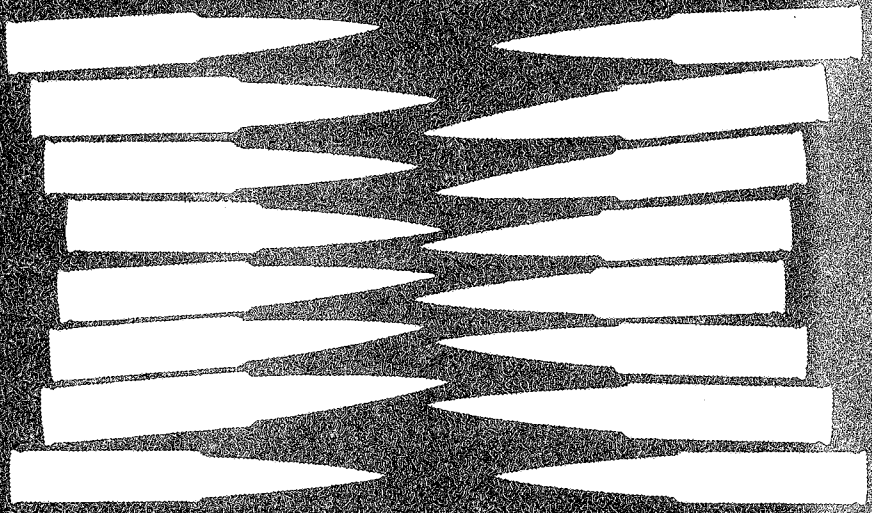

رواية

دار الشيخ

للدراسات والترجمة والنشر

تصميم الغلاف : انتشال كاظم

● طبع في مطبعة العجلوني

حقوق التأليف والنشر محفوظة لدار الشيخ

الناشر: دار الشيخ للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـ هاتف: ٧٢٠٢٧٦ ـ تلكس: ٤١٢٥٤٦ ـ ص.ب ٦٠٥٩

محمد ابراهيم العلي

الذئاب

٢٠٢١

روايـة

الاهـداء :

الـى الشـهـداء

محمد ابراهيم العلي

نبذة عن حياة الكاتب محمد ابراهيم العلي

ولد محمد ابراهيم العلي عام ١٩٣٤ في أحدى قرى منطقة السلمية التي تقع شرق مدينة حماه ، وعاش فيها طفولة اتسمت بقسوة العيش .

وينحدر العلي من عائلة كانت أصلا متوطنة في الساحل السوري حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ولكن نزاعا مسلحا بين جدّه الاكبر وقائد الحامية العثمانية في تلك المنطقة قتل على أثره الضابط العثماني ، أضطر العائلة الى الهرب باتجاه الشرق الى أطراف البادية السورية حيث وجدت لها مستقرا في منطقة السلمية ، ولو الى حين . . . ودخلت العائلة في صراع مع اقطاعي المنطقة الشرقية ، ولم يكن والده في يوم من الايام يقبل الضيم أو الخنوع بل كان يتمرد على ظلم الاقطاعي حتى ولو كلفه ذلك مطاردة عائلته والبطش بها وتهجيرها الى منطقة أخرى .

لقد كانت أفكار والعصيان ترهب وتقض مضاجع الاقطاعيين

وأسياد القرى وكان هؤلاء غالبا مايتوصلون الى ضرب هذه الافكار وافراغها من كل أثر أما بالعنف أو بشراء الذمم أو بالاستعانة بجنود الاحتلال أو بالتهجير وكانت هذه الوسيلة الاخيرة من نصيب أسرته .

وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت عائلته في منطقة الغاب التي كان الاقطاع فيها ضعيفاً . . لقد هيأت له هذه الحياة على الرغم من قساوتها تنوعا مدهشا في المشاهد والاكتشافات والمعارف .

وارتسمت الى الابد في مخيلته ألوان الاضطهاد التي كان يسومها الاقطاعين لفلاحيهم ، بشكل يتساوى مع حملات واشكال القمع والاضطهاد التي كان يقوم بها جنود الاحتلال من طرف ثان ، واكتملت الصورة بأفظع واقسى صنوف الظلم .

تلك هي الصور التي حاصرته منذ وعي على الحياة . والمتتبع لاعماله الروائية ، وهو الذي اتجه الى الكتابة في سن متأخرة ، سيكتشف دون جهد أثر تلك المرحلة في اعماله ، وأثرها بالتالي على تكوينه الادبي والفكري . . . وفي أعمال عديدة لشدة ماتشربت بها روحة ، ما استطاع أن يعطي عنوانا واحد الموضوعات مختلفة سوى كلمة « الطغيان » . . . وهو عنوان الثلاثية التي استوحى موضوعاتها من تلك الفترة من حياة الفلاحين .

وما كانت المراحل اللاحقة في حياته الافسحات صغيرة جهد فيها نفسه ليثبت تلك الصور في الذاكرة والوعي والمشاعر ويغتني بتجارب اضافية ، لا لكي تعينه على الكتابة في المستقبل ، انما كي يتسلح بعدة الحياة المناسبة للكفاح الذي اختاره من اجل التغيير والنضال ضد الظلم والاوضاع الجائرة التي مر فيها . لاسيما أن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب في جنبات المجتمع السوري آنذاك .

ففي نهاية الحرب العالمية الثانية كان قد انهى تعليم الكتاب (الملا) وحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والتجويد . وقرر والده ارساله الى مدرسة في جبال الساحل . لكن سوء الاحوال المادية

والظروف الصعبة التي عاناها في ذلك العام اضطرته للعودة الى أهله . وفي العام الذي تلاه ذهب الى حماه ودخل في مدرسة دينية تدعى « المحمدية الشرعية » وانتسب فيها الى الصف الخامس مباشرة .

وتابع دراسته في حماه من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١ حيث حصل على الشهادة الاعدادية من ثانوية « ابن رشد » الداخلية التي كانت تعطي بعض المقاعد للفقراء .

في سنوات الدراسة تلك اندفع الى قلب حياة المدينة ، التي تعيش تناقضات طبقية عنيفة .

والى هذا العهد تعود معرفته بالعلاقات الاقتصادية التي تربط القرية بالمدينة . ولم يكن من باب المصادفة أن تكون رواية « المرابي » أول رواية له .

كانت السياسة تعني عنده الكفاح ضد ظلم الاقطاع . ولذلك كان أول عمل قام به وهو على مقعد الدراسة الانتساب الى حزب الشباب الذي كان يطرح بعض قضايا هذه الصراع . وفي عام ١٩٤٨ أصبح عضوا عاملا فيه ، وسمي فيما بعد بالحزب العربي الاشتراكي . الذي اندمج في مطلع الخمسينات بحزب البعث ليؤلف معه حزب البعث العربي الاشتراكي .

لقد خاض مع رفاقه وزملائه التلاميذ معارك كثيرة في المدارس والساحات وأمام دار الحكومة وقصور الاقطاع .

وكان من الصعب عليه وهو في المدينة أن ينسى الاقطاعي الذي عاد الى القرية بعد رحلة صيد غير موفقة ، فأخذ يطلق العيارات النارية بفوضى وهستيرية حتى أصاب أحد الفلاحين وأرداه قتيلا .

وقد ارتبط كل ذاك بشكل لا تنفصم عراه مع قبان « حجي » الخان الذي يغش في الوزن ويقرض بالفائدة .

في عام ١٩٥٣ غادر قريته الى حوض الفرات وعمل في القرى

هناك وكيلا ، معلم ثم معلما مثبتا .

هذه التجربة كمعلم بينهم أغنت معلوماته وانطباعاته عنهم أكثر فأكثر ، واستطاع في تلك الفترة أن ينفذ الى أعماق هذا المجتمع الذي يبدو ظاهريا غريبا ، وأن يطلع عن كثب على أساليب تفكيرهم ومعالجاتهم للقضايا الحياتية التي تمر بهم . وربما لهذه التجربة الغنية بالذات يعود الفضل لكتابته رواية « التحول الكبير » .

ولذلك حمل معه الى هذه البيئة البكر أفكار حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ينتمي اليه ، وعندما اكتشف أمره من قبل السلطات المحلية ، وكان الحزب وقتئذ يعيش عهدا سريا ، اعتقل واودع السجن عام ١٩٥٤ لكنه لم يبق فيه سوى يوم واحد . لانه في اليوم الثاني من اعتقاله حدث انقلاب على الشيشكلي وأفرج عنه .

وربما ستلعب أمثال هذه المصادفة دورا مدهشا في حياته اللاحقة . وستلعب دورا عجيبا في انقاذه من الموت المحتم . وذلك عندما قامت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ قبل يوم واحد فقط من تنفيذ حكم الاعدام به . الامر الذي سيأتي تفصيله بعد قليل .

بدأ حياته العسكرية عام ١٩٥٤ . التحق بمدرسة الرتباء في مدينة قطنا القريبة من دمشق . وقضى فيها مدة الدورة وهي ستة أشهر تخرج بعدها منها برتبة عريف .

بعد تخرجه من مدرسة الرتباء عين في الجولان في مخفر قرب بحيرة طبريا . كان رئيسا لمخفر عسكري حين وقعت أثناءها معركة حاسمة مع القوات الصهيونية المتمركزة في مواجهة مخفره . بقي هناك حتى عام ١٩٥٦ حيث انتهت مدة خدمته الالزامية . وسرح بعدها من الجيش . لكن بعد أن درس الشهادة الثانوية وحصل عليها وهو في الجندية .

بعد تسريحه بيوم واحد جرت حرب السويس والعدوان الثلاثي على مصر . فأعيد ثانية الى الخدمة .

وتقدم بعدها بطلب الى الكلية الحربية والتحق فيها عام ١٩٥٦ .

وبعد قيام الوحدة ، التحق بالكلية الحربية في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٥٩ برتبة ملازم وعين في كتيبة المظلات المتمركزة في القاهرة .

اتبع دورات عسكرية مختلفة كقائد سرية في سلاح المشاة ، وكمدرب في الصاعقة ومدرب في المظلات ، ورفع الى رتبة ملازم أول .

عمل دورة مدرب صاعقة في أنشاص الواقعة في المنقطة الشمالية الشرقية للقاهرة قفز من الحوامة دون مظلة عن ارتفاع /٨٠/ متراً على سطح مياه النيل مع أنه لا يجيد السباحة ! .

وكان الرئيس جمال عبد الناصر يرعى حفل التخرج فتقدم منه نهاية العرض وأثنى عليه .

وعندما حدث الانفصال كان موجودا في القاهرة وكان من أشد المعارضين للانفصال فاعتبره جريمة كبرى ضد التاريخ العربي الحديث يجب ان يحاسب عليها مرتكبوها .

هناك مقولة لعبت دورا اساسيا في حياته ، وهي أن الجيوش اذا امتلكت الوعي الطبقي الى جانب الاحساس الوطني يمكن أن تكون قوة مؤثرة في مجرى التحولات الثورية . وخصوصاً في بلدان العالم النامي التي تلعب فيها الجيوش عمليا ، دوراً رئيسياً في السياسة .

من هذه الفكرة انطلق الى تحديد علاقته بعمله العسكري . وما عنى له الجيش يوما الا ادارة ثورية للتغيير نحو واقع أفضل . لكون قاعدته الاساسية مؤلفة من أبناء الفلاحين والعمال . .

لقد راعه عهد الانفصال بانفاضة على المكاسب الوطنية والقومية التي تحققت سابقاً ، وهكذا تلقى التعليمات من حزبه . بأن يقوم تنظيمه الحزبي العسكري باحتلال مدينة حلب . وكان قائد

السرية في كتيبة المظلات المتمركزة حول حلب .

وفي الساعة الثانية ليلا من الاول من نيسان عام ١٩٦٢ احتل بالكتيبة حلب وسيطر على المدينة بكاملها قبل شروق الشمس ، وكانت جماهير المدينة معهم لان حلم الوحدة كان شغلها الشاغل . في تلك الاثناء كان من المفروض أن تتواقت مع عملهم هذا في حلب عمليات اخرى في بقية المحافظات كحمص ودمشق ، وتراجع بعض القادة العسكريين عن تنفيذ عهودهم مما ادى اخفاق عملية حلب .

عندما عقد مؤتمر لقادة القطعات العسكرية حضره الملازم الاول محمد ابراهيم العلي رغم ان المؤتمرين لم يعترفوا به كون رتبته صغيرة ، وكان له دور فعال في المؤتمر . بينما كان أقل ضابط في المؤتمر برتبة مقدم .

لكن عملية حلب أخفقت والقي القبض عليه وادخل السجن مع عدد كبير من رفاقه العسكريين . منهم الرئيس (حافظ الاسد) ، حيث بقي فيه أحد عشر شهرا ، وحكم عليه بالاعدام بتهمة التمرد العسكري .

وخرجت جماهير سورية من اقصاها الى أقصاها في مظاهرات ومسيرات احتجاجية تطالب السلطات بالافراج عنه . كان يمثل في نظرها قضية هي قضية الوحدة أولا .

لقد كانت هذه الحركة تمهيدا أوليا لثورة من آذار التي قامت عام ١٩٦٣ . وفعل الرفاق في الحزب حسنا عندما قدموا موعد قيامها عدة أيام لتصادف الثامن من آذار ، أى قبل يوم واحد من موعد تنفيذ حكم الاعدام به .

بعدما أنقذ من الموت وخرج من السجن والتحق بكتيبة حراسة الاركان التقى بفصيل الاعدام الذي كان سينفذ الحكم به . وكانت هذه من المفارقات المدهشة القليلة التي مرت به في حياته .

بعد ثورة الثامن من آذار تسلم قيادة الحرس القومي بقرار من

قيادة الثورة في سورية . ليصبح فيما بعد عام ١٩٦٧ الجيش الشعبي ، ولازال في قيادته حتى الان .

اشترك في جميع الاحداث التي مرت على سورية . واشترك بالرأي والفعل في القضاء على كل المؤامرات التي تعرضت لها الثورة .

ومن الاحداث الهامة التي تركت بصماتها على تاريخ سورية الحديث كانت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ وكان لمحمد ابراهيم العلي دور أساسي في تلك الحركة والتي أرست أسس التفكير العلمي والمنهجي في حزب البعث العربي الاشتراكي .

وفي الثامن من ايلول عام ١٩٦٦ تعرض لمحاولة اغتيال قام بها المتمردون في الجيش .

اتبع دورة قائد كتيبة ثم التحق بالاكاديمية العسكرية واتبع دورة اركان حرب . وكان له الشرف الكبير الذي يعتز به كثيراً ، أن يكون أحد المؤسسين لمنظمات الثورة الفلسطينية منذ بداية تشكيلها السري وحتى بعد اعلانها عام ١٩٦٥ .

بدأ علاقته بالادب عام ١٩٧٧ . ونشرت أولى رواياته في أواخر هذا العام بعنوان « المرابي » عام ١٩٧٨ . نشر رواية « الطغيان ـ الجزء الاول » ثم « الطغيان الجزء الثاني والطغيان الجزء الثالث . ثم » المطاردون و« المرابي ـ الجزء الثاني » والقناديل . « وعن حرب تشرين عام ١٩٧٣ كتب رواية » « نجمة الصبح » التي ترجمت الى اللغة الروسية و « التحول الكبير » عن سد الفرات التي ترجمت أيضاً الى اللغة الروسية . ومجموعة قصصية ـ شوك الدردار ـ وهكذا كانت حصيلته الادبية حتى الان تسع روايات ومجموعة قصصية واحدة .

ترجم منها ثلاثية الطغيان ـ ثم التحول الكبير ـ ونجمة الصبح الى الروسية والبلغارية والالمانية .

وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب وله مساهمات فعالة في

نشاطاته وعلى الاخص مايتعلق منها بتطوير علاقات التعاون والصداقة بين اتحاد الكتاب العرب واتحادات الكتاب في الاتحاد السوفييتي وبقية البلدان الاشتراكية الصديقة . والدول العربية .

منح عدد كبير من الاوسمة في سورية لاخلاصه الوطني - ومنح الوسام الحربي من الدرجة الاولى لحرب تشرين عام ١٩٧٣ .

منح عدة أوسمة من دول اجنبية ، ومنح وسام الصداقة مع الشعوب بمرسوم من قبل مجلس السوفييت الاعلى في الاتحاد السوفييتي في ١٨ آب ١٩٨٧ .

متزوج من عزيزة عبد الهادي العلي من مواليد ١٩٤٥ من قريته وله ستة أولاد .

« ١ »

كان المطر ينهمر بغزارة دون توقف ، والخيمة مضاءة بمصباح هوائي . بينما كانت الظلمة شديدة في الخارج . كانت الساعة تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ، عندما كان العريف محمد مستلقيا على سريره الفردي ، لم يستطع النوم ، فهواجسه كانت كثيرة ، ومما زاده قلقا انه كان يقرأ مقالا في جريدة «الأيام» عن ثورة الجزائر ، كتبه أستاذ كان يعلمه مادة الأخلاق والمنطق في المرحلة الاعدادية . قرأ تلك الجريدة بكاملها ، حتى الاعلانات قرأها بعناية . عند رأسه كان يضع كتابا يتحدث عن بسمارك والاتحاد الألماني ، يقرأ فيه في وقت الفراغ ، ويجري مقارنات تاريخية بين الاتحاد الالماني والوحدة العربية . عاد ثانية للقراءة عن ثورة الجزائر ، فقد كان يعرف أشخاصا من حزب البعث العربي الاشتراكي ذهبوا الى الاوراس للالتحاق بالثورة هناك . وكان له رفيق يحدثه دائما عن ثورة الجزائر على أنها بداية الثورة العربية اذا كُتب لها النصر .

كان ينام في الخيمة عناصر «الحضيرة» ، كما كانت التسمية في ذلك الوقت ، وكان هو قائد الحضيرة ، لأنه متخرج من مدرسة ضباط الصف برتبة عريف مجند وقريبا سيكون رقيبا . وكان معه أيضا في الحضيرة جنديان متطوعان ومجندان اتبعا دورة عريف ، كل واحد منهما آمر زمرة ، وكان تشكيل الحضيرة يتألف من زمرتين زمرة الرماة وزمرة الجوالة . وكان أحد أفراد زمرة الرماة يحمل الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ فرنسي وآخر يساعده بحمل الذخيرة والتلقيم أثناء الرمي اذا

ما حدث اشتباك . وزمرة الجوالة مسلحة ببنادق نصف آلية فرنسية الصنع . أما آمر الحضيرة فكان يحمل مسدسا رشاشا من النوع الايطالي الرديء لأن ذخيرته كانت من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، وأغلب طلقاته فاسدة ، وله مشاكل كثيرة واستعصاءاته متكررة . هذا الرشيش الملعون الذي تسلمه العريف محمد كان يزعجه كثيرا وغالباً ما كان يتساءل بينه وبين نفسه ألا يمكن استبداله ببندقية فرنسية ٤٩ ؟ انها أفضل منه بالتأكيد ، على الأقل هي لا تجدب أثناء الاطلاق !

كان العريف محمد يكره هذا الرشيش ولكن ما الفائدة طالما أنه سلاحه ، كان أخمصه خشبيا مثل أخمص البندقية ، وبنادق زمرة الرماة بنادق فرنسية طراز ٣٦ ، من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، الا أن طلقات البندقية ٣٦ كانت تلائم طلقات الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ، والبندقية ٤٩ . المهم وجود وحدة ذخيرة في الحضيرة على الأقل . وكان لكل جندي قنبلتان هجوميتان وقنبلتان دفاعيتان أيضا .

كانت عناصر الحضيرة تنام في خيمتين صغيرتين متجاورتين ، كل خيمة فيها خمسة أشخاص ، بينما كان محمد ينام في خيمة فردية . وقد حفروا للخيام حفرة داخل الأرض ، حتى اذا حدث قصف مدفعي أو طيران معاد يكون الجنود وكأنهم في خنادق ووصلوا بين الخيام بخندق متعرج يصل كل خيام الفصيل بمركز قائد الفصيل .

كان المساعد أول حسين قائدا للفصيل ، خدم مع فرنسا ، ثم تابع خدمته في الجيش . يتقن الفرنسية ولكن لغته العربية كانت ركيكة فهو يؤنث المذكر ويذكر المؤنث حتى ألف الجنود لهجته . في البداية كانوا يضحكون عندما يقول :

ـ أين هي ؟ ويقصد بذلك آمر الحضيرة .

كان رجلا طيبا ونظاميا . يحترمه الجنود لأنه مخلص بعمله . لكنه كان يزعجهم عندما يعد مسامير أحذيتهم يوم الخميس أثناء التفتيش على نظافة الجنود . كانت الأحذية سيئة جدا ، ونعلها مثبت بالمسامير النافرة وعندما يمشي

الجندي فوق طريق مرصوفة أو معبدة ، تصدر عنها قرقعة كبيرة ، كره محمد هذا الحذاء ، لأنه لا يصلح للدوريات الليلية حتى ولا النهارية . فكر بطريقة يخفف من تلك القرقعة ، وراح يلف نعلها بقماش من الخرق أو اللباد . وكان قائد الفصيل يتفقد المسامير ويقول : يجب أن لا ينفذ أي مسمار من أسفل أي حذاء . كان يردد دائما : «هذه أموال الشعب ، اعتنوا بلباسكم» ! لا توجد الا بدلة عمل واحدة وبدلة شتوية لكل فرد ولكل ثلاثة أفراد مشمع واحد عندما كان المجندون يذهبون في اجازة الصيف كانوا يلبسون السراويل القصيرة التي يطلق عليها «الشورت» ، هكذا كان النظام .

المساعد أول حسين تجاوز الأربعين من عمره ، ومع ذلك ما زالت همته عالية ، فهو يحلق ذقنه يوميا ويطلب من الجميع حلق ذقونهم كل صباح إلا أن وجودهم الدائم على الخطوط الأمامية جعله يتغاضى أحيانا عن حلاقة ذقونهم يوميا ، باستثناء يوم الخميس الذي كان يجري فيه تفتيش دقيق من قائد السرية .

كانت الفصيلة تتمركز ضمن السرية قرب قرية جرابا على الخطوط الأمامية . وكان مركز قيادة السرية في وادي الهوى شرقي قرية جرابا ، أو وادي السمك . كما كان يطلق عليه . وقرية جرابا هذه ، مجموعة من البيوت الحجرية والطينية ، يملكها أحد القطاعيين ، وفيها كثير من الأبقار الجبلية ، أو كما يسميها البدو بقر الجولان ، وتقع على هضبة قليلة الإرتفاع ، والوادي مكسو بأشجار كثيفة وفيه مجرى مائي تشح مياهه في فصل الصيف ، وترتاده مواشي القرى المجاورة ، يبلغ طوله قرابة العشرين كيلومترا ،وتكثر في أحراشه العقارب والأفاعي السامة . فيكاد لا يمر يوم الا ويسمع صراخ أحد الجنود من ألم سببته لسعة عقرب أو عضة أفعى لكن مع الزمن صار وجود الأفاعي والعقارب بين الخيام أمراً طبيعيا ومألوفاً .

كان محمد يخاف من الأفاعي ، فلديه مخاوف قديمة منها ، يقشعر جسمه عندما يذكرها أحد أمامه ، ولكن ماذا بوسعه أن يعمل ؟ فلقد تم تعيينه في هذه السرية عقب إنتهاء دورته في مدرسة المشاة . وبعد أن وصل الى مدينة القنيطرة ، ركب «البوسطة» الوحيدة التي تذهب الى قرية البطيحة الواقعة على

بحيرة طبريا ، وقال له السائق هذا هو مقر الفوج ، في الجمرك جسر بنات يعقوب ، وهناك جرى تعيينه في السرية ومركزها وادي السمك شرقي قرية جرابا . كان يحمل حقيبة من التنك وضع فيها بعض ملابسه العسكرية ، وعليه أن يستلم بقية الملابس من السرية . عندما وصل الى السرية عند الغروب ، استقبله محاسبها الرقيب أول الذي أمره بالعودة ثانية الى الفوج ليستلم ملابسه ففي السرية لا يوجد الا السلاح .

قبل أن يغادر محمد الى قيادة الفوج في الجمرك ، كان هناك بعض البغال التي حملت التموين الى المخافر ومن ثم الى العليقة . ولأن العريف' محمد وصل بلباس «الشورت النظامي» والحذاء الذي تطرق مساميره الأرض ، نصحه الرقيب أن يشتري حذاء مطاطيا من حانوت في الجمرك قد يكون عنده مثل هذه الأحذية من أجل الدوريات ، وأوصاه قائلا :

ـ ان في هذه المنطقة ، كما تشاهد الأحجار البازلتية الكبيرة والأرض وعرة جدا ولا تصلح الا لرعي المواشي . وأوصاه أن لا يعود ليلا ، عبر الوادي لأن هناك كثيرا من الذئاب ، وكذلك الخنازير البرية ، والضباع . قال له : «المهم أن لا تشتبك مع الذئاب ، قد تكون الذئاب شريرة ، فالخنازير تهرب لمجرد سماع صوت الانسان ، أما الذئاب فقد تهاجمك خاصة اذا كنت بمفردك ، والأفضل أن لا تأتي وحدك» .

كانت نصائحه كثيرة جداً .

وتابع : نحن هنا نعرف الكثير عن هذا الوادي . من أين أنت ؟ من لهجتك يبدو أنك من عائلة قروية .

وأجاب العريف محمد :

ـ نعم أنا من قرية في ريف حماه ، وعلمّت على نهر الفرات .

وقال الرقيب أول :

ـ أنا من دير الزور وقد أمضيت عشر سنوات في الجيش . سنة واحدة مع فرنسا ثم كان الاستقلال ، لقد خضت حرب فلسطين . رنا بنظره الى الأفق البعيد .

دخل جندي وقال للرقيب :

ـ البغل جاهز ونحن على استعداد للذهاب الى قيادة الفوج ، ماذا تأمر يا حضرة الرقيب ؟ .

ونظر اليه الرقيب أول نظرة غير مبالية ، وتابع : آه ـ البغل جاهز ، قلت البغل جاهز .

ـ طيب خذ البريد معك ، في هذه الحقيبة الجلدية .

كان الجندي كما بدا من لهجته من بدو المنطقة .

وتابع الرقيب :

ـ الذين يعتنون بالبغال والخيول أغلبهم من الحرس الوطني . طبعا أنت تعرف الحرس الوطني ، ايه دنيا لماذا لم تتوسط وتتعين في المناطق الداخلية ؟ ليس لك واسطة كما يبدو !!!!.

كان يكلم نفسه وهو يرتب البريد في المحفظة الجلدية المهترئة اطرافها .

ثم تابع :

ـ آه لو كان لك واسطة يمكن أن تعين في الشرطة العسكرية أو الادارات من يدري ؟ الشرطة العسكرية أهم شيء . لباسهم جيد وكذلك طعامهم ، لماذا لم تعين في قيادة الجبهة ؟ كان أفضل لك ، هنا الموت ، عقارب كثيرة وأفاع سامة ، وكذلك الوحوش المفترسة بالليل والنهار . من يدري ؟ ماذا يعمل العدو ، انتبه كثيرا من حقول الألغام كي لا تموت بدون مقابل . .

كان حديثه أشبه بمحاضرة ، والعريف محمد يصغي اليه باهتمام . وقد عرف أنه مسؤول عن التموين ومحاسب السرية . لقد ألقى الرعب في نفس العريف منذ الوهلة الأولى حتى أظلمت الدنيا في عينيه .

وتابع الرقيب أول محاولا طمأنة العريف محمد بعد أن أحس باضطرابه :

ـ ومع ذلك اعتمد علي . أنا أخوكم الكبير في هذه السرية ، سوف تعين في الفصيل الثاني آمر حضيرة . آمر حضيرة وان كنت عريفا مجندا ، ولكن كونك اتبعت دورة رقيب آمر حضيرة ، يمكن أن أتوسط لك لتعيينك آمر حضيرة في الفصيل الثاني من السرية .

ورد العريف محمد شاكرا له هذا الجميل .

وتابع الرقيب :

ـ اسمع ياعريف محمد! الآن تذهب مع البغال الى قيادة الفوج وتستلم المهمات . كان المفروض أن اذهب معك ولكن لا يهم هذه رسالة الى المساعد في محاسبة الفوج ليسلمك لباسا جديدا ، لا تنس المعطف والمشمع ، المطر هنا يأتي مبكرا ، آه ، كما لا تنس أن تمر على الحانوت بجانب قيادة الفوج لتشتري حذاء مطاطيا فهذا أفضل لك ، وإذا أرسل لي صاحب الحانوت ، علبة من الحلاوة وصندوقا من الراحة فبامكانك احضارهما معك ، وسوف ادفع له ثمنها لاحقا . اسمع ، رجلي نمرتها ٤٢ ، اذا كانت هناك خفافات جديدة ، لابأس بخفافة مع جراب ، سوف أدفع له ثمنها أيضا ، طبعا أنت أتيت حديثا من المدينة لا تنس أن الاجازات من عندي . سوف أرتب لك إجازة تذهب بها لمشاهدة أهلك ، آه ، من يدري ؟ سوف أوصي المساعد أول قائد الفصيلة الثانية بك خيرا ، صحيح أن عربيته غير مفهومة كثيرا لكنه رجل طيب ، وعليك أن تكون انضباطيا معه . الملازم ياسر شاب لطيف ، ولكنه مزاجي ، لا يهم ، ضباط هذه الأيام يحبون الخمرة كثيرا . توجد سيارة جيب دودج كندي واحدة في السرية ، يستخدمها قائد السرية للذهاب الى نادي الضباط ، بالجمرك ، هناك يسكرون ، ويسهرون مع النساء . وهذه عادة قديمة من أيام فرنسا . ويقال أن قائد الفوج الرئيس الأول شجاع جدا . لم أشاهده بعد الا مرة واحدة عندما زار السرية مع قائد السرية . وبقية الفصائل ، يوجد مرشح اسمه أحمد هو قائد الفصيل الأول ، والمرشح جهاد قائد الفصيل الثالث ، سوف تتعرف عليهما بنفسك» .

صمت الرقيب لحظة ، ثم نظر الى المراسل وأوصاه :

ـ اسمع ، لا تذهب على الطريق الموازي للنهر ، طريق البوسطة ، يمكن أن يكمن لك العدو ، اتبع طريق وادي السمك ، ولا تنس غداً الجبنة للعساكر ، قل للمساعد أن يزودها قليلا ، قل له أتى مجندون جدد ، سيؤخذون على الطعام من اليوم .

دار الحديث والبغلان واقفان أمام الخيمة يمسك بهما جندي ، والآخر يستلم البريد ومواد التموين الفارغة التي سيأتي بها غدا .

ـ يا عريف محمد اذهب معهم ، ووجه حديثه للجنديين قائلا : يمكن أن تركبّوه خلف أحدكم اذا تعب ، المسافة قريبة حوالي خمسة عشر كيلومترا ، وغمز بعينه متهكما . فسر العريف محمد غمزته هذه على أنها سخرية منه . فسرها الجندي الذي كان واقفا عند الباب أنه يسخر منه هو . وكان هناك رقيب آخر يدخن دون أن ينبس بكلمة . كان يكتفي بهز رأسه بين حين وآخر موافقا على حديث رقيب السرية .

خرجت المجموعة من الوادي قبل الغروب وأسرعت البغال بالصعود في الطريق المتعرج الضيق ، طريق البغال الذي لا تسير فيه السيارات .

غذ العريف محمد السير أمام أفراد الدورية ، لا يحمل شيئا معه .

مرت أمامهم أفاعي كبيرة مسرعة اجتازت الطريق لا تلوي على شيء ، وجفل منها العريف محمد وأطلق الجندي عليها النار من بندقيته . كانت مرقطة تميل الى السواد ، ويبدو أن الجندي لمح وجه العريف المضطرب من منظر الأفعى ، فنزل وأركبه على البغل ، قائلا :

ـ أنتم أولاد المدن تخافون من ركوب البغال ، لا تخف يا حضرة العريف ، نحن خلقنا في هذه الأرض وسنموت فيها ، أفاع كثيرة في هذه الأرض ، والخنازير أكثر ولكن الذئاب هي الأخطر ، لأنها تهاجم الانسان .

فرد عليه العريف :

ـ لست ابن مدينة ونحن فلاحون وانني أجيد ركوب كل أنواع الخيول والبغال وحتى الحمير .

ـ اذن أنت فلاح مثلنا .

قال الجندي الراكب على البغل خلفهم :

ـ «الخنازير تدخل بعض حقول الألغام المزروعة على طول الجبهة ، وأسوأ شيء حقول الألغام غير المعروفة . منذ أسبوع هرب قطيع من البقر من منطقتنا ودخل في حقول الألغام فقتل نصفه .

وعلق الجندي الآخر قائلا :

ـ «البغل يعرف الطريق لكثرة ذهابه وايابه فعليه كل يوم أن يذهب صباحا ويعود في المساء ، وهو وحدة التموين التي تنقل الطعام الى المخافر الأمامية . اننا نستخدمه منذ سنوات وقد أصبح يعرف الطريق ، وعندما يسمع اطلاق النار أو صوت مدفعية أو متفجرات يجثو على الأرض ، وأصبحت لديه عادة . وضحك الجميع .

اقتربوا من قيادة الفوج . قال أحد الجنود :

ـ «إذا رغبت في العودة معنا فنحن سنعود غدا حوالي الساعة العاشرة صباحا الى السرية» .

وصل العريف محمد الى قيادة الفوج ، وذهب مباشرة الى المساعد المسؤول عن الامداد ، كان رجلا بسيطا وعلى الرغم من كونه مساعد أول فهو يعرف الفرنسية جيدا . استقبله بكثير من الاحترام ورحب به . كان يلبس بنطال الشورت فقال له :

ـ «حتى الان لم يعطوك لباسا ؟ أنت جديد طبعا ؟ غدا صباحا تستلم كل أمتعتك .

وطلب من جندي عنده أن يقدم له الشاي .

كان المساعد يتخذ من براكة توتياء مركزه ، جوانبها محفورة بالأرض .

شرب الشاي وطلب من الجندي قائلا :

ـ خذ الأخ الى مهجع فصيل الطوارىء سينام هناك حتى الغد .

كان يوما شاقا بالنسبة للعريف محمد . قدم من دمشق الى القنيطرة ، ثم ذهب الى الجمرك ، والى السرية الثانية في جرابا ثم عاد .

قال للمساعد :

ـ لو تسلمت مهماتي قبل الذهاب الى السرية لكان أفضل

وضحك الأخير قائلا :

ـ بسيطة ، المهم أن تكون رجلا (قبضاي في السرية) هناك مهمات يومية لديكم .

كان العريف محمد متعبا . ذهب الى مهجع الجنود ، هناك مصباح هوائي في المهجع ، وقد رقد بعض الجنود على أسرّتهم ، وآخرون كانوا خارج المهاجع ينجزون مهماتهم . نام على سرير أحدهم . واستيقظ على صوت عريف المهجع الذي نادى الى الاجتماع . عندما دق البوق كانوا قد توقفوا عن اللعب ، لم يخلعوا ستراتهم العسكرية بعد . كانت الأسرة مزدوجة محشورة في براكة صغيرة مخصصة لثمانية أشخاص لكن كان يوجد فيها ستة عشر سريرا مزدوجا . فيها أقل من ثمانية والباقون يأتون ويذهبون بمهمات عسكرية .

قال أحدهم : هل تلعب الورق يا عريف ؟

فأجابه : لا أعرف ، صدقني .

ودون أن ينظر اليه قال : نعم صدقتك .

في الصباح استلم العريف محمد مهماته من مستودع الفوج ، وضعها في كيس بحار أعد خصيصا لذلك . وغادر الفوج متوجها الى الحانوت الذي يبيع الخفافات الرياضية . ولم ينس أن ينقل سلام رقيب السرية الى صاحب الحانوت ، وطلب منه الاغراض التي أوصى عليها . ولكن صاحب الحانوت قال بهدوء :

ـ تأخذها اذا دفعت ثمنها . فأخذها العريف بعد أن دفع ثمنها حوالي عشرين ليرة سورية .

وقد حاول العريف محمد الحصول على حذاء يشبه حذاء الجنود بدون مسامير ولكنه لم يجد ما أراد . أسرع ليعود مع البغال الى السرية حتى لا يعود وحده ، فالمسافة طويلة ولا يوجد الا سيارة وحيدة تأتي بعد الظهر .

كان الكيس مملوءا بالأمتعة فيه معطف ثقيل مع مشمع مطري من صنع كندي ، والحذاء فرنسي وهو أسوأ من كل شيء لأنه يحدث جلبة أثناء المسير ، وكان في الكيس أيضا قصعة صغيرة ومعول صغير ومقص للأسلاك الشائكة ، ومطرة مياه ، ونطاق جلد ، وملعقة وسكين صغيرة . كانت هناك أيضا لفافة طويلة من أجل لفها فوف الحذاء اذا كان هناك برد ، وكيتر ، ويبدو أنه استخدم لعدة سنوات ، فقد قطعت احدى بزماته ورغم توصية المساعد لخازن المستودع

الا أن هذا الأخير قلب شفتيه **عندما اعترض العريف وقال** له :

ـ هذا هو الموجود .

حمل الكيس على ظهر البغل ، ولم يركبه لأنه يحمل موادا تموينية للسرية ليوم كامل . وقد لبس بدلة عمل طويلة ولف فوق الحذاء اللفافة خوفا من الأفاعي على الطريق .

عادوا باتجاه السرية على نفس الطريق ، طريق وادي السمك ، وكان النزول بالنسبة للبغال أصعب من الصعود وهي محملة بمواد التموين .

قال الجندي جدعان :

ـ سابقا كان بغلي يحمل مدفع الهاون وعددا من القذائف أما الان فهو معد للتموين فقط .

وعلى مدى ساعتين ونصف جرى حديث طويل عن بطولات الجندي **حمدان** في معارك عام ١٩٤٨ معركة كعوش ، معركة نجمة الصبح ، معركة تل **المالكي** وقال جدعان : لا يموت الانسان الا في يومه .

كان الجندي جدعان متزوجا من فريبته التي أنجبت له أربعة أولاد وبعد **زواجه** منها بخمس سنوات تزوج مرة ثانية وعنده الان من الزوجة الأولى سبعة **ومن** الثانية اربعة أولاد آخرين .

التفت الجندي حمدان وقال :

ـ ما رأيك بالفتاة طويقة من قرية البطيحة اذا كنت ترغب في الزواج المرة **الثالثة** ؟

وضحك جدعان قائلا :

ـ اسكت يا رجل بدون زواج ماشي الحال هذه المرة ، لا يوجد من يحاسب ، والليل ستار العيوب ، وضحكوا جميعا .

قال جدعان :

ـ العريف يزور الجبهة أول مرة هل هذا صحيح يا حضرة العريف ؟

ورد العريف محمد قائلا : هذا صحيح أول مرة آتي الى هنا .

وتابع جدعان مازحا : قرية البطيحة يملكها اقطاعي واحد ، وهذه الجرود

والهضاب والقرى والمواشي له .

عندما سمع العريف محمد بكلمة اقطاعي . جفل من الكلمة . وأجاب مقاطعا :

ـ في كل مكان بك واقطاعي ؟

وعلق جدعان : يالله يا حضرة العريف ، بك ولا كل البكاوات ، ارهاب ما بعده ارهاب .

وصمت العريف محمد وشرد في أفكاره وهو لا يسمع الا القليل من حديث جدعان مثل :

بك ، سكر ، نساء ، نساء ، فرنسيات ، مستشارون ، انكليز ، انكليزيات . فقال في سره :

ـ مرة أخرى في أرض البك اذن . وعاد بذاكرته الى قريته .

وتابع جدعان : سعادة البك يملك الجولان تقريبا .

ورد محمد بكلمة :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، حتى في الجبهة سعادته موجود . ولكن أين الحزب ؟

ورد حمدان :

ـ «نعم يوجد حزب يدعى حزب البعث العربي الاشتراكي» ولكنه هنا ضعيف ، مكانه في حوران وامتداده ضعيف رغم وجود الضباط الحزبيين .

ولكن الجندي جدعان قال بدهشة : انني لا أسمع في السرية بكلمة حزب لا عربي ولا غيره .

وتعثر البغل وكاد يقع ، وصاح حمدان : انتبه يا رجل على البغل والا فان الرقيب أول يشوينا بالحفرة . والسجن بالسرية حفرة صغيرة يجلس فيها المعاقب .

وسأل جدعان :

ـ «يا حضرة العريف هل يوجد اقطاعي في مناطق حماه» ؟ .

ورد محمد بشكل مختصر :

ـ نعم يوجد في كل الوطن العربي باشا وبك من المحيط الى الخليج !

إما بك واما باشا واما جاسوس . قالها بصوت له نبرة .

فقال جدعان :

- هذا الحديث أزعجك يا حضرة العريف .

فقال محمد :

- ابدا انا ؟ هذا الحديث لا يزعجني اطلاقا لأنها الحقيقة ، وهل نهرب من الحقيقة ؟ والا كيف أخذت الصهيونية فلسطين الأرض المقدسة ، لولا وجود بك وباشا وجاسوس ؟ ولولا انهم تعاونوا مع الفرنسيين والانكليز وسهلوا لهم مهماتهم لما حصل ذلك . هل سمعتم باتفاقية سايكس بيكو ؟

ورد جدعان :

- «نحن أميون لا نقرأ ولا نكتب ولكننا نعرف وعد بلفور الذي أعطى فلسطين لليهود ، وهذا ما كان يردده دائما معلم القرية على أسماعنا» .

قال محمد :

- اذن أنتم تعرفون كيف سلبت فلسطين ؟

فقال جدعان :

- «طبعا قاتلنا اليهود في حرب ١٩٤٨ في هذه المناطق ، انظر هناك حصلت معركة نجمة الصبح ، على بعد أقل من عشرة كيلومترات من هنا ، وهناك المنارة ، وهناك تل أسود ، أنا بالأصل من قرية تل اسود وقد جرى فيها قتال شديد ، ونزحنا الى البطيحة ، وكل القرى المحتلة الان كنا فيها ، وأغلب أفراد الحرس الوطني من القرى المحتلة ، وهناك عشائر عربية تسكن في تلك القرى ، وقد نزح القسم الأكبر والاخرون نقلوهم الى الداخل واغروهم للعمل مع اليهود .

كان حمدان يتحدث بلهجة حزينة ، حتى كادت العبرة تخنقه عندما قال : لقد قتل أبي في تل أسود وهو رجل طاعن في السن ، بينما جرف النهر أثناء النزوح والدتي العجوز . حتى الان ليس لها قبر ، أكلها السمك في بحيرة طبريا . لقد عبرت زوجتي وأولادي الصغار الى شرقي النهر . مصائب حلت بنا من هؤلاء الذئاب ، اليهود غدارون ذئاب ، مرابون ، لا دين

لهم إلا المال ، لعنة الله عليهم» قالها حمدان ومج نفساً عميقاً من سيكارته .

وتابع : لقد هربنا جميعنا من قرية البطيحة ، قرب تل أسود ، كل يوم انظر الى قريتي وأقول : لا بد أن يأتي يوم نعود فيه عاجلا أم آجلا . واذا لم نعد نحن فأولادنا سيعودون . كان حمدان يدخن سيكارة من نوع رديء ، يسمونه النوع الخامس . أخرجها من جيبه وأخرج صوانة وزنادا وفتيلا وأشعلها على الطريقة القديمة . كان محمد يرى مثل ذلك بين الفلاحين في كل المناطق السورية التي زارها من دير الزور الى حماه وحلب والان هو بين جنود الحرس الوطني الذين يعملون بنقل التموين الى وحدة أمامية بالجبهة .

ورد جدعان قائلا :

ـ «لا تفتّق جروحي على مأساتي يا رجل أنت تعرفها» .

يا حضرة العريف نحن في مأساة كاملة وان كنت ترانا نضحك ونمزح وأحيانا نعزف على المزمار فذلك لأننا نريد أن نفرحك لا أكثر . ويعرف حمدان أن مياه النهر كانت عالية عندما بدأت المأساة ، الانكليز الملاعين كانوا يحتلون قريتنا «البطيحة» وهي الان قسمان غربي النهر وشرقي النهر على بحيرة طبريا . وعندما نشبت الحرب هجم الانكليز مع اليهود على الفلاحين العزل . لقد هربوا . كانوا يعبرون النهر مع أولادهم وزوجاتهم في فوضى . قتل أخي الكبير دون أن يعرف ما يدور حوله كان واقفا في داره يراقب مواشيه عندما دخلوا الدار وأطلقوا النار عليه ، وقتل ابنه الكبير بجانبه ، وهربت زوجته مع طفل آخر . وابنتها الكبيرة أغارت عليها الكلاب ومزقتها ، والان زوجته شبه مجنونة في القرية شاهدت ابنتها كيف تمزقها الكلاب ، وكيف قتل ابنها بجانبها وزوجها وهم عزل من السلاح . لقد عبرنا النهر سباحة . النهر صغير لكنه سريع الجريان فقد جرف التيار ابن أختي من حضنها وأخذه بينما كانت النار تطلق علينا . لقد قتل كثيرون وغرق الكثيرون في ذلك النهر أثناء العبور . ماذا نعمل ؟ الآن ننتظر ، لا أعرف شيئا عن والدتي ووالدي سمعت أنهم نقلوهما الى غرب طبريا ليشغلوهما هناك بالعمل الاجباري فاليهودي لا يؤمن بأي دين ، لا تصدق يا حضرة العريف ان اليهود عندهم وجدان الا المال . المال دينهم يعبدونه ، يذبحون ويقتلون في

سبيل المال ويقولون هذه هي أوامر التوراة هكذا قال الههم ، اقتلوا ، شردوا ، اذبحوا ، لتحصلوا على الأرض والمال . ولكنها ستفرج ، لانزال أحياء نحمل البنادق ونقاوم وندافع عن الوطن .

ـ غيّر الحديث يا حمدان ، لا تذكرنا بمصائبنا ، هات اعزف على المجوز ، لقد اقتربنا . وأخذ حمدان يعزف على المجوز ، لحنا رتيبا ، رددته الأودية . . .

كانت الطريق وعرة وجدعان يمسك بلجام البغل ويعبر به بعض الصخور . هنا شجيرات غير عالية على جانبي الطريق في وادي السمك وجدول الماء يمر أسفل الوادي . اتجهوا الى موقع السرية شرقي قرية جرابا . شاهدوا خنازير برية تعبر الحرش باتجاه بحيرة طبريا فعلق جدعان :

ـ لا تطلقوا النار لقد اقتربنا من السرية وأي اطلاق نار تستنفر له السرية وتخلق لنا مشكلة مع قائدها اذا عرف أن أحدا منا أطلق النار .

وصلوا الى السرية في الواحدة ظهرا ، كانت درجة الحرارة قرابة الخامسة والثلاثين والعرق يتصبب من جباه الجنود ، وكذلك البغال كانت كأنها اجتازت نهرا . سلم الجندي جدعان البريد الى رقيب السرية . ونظر الرقيب الى العريف محمد بعد أن قدم له علبة الحلاوة والخفافة كما أوصاه ، وأخذ كيس المهمات والتحق بفصيلته ، لقد شكره على ذلك قائلا :

ـ المساعد حسين رجل طيب يعرف العسكرية جيدا . ويجب أن تتعاون معه ، ثم تابع بلهجة قاطعة : اياك وقلة الانضباط وحاول العريف محمد أن يفهم من نظراته شيئا الا أنه لم يتوصل الى شيء . ولكنه حيا وأخذ كيس المهمات باتجاه الفصيلة الثانية التي تبعد عن مركز قيادة السرية حوالي ثلاثمائة متر . تفصلها عن قيادة السرية مجموعة من القطع الأرضية المقطعة بالصخور وأحجار البازلت وكأنها جدران بارتفاع متر أو أقل حسب نشاط الفلاح الذي شغّله الاقطاعي في اصلاح هذه الأرض .

التحق بالفصيل الثاني ، ورحب المساعد حسين به كثيرا . ثم وصل أربعة مجندين في المساء فأعادوهم ليأتوا بمهماتهم من قيادة الفوج .

عند المساء عقد اجتماع لقيادة الفصيل . وكانت الحضيرة الأولى ناقصة

ثلاثة أفراد ، أما الحضيرة الثانية فكان عدد أفرادها سبعة وهي تنقص أيضا ثلاثة أفراد ، والحضيرة الثالثة كانت ستة أفراد .

جرى الاجتماع قبل الغروب ، لتفقدها وتدريبها على النظام المنضم ، من قبل قائد الفصيل ، في الحقل المربع أو الارض المفلوحة سابقا أمام مجموعة من الخيم الفردية .

كان المساعد حسين يتفقد الافراد في الحضائر بينما أخذ العريف محمد يسأل أفراد حضيرته عن أسمائهم ويسجلها في ورقة صغيرة وضعها في جيب بدلة العمل . كانت التعليمات واضحة ، يمنع حمل الهوية ، يمنع حمل أي ورقة تدل على وحدتك العسكرية ، حتى اذا ما وقعت في الأسر لا يعرف العدو عنك شيئا . ردد المساعد حسين هذه المعلومات التقليدية ، ثم فتش على الأحذية والنظافة ، حتى القمصان الداخلية . كان يفك الزر الأعلى ليرى القميص الداخلي أهو نظيف أم لا ؟ وهو يقول :

ـ اسمعوا جيدا لا أريد أن أجد أحدا منكم مقملا القمل كثير والصابون الذي يصل الى الفصيل قليل جدا ، عليكم الاغتسال كلما توفر لكم الوقت على الجدول ، وأنتم تعرفون العين جيدا .

والتفت الى الرقيب محمود قائد الحضيرة الأولى قائلا :

ـ لا أريد أن أنبهكم كثيرا ، لأن كثرة الكلام تفقد معنى الأمر ، هل سمعتم ؟ ومشى الجميع بالنظام المنضم مثيرين الغبار عاليا فوق الحقل ، وصوت الأحذية يطرق الحصى كأنها وقع حوافر خيول تسير على أرض مرصوفة .

كان المساعد حسين مشدودا للتدريب العسكري وقد حزم وسطه بمسدس حربي صغير وهو سلاحه فقط ، بينما كان قائد الحضيرة يحمل مسدس رشاش من نوع بريتا ايطالي .

قبل الغروب دق بوق السرية ايذانا باجتماع السرية ، وكان قائد السرية قد وصل لتوه ، من أين لا أحد يدري .

فجأة ظهرت فرس بيضاء مشدودة ، يمسك بلجامها جندي ، والعرق يتصبب من خاصرتيها .كان الملازم قائد السرية يقف في زاوية الحقل أمام

خيمة كبيرة وأمامه المرشح أحمد قائد الفصيلة الأولى ، والمرشح جهاد قائد الفصيلة الثالثة ، وكان المساعد حسين مع فصيلته لأن المرشحين من فئة الضباط بينما المساعدون من فئة صف الضباط وان كان المساعد قائدا لفصيلة .

اجتمعت السرية . وقرأ رقيب السرية الأوامر الواردة بصوت عال ، والاجازات ، وكذلك العقوبات ، ثم أعطى المرشح أحمد قائد الفصيل الأول الايعاز ، وقدّم السرية للملازم ياسر . كل هذه الحركات والظواهر والأوامر كانت موضع اهتمام العريف محمد ، كان يقول لنفسه : معقول هذا ونحن على بعد كيلومتر واحد من العدو ؟ هل من الطبيعي أن يجري هذا الاجتماع وهذا التدريب في أرض غير صالحة حتى للاجتماع ؟ ولكنه عريف لا يمكنه عمل شيء . صرفت السرية بعد أن اجتمع قادة الفصائل عند قائد السرية . كان قائد السرية ملازما شابا وسيما وأنيقا ، وان دلت بدلة الفروسية التي يرتديها على انها غير صالحة للركوب .

ما تزال الفرس واقفة ، لا يوجد أمامها ما تأكله أو تشربه ، ولا يزال الجندي يمسك بزمامها ، كانت تلوح بذنبها لتطرد الذباب الذي يتجمع عليها ، وهي مرهقة . ولكن من يدري ؟ ان كانت تلوح بذيلها من أجل ايجاد نسمة من الهواء ، فالحرارة عند الغروب كانت لا تطاق .

كان العريف محمد يشاهد رقيب السرية كأنه الوكيل جاسم . تذكر القرية والمخاتير وسعادته ، والفلاحين واستعرض بلحظة حياة القرية التي عاش فيها .

عاد الفصيل الى مكان تمركزه . وعند الغروب جمع الفصيل ، واعطى التعليمات التقليدية . دورية تذهب من الحضيرة الثانية . الحضيرة الثالثة في استراحة ، ومن كل حضيرة يتخلف جندي لحراسة خيام وتجهيزات الحضيرة اضافة الى حراسة الفصيلة التي تكون في استراحة . ويتبدل الدور يوميا . ينسحب الكمين قبل الشروق حتى لا يشاهده العدو . هذه هي التعليمات .

اذن حضيرة العريف محمد هي دورية اليوم ، وعلى قائد الحضيرة أن يقودها .

سأل العريف محمد اذا اصطدم بالعدو كيف تخبّر الدورية ؟ الدورية

لا تحمل أي جهاز لاسلكي ، يوجد جهاز واحد بالفصيلة مع قائد الفصيلة .

سؤال وجهه العريف محمد للمساعد حسين قائد الفصيلة . ولكن قائد الفصيلة هذا لم يسأل مثل هذا السؤال سابقا ولم يخطر بباله ذات يوم مثل هذا السؤال ، لكنه أجاب مرتبكا :

ـ «أنت عريف صغير لا تعرف أكثر من القيادة . القيادة تعرف عملها» .

كان النقاش أمام المجندين بالحضيرة الثانية وكان ثمة بين الحضور مجند من القامشلي اسمه كرو ، لا يتكلم العربية اطلاقا ولذلك فهو يلوذ بالصمت دائما ، ولكنه يفهم بضعة كلمات وبالاشارة يفهم الباقي . أما العريف زيد فهو ينفذ دون أن يسأل . ورد مباشرة على السؤال دون اذن من المساعد :

ـ عندما نشاهد العدو نعود بسرعة ونخبر المساعد هذا أفضل حل واذا اشتبكنا معه يسمعون اطلاق النار .

وقال المساعد حسين :

ـ نفذا المهمة وبعدين (هي بتسأل قائد السرية) .

وبذل العريف محمد جهده لتطبيق ما تعلمه أثناء قيام الدورية بمهمتها . وكانت هناك مخالفات كثيرة من الجنود ، وخاصة في التمويه .

وعند العودة لسع عقرب أحد الجنود ، وظن أنها أفعى . كانت اللسعة في راحة يده أثناء تسلقه أحد التخوم البازلتية .

كان على العريف محمد أن يسعفه ولكن كيف ؟ قال : يمكن أن نمر على قرية جرابا ، ففي القرى يسقون الملسوع بعقرب أو أفعى زيت زيتون وحليبا بكميات كبيرة ويتقيأ بعدها . ولذلك لا بد من المرور على قرية جرابا . وهكذا واجهت العريف محمد آمر الحضيرة مشكلة تغيير الطريق وتردد العريف زيد ، فقال العريف محمد :

ـ هل يوجد في السرية أدوية ضد التسمم ، وطبيب ؟

فقال العريف زيد :

ـ كلا لا يوجد طبيب ولكن هناك عريفا ممرضا .

وأردف جندي آخر :

ـ لا يوجد عنده الا الاسبرين والسلفا وقليل من اليود للجروح فقط . ان العريف الممرض يدهن المكان بالدواء الأحمر والسلفا ثم يعطي المريض عدة أقراص اسبرين .

وراح الآخر يشكو العريف الممرض .

ـ العريف اسمه حسن أنا أعرفه جيدا هو من ريف حماه تطوع بالجيش واتبع دورة ممرض ، قطعا لم يقرأ فيها شيئا لأنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة .

وقال الجندي نويصر :

ـ كل يوم يزور القرى ويعالج المرضى هناك . انه رجل طيب على كل حال . وليس عليه ذنب .

ورد العريف زيد :

ـ كيف لا ذنب عليه وهو يوزع الأدوية على الفلاحين عن جهل ؟

فقال نويصر :

ـ وما هي الأدوية ، ليس عنده الا حبوب السلفات . وهي لا تضر وقد لا تنفع .

ولكن العريف زيد قال بغضب :

ـ لو عوقب مرة واحدة لما زار قرية ، نعم لما زار قرية .

وقطع الكلام رئيس الدورية قائلا :

ـ لا بد من أخذه الى أقرب بيت في هذه القرية ولا بد من علاجه .

ولكن العريف زيد حذره بأن هذا مخالف لأوامر قائد الفصيلة : ماذا يدرينا اذا كان في القرية جواسيس ويعرفون شيئا عن الدورية ، لماذا نتحمل المسؤولية . المسافة ثلاثة كيلومترات فقط عن مركز الفصيل وقرية جرابا بالطريق .

وخطرت لأمر الحضيرة فكرة ، عندما كان صغيرا كان يقرأ القرآن عند الشيخ خضر . كان يشاهد الشيخ يعالج الناس الذين لدغتهم الافاعي بسقيهم زيت زيتون ، ثم حليب بكمية كبيرة بعدها . كان يقرأ على رؤوسهم ويقرع الدف . ولكن ما علاقة الزيت والحليب بقرع الدف ؟ ومرة أتى بدوي كان

يرعى الاغنام وقد عضته أفعى ، فسقاه الشيخ خضر زيت زيتون ثم حليبا . وقد أمسكه رجلان وصارا يهزانه بعد أن شرب الحليب ثم تقيأ . وقد تعافى الرجل . ولكن الحال مختلف هنا . هنا لا يوجد الشيخ خضر ولا غيره . والعريف زيد يصر على الوصول الى مركز السرية وستعود الدورية قبل وقتها بساعة . ولكن قد يموت المجند الذي يتألم ولا يجرؤ أن يرفع صوته وكلما أراد أن يصرخ يضع العريف زيد يده على فمه ويقول :

ـ اصبر يا رجل والا ينكشف طريق الدورية .

كان الوقت يقارب الساعة الواحدة ليلا ودرجة الحرارة عالية جدا والعرق يتصبب من جباه الجنود والرطوبة عالية من أبخرة بحيرة طبريا .

شعر العريف محمد أن حالة المجند سيئة فقرر المرور بالقرية ، وحسم النقاش قائلا :

ـ على مسؤوليتي وأنت بأمرتي . فانصاعوا للأمر .

وقال الجندي نويصر :

ـ أنا أعرف عائلة من القرية عندها الماعز والبقر ويوجد لديها حليب .

وقال العريف محمد :

ـ هذا جيد أسرعوا باتجاه القرية !

ويمموا وجهتهم نحو الوادي باتجاه مركز السرية وساروا بمحاذاة خط الأفق بين الأحجار البازلتية وبعض الشجيرات غير المثمرة .

وقال العريف زيد معلقاً على كلام الجندي نويصر ساخرا :

ـ طبعا الى عند أم خلف ؟!! الان رجلاك تسابقان الريح .

ورد نويصر :

ـ لماذا يا حضرة العريف تتهمني هكذا ؟ هل هذا حسد ؟ نعم أنا أعشق ابنتها وقد أتزوجها وهل هناك مانع من الزواج يا حضرة العريف ؟

ورد العريف محمد :

ـ طبعا لا ! الزواج أفضل من التسلية .

كان المجند الملسوع يتألم ويمسك بيده العريف زيد وكلما أراد أن يصرخ من

الألم يضع يده على فمه ويقول :

ـ اصبر يا رجل . لقد اقتربنا من القرية ولم يبق الا قليل .

وقال العريف محمد :

ـ لنسرع بالعودة .

فقال العريف زيد هامسا :

ـ يجب أن لا نسرع ، حتى لا ينكشف أمرنا فالعدو يراقب المنطقة بمناظير ليلية .

ورد العريف محمد قائلا :

ـ الاحجار البازلتية وتلك الشجيرات الحرشية تخبىء الجمال . فكيف ونحن ستة أفراد يا زيد ؟

اسرعوا من أجل انقاذ الرجل . أسرعوا .

لا أحد يعرف تعابير الوجوه ولا حركات الأيدي ، ولكن الجميع كانوا في حالة خوف ، خوفهم من العقارب والأفاعي ثم من العدو . كانت السماء صافية لا أثر للغيوم فيها والنجوم متلألئة . هناك نجم القطب يوضح الشمال . وهناك الثريا لا أحد يستطيع عد نجومها . وكم مرة عدّ العريف محمد النجوم وهو على سطح المنزل في القرية عندما كان صغيرا . ما أجمل السماء لولا الحرارة الخانقة .

قال في نفسه

لقد اجتازوا سلاسل وعرة من البازلت ودخلوا رقعة خالية من الحجارة . وكان الجندي نويصر يسير أمام الدورية كدليل باتجاه قرية جرابا . وعندما صاروا في وسط الأرض العارية . خرجت رشة طويلة من رشاش ثقيل . وعبر بعض الطلقات من فوق خط الأفق الذي يسيرون عليه .

صاح العريف زيد الذي أخذ الأرض منبطحا : لقد كشفونا . لقد كشف العدو موقعنا ازحفوا .

ولكن العريف محمد أسرع واجتاز الأرض باتجاه الصخور وأعطى أوامره باللحاق به ، ولا داعي للانبطاح أو الوقوف اطلاقاً .

أراد رامي الرشيش أن يلقم رشيشه ولكن العريف محمد قال له :

ـ لا داعي لهذا اننا لا نشاهد أحدا .

لقد أتت الطلقات الخطاطة من الرشاش متباعدة احداها عن الأخرى فوق قرية جرابا والثانية على يسارها . والثالثة من فوق الدورية . اذن الرمي لم يكن باتجاه محدد . ثم سمع من بعيد صوت انفجار ، لا أحد يعرف ماذا حدث انه انفجار واحد . واتجه كشاف يمسح المنطقة بنوره القوي . أما الرشاش الذي أطلق النار فكان في السفح المقابل لتل أحمر ، على يسار قرية جرابا .

قال العريف زيد :

ـ لقد تورطنا بالمسير على هذا الطريق وكان علينا أن نذهب الى السرية ونرفع المسؤولية عنا . والان أنا أرى أن نهبط باتجاه الوادي بعيدا عن هذا السفح اللعين . هناك الممرض يعالج الجندي ، هذا قدره يا جماعة . ويمكن أن يلسع أحدنا بلسعة أخرى فالأرض ملأى بالعقارب والأفاعي وخاصة في هذا الحر .

ورد العريف محمد :

ـ المسافة لا تتجاوز مئات الأمتار ونحن الان قرب جدار القرية يا رجل ولا بد من معالجة الملسوع بالزيت والحليب .

كان العريف محمد يريد أن يثبت للحضيرة من أول يوم انه اذا اتخذ قرارا لا يغيره مهما حاول الاخرون .

فقال للعريف زيد :

ـ لن أغيّر قراري هيا الى القرية . كان الحديث يدور همسا طوال الوقت . فأسرعوا باتجاه القرية وهم قلقون .

وصلوا القرية . كانت بيت «أبو خلف» في أول القرية من الجنوب الشرقي ، وهي دار كبيرة مسيجة بجدار من حجارة البازلت . حتى المواشي لا يمكنها الهرب منه . ولها باب من التوتياء . لم يقرع الجندي نويصر الباب انما دخله كأنه من أفراد العائلة . ولكن الكلب داخل الدار نبح بعنف فأيقظ صاحب الدار بل وأيقظ الجيران واستيقظت العائلة مذعورة كذلك الأطفال . وأصاب الذعر المواشي أيضا ، فهي لم تعتد على مشاهدة مثل هذه الكثرة من الناس في هذا الوقت المتأخر . دخلوا الدار دفعة واحدة . ولكن الجندي نويصر

صاح : صديق . أنا الجندي نويصر .

وعرف أهل البيت صوته ، فبدا الاطمئنان المشوب بالقلق على وجوههم بعد أن علا ضوء مصباح هوائي كان خافتا جدا معلقا بزاوية البيت ، رفع صاحب البيت الفتيل قليلا وقد زال رعبه .

وقال الجندي نويصر :

ـ صباح الخير يا (أبو خلف) معنا جندي ملسوع ، ورفع صوته ، حتى يسمع الجميع ويطمئنوا أن ليس هناك ما يمسهم من الجنود .

نهض أبو خلف مسرعا الى زاوية في الدار وأسرعت أم خلف وابنتها غزالة الى ارتداء ثيابهما .

كان أبو خلف في الأربعين من عمره . وعلى ضوء المصباح الباهت والمتراقص في زاوية البيت المسقوف بجذوع الشجر عرف العريف محمد انهم كانوا ينامون جميعا كيفما اتفق على المصطبة الصغيرة . لم يفاجأ العريف محمد بهذا المنظر لأن أغلب أهالي القرى ينامون هكذا . وأغلب البيوت مثل هذا البيت ولكن النيام كثر . أم خلف كانت في طرف وأبو خلف في طرف وبينهم عشرة أولاد أكبرهم غزالة . وغزالة هذه بعد أن سمعت صوت نويصر لبست جلبابها بسرعة ووقفت في ركن الغرفة خجلة تنتظر أوامر أبيها . وظهرت أم خلف المرأة القوية البنية حاملا وبطنها الضخمة تتقدمها ومع ذلك نهضت وهي تقول :

ـ جندي ملسوع ـ قالتها بلهجة بدوية بلهجة أهل المنطقة ـ وماذا نعمل له يا (أبو خلف) ؟ ماذا نعمل يا جماعة ؟ ليس عندنا أدوية .

وعندما أدارت وجهها باتجاه العريف محمد ، بدا وجهها سمينا ، وقد وشمته حتى بدا مثل الحجارة الزرقاء في الأرض الحمراء التي رتبها صاحبها بعناية . كانت موشومة كالحواديد بين قطع الأرض وعلى ضوء القنديل المتراقص لم تظهر كل ملامح وجهها . ولكن بدا على المرأة تعب لا حدود له ، ورحب أبو خلف بالضيوف الطارئين . ونهضت البنات الثلاثة بسرعة بينما التصق الأطفال الاخرون بعضهم ببعض . عندئذ ظهرت الجدة العجوز وتقدمت نحو الملسوع تسأل عن مكان اللسعة . قالت :

ـ ليكن الله في عونك .

وأردفت :

ـ عقارب وأفاعي ويهود ، وذئاب ، الذئب اليوم ضرب لنا عنزة في وادي السمك ولولا لطف الله لهجم على «أبو خلف» .

وقطع نويصر الكلام الذي بدا له بلا معنى وأمر قائلا :

ـ نحن بحاجة الى كأس زيت حلو الان والى حليب ، يالله يا جماعة باشروا بالحلب الرجل يكاد يغمى عليه ، ونظر بوجه الجندي الكردي الذي فهم على الفور وأخذ الطاسة الكبيرة المتواجدة دائماً بقرب الماء الفاتر وخرج مسرعا .

وقال أبو خلف موجها حديثه الى والدته التي بدت قوية رغم هزالها :

ـ أعندنا زيت ؟

ـ قالت العجوز :

ـ هناك قليل منه في تلك القنينة في الطاقة خلف الباب . خذ المصباح يا «أبو خلف» .

وأسرع العريف محمد من فوق الأولاد بالمصباح يساعد (أبو خلف) الذي أتى بزجاجة فيها زيت وقال :

ـ البارحة أتيت بها من الدكان عند الجمرك .

أخذ الزجاجة العريف محمد وبدأ يسقي الجندي .

فقال الجندي الملسوع وهو يتأوه من الألم :

ـ كم أشرب ؟

فقال له العريف محمد :

ـ اشرب حوالي مئة غرام حتى لا تموت . لا تخف ليست أفعى انها عقرب لا تخف .

وشرب الرجل مقدار مئة غرام تقريبا من الزيت . وكان الجندي الكردي قد دخل وبيده طاسة حليب .

قال محمد :

ـ نحن بحاجة لعشرة لترات حليب .

فانطلق جندي آخر يحلب بخوذته . وخرجت غزالة وأختها الثانية مع نويصر لحلب الماعز .

وقال العريف محمد :

ـ يالله يا نويصر أسرعوا يا صبايا بالحلب .

وشرب الرجل طاسة الحليب دفعة واحدة .

وسألت العجوز :

ـ وما يفيد الزيت والحليب ؟

فشرح لها العريف محمد انها وصفة بدوية :

ـ وصلت أول خوذة ملأى بالحليب ، وبدأ الرجل يشرب الحليب ثم يتقيأ عند باب البيت داخل الدار مما يشير الى أن الأمور أخذت تسير على ما يرام .

كان نويصر يحلب المعزاة وبجانبه غزالة ، يحلب بيد ويده الأخرى تمتد الى ساقي غزالة ـ وكانت العجوز تساعد العريف محمد و(أبو خلف) في معالجة المريض .

قالت العجوز :

ـ لعنة الله على الشيطان ، الافاعي كثيرة بين هذه الأحجار . يجب أن تدخنوا عليها قبل أن تناموا لأنها تهرب من الدخان . نحن ندخن كل يوم في البيت فاذا وجدت أفعى تهرب أو تنزل الى الأرض فنقتلها . وندخن في الأرض حتى تهرب الأفاعي والعقارب فلا تلسع الماعز . أعوذ بالله من أفاعي هذه المنطقة جالبة الموت . يا رجل لسعتك بسيطة لم تتحكم براحة يدك ، لك عمر طويل . يمكن أن تكون والدتك راضية عنك . اشرب الحليب وتوكل على الله . آه لو كان الشيخ عبد القادر هنا لاستدعيناه ورجوناه أن يقرأ عليه ، قد تفيده القراءة وقد يكتب له حرزا ضد الأفاعي . ولكن ، الله يسامحه سافر منذ سنة ولم يعد ولم يترك مكانه لأحداً ليقيم الاذان والصلاة . في هذه القرية كلنا بدو والصلاة لا يعرفها الا قلة من الناس .

وأردفت العجوز :

ـ قال الشيخ تجوز الصلاة بدون وضوء ، يدقون يدهم بالتراب ويمسحون

وجوههم ويكبرون .

وتابعت تخاطب الملسوع :

ـ هذه أول مرة أشاهد رجلا ملسوعا طيبا ويكاد يشفى بواسطة الزيت والحليب وبدون الشيخ عبد القادر . مرة لسعت أفعى رجلا وأتى الشيخ عبد القادر وقرأ عليه وكتب له حرزا ، ولكنه مات فقال سقطت ورقته رحمة الله عليه . الاعمار بيد الله يا رجل ، كل انسان له يوم وعندما ينتهي يومه يموت ، سواء بلسعة حية ، أو بطلقة رصاص ، أو في النهر . ومن يدري كيف ؟ الله يرحمك يا (أبو خالد) . . كان يوما أسود عندما أتى رجل من قرية البطيحة وحدث خالدا همسا بالليل . كان ذلك أيام الحصاد وكان خالد متزوجا وزوجته حامل . كنا نسكن قرب صفد في قرية غرب تل أسود . كان فيها كمب انكليزي وعساكر انكليز . الانكليز ملاعين كانوا يشغلون الرجال والنساء في السخرة ، نحن واليهود . وكان اليهود سودا وشقرا من أشكال مختلفة . وقد وصل الرجل الى عند (أبو خالد) وقت الغروب . توقفت العجوز ثم تابعت مخاطبة الجندي :

ـ تقيأ يا رجل ، لقد ارتاح ، يبدو أن الحليب مفيد له ، اشرب ، اشرب . أزمة ومرت .

وسأل العريف محمد :

ـ وماذا بعد يا أم خالد ؟

تابعت العجوز قصتها :

ـ وذهب أبو خالد وغاب سنة لا نعلم عنه شيئا قلنا مات أبو خالد . ولكن بعد سنة عاد وكانت يده مقطوعة لقد التحق مع الشيخ القسام . والشيخ القسام حمل السلاح ضد الانكليز . وعندما شاهدته بدون يد أغمي علي . لقد نحت وبكيت . وتجمعت العائلة . ولكنه قال : اسكتوا والا سينكشف أمري أنا مطارد من الانكليز . لقد كنت مع الشيخ القسام . وراح يروي لنا كيف قطعت يده .

كان زوجي رجلا عاميا . لا يعرف القراءة والكتابة . ولكن بعد فترة

تغيرت أفكار (أبو خالد) ولم يعد يعمل ولا يرعى الماعز والأبقار . كانت لديه بارودة يمسحها كل يوم وهو يقول :

«متى يأتي اليوم الذي نعود فيه الى قرانا في الجليل ؟ كانت العجوز تتحدث وهي تنظر بوجه العريف محمد . كانت تتنهد وسقطت دمعة على خدها وهي تكنس الحليب الذي تقيأه العسكري الملسوع عند باب البيت حتى لا تلحسه الكلاب فتتسمم أو تنقره الدجاجات .

قالت : لا إله إلا الله . حسبي الله ونعم الوكيل .

لم تكن تعابير وجهها واضحة لأن ضوء المصباح كان واهنا لقد قمطت رأسها بمنديل أسود ولفته حول رقبتها . كان وجهها كما بدا للعريف محمد نحيفا يشي بالبؤس والألم . ولكثرة الوشم الذي وشمت به وجهها في صباها لم يعد يعرف هل هو أزرق أم أسود . وتابعت العجوز :

ـ آه يا ويلي عليك يا (أبو خالد) بعد أسبوع من وصوله عاد الى القسام واختفى وحتى الان لم نعرف عنه شيئا ، قال أحد الناس انه انفجر فيه لغم . وقال آخر انه فجر لغما . وقال انه غرق في النهر . وقال آخرون مات ودفن في القدس الشريفة . يا ليت ذلك حدث ؟ من يصح له مثل هذا الدفن في القدس الشريفة ؟ وآخرون قالوا انه ما زال حيا ! الله أعلم ! ومنذ ذلك اليوم وقد مضى عشرون عاما ونحن كل يوم ننتظر (أبو خالد) عساه يعود . لم أترك عرافة في هذه المنطقة الا ونجمت عندها . لقد أخذ الشيخ عبد القادر مني أكثر من عشرين خروفا ، كل سنة يكتب لي حزرا كي يعود ويشاهد أبناءه وأحفاده ، أولاد خالد عشرة الان وأولاد ابنه الثاني تسعة والاخرون لا أعرف كم عددهم . فهم البركة حوالي المئة منهم من بقي في البطيحة وخالد بهذه القرية وآخرون ذهبوا الى فيق ، الله يسامحك يا (أبو خالد) .

تنهدت العجوز وقد اختنقت بالدمع ثم صمتت .

لقد ابيض الأفق ولا يزال نويصر مع غزالة في زاوية الدار .

قال أبو خلف لأم خلف :

ـ حضري الشاي يا أم خلف . وأسرعت الابنة الثالثة الى الموقد وأشعلت

النار في زاوية الدار الملاصقة للبيت وبدأت باعداد الشاي ، بينما جلست أم خلف على حجر أمام الباب متعبة تسند ظهرها الى جدار البيت . تراقب من خلال الظلمة ، ابنتها غزالة وابنتها الثانية مع الجنود الذين يحلبون الماعز في الظلمة . الجميع يكللهم السواد . الماعز والبنات والجنود أيضا وأحجار البازلت .

وقد وقف أمام الباب أبو خلف والعريف محمد والعريف زيد وأم خالد التي تساعدهم وهي تروي قصتها ، ولكن أم خلف كانت قلقة على ابنتها غزالة . كانت تحدث نفسها :

ـ «يا ليت نويصر يتزوج غزالة» .

ثم تابعت بصوت عال مخاطبة العريف محمد :

ـ عندي سبع بنات . ثلاث منهن جاهزات للزواج . ماذا نعمل بهن في هذه المنطقة الجرداء الخالية الجنود من أبناء المنطقة وحسب يتزوجونهن . ولكن المهر . . وتنفست وهي تحس بتعب شديد ـ قال لها العريف محمد :

ـ عينيّ خيرا يا أم خلف كل شيء قسمة ونصيب ، من كان يدري أن نأتي اليكم في هذا الليل ونحن على هذه الحال ؟

وفهمت أم خلف مغزى كلامه بسرعة . وردت قائلة : الرب هو المعين .

ونادت بصوت عال :

ـ يا الله يا غزالة ، وردت الفتاة من هناك : يا الله ياما .

وبعد أن أحست العجوز بقوة جديدة راحت تتابع قصتها :

ـ قصتنا قصة مع الانكليز واليهود . لقد خفت على الأولاد من بطش الانكليز فهربت بهم الى هنا . آه يا خالتي كم قتل من الرجال والنساء والأطفال سنة ١٩٤٨ عندما هربوا من السفح الغربي كان الانكليز واليهود يطلقون النار على النساء والشيوخ والأطفال بدون رحمة . كانوا مثل الذئاب المسعورة لا يفرقون ولا يرحمون كبيرا أو صغيرا امرأة أو رجلا . ونحن لم نكن نملك السلاح والسلاح كله مع الانكليز .

توقفت العجوز عن الكلام ونظرت الى وجه الرجل الملسوع ثم تابعت :

«لقد استعاد وعيه وخف ألمه» . وظهرت نجمة الصبح متلألئة جميلة . وبعدها ازرق الأفق ثم ابيض . وبدأ أبو خلف يصب الشاي للجميع . كانوا وقوفا ، ما عدا العجوز أمه ، وزوجته ،

جلسوا على أحجار نظمت عند الباب ، وبدأوا بشرب الشاي وقد ارتاح الملسوع وتحسن وضعه ، وأخذ يشرب الشاي وقد استعاد بعضا من عافيته ، وكذلك الجندي نويصر ، كان فرحا . يريد أن يقول لرفاقه هذه حماتي أم خلف وهذه العائلة عائلتي رغم انهم رعاة الآن . ومع ذلك أصر العريف محمد على دفع ثمن الحليب والزيت ، ثلاث ليرات سورية دفعها الى أم خلف .

كانت غزالة تنظر الى العريف محمد وكأنها ترجوه أن يرسل الجندي نويصر ، لكن نويصراً أخبرها أن العريف الجديد هو آمر الحضيرة وقد أصر أن يأتي الى القرية لمعالجة الجندي الملسوع . كانت نظرات الأم تستدر العطف وهي تنتظر مستقبل أبنائها وبناتها . سبع بنات وثلاثة أولاد والحادي عشر سوف يأتي بعد أيام .

كانت أم خلف جالسة عند الباب ولقد فهمت لماذا أتت أم حمدان في هذا الوقت وبهذه الطريقة فأجابتها :

ـ جندي لسعته حية بالليل وأتوابه ، يريدون حليبا وزيتا ورئيسهم يقول انه يشفى بذلك .

نظرت أم حمدان الى الرجل بعد أن ألقت تحية الصباح . وأردفت :

ـ أعوذ بالله ، الشيخ مسافر يا جماعة . وصرخت بأعلى صوتها : يا (أبو حمدان) .

كان أبو حمدان ونهير وبكير يراقبون من خلف الجدار أم حمدان التي صرخت ثانية :

ـ «أبو حمدان» جندي ملسوع من حية ويعالجونه ، تعالوا ساعدوهم .

وأسرع الرجال الثلاثة ودخلوا : ماذا تريدون يا شباب نحن جاهزون ؟

ورد العريف زيد قائلا :

ـ العريف محمد آمر الحضيرة .

ورد أبو حمدان **قائلا :**

ـ يا أهلا يا أهلا .

ولما لم تجد أم حمدان مكانا لها بعد ذلك عادت ادراجها الى بيتها وهي تقول : يا الله يا (أبو حمدان) الرجل مال للشفاء لا داعي لبقائك هنا .

كانوا ينظرون الى الجندي الملسوع وقد تحسن كثيرا ووقف على قدميه . وأخذ يشرب الشاي معهم .

لقد بدأ قرص الشمس بالتوهج مع أول الشروق . وكان صياح الديكة يملأ السكون . وبدأ الماعز بالخروج الى المراعي ، وكذلك الأبقار جمعت في حقل شرقي القرية حتى لا يشاهدها العدو ويقتلها بالرشاش من بعيد .

وعلى ضوء الجلبة التي حدثت ليلا ونباح الكلاب . أفاق الجيران ، جيران عائلة (أبو خلف) ولكنهم في البداية لاذوا بالصمت وبدؤوا يراقبون خلسة بيت (أبو خلف) وقد تجمع أكثر من ثلاثة أشخاص عند جارهم . فقد تسللوا ليعرفوا ما يحدث في بيت (أبو خلف) . كانوا يتهامسون عما يحدث . هل هناك مشكلة أخلاقية بين الجنود وبنات (أبو خلف)!؟ من يدري ؟

قال جاره بكير :

ـ ولكن هناك أكثر من جندي ، هذا غير معقول . قد يكون قائد السرية وهؤلاء حراسة .

قال حمد :

ـ لا . لا ، لا يمكن أن يكون قائد السرية ، فهذا يأتي وحده دائما الى القرية ، ليس عنده دورية ولا كمين .

ورد بكير :

ـ هذا معقول أكثر . لا يمكن أن يحضر قائد السرية لأن الأمور متوترة مع العدو هذه الأيام .

وأرد الثالث واسمه نهير :

ـ هناك جندي أعرفه اسمه نويصر . وهو يأتي الى بيت (أبو خلف) كل يوم تقريبا ، ولكن ليس في مثل هذا الوقت .

ورد حمد :

- نويصر لا يأتي الا في النهار وامام كل الناس . يقول علنا سوف يخطب غزالة بنت (أبو خلف) غرامه بها ليس سرا فقد أعلن ذلك أكثر من مرة أمام الدكنجي أبو فريج .

قال بكير :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، كلنا عندنا بنات وهؤلاء جنود أولا وأخيرا ، فماذا نفعل ؟

ورد نهير :

- يجب أن نرى قائد السرية ونشكو له الأمر ، لا يجوز أن يأتي العساكر ويعشقوا بناتنا .

ورد حمد :

- قائد السرية يعرف كل شيء من رقيب السرية الذي ينقل له الأخبار كل يوم :

وأردف حمد :

- لعنة الله على هذه الأيام ، ومع ذلك فانها أفضل من السابق . لقد كان عساكر الانكليز وعصابات اليهود يأتون الى البيوت ويأخذون الرجال والنساء ، ويفرقونهم عن بعض ليلة بكاملها .

أنت تعرف عائلة كويعان وآل الحسن . اتى الانكليز في الليل كانوا أكثر من ثلاثين جنديا على رأسهم خمسة ضباط واعتقلوا الرجال . يومها قلنا هانت الأمور ، بسيطة أخذوا الرجال وذهبوا ولم يعودوا .

وفي منتصف الليل عادوا ثانية وأخذوا البنات الشابات . اعتقلوهن لمدة أسبوع وكل يوم يذهب الناس شاكين للمستشار الانكليزي . كان اسمه دافيد . وكلما راجعوه ، كان يقول : غدا أو بعد غد . وأخيرا تركوا النساء . وأنتم تعرفون لم تبق واحدة الا واغتصبوها . وهاجرت عائلة كويعان خارج فلسطين الى شرقي الأردن حتى لا يعرف الناس ما حل ببناتهم من عار . ويومها قتلوا جدتهم . أطلقوا عليها النار عندما ضربت أحد الضباط بعصا وهو يأخذ حفيدتها

التي تمسكت بها .

قال بكير :

ـ يا صديقي كان هؤلاء انكليز ولكن اليوم هؤلاء جنودنا وأولادنا .

وأردف نهير :

ـ لم يدخلوا بيتا عنوة ولم يرعبوا صاحبه بدخولهم . انهم يأتون بيت (أبو خلف)برضاه ورضا أم خلف . وأم خلف ترسل الى نويصر ابنها كل يوم ليحضره على الغداء أو ترسل له الزبدة . وعلى كل حال يجب أن تكون سمعة القرية جيدة ولا يجوز أن يسيء اليها أحد من الجنود . والذي يريد أن يعشق فتاة عليه أن يتزوجها .

ورد حمد :

ـ ولكن المهر يا رجال غال ، وكل واحد يريد أن يبيع ابنته .

ورد بكير :

ـ طبعا عندي بنت شابة يجب أن يدفع مهرها خمسون رأس ماعز على الأقل .

ورد نهير :

ـ واذا كان لا يملك مثل هذا القطيع وليس لديه أموال ماذا يعمل ؟

ورد حمد :

ـ يخطفها وتكون فضيحة الطرفين . ولو كان فينا من يفهم لكنا أنهينا هذه العادات البالية . ولكن لا أحد يقبل ذلك .

كانوا يتحدثون همسا في سكون الليل يريدون أن يعرفوا ما يدور في البيت المجاور .

قال حمد :

ـ انصتوا . نويصر وغزالة يحلبان الماعز ، انظروا ، كل واحد يقول احلبوا كل الماعز ، معقول يا جماعة ، يحلبون كل الماعز . يريدون أن يسكروا . ماذا عند أم خلف غير الحليب واللبن ؟ انظروا ! . هناك أكثر من جندي . معقول هذا ؟ لعنة الله على الشيطان :

ورد بكير :

ـ عندها ثلاث بنات صبايا ، ماذا يعملون بأم خلف ؟ بطنها عند حلقها بالشهر التاسع وأم لعشرة أولاد . يريدون بناتها . انظر بنتها الثانية خرجت من الباب . والثالثة . لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . والله لا يمكن السكوت على هذه الحالة . يمكن أن يكون قائد السرية وإلا لماذا كل هذا الاهتمام ؟

انظر اكثر من عشر زوالات داخل الدار . ايه ما رأيكم لو نذهب الى بيت أم خلف ؟

كانوا في دار حمد يراقبون من خلف الجدار . ونهضت سمرة زوجة حمد فلم تجده بجانب الأولاد . فرفعت ضوء المصباح قليلا . ولبست جلبابها وخرجت من باب البيت وتصنتت . وعرفت أن زوجها ، خلف جدران الدار يراقب بيت أم خلف ، فغضبت منه قائلة :

ـ عجوز ويتجسس على بنات الجيران ؟يا رجل استح هي مثل أحفادك .

ورد حمد :

ـ اسكتي يا سمرة عيب هذا الكلام بالليل .

وردت :

ـ عيب على الذين يعملون العيب . لماذا تنزعجون هل هن بناتكم أو اخواتكم أو من دمكم ؟ لماذا كل هذا الكلام ؟ أتريدون أن تتزوجوهن ؟ اذن ما الذي تعنيه نخوتكم التي جاءتكم فجأة ؟ هل تريد أن تتزوج غزالة ، أم أختها الثانية ؟ لماذا كل هذا الكلام . اتركوا البنات عسى يتزوجهن الجنود . عند ام خلف سبع بنات . وعندكم بنات صبايا الا تخافون من كلام الناس عليهن ؟ ولكن كل واحد فيكم يريد سراً أن يتزوج بنت من بنات أم خلف . اذهبوا الان وشاهدوا . هل تريدون أن أسأل أم خلف ماذا عندهم ؟ هل تريدون أن أسأل الآن وأنتم هنا ؟

وأردف بكير :

ـ اسألي يا أم حمدان . اسألي ، قولي لهم ، ماذا عندكم وهل يحتاجون لشيء ما .

وقالت أم حمدان :

ـ أنا ذاهبة أرى بعيني . وخرجت غاضبة كأنها تريد أن تدخل معركة . كانت مثل الجاموسة الصغيرة وهي تقطع الطريق الى بيت (أبو خلف) .

دخلت الدار دون اذن من أحد ، ووصلت الى الفناء وصاحت : «أم خالد» أم خلف ، ماذا يجري عندكم ؟» وتابعت مسرعة الى باب البيت حيث توقفت لترى الجندي الملسوع يراجع الحليب وقد التف حوله الجميع .

- ٢ -

كان قرص الشمس أحمر وهاجا عندما غادرت الدورية بيت أم خلف . وعند الباب كانت الفتيات الثلاث يودعن الجنود وخلفهن تجمع اخوتهن وبقية العائلة .

غادرت الدورية وقد تأخرت عن موعد عودتها ثلاث ساعات . وهم يهبطون باتجاه الوادي قال العريف زيد للعريف محمد :

ـ ماذا نقول ؟ لماذا تأخرنا ؟

ورد العريف محمد :

ـ قولوا الحقيقة .

ولكن العريف زيد أجاب :

ـ اذا قلنا الحقيقة ستكون العقوبة مضاعفة .

فقال العريف محمد مطمئنا :

ـ لن يعاقبوا أحدا منا . لقد أنقذنا الرجل من الموت ، وعلى كل سيعرفون الحقيقة .

وأصر العريف زيد أن يقولوا : تهنا في الطريق لأن العريف محمد لا يعرف الأرض وينتهي الأمر .

وأردف العريف محمد : ليس مهما .

كان العريف محمد ينظر في وجوه الجنود ، وقد عرف كيف يفكرون لقد

خافوا من العقوبة . وكل منهم يريد العقوبة لرفيقه شريطة أن يسلم برأسه هو .

قال أحدهم :

ـ في العسكرية دبّر رأسك . فنهره العريف محمد وقال :

ـ أنا لا أرى مشكلة قائمة حتى تخافوا .

ورد العريف زيد :

ـ انت لا تعرف المساعد حسين عندما يغضب اننا لا نعود نفهم عليه ولا كلمة واحدة .

ولكن الجندي نويصر الذي بدا فرحا عندما خرجوا من دار محبوبته . انقلب الى شخص كئيب خائف . قال :

ـ قد تقع المصيبة كلها على رأسي لأن أخباري مع غزالة وصلت الى قائد السرية .

وضحك العريف محمد من كلام الجندي نويصر قائلا :

ـ اخطبها وتزوجها يا رجل . لماذا أنت خائف هكذا ؟

ولكن العريف زيد قال :

ـ اذا انتهت بعقوبة تكون رحمة لنا . اني أخاف أن يرسلونا الى التحقيق بالأمن العسكري .

كانوا خائفين ولكن العريف محمد حسم الأمر قائلا :

ـ اسمعوا اذا سألوكم ، أجيبوا ، لقد أخذنا العريف محمد الى قرية جرابا أثناء العودة . وحاولنا اقناعه ولكنه رفض . وأصر على أوامره ولم نجرؤ على أن نخالفه .

ورد العريف زيد :

ـ يقولون من اليوم الأول تخالف الأوامر ، وتذهب الى القرى ؟ .

وقال العريف محمد :

ـ هذا لا يهم ، بعد ذلك سأقابل قائد السرية ، لا تخافوا .

ونصحه العريف زيد الا يقابل قائد السرية لأنه رجل صعب جدا وهو ضابط عامل وليس احتياطيا ، ونظامي لا يحب المخالفة «يمكن أن يستخدم يده

ويضربك» .

نظر العريف محمد في وجهه وقال : يضربني ؟ أنا أعتقد لا يمكن لأحد أن يضربني أو أن يشتمني ويداي طليقتان . ماذا تقول يا رجل ؟ أنت تقول انه نظامي ولا يحب المخالفة ، والقانون يمنع الضرب .

فقال زيد :

ـ مشكلة يا عريف محمد وقعنا فيها .

كان الجندي نويصر مضطربا ، وهو الذي شجع العريف محمد على الذهاب الى قرية جرابا ، وحضرا الى بيت أم خلف . كان يفكر باسعاف الجندي الملسوع وتكون هذه مناسبة يتعرف فيها العريف الجديد على (أبو خلف) فقد يساعده في موقف ما ، اذا خالف أو هرب ، لكن يبدو أن الأمر تعقد أكثر مما توقع . كان صامتا ، يفكر .

قال العريف زيد :

ـ فكر يا حضرة العريف ماذا تكتب في تقرير الدورية ، أو هل اكتبه عنك لأنك أول مرة تقوم بالعمل الميداني ؟

وأردف العريف محمد :

ـ حتى نصل .

كان العريف محمد يفكر على نحو آخر ، لقد استعرض قريته ، استعرض واقع أهله في قرى الاقطاع والفرنسيين أيام زمان ، والدرك الحالي ، ثم الحزب ، واقع الحزب . ألا يوجد في هذه السرية رجل منظم في الحزب معقول ؟ يوجد في السرية مرشحان اثنان لا بد انهما سمعا في المدارس عن الحزب . ولكن الملازم قائد السرية يعرف الكثير عن الحزب لا بد من ذلك . كثير من الضباط بعثيون هناك والأقدم منه هناك (رؤساء) في الحزب . لم يمض على ذهاب الشيشكلي أكثر من سنة ، لا بد من وجود أحد أفراد التنظيم في هذه السرية . قال في نفسه : ليس مهما ، قائد الفوج أعرف أقرباءه اذا تعقد الموقف .

وهناك كان العريف محمد يعرف ضابطا بعثيا ولكنه الان في دمشق . لم

يتوقع أن تقع هذه المشكلة معه منذ الليلة الأولى .

كانت أصوات الرعاة تسمع من حين لآخر ، ونباح الكلاب ، وخوار البقرات التي تفصل عن عجولها . السفح الشرقي لقرية جرابا مملوء بالمواشي المتناثرة باتجاه وادي السمك لأنه مصدر المياه الوحيد . والرعاة مسلحون بمعرفة الجيش للدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش والذئاب وحماية المواشي وكذلك اذا شاهدوا عدوا يمكن أن يقاوموه . وأخذ يفكر : هو آمر الدورية وقد تخلف عن موعد انتهاء الدورية ، كان عليه أن يعود حوالي الساعة الرابعة صباحا . الشمس ساطعة ودرجة الحرارة آخذة بالارتفاع .

وفكر أن الملازم أعقل مما قال عنه العريف زيد ، وهو يرفض أن يرفع أحد يده عليه . هذا مستحيل ؟! ولكنه قال في نفسه : للطوارىء يجب أن أفكر اذا حاول أحدهم اهانتي لا بد من أن يكون ردي عنيفا وليكن ما يكون . لقد علمني والدي في الصغر . أن لا أبدأ بالشر ، ولكن اذا ابتدأ فكن أقوى منه ، سوف يحترمك الناس ويخافونك . قصة طويلة : كان يضرب له الأمثال عن ذاك الرجل الأمي الذي تجاوز الستين الأن كما كان يقول المثل البدوي (اقتل قاتل الكلب) ولكن سوف لا أحتاج لمثل هذا .

اقترب من مركز السرية وأصبح تحت بصر المساعد حسين الذي كان يقف أمام خيام الفصيلة الثانية . على بعد أقل من ثلاثمائة متر كانت هناك معركة بين ذئبين وبعض الرعاة الذين سمع صياحهم عاليا . الذئاب ، الذئاب . ويبدو أن أحد الذئاب استطاع أخذ جدي صغير من خلف أمه . وهجم الرعاة باتجاهه وطاردته الكلاب دون أن تقترب منه أو تصطدم معه . كانت خائفة . حتى الرعاة كانوا خائفين فقد يكون واحدا من قطيع من الذئاب .

منطقة السرية غير بعيدة وعلى أثر اطلاق نار الرعاة على الذئاب استنفرت عناصر السرية . ونزلوا في الخنادق ، لقد شاهد الجنود عناصر الدورية من بعيد وتصوروا انهم أعداء ولكنهم انتظروا .

خبر تأخر الدورية كان سرّيا في البداية ثم انتشر بين أفراد السرية . أربع ساعات تتأخر دورية لا بد أن هناك مشكلة ؟

فكر المساعد حسين قائد الفصيلة الثانية . ماذا بوسعه أن يعمل ؟ بعد ساعة من تأخر الدورية ، أعلم قيادة السرية وثبت ذلك خطيا حتى يرفع المسؤولية عن كاهله . ورقيب السرية لم يعرف كيف يتصرف في الليل ، فقائد السرية لا يزال في الفوج ولا يعرف ماذا يعمل هناك ؟ أخذ سيارة الجيب الى قيادة الفوج ولم يعد بعد . ماذا يعمل اذن ؟ عليه أن يرسل برقية الى عمليات الفوج يعلم فيها عن فقدان دورية من السرية الثانية من الفصيل الثاني يقودها عريف التحق منذ يوم واحد فقط بالسرية ولم يعد مع أفراد دوريته .

كان قلقاً مضطربا ، يحدث نفسه : مساعد حسين عشرون سنة في الجيش ولا مخالفة ولا ملاحظة . واليوم فجأة . دورية من فصيلتي تفقد ؟ هل أسرت ؟ يمكن أن تكون أسرت أثناء العودة . سألوا بالهاتف الميداني عن دورية التلاقي فأجابهم الجواب بالايجاب . اذن أسروا أثناء العودة . كشف العدو طريق الدورية وكمن لها . هذا عريف جديد كان علي أن لا أرسله منذ اليوم الأول وهو لا يعرف الطريق في الليل وقبل أن يدرس الأرض ، ويتعرف على جنوده . يا مساعد حسين هذه خطيئة لا تغتفر ضد قائد السرية . قد يأتي أول مرشح ويسلمه الفصيل مكاني ، لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . آه يا حسين ماذا تقول لزوجتك ؟ قد تسألك لماذا عزلوك عن قيادة الفصيل ؟ لماذا أخطأت ؟ سأقول لها : القانون هو القانون . ولكن هذا العريف الملعون من أين أتى الينا ؟ .

كان المساعد حسين جالسا في الخندق مع جنود الفصيلة وعندما علموا أن اطلاق نار من الرعاة على الذئاب ، عادوا الى مراكزهم وخيامهم ليتناولوا طعام الفطور .

عادت كل الدوريات في أوقاتها وكذلك الكمائن . الا دورية من الفصيل الثاني . ماذا يعمل المساعد حسين ؟ رقيب ١ السرية عنده يريد أن يعرف أخبار الدورية ، لقد أرسلوا رقيب الحضيرة الثالثة وجنديا آخر على طريق الدورية . ذهبا وعادا ولم يعثرا على أثر . لم يسألا أحداً .

قال الرقيب ١ :

ـ على أي حال نحن أخبرنا قيادة الفوج ، وهي تخبر قيادة الجبهة . ولكننا لسنا متأكدين هل أسرت ، أم ضلت الطريق ؟ لو ضلت الطريق لعادت عند الفجر ، ولكن يبدو أنها أسرت .

كان الرقيب ١ رجلا قصير القامة بعض الشيء ، شعره أشقر ، عيناه تنمان عن خبث أكثر مما توحيان بالطيبة .

وصل المرشح أحمد قائد الفصيل الأول . وسأل عن الدورية ، ولكن دون فائدة . وبدا القلق على وجه المرشح ، ثم قال :

ـ هل عاد قائد السرية ليلا ؟ ونام واستيقظ على اطلاق النار .

لقد استدعاهم قائد السرية الملازم ياسر لاجتماع قادة الفصائل عنده . كان الملازم ياسر قلقا عندما قال :

ـ هذا أول فخ نقع فيه ، لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . ثم سأل الرقيب :

ـ من أي بلد هذا العريف ؟ .

فقال رقيب ١ السرية :

ـ لم تصل اضبارته بعد يا سيدي .

كانوا مضطربين داخل الخيمة . وكان قائد السرية ساهما . يفكر ، دورية من ستة عناصر وعريفين من سريته يفقدون هكذا . انها أول مشكلة عسكرية يواجهها منذ تخرجه من الكلية الحربية . ماذا يقول لقائد الفوج ؟ لقد سمع قائد الفوج الان وقد لا يغفر له هذه الخطيئة ، انه اهمال . البارحة كان يسهر في نادي الفوج وعاد متأخرا . ولكن قبل ذهابه أعطى كل التعليمات والأوامر لقادة الفصائل . كانوا صامتين ، قد يأتي ضابط أمن ليحقق كيف حصل ذلك وما هو طريق الدورية ؟ كان ينظر بوجه المساعد حسين ويقول :

ـ أنا قلت لك يا حسين لا تستلم قيادة فصيل وأنت كنت تقول : جربني يا سيدي . لقد جربناك وها هي النتيجة . ماذا نقول لقائد الفوج الان ؟ نحن مهملون ؟ لقد أهملنا واجبنا ، ماذا يقولون عن الجبهة ؟ العريف محمد جديد لا يعرف شيئا ولكن العريف زيد عريف متطوع له أربع سنوات في السرية

ويعرف كل شاردة وواردة فيها . قطعا العدو عرف مركز السرية وعدد أفرادها الان وكل ما يحيط بنا . علينا قبل الغروب أن نغيّر موقعنا .

. كانت ترتسم على وجوه الجنود علامات القلق والوجوم . نظر في وجه المرشح أحمد وقال : ما رأيك ؟ وتململ الأخير على المقعد الخشبي ولكنه أجاب :

ـ حتى الان لم نقطع الامل ، ويمكن أن يكونوا قد ضلوا طريق العودة ودخلوا وادي السمك ، وعلى أي حال العريف الجديد كان معلما قضى سنتين على الفرات ، وسنتان بين البدو ليست قليلة وأنت ترى أن المنطقة هنا أغلب سكانها مثل البدو. ربما تسرعنا بابلاغ الفوج، والأمر ليس بذي بال.

ورد رقيب ١ السرية :

ـ لنرفع المسؤولية عنا يا سيدي . قالها وهو يتلوى واقفا كالثعلب المرعوب الذي يراوغ .

ورد المرشح موجها كلامه الى قائد السرية :

ـ أظن أننا تسرعنا ما فيه الكفاية . ويجب أن لا نستمر في التسرع .

كان قائد السرية يستمع اليهما دون أن ينظر في وجهيهما وفي تلك اللحظة قال :

ـ يجب علينا أن نستعد ، وأردف موجها حديثه الى قادة الفصائل :

ـ طبعا فصائلكم في استنفار .

والتفت نحو قائد الفصيلة الثالثة المرشح الذي عين حديثا في السرية ولا يزال مرتديا بذلة كلية الاحتياط حتى الان وقال له : ألم تستلم مهماتك من قيادة الفوج ؟

ورد الأخير : لم يكن لدي وقت ، أتينا البارحة ولم نعد الى الفوج .

وأردف قائد السرية :

ـ يمكن أن تذهب مع البغال وتسلم مهماتك وتغيّر هذه البدلة فانها لا تصلح للميدان .

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ يمكن أن يذهب معكم في السيارة يا سيدي ويعود معكم في الصباح غدا .

ونظر قائد السرية في وجهه قائلا :

ـ ومن قال لك إننا سنصل الفوج بعد حادثة الدورية لمدة أسبوع ؟!!!

وأردف المساعد حسين :

ـ هذا خطأي أنا يا سيدي ، لقد كنت مغفلا لم أنتبه لهذا العريف الجديد . ولكن ماذا نعمل الان ؟ .

فأجاب قائد السرية :

ـ ننتظر الأوامر من الفوج . قد يكون لديهم معلومات أكثر منا بعد أن أخبرتهم . فعلا لقد تسرعنا .

وقال المرشح أحمد :

ـ كل يوم حادثة ، لماذا نحن قلقون ؟ أنا أعتقد أن قيادة الجبهة سوف تهتم لهذا الحادث .

دخل جندي يحمل الشاي اليهم ، وأخذ الشاي الملازم والمرشحان أما المساعد والرقيب فقد وقفا صامتين .

كانت الشمس ترتفع قليلا . وترتفع معها درجة الحرارة . قال الملازم :

ـ هذه الأيام ترتفع درجة الحرارة كثيرا . يكاد الانسان يحترق في هذا الوادي وخاصة عندما يتوقف الهواء .

أسرع جندي من الفصيل الثالث ، باتجاه خيمة قائد السرية وهو يصيح :

ـ سيدي عادت الدورية . يا سيدي عادت الدورية ، وصلوا ، نعم وصلوا .

خرجوا مسرعين باتجاه الفصيلة الثانية ليلتقوا الدورية . وتوقفت الدورية وتحلّق جنود الفصيلة حولها .

وبعد تقديم الصف . قال قائد السرية موجها كلامه لعناصر الدورية :

ـ الحقوني الى الخيمة . ومشى لاحقا به المرشحان أما المساعد حسين فقد أخذ بيد العريف محمد وسأله :

ـ «قل ، قل لي بسرعة يا . . يا . . . وتوقف عن الكلام ، قل يا عريف ماذا حدث معكم ؟ طبعا كان اطلاق النار عليكم أثناء العودة ؟ كشف العدو طريقكم ! آه ؟ كان (البرجكتور) مسلطا عليكم ، لم تستطيعوا رفع رؤوسكم ؟ صحيح كيف كان اطلاق النار عليكم من العدو ؟ نحن سمعنا رشاشات متلاحقة عليكم . هل شاهدوكم ؟ .

ألقى أسئلة كثيرة دون أن يعطي فرصة للعريف محمد أن يجيب . وتوقف فجأة وشاهد (الكيتر) قد حل ابزيمه من فردته اليمنى فتوقف لاصلاحه، فوق الحذاء . الحذاء حقير لعنة الله على الشيطان كل يوم أمسح هذا الحذاء ويتغبّر ، قائد السرية يحب الانضباط والنظافة ، ولكن ماذا نعمل في هذه الأرض المفلوحة ؟ قال كل هذه الكلمات وهو ينحني كي يربط «الكيتر» فوق الحذاء ونهض ومسح عرق جبينه بمنديل أصفر وتابع :

ـ قل يا عريف هل عرف العدو طريق الدورية ؟ قل كيف شاهدكم وأطلق النار عليكم ؟ اذن عرف طريق الدورية ويجب تغييره . نعم يجب تغييره . لماذا تأخرتم ، وهل خفت واختبأت في السلاسل بين الأشجار ؟ قل : ودخل خيمة قائد السرية ولم يسمع كلمة واحدة من العريف محمد .

انتبه العريف محمد عندما شاهد الجميع مستنفرين ، ويريدون معاقبته ، ولكنه وطد نفسه لمثل هذا الموقف غير المفاجىء .

كان رقيب ١ السرية يسير مع العريف زيد ويسأله :

ـ قل يا زيد كيف شاهدكم العدو وأطلق عليكم النار ؟

فقال زيد :

ـ لا يا حضرة الرقيب 1 أنا ليس لي دخل . هذا قرار امر الدورية وأنا نصحته أن لا نذهب الى القرية ولكنه أصر على الذهاب ، وخالف كل الأوامر والتعليمات العسكرية . أنا قلت للعريف محمد هذه مخالفة ، ولكنه أصر وذهب قائلا هذا قراري : وأنتم بأمرتي ولم يقبل المناقشة اطلاقا .

كانت الفرس الزرقاء مربوطة عند جذع شجرة ، وقد قدمت لها بقايا من الخبز ، كانت تلوح بذيلها طاردة الذباب الذي تجمع على روثها .

وكذلك سيارة الجيب الوحيدة في السرية كانت واقفة تحت ظل شجرة لتمويهها كي لا تشاهد من قبل مراصد العدو ، أو من طيران الاستطلاع ، وعلى محركها خيمة . وعند تدويرها كان لا بد من دفعها حتى يشتغل المحرك . في الزاوية شجرة سنديان ليست عالية بجانبها مقطورة المياه الوحيدة التي تأتي يوميا بمياه الشرب من الفوج وقد وضعت عليها خيمة حتى لا ترتفع درجة حرارة المياه فيها . وهناك تحت شجرة جلس عدد من جنود الفصيلة الأولى وقسم منهم كان نائما بعد أن أنهى مهمته ، وقسم آخر كان يلعب الورق والحديث يدور عن تأخر الدورية . وقد علموا من جنود الدورية أن أحد أفرادها لسعته أفعى وكل واحد كان يفسر الأمر على هواه . أفعى لسعته اذن يجب أن يموت لماذا لم يمت . عمره طويل ولكن العريف آمر الدورية قد أسعفه بالطريقة البدائية .

ويرد الآخر : وهل العريف محمد ممرض ؟

ويقول آخر : لا ليس ممرضا ، ويقال انه ابن جد فعالجه على طريقة رجال الدين (المشايخ) أخذوه الى القرية وعالجوه بالحليب والزيت .

وقال آخر :

ـ معقول هذا ، هذا مخالف للأوامر العسكرية ، وكيف لعريف متخرج من المدرسة العسكرية أن يخالف الأوامر العسكرية ؟

ويرد آخر : ولكنه أنقذ الجندي من الموت المحتم .

ويقول آخر :

ـ لقد قالوا أنهم أسروا . ان الضباط يخافون ، أخبروا قيادة الفوج فوراً .

ثمة عساكر آخرون كانوا ينشرون ثيابهم المغسولة على أغصان الشجيرات بعد أن غسلوها بمياه وادي السمك .

وكانوا جميعا يناقشون وضع الجندي الملسوع .

قال أحدهم :

ـ عريف شجاع أنقذه .

وقال آخر :

ـ ولكن قد يعاقب لماذا لم يعد به الى السرية ليعالجه العريف الممرض ؟

ورد آخر : وماذا عند العريف الممرض غير **السلفات؟!!!** لو اعاده الى هناك لمات الرجل . انه عريف شجاع . أخذ الأمر على عاتقه . وذهبوا به الى قرية جرابا . طبعا عالجوه وتأخروا لأن هناك بنات كثيرات دعونهم الى الطعام في هذا الليل ؟ ويبدو أن هذا العريف يعرف كثيرا . كيف خطرت على باله هذه الفكرة ؟

وقال جندي بدوي : يمكن أن يكون ابن جد .

دخلوا خيمة قائد السرية ، ولم يعرف رقيب ١ السرية أين ذهب العريف محمد بالدورية لأن العريف زيد اعطاه اجابات مبهمة والرقيب أول أمطره بالأسئلة ، وفهم أن العريف ذهب بهم الى أبعد من المكان المحدد قرب النهر . وهناك كشفهم العدو وأطلق عليهم النار ، وهذا مخالف للتعليمات العسكرية .

تساءل : لماذا ذهب الى قرب النهر ، وكشف الدورية ؟ يمكن . . وصمت . لا ، لا يمكن ، قد يكون الخوف وقد ضلوا الطريق وهذا أصح ، نعم هذا أصح . ولكن العريف زيد يعرف طريق الدورية جيدا وكذلك الجنود لماذا وافقوه على الذهاب الى قرية النهر ، وهم يعرفون أن هناك مواقع غرب النهر للعدو ؟ وقد يكشفون من قبله وقد يموتون أو يؤسرون . لا بد من أن هناك سرا في تأخرهم . يمكن أثناء اطلاق النار عليهم خاف العريف فاختبأوا بين الشجيرات حتى الصباح . لان وجهه يبدو عليه الارهاب ويبدو عليه الارهاق ويبدو أنه مرعوب من العدو لأنه صغير . كيف كنت أنا سنة ١٩٤٥ ؟ سنتها كنت رقيبا جديدا ولم أخف . كنت في مؤخرة الفوج وأنقل لهم الذخيرة ومع ذلك لم أخف من العدو . ولكن هذا العريف وصل البارحة ولا يزال جاهلا المنطقة . يجب أن نعذره ولكنه خلق لنا مشكلة الان ويجب أن نخبر قيادة الفوج بعودة الدورية والتقرير يتبع . وصاح بأعلى صوته الى عريف كان قربه قائلا :

ـ خبر قيادة الفوج بعودة الدورية .

ولكن قائد السرية كان على الهاتف وعلى الطرف الثاني الرائد (الرئيس) قائد الفوج يستوضح عن الدورية المفقودة . ويجيبه قائد السرية : نعم سيدي ، نعم سيدي ، نعم . . . التقرير يتبع نعم سيدي سأحقق بالموضوع . احترامي

سيدي . وقفل الخط .

نظر قائد السرية في وجه العريف محمد . لقد تغير وجه المساعد حسين وتبدل لونه ، تصور أن العقوبة ستأتيه فلم ينبس بكلمة . وكان المرشحان يجلسان على كرسيين خشبيين جانب الطاولة التي يجلس خلفها قائد السرية وقد فرد على الطاولة بطانية لونها قاتم من بطانيات المجندين المسرحين والذين سلموا أمتعتهم الى قيادة الفوج .

كان المساعد حسين والرقيب ١ والعريف محمد واقفين باستعداد أمام قائد السرية ، الثلاثة صامتون . ولكن كانت هناك أصوات الأبقار التي فقدت وليدها ، وكرت راجعة باتجاه القرية عابرة السرية . وحصل لغط في السرية وقد ألقى الرقيب نظرة من باب الخيمة وقال : بقرة هاربة من الراعي عبرت مقر السرية . وحاول أحد الجنود أن يوقفها ولكنه لم يستطع وضحك عليه رفاقه قائلين :

ـ لم تستطع أن تمسك بقرة فكيف تمسك بالعدو ؟ فأخفض رأسه خجلا من ذلك .

وقطع الرقيب ١ الصمت قائلا :

ـ سيدي خالف التعليمات وذهب الى يسار تل أحمر قرب النهر وقد سمعنا نحن اطلاق النار وكان ذلك حوالي الواحدة تقريبا بعد المقابلة مع دورية التلاقي . نعم يا سيدي ذهب الى قرب النهر وكشف العدو الدورية . حتى خلق لنا هذه المشكلة هل يجوز ذلك ؟ لماذا يذهب الى تل أحمر ومعه دليل ؟ العريف زيد يعرف الطريق وأغلب الجنود معه قدامى . لماذا يخالفهم جميعا ويذهب الى هناك رغم أنه لا يعرف الارض ؟ لأول مرة يزورها ، هذا العمل يجب أن لا نهمله ويجب أن يحال الأمر الى لجنة التحقيق .

والتفت العريف محمد الى الرقيب ١ وقال : لا .

وقطع كلمته قائد السرية قائلا :

ـ أنا لم أسمح لك بعد بالكلام . عندما أسمح لك بالكلام تدافع عن نفسك يا عريف . قالها بلهجة الأمر وصمت العريف .

وتابع الرقيب ١ : نعم انا استمعت الى تقرير شفوي من العريف زيد .
وخطا باتجاه باب الخيمة صائحا بأعلى صوته : عريف زيد . . . .
وقدّم جندي شايا ساخنا لقائد السرية والمرشحين بكؤوس كبيرة وانسحب بهدوء , جندي لم يحلق في ذلك اليوم ذقنه وبدلته معفرة بتراب المنطقة . قال له المرشح الجديد :
ـ أتمنى أن لا تكون الشاي مثل ثيابك . ولم يجب ولكنه تعثر عند باب الخيمة ووقع غطاء الابريق واندلق بعض الشاي على الأرض .
فقال له الرقيب :
ـ ضاربك العمى لم تشاهد الباب . ولكن قائد السرية قال : لا عليك يا بني اذهب .
رغم أن عمر الجندي يزيد عن عمر قائد السرية بعشرين سنة ، الا أنه لم ينبس بكلمة ، الا أنه قال بعد أن وقع :
نعم سيدي ، هل تريدون شيئا غير الشاي ، يوجد قليل من التمر وقد أتيت بزبدة من القرية اشتريتها لكم وأتيت بجرّة من اللبن ـ ولولا ذلك لفكر العريف محمد أن الجندي أخرس ـ
وجاء جندي آخر همس في أذن قائد السرية كلاما أغضبه ثم خرج . وحمل الجندي الابريق الذي تلوث غطاؤه بالتراب ومضى . ونظر قائد السرية الى وجوه قادة الفصائل ، التي تبدل لونها قائلا :
ـ ماذا تعملون ـ انتم تتركون جنودكم يذهبون الى القرية لتخلقوا لنا المتاعب مع السكان المحليين .
نحن لسنا انكليزا ولا فرنسيين ، هؤلاء مواطنونا ونحن منهم يجب أن تدركوا هذا ولا أريد أن تحدث مشاكل مع السكان اطلاقا .
لقد كبر هذا الملازم بعين العريف محمد أكثر مما كان يتوقع . وبقي العريف صامتا .
ورد المرشح أحمد :
ـ من عندي لم يذهب أي شخص في هذا الليل اطلاقا . يمكن أن تكون

سيارة عادة تابعة لقيادة الفوج . أو جنود من السرية على البحيرة .

والتفت الى المرشح الثاني الذي ظل صامتا لأنه جديد لا يعرف ماذا يدور بفصيلته ولم يقل شيئا .

أما المساعد حسين فقد قال :

ـ فصيلتي كاملة : حضيرة بالكمين وثانية بالدورية والثالثة لم تغب عن عيني .

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ من سريتنا لا أعتقد أن أحدا مر على قرية جرابا في هذه الليلة . وأنتم تعرفون سيدي بانني أراقب الأمر لا أنام طوال الليل حتى استلم كل تقارير الدوريات والكمائن وأرفعها بتقرير يومي بعد اطلاعكم عليه . نعم يا سيدي ، لا يوجد أحد من سريتنا ، يمكن بعض جنود من السرية الجنوبية كانوا بالفوج والطريق يمر بجانب القرية فاقتربوا وتوقفوا فيها ؟

كان المساعد حسين متصلبا كالحجر البازلتي لا يتحرك وقد ضمّ قدميه الى بعضهما البعض . كان ينظر بين حين وآخر الى حذائه الأسود وقد غطاه الغبار والعرق يتصبب من جبينه ولا يرفع يده ليمسحه ، وقد وضع على رأسه الخوذة الفولاذية . وكذلك العريف محمد كانت على رأسه خوذته الفولاذية ، ولا يزال بلباس الميدان . حتى الرشيش كان لا يزال معلقا على كتفه .

دخل العريف الممرض ، وقال : يا سيدي هناك جندي ملسوع ، لقد لسعته أفعى ، وتبدل وجه قائد السرية . ونهض المرشح الجديد خائفا وقد اصفر لونه . حية بالسرية ؟

قائد السرية قال موجها حديثه للممرض :

ـ عالجه بسرعة وأخبرني . وذهب مع المرشح الجديد .

لقد اضطرب كل من كان في الخيمة حتى قائد السرية صاح قائلا :

ـ الأرض ملأى بالأفاعي أنا اعطيت أمرا بمنع الأكل قرب مراكز الفصائل وخاصة البيض لأن الأفاعي تأتي على الرائحة . كم نبهتكم لذلك ؟ اياكم والأفاعي انها سامة في هذه الأرض ، الأحجار كثيرة وكذلك الأشجار . كم

قلت لكم عن ذلك لا يوجد عندنا أدوية ضد الأفاعي قد يموت أي شخص تلدغه أفعى ماذا يعمل العريف الممرض؟ يعطيه سلفات ويضع عليه مكروكروم ؟ هذا لا يفيد يموت الجندي الملدوغ ولا يصل الى طبيب الفوج .

وأردف الرقيب ١ :

ـ وماذا بوسع طبيب الفوج أن يعمل اذا كانت الأدوية مفقودة لا يوجد عنده الا السلفات ؟

ورد قائد السرية :

ـ يبدو بدون اللجوء الى العقوبات لا أحد ينفذ الأوامر . كم مرة قلت لكم لا تأكلوا قرب أماكن نومكم أو جلوسكم ؟ بسيطة .

سمع صوت انفجار من بعيد ولكنه قوي . خرج قائد السرية مسرعاً . أكثر من انفجارين في منطقة المخاضة عند المخفر . . .

قال قائد السرية :

ـ معقول ان يكون العدو كشف حقول الالغام ؟ معقول الهندسة لم تموهها ؟ أخذ المنظار وخرج مسرعاً ، لحق به المرشح ، وكذلك المساعد حسين ، وأراد العريف محمد ان يلحق بهم ، فأمسك الرقيب أول بيده وقال له :

ـ انهم قادة الفصائل وهل أنت قائد فصيلة ، ولا تريد أن تقول الحقيقة ؟

ولكن العريف محمد جذب يده ولحق بقائد السرية الذي كان واقفاً على ظهر السيارة وينظر بالمنظار الميداني عبر مسافة أربعة كيلومترات أو أكثر بقليل . قال :

ـ هناك ماعز يمكن ان يكون بعض الرعاة دخلوا في حقل الالغام ويجب ان ننبه الرعاة بعدم الاقتراب من النهر هناك حقول الالغام .

فقال المساعد حسين :

ـ يمكن أن لا تكون أغناما يا سيدي أرجو أن تدقق بالمنظار .

وأخذ المرشح أحمد المنظار وبدأ يدقق فيه قائلا :

ـ ان أشكالها هي غير أشكال الماعز . يمكن أن تكون بقرا .

ولكن الملازم أعاد النظر بالمنظار وأردف :

ـ قد تكون خنازير برية لا ليس بقرا انها متجهة باتجاه تل أسود ، عبرت النهر الى الضفة الثانية . لقد كشف حقل الألغام ويجب اعادة النظر فيه ، واعلام قيادة الفوج عن ذلك .

وقد سجل الرقيب ١ البرقية التي يعلم فيها قيادة الفوج عن الخنازير التي كشفت حقول الألغام .

وتابع الملازم قائلا : لنتابع التحقيق .

وقال الرقيب ١ : أين أنت يا عريف زيد .

دخل العريف زيد وبادره الرقيب ١ : ألم تقل لي يا عريف زيد أن العريف محمد خالف الأوامر وذهب بكم الى القرية ؟

وأجابه : نعم . ناظرا في وجه قائد السرية .

وتابع الرقيب ١ : ألم تقل له أن هذا غير طريق الدورية .

ورد العريف زيد وهو واقف باستعداد :

ـ نعم يا سيدي قلت ذلك ولكنه قال أنا آمر الدورية وهذا قراري ولن أبدله وعليكم الطاعة . وطبعا يا سيدي نفذنا أوامره .

فقال الرقيب ١ : ألم تنصحه يا عريف زيد ؟

ورد زيد :

ـ نعم يا سيدي نصحته ولم يقبل وقال على مسؤوليتي أمام رؤسائي وذهبنا معه .

وقال الرقيب ١ : انصرف يا عريف زيد !

وحيا العريف زيد الملازم قائد السرية ولف حول نفسه نصف دورة وانصرف .

لقد انبسطت أسارير الرقيب وكأنه اكتشف لغزا محيرا ، لم يقل كلمة وبقي صامتا ينظر في وجه قائد السرية ، ينتظر القرار . ولكن المساعد حسين قال :

ـ هذه الحقيقة يا سيدي ، لقد خالف التعليمات العسكرية وأوامر الدوريات وخط سيرها .

كان المساعد يحاول ألا يتكلم كثيرا أمام قائد السرية حتى لا يخطىء .

كان الحر شديدا في ذلك اليوم وأخذت الشمس تصعد الى قبة السماء ناشرة أشعتها الوهاجة المحرقة على تلك الأرض المملوءة بالأحجار السوداء وفي هذه الحرارة كانت الأفاعي تنتقل من ظل الى آخر ، وتهرب باتجاه الوادي .

قال قائد السرية قاطعا الصمت الثقيل :

ـ هل سمعت ما قاله العريف زيد ؟

وأجاب العريف محمد :

ـ نعم ما قاله صحيح .

ـ اذن أنت تعترف بأنك خالفت الأوامر العسكرية ؟

وأجاب : نعم خالفت الأوامر العسكرية .

ـ طبعا أنت غيرت طريق الدورية بالعودة ؟

ـ نعم غيرت طريق الدورية بالعودة .

كان العريف محمد يجيب دون أن يضطرب ، لقد هيأ نفسه لمثل هذا الموقف .

فقال الملازم :

ـ كشف العدو الدورية وأطلق عليكم النار .

وأجاب العريف محمد :

ـ كلا لم يطلق علينا النار ولم يكشفنا العدو .

وأردف الملازم مقطبا حاجبيه :

ـ أجب على قدر السؤال بدون فلسفة اطلاقا لا أريد كلاما زائدا . تقول انه لم يكشف الدورية . اذن على من أطلق النار في تلك المنطقة . قل يا عريف الحقيقة بدون كذب .

وقال الرقيب ١ :

نعم يا سيدي انه يعترف الان أمامكم . اعترف بكل ما قاله العريف زيد . لقد قال لي العريف زيد ذلك . والعريف زيد له أكثر من سنة في هذه السرية ليس عنده عقوبة أو ملاحظة . وهذه أول مرة يورطه فيها هذا العريف . أنا منذ البارحة كنت غير مطمئن لتسليمه حضيرة . يمكن أن يكون جبانا أو أنه

أخطأ في التصرف فأرهب أفراد الدورية من جراء خوفه .

كان يلقي الكلام تباعا ، بينما انفجر قائد السرية غضبا : لماذا تخالف الأوامر العسكرية . هل تخاف بالليل قل ؟

وهدأ الملازم وعاد اليه سكونه : قل اذا كنت تخاف ننقلك من الفصيلة وتبقى مع الطباخين أو مع رقيب السرية في الخلف . أنت عملت معلما قبل التحاقك بالخدمة . آه ؟!

ورد العريف محمد :

ـ نعم كنت معلما قبل التحاقي يا سيدي .

رن جرس الهاتف الموضوع على الطاولة ، هاتف ميداني ، نصف يدوي ، من طراز فرنسي قديم عفا عليه الدهر. وكان غلاف الالة الجلدي قد اهترأ وظهر المعدن من الزوايا . ومع ذلك سمع رنينه ، على شكل دقات منخفضة . وأخذ الملازم سماعة الهاتف . بينما تراجع الباقون الى باب الخيمة بخطوتين الى الوراء . وبقي المرشح أحمد جالسا في مكانه . كان على الطرف الآخر من المكالمة ، شخص عزيز على الملازم . كما بدا من حديثه في الهاتف . ولم يمض وقت حتى عرف الجميع أن المكالمة كانت مع والدته . كان الرعب قد دب الى قلبها . سمعت أن العدو هاجم السرية وقتل من عنده جنودا كثيرين . كانت تقول له :

ـ قل الحقيقة يا بني . وكان يجيبها :

ـ والله لم يحدث عندي شيء . حصل سوء تفاهم فقط . ادعي لي يا أمي لا تصدقي الاشاعات . لا تقلقي اطلاقا . اشاعات .

ـ سمعت من بنت الجيران ، أخبارا أسوأ .

أنا أقول الحقيقة لا يوجد عندي أي مشكلة . أرجو أن لا تحضري . اسمعي أرجو أن لا تتعبي نفسك .

ـ طيب . . طيب ، سوف تلاقيني في القنيطرة .

ـ لكن عندنا استنفار الآن .

ـ يمكن أن تأتي غدا .

ـ صدقيني لا يوجد مشكلة . ولكن كيف علمت ؟ .

ـ انت تعرف بنت الجيران مخطوبة لضابط بالجبهة هي التي أخبرتني .

ـ آه ـ اطمئني . سلمي على والدي .

ـ ان والدك قلق عليك جدا . لو تشاهده الان ، يسير في الغرفة منذ سماعه الخبر ، يريد أن يسافر لعندك ليتأكد . التلفون لم يتوقف منذ ساعة حتى الان وأصدقاؤك يسألون عنك .

لقد انبسط وجه الملازم لهذه المكالمة المفرحة . ووضع ساقا فوق ساق وهو يلوح برجله الحرة ، يتحدث وكأنه يشعر أن هناك من يهمهم أمره ويقلقهم مصيره . وقد بدا أنه يريد أن يسأل أمه عن شخص يهمه سماع اسمه . لكنه امتنع بحضور الآخرين . وهكذا اكتفى بالقول .

سلمي كثيرا . وابتسم ابتسامة رضية .

ولكن الرقيب ١ الذي كان ينظر في وجه العريف محمد . قال له هامسا : لقد أقلقنا العاصمة . ووجه كلمة نابية الى العريف محمد وقال : لا بد من عقابك عقابا شديدا .

ورد العريف هامسا :

ـ احترم نفسك يا رقيب ١ . ولم يقل يا حضرة الرقيب ١ كما يقضي العرف العسكري .

بينما كان الملازم يتحدث بالهاتف .

كان العريف محمد ينظر الى المرشح أحمد . انه معلم مثله . لكنه يحمل الثانوية وهو يحمل الكفاءة . والمرشح من مرتبة الضباط وهو من مرتبة الأفراد . كان يشاهد كثيرا من الضباط في حوض الفرات ويسهر معهم ويزور نادي الضباط في المدينة . أما الآن فهو يقف أمام المرشح بل أمام الرقيب ١ الذي يهدده ويتوعده همسا . قال في نفسه : آه لماذا لم أدرس وأجد ؟ لو فعل ذلك لكان الان مرشحا بدلا من أن يكون عريفا ويقف أمام هذا الرقيب ١ باستعداد . تذكر أنه سهر في نادي ضباط موقع دير الزور وتعرف على كثير من الضباط برتب مختلفة . أما الآن فهو أمام الملازم ولا يسمح له بالكلام . وهذا

الرقيب ١ الذي يلفق التهمة كأنه يريد أن ينتقم منه . ولكن لماذا ؟ لا يعرفه سابقا . فقط يريد أن يظهر لقائد السرية بأنه نشيط وحريص ويعرف كل شاردة وواردة في السرية .

لقد شرد العريف محمد وتذكر والدته في القرية وهي تعمل بفلاحة الأرض . أرض الاخرين لتوفر بعض النقود لاخوته الذين يتعلمون في حماه . تذكر والده الذي لا يزال يطرق الدروب من أطراف البادية حتى الغاب لايستقر بمكان الا ويطرده الاقطاعي منها . تذكر نفسه لما كان معلما ، وعضوا في الحزب . وبعض المدربين بمدارس الرتباء كانوا بعثيين ، هو يعرفهم . ولكن أين هم الآن ليساعدوه . ليكلموا الملازم حتى يعفو عنه ؟

ماذا يعمل الآن ؟ لقد شهد عليه العريف زيد صادقا . انه غير طريق العودة . وخالف التعليمات . . الخ ولكنهم لم يسألوه لماذا ؟ والملازم لا يسمح له بالكلام حتى يشرح له الأمر . كل هذه الصور مرت كشريط سريع في ذاكرته والملازم يتحدث بالهاتف مع أهله في دمشق .

تذكر المدرسة واضراب الطلاب سنة ١٩٤٩ من أجل فلسطين ضد اتفاقية رودس . يومها كان نشيطا . تلقوا تعليمات من الحزب باغلاق السوق . فشارك بحماسة في تنفيذها . لا يخاف عندما يقتنع بشيء . والآن يقال عنه انه خائف ، ويخاف من الليل ؟!

في سنة ١٩٤٧ حصل على الشهادة الابتدائية وارسله والده من شرقي حماه الى الغاب . تذكر كيف حزمه واندە على الفرس حتى اذا تعرضت لوحش أو ذئب وهربت لا يقع عن ظهرها . لقد حزمه الى السرج وقال له لا تخف انها تعرف الطريق وتهاجم كل الوحوش . قطع مسافة خمسين كيلومترا على ظهر الفرس وعبر عند الشروق نهر العاصي . لم يكن يعرف السباحة ولكنه عبر بفرسه ليلا . والان يقال له أنت تخاف من الليل . كانت هذه الكلمة كمطرقة تدق على رأسه . نسي الدورية ونسي كل التعليمات التي قيلت له . لم يجب بعد ولكن عليه أن يصبر حتى يعرف النهاية . ماذا تكون ؟ ولكنه لم يتفاءل خيرا رغم أن الهاتف الذي تلقاه الملازم من أهله ، أشاع في نفسه الراحة والمرح .

نظر الملازم في وجه العريف محمد وقال :

ـ لقد أقلقت الدنيا بمخالفتك هذه ، ولا بد من احالتك للقضاء . لقد اعترفت ولم تنكر .

نعم . كما قال العريف زيد حصل وأنا مسؤول عن ذلك .

في الخارج سمعت مشادة كلامية بين العريف زيد وجندي من قيادة السرية . كان النقاش حادا بينهما فعلت أصواتهما .

قال العريف زيد :

ـ لقد أصر على الذهاب أنتم تعرفون . شجعه الجندي نويصر . والجندي نويصر يعشق بنتاً من القرية وكل السرية تعرف ذلك .

خرج الجندي يحمل الشاي ، ثم دخل الى خيمة الملازم . وافسح له العريف محمد طريقا ، ليضع كأس الشاي على الطاولة والثانية للمرشح . كان الملازم يتحدث عن معاقبة العريف محمد . عندما قال الجندي وهو يضع كأس الشاي أمام الملازم :

ـ نعم يا سيدي الجنود الذين كانوا ليلا في قرية جرابا هم من السرية . سمعت عن ذلك عندما كنت أشتري بعض الحوائج من حانوت القرية ، دخل الجنود الى بيت أم خلف وأنا أعرف الجندي نويصر جيدا عاشقا لغزالة . ومرات عديدة ذهبوا سوية . (لقد وشى بالجندي نويصر وهو صديقه) .

والتفت الملازم ، الى رقيب ١ السرية والى المساعد حسين والمرشح أحمد وقال :

ـ طبعا أنتم نيام . ثم ضرب على الطاولة بقبضة يده قائلا :

ـ لن أغادر السرية بعد اليوم وسوف أراقب كل شيء . كنت أعتمد عليكم واذهب ليلا الى قيادة الفوج أما الان فأنتم غير أهل للثقة . وركز نظره في وجه الرقيب أول :

ـ وأنت تجزم أنهم ليسوا من سريتنا .

وتململ الرقيب ١ قائلا بعد أن مط رقبته وحملق بعينين زائغتين :

ـ يا سيدي أنا واثق من كلامي ولكن يمكن أن يكون أحد الجنود قد هرب

ليلا الى بيت أم خلف .

الجندي نويصر يدعي أنه يرغب بخطبة ابنتهم . ماذا نعمل به ؟ هل نمنعه ؟ ماذا تريد يا سيدي ؟ قالها وهو ينظر بوجه المرشح عله يساعده .

كانت بين الحين والاخر تسمع رشات متقطعة . ويبدو أن وهج الشمس وحركة الاحياء في النهار شوشت عليها وأصبحت تصل صعيفة وكأنها مخنوقة . لكنها تظل مسموعة .

وكانت هناك مشادة بين جنود آخرين كانوا يلعبون الورق عن علبة حلاوة ، ويريدون من الجندي المغلوب أن يذهب الى الحانوت في قرية جرابا ليحضر لهم علبة الحلاوة ، وهو يتمنع . ووصلت المشادة الى حد الشتائم . كانوا من الفصيل الأول . فاستدعي المرشح أحمد . الذي أومأ له أحد أمار الحضائر وخرج مسرعا . وصمت الجنود عندما شاهدوا المرشح وكأن شيئا لم يكن .

غضب قائد السرية على الرقيب ١ . ونظر في وجهه بعد أن قطب حاجبيه وضرب الطاولة بقبضة يده اليمنى مرة أخرى حيث تناثر الشاي من الكأس الموجودة على الطاولة . وتبللت البطانية بالشاي ، وطار الذباب الذي حط على كأس المرشح أحمد حيث توزع في أرجاء الخيمة .

وقال الملازم :

ـ اذهب يا عريف محمد واكتب تقرير الدورية . وأبقى المساعد ١ حسين والرقيب ١ السرية .

كان سرب من الحمام البري ، الذي جفل من أثر طلقة بندقية في وادي السمك يحوم فوق السرية . ثم توجه الرف الى شرق الوادي . وراقبه بعض العساكر المولعين بتربية الحمام . صفر جندي من مكان تمركز الفصيل الثالث صفرات عالية متقطعة . استنفرت على أثرها الكلاب التي كانت راقدة في ظل مقطورة المياه .

كان العريف محمد لا يزال يلبس خوذته الفولاذية ، ولباس الدورية . عندما خرج استقبله العريف زيد مسرعا يريد أن يعرف حجم العقوبة . وكان قد ترك بندقيته وشرب الشاي وأخذ قليلا من الخبز .

أسرع وهو يمط رقبته هامسا : **هل أحالوك الى القضاء** ، أم اكتفوا بعقوبة انضباطية ؟ لقد حذرتك من هذا وليس بوسعي أن أتحدث .

ورد العريف محمد :

ـ لقد قلت الحقيقة . هيا معي الان سنكتب تقريرا عن الدورية .

وقال العريف زيد :

ـ وما هي العقوبة التي فرضها قائد السرية ؟

ورد محمد وهو يستعجل خطاه باتجاه مركز الفصيلة :

ـ لنسرع الان وبعد ذلك لكل حادث حديث يا رجل .

وقف جنود من الفصيل الثالث كانوا ينشرون بطانياتهم على الحجارة كي تصيبها الشمس بأشعتها ، وتطرد القمل منها . وقد لبسوا سراويلهم المائلة للصفرة من التراب الأحمر ، بينما راح جندي آخر يفرش بطانيته على الأرض وينظف سلاحه ويجفف ذخيرته التي تبللت بالماء عندما كان في وادي السمك يغسل ثيابه من القمل الذي علق بها .

قال له جندي واقف يعبيء مطرتين من المقطورة :

ـ **عريف قبضاي** . أنقذته من الموت ـ مشيرا الى الجندي الملسوع ـ المهم أنقذته .

وهز يده اليمنى ووضعها على حنفية المقطورة لحظة ثم أقفلها .

وأردف : السجن للرجال . المهم أنقذته . أنقذت حياته .

وهز العريف محمد برأسه مبتسماً ابتسامة حزينة .

ولكن العريف زيد قال : نحن في ورطة مع قائد السرية .

كان جندي آخر قد عبأ قصعة من مياه المقطورة وذهب بها ليسقي الفرس . الفرس الوحيدة التي يركبها قائد السرية في تجواله خارج الطريق العام أو عندما يذهب الى احدى القرى المجاورة لأن الطرق لا تساعد على سير السيارة بسهولة . وينقل الفلاحون المحصول على الحمير أو البغال وعلى رؤوس النساء وظهورهن . كانت الفرس عطشى . كانت تضرب بحافرها الأرض ، وقد بدا ان احدى رجليها فقدت الحدوة . وقد أبعدت الحجارة السوداء من حولها ،

حتى اذا تمرغت بالتراب لا تتأذى . كان السايس بدويا كما كان يبدو من شكله . وعندما مر حاملا قصعة المياه قال :

أنتم رجال لقد أنقذتموه . لا يهم السجن للرجال .

كانت همته عالية . فقد شمّر عن ساعديه القويتين وبدا شعرهما الاسود الكثيف وكذلك شعر صدره . لم يحلق ذقنه منذ يومين فظهر كأنه تيس أسود قص شعره قبل اطلاقه بين القطيع . كان يميل الى السمنة والقصر ، يتحدث بثقة ، لأنه سايس فرس قائد السرية . ويتابع قوله بسرعة :

ـ لا يهمكم سوف اتوسط لكم مع قائد السرية حتى يخفف العقوبة عنكم .

كان العريف محمد ينظر اليه وقد أنهكه التعب . حتى ذلك الوقت لم يرتح منذ غروب شمس نهار الأمس وحتى الان لم يخلع حذاءه ولا خوذته التي على رأسه ، وطوال الليل والرشيش معلق على كتفه وحتى هذه اللحظة . قال العريف زيد مجيبا على تعليقات السائس :

ـ طبعا نحن رجال بالشدائد ونتحمل المسؤولية . المهم اننا أنقذنا الرجل ولا يهم بعد ذلك ما يكون وأسرع السايس حتى لا تندلق قصعة المياه من يده . اسرع باتجاه الفرس التي هزت برأسها وهي تنظر اليه وقد تجمع الذباب والقراد أسرابا حولها ، وعلى معلفها . كانت تطرده بذيلها الطويل ، وأحيانا تهز رقبتها .

وكان هناك جندي من الفصيلة الثالثة التي يتواجد فيها الرقيب آمر الحضيرة الثانية جاء ليتأكد من صحة نبأ العقوبة .

ورد عليه العريف محمد :

ـ لم ينته التحقيق .

جاء إلى الرقيب مجند أمي من ريف حلب يرجوه أن يكتب له رسالة لأهله يطمئنهم فيها عن أحواله ، وكان هذا المجند متزوجا . هكذا بدا من كلامه الذي تابعه مع الرقيب بدون أن يتوقف : يا حضرة الرقيب تركت أمي مريضة ، وزوجتي حاملا ، ووالدي يعمل بالارض طول النهار . وأخي الثاني يرعى المواشي . أرجو أن تكتب لهم أن يطمنوني عن أحوالهم . أنا بخير ، يا حضرة

الرقيب . أنا بخير ما دمت بحضرتك ، أعمل معك . المهم اقرأ لي الرسالة مرة ثانية .

كانت بدلته التي يرتديها رثة فضفاضة استلمها من جندي مسرح لبسها قبله ، وقد خاطها بخيوط سوداء مع أن لونها أصفر. خاطها أكثر من مرة . وحلق رأسه على الصفر . ومع ذلك كان يهرش بين حين وآخر ، وكأن القمل قد تغلغل في شعره ، لم يحلق اليوم . ترك شاربيه على سجيتهما فظهر كأن عمره خمسون سنة . لم يرتد تحت بذلة العمل قميصا , وظهر حافي القدمين عندما خلع حذاءه في خيمته . وبدت رجله من الأسفل مثل نعل حذائه . كان يشير بيد واحدة الى الرقيب يريد منه أن يقرأ له الرسالة مرة ثانية . ويده اليسرى بجانبه وقد وقف باستعداد احتراما للرقيب الذي أوقف العريف محمد مستفسرا عن الجندي الملسوع .

قال :

ـ المهم أنقذت الجندي ، ولكن انتبه قد تكون العقوبة قاسية . أنت تعرف الطريق والأرض يا زيد . لماذا لم تعودوا فورا الى السرية ؟

وقال العريف زيد :

ـ لقد قلت له ذلك ولكنه لم يطاوعني .

ورد العريف محمد :

ـ المهم أنقذنا الرجل . قالها بلهجة ساخرة مرة .

ورد العريف زيد :

ـ عقوبة قاسية لا تعرف ماذا تعمل الآن ؟ .

ورد العريف محمد :

ـ علي أن أكتب الان التقرير لقائد السرية . وهو يتصرف . وتابعا سيرهما الى مركز الفصيل الثاني .

بينما كان الرقيب يقول للجندي :

ـ لقد قرأتها لك ألا تفهم ، أمك مريضة، وزوجتك ستولد في الاسبوع المقبل ، يمكن أن تكون قد ولدت الآن . الرسالة لها أسبوعان في البريد .

نعجاتك . واحدة (فطست) والأخرى باقية . وقد قص والدك الغنم وباع لك الصوف في حلب . أولادك بخير ابنك الكبير أصابه الرمد . لكنه شفي . اتى أخو زوجتك وزاركم . القمح قليل . هذه هي الرسالة ألم تفهم بعد.

وتوقف العريف محمد مع الرقيب قليلا ، بينما كان يقرأ رسالة الجندي . وقد تنبه بكل حواسه قائلا :

ـ ماتت نعجة ، لا حول ولا قوة الا بالله . . نعم ، نعم باع الصوف بحلب ، بكم باعه ؟

ورد الرقيب : لم يكتب بكم باعه ، لم يقل بكم باعه . ايه .

وهز المجند رأسه خائبا . بينما تابع الرقيب : ابنك الكبير أصابه الرمد .

وقال الجندي :

ـ والله صحيح . عندما كنت اجازة في الشتاء قلت لوالدته أن عيون الولد تبدو مريضة (صحيح) والله صحيح . لعنة الله على الشيطان . وماذا أعمل له الآن .

بسيطة زوجتك سوف تلد بعد أسبوع .

ـ آه . أتساعدني باجازة يا حضرة الرقيب بعد اسبوع . نظر في وجوه الحاضرين يريد أن يساعدوه لدى الرقيب لاعطاءه اجازة .

ـ فقال الرقيب :

ـ اذا كانت الظروف تسمح .

وقال المجند وهو يشير بيده الى الرسالة التي لم تنته بعد : أخو زوجتك زارنا ، آه ، أخو زوجتي صحيح . انه رجل طيب من عشيرةالبورجب ـ بالله انه رجل طيب . القمح قليل . ويرد المجند : له . له . القمح قليل وماذا يأكلون ؟

ويردف الرقيب : وكلنا بخير لا ينقصنا الا مشاهدتكم .

ويرد المجند : الحمد لله ، كلنا بخير ، الله الساتر . أرجوك يا حضرة الرقيب اكتب لي جواب الرسالة ، من ابنكم عمير ، أرجوك يا حضرة الرقيب . . .

وقطع الرقيب حديثه وقال للعريف محمد :

ـ تعالوا نشرب الشاي في الخيمة عندي . كان يريد أن يعرف ماذا حصل للدورية . وأصرّ على ذلك بدافع حب الاستطلاع والفضول ، ووافق العريف محمد وقال :

ـ عريف زيد اذهب الى الحضيرة ، نظفوا السلاح ودع الحضيرة ترتح الآن .

ومشى مع الرقيب خمسان . بينما لحق الجندي عمير بالرقيب ودلف خلف العريف الى الخيمة ، حيث قال الرقيب لأحد الجنود من حضيرته ، وكان يجفف ثيابه تحت أشعة الشمس على صخرة بازلتية سوداء :

ـ حضّر لنا الشاي يا عباس .

وتابع المجند عمير :

ـ أرجوك يا حضرة الرقيب اكتب لي جواب الرسالة . أرجوك .

وأجابه الرقيب : ـ بعدين . ولكن العريف محمد قال :

ـ بالله اكتب له رسالة . انت تؤلف قصيدة شعرية في لحظة !

ورد المجند عمير :

ـ الله يرحم الميتين من أهلك يا حضرة العريف ، أنت تعرف القراءة والكتابة ونحن لا نعرفها .

وأخذ الرقيب ورقة وقلماً وكتب بدون أن ينظر الى وجه العريف .

والدي العزيز ، أقبّل يديك وكذلك والدتي وسلامي لاخوتي . . .

مرّ سرب من الغربان متجها الى الغرب ، كانت كلاب الرعاة قد طردته من وادي السمك كانت الغربان تطير منخفضة ، متثاقلة من شدة الحر ، وقد حط قسم منها على أشجار السنديان القريبة من السرية وقسم منها تابع طيرانه ، وأسرعت بعض الكلاب على أصواتها تطارد التي توقف منها عن الطيران .

ثمة غراب خبيث حط على صخرة سوداء وعندما اقترب الكلب منه ، طار الى صخرة قريبة وتولى مطاردته أحد الكلاب حتى تعب الكلب ، ثم عاد وهو يلهث وقد تدلى لسانه من فمه ، وخواصره تخفق ، حيث رقد قرب مقطورة المياه

باحثا عن بعض آثار الرطوبة وعندما لم يجدها ، انتقل باتجاه وادي السمك ، تحت حمى الوهج والقيظ .

كان المجند عمير لا يزال يستعطف الرقيب بأن يقرأ له ما كتب في الرسالة .

فرد الرقيب خمسان متذمرا :

- سلمت على (أبيك وأمك) .

فقال المجند :

- أرجو أن تسلم على أم أولادي . وتذكر لها اني بخير . لا تنس أم أولادي . اكتب لها فهي تعتني بالأولاد .

وقال الرقيب خمسان بعد أن التفت اليه . وقلم الرصاص بيده :

- وبعدين غير السلام وانك بخير. ماذا تريد ؟ آه . آه قال المجند عمير : صحيح ، اكتب لوالدي ، أن يأخذ آذان النعاج التي ماتت للحجي صاحب الخان بحلب . والدنيا محل هكذا قالوا بالمكتوب . قل لوالدي أن يأخذ قمحا من الخان لزوجتي وأولادي . سيقترض من الخان وماذا نعمل يا حضرة العريف ؟ موجها كلامه للعريف محمد الذي جلس متربعا على بطانية الرقيب داخل الخيمة - ماذا أعمل ؟ أنت تعرف ، كنا مكتومين ، ليس لنا هوية ، نحن بدو ليس لنا هوية رسمية . وهذه الأيام بدأنا نتحضر لقد سجلنا نفوسنا في الدوائر الرسمية . وقد قدر الطبيب عمري بعشرين سنة لم يكن صادقا ولم أعرف ماذا كان يريد ؟ أرسلت له بعض الخراف ، أنا عمري ثلاثون سنة وعندي ستة أولاد وزوجة . قلت له عمري ثلاثون سنة ، لا أعرف القراءة ، ولا والدي يعرفها . فأخذ ابهامي ، آه ليت ابهامي كسرت قبل أن أوقع على الطلب . قال عمري ثلاثون ؛ وبعدين أتيت لأخدم خدمة العلم ، والاولاد والزوجة والحلال عند أهلي ، والله يرعاهم ، يا رب . ورفع يديه للسماء متضرعا طالبا الرحمة من رب العالمين .

ثم تابع : عسى الحجي في الخان يسلفهم الحبوب هذه السنة ، الحجي يريد الفائدة ، القرش قرشين .

هو مثل القاشوش آخر السنة ، يقش الانتاج ونعود للدين مرة ثانية منه .
ماذا أعمل ، الله يساعد البدو هكذا حياتنا يا حضرة العريف .

وغرق العريف محمد في بحر ذكرياته : تذكر والدته وأهله ، ووالده والفلاحين في الريف . تذكر البدو ، والخان في حماه ، والحجي والديون ، مرّ شريط خاطف في لحظة ، كأنه صار في القرية . وأخرجه من شروده صوت المجند عمير ؛ أسرع بكتابة الرسالة .

ثم ضرب كفا بكف وقال :

ـ أم خالد يمكن تكون ولدت . لا نعرف ماذا ولدت ولدا أم بنتا . وماذا أعمل الان والحلال أغلبه مات ؟ الأولاد يجوعون يا حضرة الرقيب ماذا تعمل يا عمير ؟ كان كأنه يحدث نفسه وعيناه تستعطفان الرقيب عساه يساعده باجازة ، أسبوع واحد يا حضرة الرقيب اسبوع اجازة ، حتى اطمئن على زوجتي وأولادي ، وبعد ذلك أنت تعرف يا حضرة الرقيب لا أخاف لا بالليل ولا بالنهار ولا أخاف اليهود ، ليت الحرب تقوم عسى يعود الناس الى ديارهم .

قال الرقيب :

ـ الان الرسالة وفي آخر الشهر قدم اجازة ، خذها الى بريد السرية .

كان قد أخذ الرسالة الأولى وطواها بشكل جيد ووضعها في جيبه . على أمل أن يقرأها له عريف آخر مرة رابعة .

نهض مسرعا قبل أن يذهب البريد الى قيادة الفوج . قال :

ـ آه البريد يعود عند المساء يا رب .

حيا الرقيب بعد أن وضع واقية الشمس على رأسه وخرج حافياً باتجاه خيمة رقيب ١ السرية . لحق به كلب مبرقع وهو يلوح بذيله ويرنو اليه ، ظانا أنه سيأتي بطعام من خيمة رقيب السرية . بينما لاحقه كلب آخر بنظره فقط وضوى متكاسلا في ظل خيمة الرقيب خمسان آمر الحضيرة .

تعلو الشمس الى قبة السماء ويزداد الهجير شدة ، وترتفع درجة الحرارة الى الأربعين حتى الكلاب التي تجول بين فصائل السرية أخذت تهرب من الهجير ، باتجاه جدول المياه الوحيد في تلك المنطقة .

استنفرت حضيرة من السربة ، وثلاثة مراصد أمامية في جـ ١١ ، وتل أحمر وغرب جرابا ، ترصد تحركات العدو ، ولا تخبر عنه شيئا ، حيث لا يوجد أي اتصال معها الا في المساء بعد عودتها .

أسرع الى خيمة الرقيب رقيب آخر وعريف يريد أن يعرف ما حصل مع الدورية ، ودخل رقيب آخر ، أصبحوا خمسة في خيمة صغيرة على بطانية الرقيب .

عندما دخل المجند يحمل الشاي بواسطة قدحين من التوتياء كانت يداه تهتزان ، وكاد يتعثر بحبل الخيمة ، وقد دلق قليلا من قدح الشاي على البطانية ، وصرخ به الرقيب خمسان قائلا :

ـ على مهلك ألا ترى أمامك ؟

وارتبك المجند . لكنه وضع القدحين على البطانية . كان يرتدي بدلة العمل بدون نطاق ، لانه في حالة استراحة . علق على وتد الخيمة الأوسط الرشيش ، ومخزنا كبيرا يستوعب أربعين طلقة ومخزنا صغيرا يستوعب عشرين طلقة . هناك في الزاوية كيس فيه أمتعة الرقيب وحقيبة من التنك فيها ، شاي ، وقليل من السكر من أجل الضيوف ، أما البطانية الثانية فقد لفت على شكل وسادة .

تربع الأشخاص الخمسة في الخيمة ،يرغبون تبادل الحديث . فقال أحدهم وقد أخذ سيجارة وأشعلها بفتيل كان في جيبه : لقد عرفنا انكم أنقذتم حياة رجل ، والاعمار بيد الله . ولكن هل أنت ابن جد حتى خطرت على بالك هذه الفكرة ؟

ورد رقيب آخر من المناطق الشرقية قائلا :

ـ هناك شيوخ من رجال الله يدقون الدفوف ويضربون أنفسهم بالخناجر والبنادق ولايتأذون . وأردف عريف آخر يصادق على كلام الرقيب بعد أن تنحنح ومال يمنة ويسرة وهو جالس عند باب الخيمة لأن المكان لا يتسع له ، كان نحيفا ، ورقبته طويلة ، وتبدو جوزة حلقه ظاهرة تعلو وتهبط عندما يبتلع ريقه . وقد برزت عظام رقبته وكأنه لم يأكل منذ سنوات رغم أن الشمس قد لوحت

وجهه ، ووشم رأس أنفه وخده وذقنه ووشم شجرة على يده اليسرى ، وسيفا على يده اليمنى ، بعد أن تمكن من جلسته ، التفت الى يمينه وقال للرقيب :

ـ (سر الله في خلقه يا رجل) . اللهم ارزقنا رضاهم . ولم يفسر كلمة رضاهم هذه .

وقال رقيب جلس في صدر الخيمة واتكأ على بطانية الرقيب خمسان :

ـ يا لله ، ماشي الحال ، قد يعاقبونك ، والاولى «أن يكافئوك .

وقال آخر :

ـ المكافأة هي استراحة أربع وعشرين ساعة وقد تذهب الى قيادة الفوج أو الى الدكان . في جرابا دكان مثل الدكان الموجودة في قيادة الفوج .

ونظر رقيب آخر قائلا :

ـ المهم كيف حال اخوات غزالة ـ وضحة ووصفة . وغمز بعينه اليمنى .

من باب الخيمة تبدو شجرة سنديان عالية ، وقد اتكأ على جذعها ثلاثة جنود بعد أن فرشوا احدى بطانياتهم ، وخلعوا أحذيتهم . وأخذ أحدهم يعزف على شبابة عزفا حزينا . كان الثلاثة يحتسون الشاي بواسطة أقداح من التوتياء .

استرعى العزف انتباه بعض المجندين الذين أنهوا تنظيف أسلحتهم . فذهبوا اليه . حتى أصبح عنده حضيرة من الجنود افترشوا الأرض . وراحوا يغنون الميجانا والعتابا ، وقام أحدهم حافيا ، وهو يمسك سيدارته بيده ، وأخذ يرقص على لحن الشبابة ، ويصفق له رفاقه . ورغم التعب البادي على وجوههم من سهر البارحة . بدوا وكأنهم يستعدون للهجوم بعد لحظات . وراح أحدهم ينشد اهزوجة :

«يالله يالله شدو الخيل ، الويل الويل ، للعدو الويل الويل» .

وردد الآخرون أهازيجه بينما راح عازف الناي ، يرفع صوت شبابته .

قال الرقيب :

ـ لنكتب التقرير بسرعة . كلنا كتبنا تقارير الكمين والدورية . سمعنا رشات متتالية الساعة الواحدة بعد التلاقي . (والبرجكتور) كل يوم يمسح المنطقة . أضف أنت . لسعت أفعى مجندا من أفراد الدورية وأسعفناه .

قال العريف محمد :

- أين أسعفناه ؟

وأردف الرقيب :

- لا داعي أين . فقط أسعف وتأخرنا في الاسعاف حتى الشروق .

وأردف آخر :

- رقيب السرية لا يحب الجندي نويصر . يريد أن يعرف كل شيء لماذا ؟

وغمز بعينه قائلا :

- آه . يزاحمه على غزالة . هذه هي الحقيقة ولا أحد يرغب قولها . هذا سر أنا لم أقل هذه الكلمة . يالله نسمع الشبابة . سلم التقرير للمساعد ١ حسين قائد الفصيل . الملازم ضابط جديد يحاول رقيب السرية ايهامه بأنه يعرف الجن في هذه المنطقة .

وأردف رقيب كان يراقب الجنود الذين يفرحون وقد أخذ صوت الشبابة منه كل مأخذ . فرد بدون شعور وبهدوء . ناظرا باتجاه الشجرة : يالله . يالله شدو الخيل . وضحكوا جميعا . . .

- عريف محمد قل لنا . قل كيف وضحة ؟ طبعا غزالة ذهبت مع نويصر لحلب الماعز بالدار . آه ؟

قال آخر :

- عند جيران أم خلف بنت جميلة . واحمر وجه الرقيب صاحب الخيمة ، وضحك الذي قال ذلك .

ونظر في وجه العريف الذي كان يجلس عند باب الخيمة قائلا :

- أنت تتسلل الى البيت من الجهة الغربية . ايه .

وأردف الرقيب خمسان :

- انظروا الى رقصة الجنود عند الشجرة . يا عريف محمد نحن نتعاون معك . خذ هذا التقرير وسلّمه للمساعد ١ حسين . ها هو خارج من خيمة الملازم . أسرع .

توقف العزف عندما شاهدوا المساعد ١ حسين خارجا من خيمة الملازم

وكذلك رقيب ١ السرية .

وتفرق المجندون كل الى فصيلته وهم يلتفتون حولهم .

وحيا العريف محمد المساعد ١ حسين قائلا :

ـ هذا تقريري يا سيدي المساعد ١ .

قال المساعد ١ حسين بلغته :

ـ هذا تقريرك ، ـ وكأنه يخاطب ـ انثى هي أنت كتبت التقرير والا هي اللي كنت عنده بالخيمة علمك هذا التقرير . هي قالت انك كنت في قرية جرابا تسعف المجند التي لسعته الأفعى والمرشح أحمد يحقق بذلك . وغدا النتيجة . يعاقبك قائد السرية أولا يعاقبك (هي مسؤلة) .« يالله الى الفصيلة اعتن بحضيرتك فورا ، وامسحوا الأسلحة ، لم تبت هي بوضعك .

كانت كلمات المساعد ١ حسين رغم طيبته تبعث على الضحك لأن الرقباء تحلقوا حوله . قائلين :

ـ يا سيدي المساعد يجب حل المشكلة . القمل أصاب الجنود هل كنتم تناقشون هذه المشكلة مع قائد السرية ، وهل أوجدتم حلاً ؟ أين طبيب الفوج ؟

ورد رقيب آخر :

ـ هذا مرض أصاب السرية حتى الشمس لا تقتله . أصبحت الأرض تنبع بالقمل الأحمر ، مثل لون الأرض . انظر يعلق على بدلات عملنا . وعلى «الكيتر» . فماذا نعمل ؟

ورد المساعد ١ حسين :

ـ هس ، هس ، اخفضوا أصواتكم ، لا نريد أن نزعج الملازم قائد السرية بهذا الموضوع ، ننظمه نحن مع رقيب ١ السرية ونغسلكم في وادي السمك . لا نريد أن يسمع الملازم . هيا الى فصائلكم . وامسحوا الأسلحة هيا .

ذهب العريف محمد مع المساعد ١ حسين الى الفصيلة الثانية . ودخل خيمته وجمع آمري الحضائر الثلاث رقيبين والعريف محمد . وقال بلهجة عسكرية ، وبصوت هادىء : هذه المرة قد تنتهي على خير . صحيح أن العريف

محمد أنقذ رجلا يمكن أن يموت والأعمار بيد الله ، ولكن يجب عدم مخالفة الأوامر . ان قائد السرية لا يرغب بمخالفة الأوامر . والمرشح أحمد يحقق بالموضوع . بعدين بتشوف هي . راقبوا مسح السلاح والتفقد .

عاد العريف محمد الى حضيرته . ودخل الخيمة وتحلق حوله المجندون والجنود ، كان يأكل خبزا وشايا أعده له الجندي نويصر الذي راح ساهما يفكر بما يجري حوله .

واشتد الهجير ، ومن بعيد لاح في الأفق بغلان قادمان من الشمال الشرقي على الطريق الوعرة يحملان التموين الى السرية .

وعلى شجيرات قريبة انطلق تغريد عصفور فقد أنثاه ، وبدا يبحث عنها ويصيح كأنه ينوح .

صوته لفت انتباه الجنود .

بينما كانت حمامة تنوح على شجرة قد فقدت فرخيها ، يبدو أن ثعلبا تسلل قريبا من عشها والتهمهما .

سأل الجنود باهتمام عن العقوبة وماذا سيكون مصير العريف محمد ؟

قال أحد المجندين :

ـ الجندي نويصر قال أنه السبب في كل هذه المشكلة .

وأردف الجندي الذي بدأ يتماثل للشفاء قائلا :

ـ لا أنا سبب المشكلة الرئيسي . ولقد حضر العريف الممرض وأعطاني حبتين من السلفات ، ودهن يدي بصبغة حمراء من اليود ، هذه كل الأدوية التي معه .

قال العريف محمد :

ـ لا يهم . امسحوا أسلحتكم ، وجلس يشرب الشاي في خيمته مع الجندي نويصر والمجند الآخر ويتناول الخبز معهما .

«لا حول ولا قوة إلا بالله» قال المجند . ولكن الحمد لله لا يزال هناك أناس طيبين رغم أن المساعد 1 حسين شديد فهو يحب الخير لجنوده .

وأردف العريف محمد : وكذلك المرشحان . كل الناس خير وبركة .

وجلسوا صامتين . بدا نويصر وكأنه في عالم آخر . وصاح العريف بأعلى صوته :

ـ ايه أين أنت يا رجل ؟

وأردف :

ـ أفكر ماذا أعمل . الذئاب في الغرب قتلوا أهلها والان العادات والتقاليد . آه ؟

ـ وماذا بعد يا رجل ؟ الصبر الصبر مفتاح الفرج . والرزق على الله . تناول طعامك الان .

ودخل منطقة الفصيلة المرشح أحمد حيث صاح بأعلى صوته : عريف محمد .

وهب الأخير مسرعا باتجاه خيمة المساعد ١ حسين التي دخلها المرشح أحمد وخلفه الجندي نويصر يريد أن يعرف ماذا يحدث .

كان المرشح يرتدي بدلة عمل مكوية لتوها ، ورغم أنه اجتهد في تنظيفها ، الا أن الغبار لا يزال عليها . حيث كانت البقع تتناثر فوقها في أكثر من مكان ، وقد لبس حذاء أفضل من حذاء الجنود ، هو حذاؤه في كلية الاحتياط . وحاول جاهدا أن يغسل الكيتر بالصابون حتى يبدو نظيفا ، وحزم وسطه بنطاق من الجلد يشده على وسطه بينما علق على اليسار مسدسه الحربي ، مسدس قائد الفصيل . وعلى كتفه شارتان خضراوان جديدتان لا يضعهما الا عند ذهابه الى القرية أو لبعض المناسبات . وقد حلق ذقنه لتوه . وترك شاربين قصيرين . وشعره كان مشعثا يشبه شعر الماعز . مع انه اعتنى بتصفيفه ، وفتح بعض أزرار سترته . فظهر قسم من صدره وشعره الذي يصل حتى رقبته ، ومن بعيد يخال المرء أنه لبس قميصا أسود تحت بدلة العمل . ورغم ذلك فعيناه الصغيرتان كانتا تنمان عن طيبة لا حدود لها . كان بين الحين والاخر يهرش تحت ابطه . لقد استقبله المساعد حسين ، وكاد يقدم له الفصيل . لولا أن الموقف غير ملائم أغلب الفصيل كان بحالة الاستراحة ، ما عدا نقطة انذار فيها جندي مراقب .

وأسرع العريف محمد وأمار الحضائر الى خيمة المساعد ١ حسين . ليعرفوا ما آل اليه قرار قائد السرية . ولحق بهم العريف زيد أيضا والجندي نويصر ، حيث قدرا أن تطالهما عقوبة أقل . ووقفوا جميعا أمام الخيمة بعد أن أدوا التحية للمرشح أحمد . وساد صمت . صمت ثقيل . لقد سكنت الريح في ذلك الوقت ، ولم يعد الطقس يحتمل من ارتفاع الحرارة .

قال الرقيب آمر الحضيرة الأولى :

- انظر يا سيدي ، الدنيا حريق ، أشعة الشمس تلسع الجباه يا سيدي المرشح .

ورد المساعد ١ حسين قائلا :

- تفضل يا سيدي ، هل تشرب شاي ؟ .

وأردف العريف :

- هذا الحر يلزمه الشاي يا سيدي .

ولكن المرشح قال :

- الوقت ضيق لا بد من الذهاب الى القرية والتحقيق هناك ماذا عمل الجنود البارحة . في قرية جرابا . يجب أن يعرف قائد السرية قبل فرض العقوبة ؟

لقد وقعت كلمة التحقيق على الجندي نويصر مثل طلقة رصاص واصفر وجه العريف زيد قليلا .

وقال المساعد ١ حسين :

- كل شيء تحقيق ولجنة تحقيق .

فقال المرشح :

- نعم كل شيء تحقيق هذه هي الأوامر . وقد يلحق رقيب ١ السرية بنا حتى يكون التحقيق واضحا . وسوف اصطحب العريف محمد .

ورد المساعد ١ حسين :

- ولكنه لم يمض عليه الا يوم واحد .

وأردف المرشح : الجندي نويصر ، يكفي فالجندي نويصر يعرف القرية

وهو من المنطقة .

ساد صمت ثقيل كأن الحجارة السوداء الثقيلة جثمت على صدر رقيب الحضيرة الثالثة . كان رقيبا متطوعا من منطقة حوران ، ويعرف السكان جيدا ، فقد ترفع الى رتبة رقيب منذ ثلاث سنوات وقريبا سيكون رقيب أول . تبدل لونه أكثر وانسحب الى خيمته ونسي أن يحيي المرشح . ولم يعقب الأخير على ذلك ولكنه نادى على الجندي نويصر . ولاذ الأخير بالصمت .

كانت بعض الطيور الصغيرة ، تنتقل من شجرة الى أخرى ، واقتربت أكثر حول مربط الفرس تبحث في روثها عن غذاء لها .

ان وقوف أكثر من خمسة أشخاص يعني أن هناك مشكلة . وينظر احد الكلاب فيسرع اليهم لعله يجد طعاما أو بعض فتات الخبز . وأسرع جرو صغير الى ظل جدار خيمة المساعد ١ حسين مشرئبا برأسه الصغير ، وكان مبرقعا أبيض وأسود ، اذن بيضاء والثانية سوداء . ينتظر فتات الخبز . وأسرع جندي يبدو أنه كان راعيا وحمله بين يديه وأخذه الى خيمته والجرو يحاول أن يهرب ولكنه استكان بين يديه ، ولم تدافع عنه أمه القريبة منه . وعاد ليسمع عزف الشبابة من جديد رغم الحرارة .

جاء رقيب ١ السرية وكان غاضبا جدا وقال :

ـ لقد خلقتم لنا مشكلة يا مساعد ١ حسين ، قد لا تنتهي بخير . وأراد أن يوبخ العريف محمد ، وكادت تقع مشادة كلامية لولا تدخل المرشح قائلا :

ـ أنا رئيس لجنة التحقيق .

وتعاطف العريف زيد مع رقيب ١ السرية قائلا : لم يوافقني العريف محمد .

ولكن المساعد ١ حسين قال :

ـ المرشح الان يحقق بهذا الموضوع .

فقال رقيب ١ السرية :

ـ يجب أن يكون التحقيق في بيت أم خلف ويكفي . ما رأيك يا سيدي المرشح ؟ .

ولكن المرشح أحمد أجاب :

ـ سوف نزور القرية وفي حانوتها نسمع الكثير ، وكذلك أنا أعرف بعض الرجال هناك .

وأردف رقيب آخر :

ـ وهل ستذهب الى القرية الآن ؟

فقال المرشح :

ـ وهل الذهاب الى جرابا ممنوع بالنهار ؟ التعليمات تقضي بالمنع ليلا . والجنود كانوا ليلا هناك ، ماذا كانوا يعملون ؟ هذا ما نريد أن نعرفه .

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ لقد حاولت مع الملازم فرض عقوبة انضباطية للعريف محمد وننهي المشكلة . ولكن الملازم يشك بأن هناك أشياء يريد أن يعرفها . ذهب وأشار بيده باتجاه الملازم الذي ركب الفرس وذهب الى قرية مجاورة بجانب وادي السمك ، ولحق به سايس الفرس . وتابع موجها حديثه الى بعض الرقباء ، وكأنه يحذرهم : لم يقبل الا بذلك ؟

وطرح الرقيب فكرة أن يذهب مع المرشح من كل فصيلة رقيب يساعده في التحقيق . قالها وغمز بعينه الرقيب ١ وحسم الأمر المرشح أحمد قائلا :

ـ لن يذهب معي الا العريف محمد ، والجندي نويصر ، وسأعود مساء .

وأردف : يالله عريف محمد . اجلب مسدسك وأنت ـ يقصد نويصر ـ احمل بندقيتك مع مطرتين مياه .

ودخل خيمة الرقيب الاول المساعد ١ حسين قائلا :

ـ أعندك شاي ؟ الحر لا يقتله الا الحر . وساد صمت . ذهب كل الى خيمته . وبقي الرقيب ١ عند المساعد ١ حسين .

كانت أشعة الشمس تنعكس على الحجارة السوداء في التماع عند الظهيرة . وتحرك المرشح أحمد ، وخلفه العريف محمد ، وكذلك الجندي نويصر . الطريق لا يستوعب الا شخصا واحدا فأمرهم أن يسيروا برتل ، كل منهم خلف الآخر .

ساد صمت ثقيل في الدقائق الأولى ولم يتكلم المرشح أحمد . كونهم يتسلقون الطريق الى أعلى الهضبة وهو طريق ترابي صخري ، والاحجار البازلتية وعرة وبعض شجيرات السنديان التي قصمت أوراقها الماعز تلتصق بالأرض لشدة الحر . رافقهم أيضا كلب لونه أبيض ، كان يمشي في ظل الجندي نويصر ولا يفارق ظله . يتقي فيه وهج الشمس . وقفز ثعلب من أمام شجرة كان يستظل بظلها . ونبح الكلب . فأطلق المرشح طلقة من مسدسه ، كان الثعلب قد غاب بين الصخور واختفى دون أن يلحظه . ولم تثرهم مثل هذه المناظر لأن هناك ثعالب كثيرة وكذلك ذئابا وخنازير برية كثيرة .

كانت الأرض مقسمة الى ، مقاطع ومصاطب ، بين الأحجار البازلتية لتهيئتها للزرع . والزراعة صعبة في هذه المقاطع من الأرض . وقد جهد الانسان من أجل اصلاحها أوليا . لكنها كانت تصلح للرعي لأن تربتها خصبة جدا وأمطارها في الشتاء غزيرة وصيفها حار ، تقع على مستوى أقل من سطح البحر ورطوبتها عالية بسبب وجود بحيرة طبريا ومياه نهر الشريعة ، والحولة التي كانت بحيرة سابقا ثم جفت الآن .

كانوا يمشون بهدوء وكأنهم في دورية استطلاع ، وقطع الصمت المرشح أحمد قائلا ، دون أن يلتفت خلفه :

ـ عريف محمد ، أين كنت معلما ؟ نعم ؟! رد العريف .

أين كنت معلما ؟ .

كنت معلما في دير الزور في قرية الصور وقرى على نهر الفرات . علّمت في البداية عند تقاطع الفرات بالخابور وفي السنة الثانية على نهر الخابور .

رد المرشح : جيد . التعليم مهنة شريفة . وأنا أيضا كنت معلما . دخلت دار المعلمين وتخرجت وأعلّم الآن في ريف دمشق .

فقال العريف محمد :

ـ اذن لو حصلت أنا هذه السنة على الشهادة الثانوية لعدلت وضع خدمتي في الجيش وأصبحت مرشحا .

وأجاب المرشح أحمد : لا تيأس أمامك وقت . السنة في أولها .

كانوا يسيرون ببطء والحديث يبدو عاديا لان الاثنين في مستوى واحد مع فارق الرتبة ، ولزم الصمت الجندي نويصر . الذي شرد بخياله الى . . الله أعلم . . كم هي جميلة هذه الغزالة ، صحيح أنها ليست سمينة . كما ترغب والدتي من أجل العمل بالفلاحة والرعي ، ولكن يمكن أن تتحسن بعد الزواج . ولكن هل أستطيع أن أدفع لوالدها مهرها ؟

المهر غال . طلب خمسين عنزة ، ومن أين أجلب له خمسين عنزة ؟ لو بعت كل ما يملكه أهلي لما جمعت هذا العدد . ما العمل ؟

وسأل العريف محمد المرشح مقاطعا شروده قائلا :

ـ يا سيدي المرشح ، لماذا تمر البوسطة على الطريق من غرب جرابا ، وتصل الى البطيحة ولا يطلق عليها النار .

ورد الآخر قائلا :

ـ لا أعرف ولكن أعتقد أن اتفاقية رودس بين العرب واسرائيل تنص على ذلك .

وأردف محمد ؛ آه . آه . اتفاقية رودس .

وأجاب المرشح : لماذا ؟

وأردف محمد :

ـ كم من المظاهرات كانت في مدينة حماه ، عندما كنت طالبا في الصف السابع ؟ كل يوم كنا نتظاهر ضد اتفاقية رودس يا سيدي . كم شرح لنا الأستاذ عن هذه الاتفاقية بين العرب واسرائيل ؟؟

كان حمار كسول يتسكع هابطا من القرية باتجاه وادي السمك طلبا للماء ، يسير بهدوء على الطريق ولكن كان لا بد للجنود من أن يتوقفوا لأن الطريق لا يمررهم والحمار في آن واحد ، فكان لا بد لهم أن يتنحوا جانبا حتى يمر الحمار . ومر الحمار ولم يعرهم أي انتباه .

وضحك المرشح أحمد قائلا :

ـ الطريق للحمار . ما رأيك ؟

وقال العريف محمد ضاحكا :

ـ انه عنيد ، ولو توقفنا يوما بأكمله لما أفسح لنا الطريق .

وقطع المرشح كلامه قائلا :

ـ قل يا نويصر هل كنت البارحة عند غزالة ؟

لم يجبه الجندي نويصر . فأجاب العريف محمد :

ـ اذا كان الهدف نبيلا ما هو المانع ؟

وأردف المرشح :

ـ الهدف نبيل . نعم الهدف نبيل . كل يوم نصف الرقباء الذين يرتاحون في السرية يهربون ليلا الى القرية . والهدف نبيل ؟

لم يسمع نويصر وكأن المرشح لا يتحدث عنه .

وتابع المرشح موجها الحديث الى العريف محمد :

ـ أنت تعرف سنة ١٩٤٩ عمت المظاهرات سورية قبل اتفاقية رودس وكيف تتصور الان الاوضاع ؟

وأردف العريف محمد قائلا :

ـ الحقيقة . لا يمكن لكل فرد منا أن يدعي المعرفة . ولكن هناك احزابا في البلاد .

وسأل المرشح بشكل مفاجيء . وهل أنت حزبي يا سيدي المرشح ؟

ورد المرشح :

لا . لا . أنا لست حزبيا . لأن الحزبية ممنوعة في الجيش .

وأردف العريف محمد :

ـ اذن قبل مجيئك للجيش كنت حزبيا .

فرد قائلا :

ـ حتى وأنا معلم لم أكن حزبيا . ولكني أحب القومية العربية واستمع الى خطب عبد الناصر . ضد الاستعمار . فالثورة الان في مصر قائمة . هل تحب عبد الناصر ؟

ـ طبعا وهل يوجد انسان في الوطن العربي لا يحب عبد الناصر ؟ طيّر الملك والان بدأ صراعه مع الانكليز والصهيونية .

هذا صحيح ـ قال المرشح ـ لكنني لا أحب الأحزاب لم يسمح لي والدي بأن أنتسب الى أحدها . حالة يا رجل . الحالة التي نحن فيها . عندما حصل انقلاب الزعيم . وقاطعه العريف محمد قائلا :

ـ هل تعرف ؟ عندما حصل انقلاب الزعيم هللنا له كثيرا ، لم نعرف ماذا يدبر لنا المستعمرون ، في البداية الانقلاب على شكري القوتلي وخالد العظم ، وفي النهاية أنت تعرف ما حصل ؟ .

وأردف المرشح :

ـ بالنهاية كانت بهدلة ، ووقعت اتفاقية رودس من قبل الزعيم حسني الزعيم .

كانوا يسيرون في رتل وبهدوء يصعدون الى قرية جرابا على قمة التل ، والحديث يدور حول اتفاقية رودس .

بينما كان الجندي نويصر يفكر بالليلة السابقة . أثناء حلب الماعز ، كيف وقفت بجانبه غزالة ولمس ساقها ثم رفع يده الى الأعلى الى فخذها ، واقتربت منه هي أكثر ، حتى وصل الى المناطق الساخنة ، وكيف دلق الحليب من خوذته بعد حلب الماعز ، ولم يعرف ماذا حدث له بعد ذلك . ألقت بنفسها عليه . كان يتخيل كأنه الان معها يتلمس أردافها . . آه ولكن جارها خالد أبو خليل ، يريد أن يتزوجها سيدفع لوالدها خمسين رأساً من الماعز ويأخذها ، معقول هذا ؟ انه رجل خبيث .

كان يضع بندقيته على كتفيه كأنها عصا راع يسوق بها قطيعه ، يقسم لنفسه . بأن لا يدع أبا خليل يأخذ غزالة منه ، ولكنه جندي لا يستطيع أن يشاهدها كل يوم والغيرة تكاد تقتله .

العرق يتصبب على جباههم ، وبدأ يظهر فوق بدلات العمل . القرية ليست بعيدة . اقتربوا قليلا ، كانت الفتاة ابنة خالد الكبيرة أكبر من غزالة تجمع بعض الحطب من الأرض ، عرفها نويصر من بعيد . وكانت تعرف أن أباها يرغب بالزواج من غزالة ضرة على أمها . ولكن ما العمل ؟ القرار لوالدها . وقد يخرب بيته كل ما يملك يأخذه أبو خلف . وتعرف علاقة نويصر بغزالة

والصراع قائم حول غزالة المسكينة التي لا حول لها في مثل هذا الصراع . ولكنها تحب نويصراً ، الجندي الذي لا يملك أهله شيئا .

كل هذه الأفكار كانت تدق كالمطرقة في رأس نويصر وهو يسير خلف العريف محمد . في حين أخذ النقاش يحتدم بين المرشح أحمد والعريف محمد : كيف حصل الانقلاب ووقّعت اتفاقية رودس ؟

كان الطقس حارا ووهج الشمس التي أصبحت الان في كبد السماء ترسل أشعتها اللاهبة على تلك الصخور السوداء ، وهناك الشجيرات التي التصقت بالأرض تريد قليلا من الرطوبة في ظلها ، والعالية تريد أن ترفع رأسها علها تشم النسمة الباردة .

درجة الحرارة في الأربعين مع الرطوبة . كانت بعض العجول تستظل تحت شجيرات قليلة الارتفاع بينما جلس بعض الاولاد في ظلها . كان ثمة كلب بين البقر .

قال المرشح :

ـ محمد هذه الاتفاقية ، أنا شخصيا اعتبرها خيانة ما رأيك ؟ .

وقال العريف محمد :

ـ خيانة وبس ؟ لكن العين لا تقاوم المخرز . في انقلاب الزعيم كنا نحن في مدرسة داخلية وحتى يرضينا أرسل مع كل وجبة أكل قليلا من الحلويات . وبعد الانقلاب عليه . انقطع ارسال الحلويات الينا فاعتبرنا الحلويات حقا (مكتسباً) وأضربنا من أجل ذلك . فأعادوا لنا الحلويات . هذه فوائدنا من انقلاب الزعيم . يا سيدي . الزعيم برأيي رجل بسيط ، ولو استطاعوا أن يمرروا اتفاق التابلاين ورودس من قبل البرلمان لما حصل انقلاب الزعيم . ما هو رأيك ؟

ورد المرشح :

ـ انظر هناك في الحاكورة بنتان تجمعان الحطب . ايه يا نويصر ، هل تعرفهما ؟

وتوقف المرشح ملتفتا الى الخلف كأن نويصر ليس معهم : أنا أقول لك

هل تعرف هاتين البنتين ؟ وأشار بيده ناحيتهما . ونظر نويصر باتجاههما ، وحدق بعين بللها العرق ، حيث أنزل بندقيته عن كتفه وقال :

ـ نعم . هذه ، بنت خالد والثانية بنت «أبو خلف» .

وسأل المرشح :

ـ بنت «أبو خلف» ، غزالة ؟

وأجاب نويصر :

ـ لا انها وضحة ، الثانية .

وأردف المرشح :

ـ عنده ثلاث بنات للزواج . طبعا أنت ستأخذ الكبيرة . وصمت نويصر ولم يجب .

والتفت اليه المرشح قائلا :

ـ مالك يا رجل لا تجيب ؟ أنت تضحك على العائلة . اذن مثلك مثل غيرك .

وتنهد نويصر قائلا :

ـ والله يا سيدي . أنتم تعرفون أنني جندي لا أملك الا راتبي ووالدها يريد خمسين رأسا من الماعز .

قال المرشح :

ـ اذن الخلاف حول المهر ، بسيطة ، لا تخف سنحلها بعونه تعالى اذا كنت شجاعا . عادات سيئة . ووجه حديثه الى العريف محمد :

ـ هل عندكم عادات كهذه ؟

ورد العريف محمد قائلا :

ـ كل العرب مثل بعض ، عندنا أسوأ . نحتاج الى ثورة عنيفة تقضي على كل العادات والتقاليد البالية . ما رأيك يا نويصر ؟ .

ورد نويصر قائلا :

ـ أتمنى ذلك ؟ .

وتابع المرشح موجها حديثه الى العريف محمد :

ـ قلت ان ثورة مصر فاتحة خير . هكذا تأمل . لو كان عبد الناصر سنة ١٩٤٨ موجودا هل كانت اتفاقية رودس ترى النور ؟

ـ نعم . نعم . لو كان موجودا أنا واثق لما وقع أي اتفاق مع اسرائيل .

ـ أنا موافق معك . قال المرشح :

وأردف :

ـ أنا أرى من خلال النقاش يا محمد أنك حزبي ، سابقا قبل الجيش كنت حزبيا ، ولكن بالجيش نبهوا علينا كثيرا حول هذا الأمر . ولكن علينا أن نناضل ضد اسرائيل والصهيونية .

وتنهد المرشح بعمق . وأردف :

ـ ما رأيك بالعقوبة التي سيفرضها الملازم بحقك .

رد العريف محمد قائلا :

ـ هل تعرف يا سيدي المرشح . لقد اعتقلت عندما كنت معلما مع معلم آخر . وبالمناسبة كان اسمه كنعان . وهو الان مرشح من دورتكم .

قال المرشح :

ـ لا أنه مستجدي والان هو مدرب في كلية الاحتياط

قال محمد :

ـ كان مدير المدرسة التي علمت فيها في قرية صور .

وقال المرشح :

ـ انه شاب وسيم وأنيق دائما . ولذلك اختاروه مدربا بالكلية لقد أتوا بنا من المدرسة الى دير الزور في بيك آب ، الى الشرطة العسكرية . وكان قائد الشرطة ملازما اسمه ليون ، وصلنا في ذلك اليوم الى المبنى ودخلنا غرفة الملازم ، لقد تصورت نفسي انني معلم ومحترم من الناس ، فالبدو يحترمونني .

دخلنا غرفته . كانت أمامه طاولة لا بأس بها ، وعدة كراس غير مرتبة ، لم تكن مرتبة . . . لا أدري ؟! وهناك في زاوية الغرفة راديو يصرخ أغنية لنجاح سلام كما أذكر ، دخلت . لم أكن خائفا وعلى الباب شرطي ، لكثرة السهر

احمرت عيناه . لم يمنعنا من الدخول ، اعتقد أن وزني ووزن رفيقي يساويان وزنه .

كان الملازم أنيقا ووجهه أحمر . كان متضايقا ـ هكذا شاهدته ـ وأنا اجتاز باب غرفته . لقد ألقيت السلام وخلفي زميلي المعلم الاخر ، تصور نهض من خلف الطاولة . وكان يجلس الى يمينه رجل بدوي لا أذكر اسمه الان ولكن يبدو أنه من وجهاء المنطقة . هكذا بدا عليه من لباسه ، يدخن سيكارة ، وقد جلس متأدبا .

تصورت انه يبغي أن يسلم علي . كنت . أعرف كثيرا من الضباط .

كانت قطة ، بجانب جدار ، تترصد بحذر . نظرت الينا ولكن بدون اكتراث ولا خوف من الكلب الذي يراقبنا ويبدو انها كانت تراقب أفعى أو فأرا تصطاده . ـ يا رجل . فكرت انه يود مصافحتي ولكنه فاجأني بكفه على خدي اليساري بكل ما أوتي من قوة . كان فعلا ابن حرام . لقد فتلني وأصبح وجهي باتجاه الباب ، وزاغ نظري . لم أعد أرى برهة من الوقت ،و هو يكيل لي كل أنواع الشتائم ، وكذلك لزميلي ودخلنا غرفة الانتظار . وبعد أقل من ساعة حدث الانقلاب على الشيشكلي ، تصور هذه الحادثة وهل هناك بعد ذلك ما أخافه من عقوبات ؟ يبدو أن الملازم رجل لطيف .

قال المرشح :

ـ نعم انه رجل لطيف ولكن لا يحب المخالفات . وأحيانا يحرضه رقيب أول السرية .

وأردف المرشح : قل هل تحب عبد الناصر ؟

قال محمد :

ـ قلت لك لو كان عبد الناصر سنة ١٩٤٩ لما وقعت اتفاقية رودس .

« - ٣ - »

كانت مجموعة كبيرة من النساء من مختلف الأعمار ، تسوق مجموعة من الحمير ، حملت عليها قرب المياه التي نقلتها النسوة من وادي السمك من أجل الشرب . أكثر من عشرين دابة حملت عليها القرب . ومع القافلة كانت تسير شابات متوسطات العمر ، وبعض الاولاد والبنات بأعمار عشر سنوات يسندون الحمولة حتى لا تقع عن ظهر الحمير . كانت صبية منهن تغني الأغاني الشعبية الغرامية ومعها زميلتها تسرعان الى القرية ، وكأن هناك موعدا لا يمكن التأخر عنه . ومع ذلك كان صوتها ينتشر وتمتصه الشجيرات والسلاسل الحجرية السوداء .

علقت امرأة متوسطة العمر قائلة وهي تعتقد أن الجنود يسمعونها ، أو تقصدت ذلك .

ـ البنات حميانات بحاجة الى عرسان .

كن يرتدين جلابيب سوداء ويبدو أنهن كن يغسلن ثيابهن بمياه وادي السمك . لأن قسما منهن كان يحمل ثيابا مغسولة فوق الدواب . والكلاب كانت تلوذ بأذيالهن ، لاهثة من شدة الحر . وبعضها بقي هناك في الوادي لا يعود حتى الغروب . بعض الأطفال ركبوا فوق القرب حاسري الرؤوس ، وقد لوحتهم الشمس حتى تخالهم أقرب الى السواد رغم شعورهم الشقر وعيونهم

الملونة ، حفاة وبدون سراويل . الحمير كانت تشخر وهي صاعدة الى القرية رغم أنها تحمل المياه فخواصرها ورقابها مبللة بالعرق .

لم تفاجأ النسوة لأن أكثرهن عرفن المرشح أحمد ، وأغلبهن عرف الجندي نويصر ، وبادرن بالسلام وقد حيّت في البداية أولهن ، ولكن الثالثة بدا أن لها معرفة سابقة بالمرشح أحمد ، عندما حيته تحية خاصة . وقالت : أمشوا معنا وهل أنتم خجلون من مجيئكم للقرية ؟ كان اسمها جميلة ، ورغم انها موشومة قليلا على خدها وشفتها السفلى كوردة ، ورغم أن الشمس لوحت بشرتها فقد بدت جميلة ، وشعرها المضفور خلف رأسها حتى يكاد يصل الى ردفيها . تحدثت مع المرشح أحمد وقد رفعت الكلفة بينهما .

بينما راحت تمزح مع الجندي نويصر قائلة :

ـ الجندي يهمهم ولا يتزوج .

مالك يا نويصر . فرّحنا بعرسك أخطب غزالة . والا أخذها أبو خليل منك . هل أنت خائف أو ليس لديك مهر . اخطفها وتوكل على الله . أو اتركها يا رجل أبو خليل جارها ، جاهز وإن كانت تكرهه . ليس هذا مهما ، انه يدفع كل ما يملك من أجلها .

ومزحت مع المرشح قائلة :

ـ يا حضرة المرشح ، شجعوا الجنود من أجل الزواج . في القرية بنات كثيرات والشباب قليلون ، وغمزت المرشح الذي أخذ ينظر اليها بارتياح . قالت كلماتها بغنج القروية المستقلة التي ليس عليها سلطان ، وفهم العريف محمد انها زوجة لأحد اللاجئين كانت صغيرة عندما قدمت أسرتها بعد أن نجت من القتل . وبقي بعض أهلها هناك ، ثم ولدت طفلا . ولديها عدد من الماعز وبقرتان وحمارة من أجل نقل المياه ابنها الوحيد يركب على الحمارة ، لا سلطان عليها ، لا تزال في وجهها مسحة من الجمال . وأحيانا تشارك «أبو خلف» في تربية الماعز :

ـ امرأة اعتمدت على نفسها ، لديها غرفتان . احداهما للماعز والثانية لها ولابنها . سألت عن الرقيب أكثر من مرة . قائلة : كان يرسل لنا بقايا الخبز

للماعز . وفي هذا الشهر لم يعد يسأل عنا . سمعت أنه يزور جيراننا ، عندهم بنت عازبة ، وعدهم بالزواج منها . ولكنه متزوج وعنده أكثر من سبعة أولاد . لماذا يكذب على الناس ؟ أنا أعرفه منذ وصول السرية الى هذه المنطقة ، منذ أكثر من سنة ، كان يقول لي أيضا : هكذا الرجال يكذبون كثيرا .

٧

كانت تتحدث بدون تكلف ولا ألم . وكأن شيئا لم يكن مهما .

وأردفت : قل له يا حضرة المرشح لم يعد له نجم عندي ولو حاول العودة . (اللي تشوف الاسياد أفضل من اللي تشوف العبيد) قالتها وابتسمت ابتسامة خفيفة ، حيث ضربت الحمارة بعصا كانت بيدها .

كان المرشح يسير خلفها مباشرة . والعريف محمد خلفه . ولكن الجندي نويصر كان يسير مع فتاة خلفهم ، تتحدث وتلتفت الى الوراء عندما توجه الكلمة للمرشح ، وتعاتبه قائلة : وأنت لماذا لم أشاهدك منذ زمن ؟ لماذا ؟ هل أنت مثل الرقيب كل يوم في بيت . عيب عليكم أنتم الرجال .

ويرد المرشح أحمد قائلا :

ـ بسيطة يا أم فرج (أسمت ابنها فرج عسى الله أن يفرجها على وجهه ويعيد اليها زوجها) . وهذه هي السنة الرابعة ولم يعد الرجل . لا تعرف عنه شيئا قتل أم مات ؟ أم غرق في النهر ؟ ماذا تعمل تنتظر كل ليلة . تتصور أنه سيعود . وقد يئست من عودته . وحزمت أمرها وبدأت العمل .

جميلة أم فرج . عمرها حوالي الخامسة والعشرين . هكذا تبدو . تلبس حذاء من الكاوتشوك يقيها الحر . وقد وشمت وردة على شفتها السفلى فقط . ووضعت حزاما صغيرا على أنفها . وكحلت عينيها بكحل حجري .

كانت تتحدث بصوت عال جدا . والفتاتان تتابعان غناءهما ، وتحاولان أن تلفتا انتباه المرشح ومرافقيه . وقد لوح العريف محمد بيده لهما ، مشجعا .

المرشح أصابه الارتباك قليلا في البداية ولكنه انفرد أخيرا . ماذا يعمل ؟ كل شيء واضح ، ودعته المرأة لشرب الشاي قائلة :

ـ مر واشرب الشاي . لا تخف لن أدفعك ثمن الشاي يا رجل .

ساد صمت ثقيل ، لحظات ، لم تسمع فيها الا أنفاس الحمير التي تلهث

جاهدة للصعود والحر شديد . تحسب أن الهواء توقف .

وقالت أم جابر :

- الدنيا حر .

وأردف المرشح :

- لازم تتزوجي يا جميلة ، لازم وأنت شابة الآن .

وردت بحزن قائلة :

- العازبات لا يلاقين من يأخذهن ، فكيف أنا ؟ لا بد من الانتظار ، قد يعود زوجي يوما ما . ينتظره ابني ، لا أريد أن يقال لي عندما يعود أو نعود الى أرضنا انني لم أنتظره . وعندي ولد ، سأربيه ويوم من الأيام عندما يكبر ، يعرف من قتل جده . وسوف يأخذ بالثأر . لقد قتله اليهود والانكليز ، أتوا في ليلة ، وهربت أنا وزوجي ، خاف عمي علي منهم وهربنا عبر النهر الى جرابا . وعاد زوجي ليعرف مصير أهله . وذهب ولم يعد . بدا صوتها حزينا وكأنها تبدلت تبديلا كاملا رغم صغرها وهي تتابع :

- انظر ابني يركب فوق الحمار . وسوف يعرف يوما ما كيف قتل جده ، وكيف هربنا . ويأخذ بالثأر لأهله . واختنق صوتها من جديد وتساءلت : أتزوج ؟ عندما أعود ماذا يقول أهلي ؟ قسم منهم نزح ، والقسم الآخر يكافح في قريتنا ضد الاحتلال . تشردنا وأصابنا الذل . الله لا يذل انسان في هذه الحياة . وصمتت .

عادت أسراب الحمام الى القرية من وادي السمك الى منازل أصحابها . وكانت المصاطب قرب القرية قد زرعت ذرة بيضاء ولا تزال أثارها باقية . وهناك بعض العجول ترعى فيها . وبنات يجمعن الحطب من أجل الوقد ، ورغم حرارة الشمس فان الناس يبذلون كل جهد في العمل .

اقتربوا من القرية كثيرا . وأصبح واضحا أن هناك في ظل الجدار قرب الحانوت الوحيد بالقرية رجالا ونساء . غير واضحة معالمهم . والقرية ببيوتها حجرية سوداء مبنية على قمة الهضبة وكثيراً من حيواناتها ، خاصة العجول لجأت الى الظل هربا من الحر . وأبواب الدور مفتوحة .

كان هناك بعض الجنود من السرية ، ينزلون باتجاه الوادي وقد مروا على الدرب وفوجئوا بهم . لقد أذهلهم وجود المرشح والعريف محمد والجندي نويصر ، وهم يمشون مع جملة من النساء والحمير المحملة بالمياه . وطول الطريق كان كلب جميلة يفصل بينها وبين المرشح أحمد ولم يتركهما ، لقد تمرغ بمياه وادي السمك ولا تزال آثار الوحل الذي جفتته الشمس بادية عليه .

فوجيء الجنود . في مثل هذا الوقت لا يأتي المرشحون أو الرقباء ، هم يأتون ليلا . لقد اطرقوا بالأرض خجلا عندما حيوا المرشح وهم يحملون بعض المأكولات التي اشتروها من حانوت القرية . وتبادلوا النظرات . لقد عرفوا الجندي نويصر وغمزه أحدهم قائلا :

ـ يمكن للمرشح أن يصبح عديلك . أو العريف ؟

كان العريف جديدا في السرية لم يعرف أحد اسمه بعد .

وقالت جميلة :

ـ تمنعون الجنود من المجيء الى القرية . لماذا ؟ هنا يصرفون رواتبهم ويشترون حوائجهم . وقد يغسلون ثيابهم أحيانا . رغم أن القمل والبراغيث تملأ الأرض وكأنها مرض خطير . لا بد من معالجته . اسمع يا أحمد عالجوا مشكلة القمل .

اقترب الجنود من القرية فتفرقت النسوة مع دوابهن . وغبن في زواريب القرية .

بينما كانت جميلة تقول بلهجة جادة : اشربوا الشاي عندي . أهلا بكم .

وهز المرشح برأسه بالايجاب . والتفت الى العريف محمد وقال : نذهب أولا الى حانوت القرية .

كانت ديوك الهندي تستظل في فيء الجدران ، والدجاجات فتحت مناقيرها من شدة الحر . لم تخف من مرور الجنود الى جوارها . بينما كان ديك يصيح معلنا وقت الظهر . كان شيخ القرية الذي يقيم الاذان غائباً فقد ذهب منذ شهور باتجاه ريف درعا ولم يعد تاركا زوجته وعدة أولاد . وتوقف تعليم الصبية في القرية ، ولم يأبه لتذمر الآباء . ويقال على ذمة أم خليل أنه كان

عاشقا لاحدى الغجريات التي كانت تجوب المنطقة وعندما ذهبت لحق بها . هكذا كانت تردد أم خليل ، وأم خلف وأم أحمد اللواتي أعلن حربا ضروسا ضد جنسهن ، هن يلعن الساعة التي ولدن فيها بناتا .

هبت نسمة خفيفة عندما وصل المرشح أحمد والعريف محمد والجندي نويصر الى الحانوت . وأمام جدار الحانوت جلست النسوة في الظل ومعهن صبية صغار . كن يتحدثن في أمور عديدة . وهناك بعض الرجال . كانوا قسمين . قسم من السكان القدامى وقسم نزح من غرب النهر على أثر الاحتلال . والجميع يعيشون كأقارب لانهم من عشيرة واحدة .

نهضوا جميعا للترحاب بالمرشح أحمد . حتى النسوة نهضن . وفرحت أم خليل لأنها كانت تعرفه . وبعد أن حيته سألته :

- والجندي الذي معك جديد ؟

وبدون توقف قالت : ايه يا نويصر ، خذ غزالة وريحنا ، حتى أبو خليل يرتاح ويلتفت لرزقه . يكفي كل يوم يفاوض أباها على مبادلتها بابنتي .

وصرخ فيها أبو خليل محتدا شاتما : عيب يا حرمة . قالها بصوت هائج وقطب وجهه . . .

اسمر الوجه وشم رأس أنفه وذقنه وخده ، وغطى رأسه شعر كثيف لم يحلق ذقنه بل شذبها بطريقة قريبة من طريقة رجال الدين . ورغم أن عينيه سوداوان غامقتان فقد كحلهما بكحل حجري ، ولبس حطة على رأسه ـ اجتهد أن تكون نظيفة الى حد ما ـ مع عقال جديد ، وجلباب يميل الى الصفرة ، وبرجليه شحاطة بلاستيكية . ظهرت قدماه منها والشعر الكثيف يغطي حتى ظهرهما . وقد شمّر عن ساعديه . فظهر في اصبعه خاتم أبيض كبير له فص أحمر أشبه بعرف الديك .

وقف صائحا : عيب يا حرمة هذا الكلام . عيب استحي على أصلك .

وردت أم خليل التي بدأت تهز رأسها الى الأعلى والأسفل كحركة الضفدع :

- عيب . عيب يا «أبو خليل» على الذي يعمل العيب . أنت تدور كل

يوم وراء (البنات) اللواتي في مثل عمر بنتك مها ولا تستحي على نفسك . . . فكر بزواج خليل ابنك وزواج بناتك . تدور هنا وهناك تريد الزواج . هذا هو العيب .

واحتدم صوت «أبو خليل» قائلا :

ـ «يلعن أبوك» كلبة بنت كلاب ، تريدين فضيحتي . والله سأتزوج عليك . وأخذ عقاله وحاول أن يضربها به . مهددا متوعدا . ولكن حال بينه وبينها العريف محمد قائلا :

ـ استحي يا رجل عيب ضرب المرأة ، عيب انك رجل أبو أولاد وهي زوجتك .

وعندما تأكدت انه لا يمكن أن يصل اليها . رفعت صوتها قائلة :

ـ هذه أم خلف حماتك الجديدة .

والتفتت الى أم خلف قائلة :

ـ اسمعي يا أم خلف ، يريد أبو خليل أخذ غزالة بنتك ضرة علي واعطاء ابنتي الى «أبو خلف» ـ هل تريدين هذا ؟ وأنت صامتة كأنك من الأموات

وأردفت موجهة الحديث الى زوجها بصوت عال :

ـ اسمعوا يا أهل جرابا . أبو خليل يريد الزواج من غزالة مقايضة مع ابنته ويدفع خمسين رأس ماعز فوقها .

والتفتت الى «أبو خليل» قائلة :

ـ تشتم أبي وأنت عارف أنه أحسن من أبيك . اذهب خذ غزالة فضلة نويصر . فضلة العساكر . خذها . وحط شرفها بعقالك .

وقعت كلماتها الأخيرة كأنها المدفع الرشاش على زوجها . وعلى الجندي نويصر سوية . وصرخت من هناك أم خلف الجالسة على حجر أسود كأنه الكرسي . وهي في نهاية الشهر التاسع قائلة :

ـ اسمعي يا أم خليل ، اسمعي ذيل بناتنا أشرف من بناتكم ، صحيح يأتي نويصر عندنا ، وهو يريد الزواج من بنتنا . ولكن في نصف الليل عندما يأتي الذين يعلقون الشرائط على زنودهم ، ويبدؤون شرب الخمر وقلي

البيض ، رائحته تصل أنوفنا كل مساء ، يمكن أولئك يريدون الزواج من بنتك آه ؟! كل واحد منهم عنده (عر أولاد) وزوجة . بالله يا «أبو خليل» لملم بناتك وأهلك .

وأثقلت كلمات أم خلف على رأس «أبو خليل» . لكن ماذا كان بوسعه أن يعمل معها ، هو يريد مراضاتها حتى تقتنع . القناعة أفضل من القوة .

وقال العريف محمد :

- اخزوا الشيطان يا ناس . كلنا أهل وجيران ونحن حريصون عليكم وعلى أعراضكم .

لأول مرة يشاهد العريف محمد الأهالي في قرية جرابا وهو في اليوم الأول في المنطقة .

كانت أم خليل تبكي وتمسح دموعها ، عندما نهضت باتجاه بيتها دون أن تنبس بكلمة . كانت تحدث نفسها وهي صامتة : تشتم والدي يا «أبو خليل» . قبلت حذاءه حتى أعطاني لك وبعد ثمانية أولاد وعشرين سنة ترغب بالزواج من غيري ، بسيطة ، بسيطة اذا ستكون حياتك جحيم عندي . . وغابت في زاروب باتجاه بيتها . لكن أم خلف الهادئة لم تتكلم وانما نهضت . وحتى تزعج «أبو خليل» سلمت على المرشح والعريف محمد بهدوء . وكذلك الجندي نويصر الذي أمسكته من يده وقالت :

- اذا سمحتم له . سوف يتناول الغداء عندي مع غزالة . قالتها وهي تنظر بوجه أبو خليل متحدية . حيث زمت شفتيها وسارت .

وقال المرشح أحمد :

- اذهب يا نويصر . قالها ضاحكا وهو ينظر الى وجه العريف محمد .

أمام الدكان تحدثت النسوة عن رجالهن المراهقين . وخرج في هذا الضجيج صاحب الحانوت الذي لم يتوقف عن الحركة وهو يبيع احدى النسوة . لقد فقد عينه اليمنى ، ويده اليسرى فقد منها ثلاثة أصابع ، وقد ابيض شعره الخفيف الذي بدأ يتسلل اليه الصلع . لكنه كان معتدا بنفسه وهو يرى الناس يحترمونه ويحسبون له كل حساب . فهو صاحب الحانوت الوحيد الموجود

في القرية . وقد شمر عن ذراعيه وهو يرتدي بنطالا كأنه قص من بدلة عمل فوقه قميص عسكري شتوي ، رغم الحرارة العالية . كان يضع . قلم كوبيا خلف اذنه اليمنى ، بينما السيكارة موضوعة على اذنه اليسرى ، ويلبس في رجله شحاطة . خرج من الحانوت مرحبا بالمرشح أحمد لأنه كان يعرفه سابقا . ولم يعر البقية انتباهه في البداية ولكنه قال ، موجها حديثه الى الناس المجتمعين في ظل الجدار والأشجار :

ـ يا ناس ليس عندكم عمل ، تأتون كل يوم وتتناقرون أمام الناس . اتقوا الله يا ناس .

وأنت يا «أبو خليل» . تريد أن تتزوج احسم الأمر مع «أبو خلف» بدون شرشحة وبهادل . وأنت يا نويصر اذا أردت غزالة فخذها . لماذا القال والقيل ؟ القرية مملوءة بالبنات والحمد لله هن أكثر من الرجال . أغلب الشباب قتلوا في الحرب . قتلهم اليهود والجيش الانكليزي . آه . يكفي يا ناس عندنا عمل دعونا نرتزق . حرب 1948 لم تنته بعد . أين أخوك يا «أبو خليل» ؟ أنت تعرف أين قتل ؟ أين أبوك ؟ أنت تعرف أين قتل ؟ حتى أمك غرقت بالنهر . وهذه زوجتك أم خليل اعتن بها . أو أدبها كل يوم خناقة . عندك ثمانية أولاد يا رجل اذهب الى مواشيك في وادي السمك . وطوع ابنك بالجيش . وزوج ابنتك مها .

صحيح سمعت أن الرقيب يريد أن يتزوج ابنتك هل هذا صحيح ؟ اذا كان صحيحا فزوجها .

كانت أمام الدكان بقرة كبيرة . تجتر وهي باركة في الظل . وقربها بعض عصافير الدوري تنبش في روثها . وفي الطرف المقابل كانت عجوز تجلس ساندة ظهرها الى جذع الشجرة ومعها عصا .

كانت حزينة كما لو أنها فقدت أناسا عزيزين عليها . تنظر الى الغرب ، الى الأفق فوق النهر . هناك قتل أغلب أهلها .

لقد لفتت نظر العريف محمد . كل هذه المشاحنات التي حصلت أمامها لم تعنها في شيء ظلت قطعة من الشجرة . وأمامها غلام في الثامنة من عمره ،

يطارد العصافير ثم يعود ويجلس في حضنها دون أن تتحرك وكأنها نائمة . ولكن عينيها ظلت مفتحتين . وقد لفت رأسها بمنديل أسود وجلباب أسود . كأنها تنتظر شيئا يأتي اليها من البعيد .

قال صاحب الحانوت :

ـ العجوز تنتظر عودة ابنها الذي ذهب لعند والده وحتى الآن لـم يعد . الله أعلم ؟ هذه حالتها منذ عام ١٩٤٨كل ظهيرة تجلس كما ترى ؟

وقف أمام الدكان رجل مجنون ، ولكنه غير مؤذ . راح يؤذن العصر ، وكأنه هو شيخ الدين في القرية . يحرض الناس ، يالله جهزوا البنادق ، جهزوا المسدسات ، حتى نعود ، يالله يا عالم ، أين أنت يا رسول الله ؟ أين أنت يا عمر ؟ أين أنت يا علي ؟ أين ذهبتم ، وتركتمونا للذئاب الضالة التي تجمعت من كل مكان ؟ في أرضك يا نبينا سليمان تجمعت الذئاب . يقولون أنك منهم اذا كنت منهم فانت ذئب اذن انت ذئب .

أين أنتم أيها العرب ؟ أيها المسلمون ؟ الله ، الله . بع أمك واشتر البارودة ، والبارودة خير من أمك يوم الحرب ينفرج همك «ويهز بيده ملوحا باتجاه الغرب» . الليل قادم ، النهار قادم ، اليوم قادم . لا بد من طرد الذئاب الضالة التي جاءت الينا من الغابات «ويعود لينادي» أين أنت يا رسول الله ؟ انظر قومك لقد خذلوك . ضعف ايمانهم بالقدس ، ايه ، ايه . احترقوا بلهيب النار» .

ويكلم صاحب الحانوت «احترقوا بالكاز . عندك كاز أنا بحاجة الى قنينة كاز اليوم خلصت من عندي قنينة الكاز . خذ عندي نقود لا تقل اكراما لوجه الله . لا . عندي نقود خذ هذه ليرة سورية . اريد كازا أشعل به النور . يالله يا رجل . ألا ترى الظلام . نريد نورا . أريد أن أشعل النور حتى يشاهد الناس . قد تخاف الذئاب من النور ، الذئاب الضالة تخاف النور . أسرع ، قبل أن تجتاز النهر ، وتقتل المواشي ويهرب الناس . أسرع .

وهدأه صاحب الحانوت قائلا :

ـ توكل على الله ، لا إله الا الله . وصمت الرجل المجنون لحظة ثم التفت

فجأة الى «أبو خليل» لباسه رث وشعره طويل مشعث ، وقدماه حافيتان ، كان يحمل عصا غليظة ، ويبدو قوي الجسد ، نظر في وجه «أبو خليل» وقال :

ـ ايه أبو خليل عيب عليك أن تشتم امرأة ، عيب عندك ثمانية أولاد لو زوجتهم لأتوا بأربع وستين انسانا وكذلك «أبو خلف» عنده عشرة لو زوجهم لأصبحوا مئة . ولو أرسلنا نصفهم الى الغابات لطردوا الذئاب الضالة هذا أشرف لكم . والا فان الذئاب ستمزق غزالة ومها ، وغادة ووضحة ووطفة ، ولا مكان لكم في هذه القرية . تخافون منهم ويطردونكم . الذئاب ليس لها أمانة هل تسمع ؟ ايه الا تسمع . تغلق أذنيك ؟ أين أنت يا رسول الله ؟ أين أنت يا خالد ؟ آه .

توقف قليلاً ثم تابع قائلا :

ـ سموك خالدا ، غيّر اسمك أو جهز نفسك لمقاومة الذئاب . الله . الله . بع أمك واشتر البارودة ، والبارودة خير من أمك . يوم الكون يجلي همك . وراح يسير في الزواريب وهو ينادي :

ـ استعدوا لمطاردة الذئاب الضالة ويردد أغنيته ، حتى اختفى داخل القرية .

ساد صمت رهيب . كأن الهواء توقف ، للحظات ، لم يسمع فيها شيء . وقطع هذا السكون صوت انفجار ضخم في منطقة جرابا وتبعته أصوات رشاش متقطع كأنه نباح كلب كسول .

واضطربت العجوز التي تسند ظهرها الى الشجرة حيث وضعت راحة يدها على أذنها لتتبين صوت الانفجارات . انها تهتز مع تقدمها بالسن فهي تحاول أن تعيش لتشاهد ابنها المفقود . واشرأبت الأعين باتجاه مصدر الانفجار واطلاق النار . ثم ما لبثت أن عادت الى أماكنها لأن مثل هذا الأمر اليومي ألفه الناس وكأنه الأمر غدا مع الزمن عاديا .

كان صاحب الحانوت ينظر باتجاه الغرب . التفت الى الجماعة وقال :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . كل يوم هذا الرجل المجنون على هذه الحالة . قتلوا أمام عينيه زوجته وأولاده . وسجنوه وهرب من السجن . وهو على

هذه الحالة منذ هروبه من الأرض المحتلة منذ أكثر من سنتين .

وأردف : تفضل حضرة المرشح أحمد . من يومين لم أشاهدك في القرية . لماذا يا رجل ؟ تفضل . ونظر في وجه العريف محمد قائلا : مرشح معك ؟

- لا . أنا عريف مجند جديد أتيت البارحة ليلا .

- أهلا وسهلا . طبعا تشربون الشاي . وصرخ من دكانه الى دار خلفه فيها زوجته :

- شاي . المرشح هنا . يالله يا دلة اسرعي . وقدم كرسيا صغيرا من القش للمرشح وأخرى للعريف ، وقال لنويصر : ايه يا نويصر سمعت ما يدور حول غزالة ، خذها ولا تخف ونحن نجبر والدها على القبول اذا أصرّ على المهر .

عاد أبو خليل الى ظل الجدار وجلس يدخن سيكارة ، وهو يرنو الى الأفق البعيد . وقد أسند ظهره الى الجدار . بدا متعبا مرهقا . قتلته الغيرة من نويصر . لقد أهانته زوجته أمام الناس وأمام نويصر . وكذلك أم خلف جاءت وأكملتها . قال لنفسه : هاتان الكلبتان سأعمل جاهدا لاذلالهما . كان يدخن ويقضم أظافر يده اليسرى بأسنانه .

كانت البقرة تجتر تحت الشجرة وهي متمددة على الأرض . بينما كان حمار ينهق بعد أن خرج من دار صاحبته وقد ارتاح من انزال حمل الماء المنقول على ظهره من وادي السمك ، فهو يرفع أنفه مستشفا أنثاه أينما ذهبت .

قال المرشح للعريف محمد :

- أنا ذاهب وسأعود انتظر أنت هنا في الدكان ساعة واحدة فقط .

حمل بيده كيسا واشترى علبة من الحلاوة وكيلو من السكر ، وقليلا من الشاي وعلبة بسكويت . وضعها له في كيس واحد . وعندما مشى المرشح استأذن نويصر من العريف محمد قائلا :

- سأعود في ظرف أقل من ساعة .

وبدأ العريف محمد يشرب الشاي داخل الحانوت المتجه بابه الى الشمال . ينظر الى الغرب ويشاهد حتى صفد والكمرك .

قطع حديث صاحب الدكان دخول امرأة شابة . ظن العريف محمد أنها عازبة في بداية الأمر .

كانت ممشوقة القوام وجسمها ممتلىء . وقد تلثمت بمنديل أحمر شفاف ، وحزمت وسطها بنطاق صنعه الغجر . فظهرت مفاتنها رغم جلبابها الأسود الأملس اللامع . وقطع الشك كلام البقال قائلا :

ـ أهلا أم شحادة . بعد أن حيّت . قالت :

ـ قطيعة كل يوم خناقة على البنات ، يجب أن يتزوجهن العساكر .

وابتسم العريف محمد دون أن يعلق وقد فهم أنها تريد أن تسمعه كلامها .

وتابعت : وجهك جديد . كيف حال الملازم ياسر .

وأجاب صاحب الحانوت :

ـ صحيح يا أم شحادة وجهه جديد ـ وبعينه السليمة غمزها ـ ولكن ماذا تريدين ؟

قالت : اعطني كيلو سكر ، وأوقية شاي . ثم تابعت : موجهة الحديث الى العريف محمد . يبدو أن الملازم يذهب الى القرى شرقا .

فأجابها العريف محمد : الله أعلم .

فهم العريف محمد لماذا لا يريدون التحقيق في القرية ، ولكن ما دامت الأمور تبدو هكذا من الأسفل الى الأعلى فليس هناك مشكلة اطلاقا .

وتابعت أم شحادة قائلة للبقال الذي كان منهمكا بتعديل كيس السكر الملاصق لأكياس الأرز والتمر :

ـ لماذا أم خلف وأم خليل تتناقران ؟

ـ أبو خليل يريدها تبادلاً .

فقالت : انظروا الى «أبو خليل» . جالسا مثل (العجي الذي قتلته زوجة أبيه) انه يستاهل المسخرة . (داير من بنية ، لبنية) لو خجل لدفن رأسه تحت ذيل البقرة . وأشارت الى البقرة الباركة في ظل الشجرة ـ انه يجتر مثلها .

لاح العريف محمد برأسه قائلا : يا ساتر .

وأردفت : كل يوم نسمع عنده الرقيب ، يريد أن يزوجه احدى بناته .

قال العريف محمد في نفسه : اذن الرقيب عند «أبو خليل» ، بسيطة .

كانت هناك قناديل هوائية معلقة بالزاوية وبعض البلورات الاضافية معلقة بجانبها ، وعلى الأرض كان هناك برميل من الكاز ، وصفّ من المرايا الكبيرة والصغيرة ، حتى المرآة التي توضع بالجيب ، وبعض الدفاتر المغبرة يبدو أنه لم يبع منها منذ فترة طويلة وأقلام رصاص وأقلام كوبيا أيضا . بعض المغلفات لرسائل الجنود تبدو جديدة .

وفي الطرف المقابل كانت توجد مناديل نسائية يشتريها الشبان لاهدائها الى عشيقاتهم . ولا يخلو أي جندي من عدد منهن . . ومجموعة سكاكين ، خاصة بالجنود .

لقد اشترى العريف محمد سكينا صالحة لفتح علب السردين ، وتقشير البطاطا ، والفواكه ، وفتح الزجاجات ، وكذلك لقص الأظافر ، ويمكن أن يذبح بها دجاجة عند الحاجة ، وكذلك اشترى علبة حلاوة وعلبتين من السردين . وضعها في مزودته وراح ينظر الى الساعة ، ساعة واحدة ويعود المرشح وأقل من ذلك سيعود الجندي نويصر .

تساءل العريف محمد في نفسه :

- أين ذهب المرشح ؟ ليتأكد أين يذهب الجنود في القرية . أعتقد أنه ذهب الى أم جابر لشرب الشاي ، هي دعته الى شرب الشاي هناك . من يدري ؟ لعل هناك غيرها . أم شحادة لم تظهر الا عينيها المكحولتين ، كانت تنظر الى العريف محمد خلسة وتكلم الدكنجي :

- ضعهم في كيس لا أريد لفهم بجريدة .

هناك في الزاوية كدست مئات الجرائد التي أتى بها الدكنجي من أجل الصر . كل شيء يباع يمكن أن يلف بورقة وأرخص الأوراق ورق الجرائد .

عندما قطع ورقة من الجريدة . لفت انتباه العريف محمد عنوان بارز : ثورة عبد الناصر في مصر ضد الطغيان . ستنتصر ثورة الجزائر ، القتال مستمر في جبال الأوراس . عبد الناصر يعيد النظر بمعاهدة قناة السويس . حزب

البعث يؤيد عبد الناصر . نحن ضد حلف بغداد . مظاهرات في الشوارع تعم حماه ضد حلف بغداد . ولفّ أوقية الشاي بهذه الورقة من الجريدة . يبدو أنها جريدة تقدمية هكذا فكر العريف محمد . يمكن أن تكون جريدة بردى . لم يظهر اسم الجريدة الأصلي . ثم أخذ ورقة ثانية من جريدة أكبر . كان اسمها «الأيام» وقد كتب عليها : الملك سعود في الطريق . فخامته يستقبل جلالته . ذهب الشيشكلي الى غير رجعة . الاخوان المسلمون ضد عبد الناصر . لا رجعية في مصر بعد اليوم . فلسطين عربية وستبقى عربية .

أكثر من ألف جريدة مكدسة في زاوية الدكان على الأرض بعضها مضى عليه الزمن عرف ذلك من خبر عن اجتماع حسني الزعيم بالملك فاروق بمصر .

الزعيم كان رجلا بسيطا مغرورا لا يفقه بالسياسة شيئا ، حتى الشرب توقف عنه بسبب السكر .

انه الآن مع الملك فاروق . جلالة الملك عبد العزيز يبرق مهنئا الزعيم حسني الزعيم ، بتوقيع اتفاق التابلاين الملك فاروق يهنىء الزعيم حسني الزعيم بتوقيع اتفاق رودس مع اسرائيل . لقد سبق الملك فاروق حسني الزعيم وكذلك الملك عبد الله .

أمريكا تؤيد الخطوات السورية الجديدة وخاصة فيما يتعلق برودس والتابلاين . جرائد مغايرة اثارت فضول العريف محمد . فدخل وجلس . وهو يتصفح بعضا منها .

قال الدكنجي وهو يبتسم :

ـ كلما ذهبت الى الشام اشتري كدسة جرائد بالكيلو . أرخص من أكياس الورق لا يعرفون الكيس من الجريدة . كله مثل بعض .

كتبت البعث : حلف بغداد الى الهاوية . وتلحقه النقطة الرابعة . يسقط مشروع ايزنهاور . يعيش عبد الناصر . نحن مع القاهرة . نحن مع ثورة الجزائر .

لقد أخذت أم شحادة السكر والشاي بعد أن قالت سجلّهم وأبو شحادة يدفع لك . ونظرت باتجاه العريف محمد قائلة :

- كونك جديد في هذه الديرة (المنطقة) أهلا بك وأبو شحادة بعمرك . دائما يزورنا الناس . ومالت بخصرها وهي تغادر باب الدكان بعد أن انحنت برأسها قليلا بغنج قائلة : الناس لبعضها .

ونظرت الى «أبو خليل» وبصقت على الأرض قائلة :

- يريد أفعى تأخذه بعد ثمانية أولاد .

وعاد الدكنجي يسكب الشاي للمرة الثالثة . لقد أصبح لون الشاي أسود وطعمه مر لكثرة غليانه .

من هذا الحانوت يشاهد الانسان تل أسود . لقد مالت الشمس واقتربت من المغيب ولم يعد المرشح . زاد الوقت عن ساعة . ها هو الجندي نويصر قادم ، يبدو أنه أكل وجبة شهية عند أم خلف . طبخت له الأكل غزالة ، ولا زال أبو خليل جالسا يدخن ، يشعل سيكارة من سابقتها ، يفكر ماذا يعمل ؟ .

البارحة اجتمع مع «أبـو خلف» مطولا في وادي السمك يفاوضه من أجل غزالة . لماذا لا يريد أن يتزوج أبو خلف ؟ لا يزال في الأربعين . عنده عشرة . أم خلف مثل الأرنب الولود . لماذا لا يبدلها . يجدد فراشه . كما قال البدوي .

انه يرمق الجندي نويصر ولا يتكلم معه اطلاقا . لا دخل له معه . قال لنفسه :

- من أين أتى هذا الجندي ؟

في عصر ذلك اليوم شبابيك من الجمرك تلمع تحت أشعة الشمس المنعكسة عليها ، وكأنها نار مشعة . ومن هذه القمة تشاهد أيضا حركة الطريق الترابية الوحيدة من وادي السمك الى قرية جرابا .

خيام السرية المموهة بالتراب وسط المصاطب المتدرجة بين وادي السمك وقرية جرابا تبدو واضحة . وضوحا كاملا رغم تمويهها وقد غطتها ظلال القرية وحجبت عنها نور الشمس وقد ظهرت حركة الجنود بين خيام السرية . السيارة لا زالت بمكانها مغطاة بالخيمة . بعض الجنود هبطوا من القرية مسرعين باتجاه السرية حتى يستلموا مهماتهم الليلية . الديوك بدأت تصيح داخل الدور معلنة

قرب الغروب . وهناك قوافل المواشي بدايتها في قمة الهضبة عند جدار القرية ونهايتها لا تزال في وادي السمك . . . الخيول والبغال ، والحمير ، والبقر ، والماعز وبعض الأغنام القليلة اختلط بعضها ببعض . وكذلك القسم الأكبر من شباب القرية وبناتها ورجالها ، حتى الصبية فوق العاشرة أيضا .

اختلط هذا الحشد باتجاه القرية المشيدة بشكل طولاني من حجر البازلت كيفما اتفق دون هندسة . وصاحب الحانوت ـ بعد أن انخفضت درجة الحرارة قليلا وخف وهج الشمس . ازداد الطلب على بضائعه لا سيما زيت الكاز والتمر . أبو رابح يعمل منذ الشروق وحتى منتصف الليل . واذا احتاج أحدهم شيئا ما بعد منتصف الليل يمكن أن يقرع باب الدار ويفتح الدكان في أي وقت . وأم رابح تصنع الشاي فقط .

وضجت القرية بمواشيها . ماعز تريد وليدها . وبقرات تخور . وبعض الخيول تصهل . رغم وعورة الزواريب تريد دور أصحابها . وعجول تتناطح حول بعض البكاكير . والرجال يصرخون على مواشيهم بأسمائها .

ساد هرج ومرج وضجيج داخل القرية وخارجها . والعجوز جالسة ليس هناك ما يلفت انتباهها . لم يفاجأ العريف محمد بكل ذلك . لأن ذلك مثل كل القرى . ولكن هناك في القرى السهلية تأتي المواشي جماعات مزدحمة . أما هنا يتحكم بمسيرها الطريق الجبلي المتعرج . وقد خرجت الماعز عن الطريق الى المصاطب علّها تجد بقايا من قصب الذرة أو شجيرات من ورق السنديان .

الرتل يشبه الأفعى الطويلة أثناء صعودها على هذا الطريق ، وما أكثر الأفاعي في هذه السلاسل المتتابعة . وهذه الأحجار البازلتية المكدسة كيفما اتفق جمعتها أيدي الفلاحين عبر الزمن .

وهناك شمال شرق القرية وعلى مصطبة غير كبيرة قبور القرية واضحة المعالم . ولكن في هذه القرية طبقوا نظرية (خير القبور الدواثر) ما عدا قبر وضع عليه بعض الخرق الخضراء وبجانبه ثلاث شجيرات من السنديان تبدو كأنها أعلام . يقال انه قبر ولي لا يعرف اسمه . فأطلق عليه «قبر الولي» وهناك تحت ظل هذه الشجيرات بعض الأبقار توقفت ترتاح وهي صاعدة الهضبة قد تجمعت

حولها عدة معزات . وشب صراع عنيف بين ثورين على بقرة عند قبر ذلك الولي .

لقد تأخر المرشح أحمد . فكر العريف محمد وهو ينظر الى ساعته . والساعة الكبيرة المعلقة في صدر الدكان والتي تسمع دقات عقاربها في الصمت . ونظر في وجه صاحب الدكان .

لقد تأخر المرشح أحمد .

وسأل الأخير :

ـ هل تريد أن أبحث عنه في القرية ؟

رفع العريف محمد عينيه الى الأعلى دون أن يتكلم ، ولكن الجندي نويصر الذي وصل لتوه قال بصوت هامس :

ـ يمكن أن يكون الأن عند أم جابر يشرب الشاي أو عند أبو شحادة فهو يعرفه . لا أدري أين؟ المرشح أحمد يعرف كل بيوت القرية .

وأردف : آه . لو ذهبت معي لأكلت زبدة وحليبا وبيضا مقليا بالسمن .

فقال العريف محمد :

ـ طبعا كانت غزالة موجودة .

فرد نويصر : لم أجدها . ذهبت مع والدها الى وادي السمك . ولكن ليست هناك أية مشكلة فقد ناقشت جدتها وأمها . وأنا جاد في الزواج منها . لا أمزح كبقية ضباط الصف والجنود الذين يأتون ويتسلون في أوقات الفراغ . ولكن هذا المهر الملعون من أين لي ؟ لقد قالت لي أمها لا يهمك لا أحتاج الى مهر . فهي خائفة جدا من «أبو خليل» قد يأخذها ويعطي ابنته «لأبو خلف» كضرة عليها وهذا ما يرعبها . وأبو خليل راكب رأسه . قل ماذا أعمل ؟

وأردف العريف محمد :

ـ لكل حالة حل . بسيطة .

بدأ قرص الشمس بالانحدار نحو المغيب . وبدأ الأفق بالاحمرار . ولا زالت المواشي تسير رتلا أحاديا على الطريق . وأبواب الدور مفتوحة للمواشي . كل منها تعرف صاحبها .

مر بعض الفرسان الذين يتجولون فوق الهضبة . باحثين عن مبيت لهم . ومع ذلك لم يعد المرشح لقد قلق العريف محمد . يجب العودة قبل الغروب الى مركز السرية . قد تكون هناك مهمات جديدة .

أبو خليل مضى باتجاه منزله ، ولاحقه نويصر بنظرات تنم عن حقد .

قال صاحب الحانوت :

ـ لا اله إلا الله . هذا آخر الزمان .

كان أبو رابح ـ وهذا هو اسم صاحب الدكان ـ مشغولا جدا . لقد أتى بعض الاطفال بفوانيس هوائية يشترون الكاز . ازدحم الحانوت عند الغروب . وجاء صاحب البقرة المقيلة تحت الشجرة ليسوقها . وكذلك كانت هناك صبايا عند الولي يطردن الحيوانات التي تجمعت وألقت بروثها هناك .

ها قد أقبل المرشح مسرعا . انه برفقة رجل شاب .

صاح الجندي نويصر :

ـ قلت لك عند أبو شحادة . فهذا الشاب يملك كثيرا من المواشي . وله عدة أخوة يعملون بالرعي ، تزوج من فترة قصيرة .

كان المرشح يسير في المقدمة . وخلفه شاب أسمر اللون ، على رأسه حطة وعقال . ويلبس جلبابا أصفر بدون نطاق . وهو أطول من المرشح بقليل . ترك شاربين أسودين ناعمين . وقد بدا من مشيته وكأنه صديق المرشح . حيث وصل الى أمام الحانوت ووقف العريف محمد والجندي نويصر احتراما . بينما رحب الدكنجي قائلا :

ـ أهلا سيادة المرشح أحمد . ولم يعلق أكثر لأنه كان مشغولا بتعبئة الكاز والوزن والتسجيل على الدفتر . ولا زالت العجوز تسند ظهرها الى جذع الشجرة باقية كما هي . وقد أحمر الأفق وبدأت الشمس تهبط خلف الجبل .

قال المرشح : يا الله . عريف محمد جاهز ؟

أجاب العريف : نعم أنا جاهز منذ ساعتين ولكن . . . وقطع الحديث المرشح قائلا :

ـ هل أخذت سكينا وبيلا كهربائيا ؟

فأجابه : نعم . لقد اشتريت كل شيء أحتاجه .

وبالفعل كانت مزودة العريف محمد مملوءة . فاتجهوا الى نفس الطريق التي تسير عليها الحيوانات .

كانت أم خليل تقف عند الباب تراقب أبا خلف الذي وقف على جانب الطريق وكان يتحدث مع أبي خليل الذي عاد لتوه من الرعي . وغزالة اجتازت والدها ودخلت الدار .

قال نويصر : انظروا غزالة تدخل الدار وراء البقرة التي تسير الهوينى .

وأردف : لقد حدّثت جدتها ووالدتها . وحرضتهم ضد أبو خليل . واذا صمم أن يتابع . سوف آخذها وليكن الطوفان فوالدتها وافقت على ذلك .

والتفت الى المرشح قائلا : من أين أدفع لوالدها مهرا بهذا الكبر ؟

عندما خرج المرشح من باب الدكان كان الرجل المهووس قد عاد لتوه . يكّبر . يؤذن للمساء الله أكبر . الله أكبر . ثم وجه حديثه للمرشح : لقد ذهب الشيخ ولم يعد . فقد عقله مثل «أبو خليل» يرغب الزواج ولكن من غجرية . لا يا شيخ . هل أصبح الشيخ غجريا ؟ انه فنان في دق المزهر ، وكذلك كتابة الأحراز ، والحسابات للنساء العقيمات . يضرب بالرمل ويدعي انه يعلم الغيب وان الله قدر له أن يعشق تلك الغجرية التي كانت تزور القرية وتحسب للصبايا والشباب والجنود .

حسبت للعجوز قائلة : ان ابنها سيعود من الغرب ، وكتب له الشيخ حرزا ليحفظه الله من الذئاب . الذئاب الضالة المتجمعة هناك خلف الجبل وعلى السفوح المقابلة . لقد قرأ له الشيخ غيبا . وكذلك الغجرية أكدت أقوال الشيخ .

وقال الرجل المجنون للمرشح :

ـ هل جهزت مسدسك يا رجل ؟ هل تحمل فانوسا من أجل الاضاءة ؟ انتبهوا الذئاب تخاف النور . جهزوا أسلحتكم يا ناس . . ايه . . ايه . . أين أنت يا رسول الله ؟ انظر أمتك مهزومة أمام الذئاب . مفككة كل واحد يريد سلامة رأسه ويركض وراء ملذته . انظروا الى «أبو خليل» والشيخ . . . حتى

الشيخ لحق بالغجر ترك أهله وعياله . . ايه . . أين أنت يا«أبو الحسن» ؟ أين أنت يا خالد ؟ ماذا حل بجيوشكم ؟ ان الذئاب تعيش فيها يمينا ويسارا . كان صوته يختفي والجماعة تبتعد عنه رويدا رويدا . حتى تلاشى .

لقد خلا وادي السمك من كل المواشي ، ولم تعد تشاهد بعد الا الطيور التي فزعت من الوحوش هبط المرشح والعريف محمد والجندي نويصر باتجاه مركز السرية مسرعين . تعيق حركتهم بعض المواشي الصاعدة على الطريق . والطريق مملوءة بروث البقر والماعز والخيول . وهناك برك ثور كبير ضعيف تعب من الصعود . صاحبه يحاول أن يرفعه مع آخرين دون جدوى الى أن عاونه الجنود .

قال الجندي نويصر :

ـ اذبحه يا رجل قبل أن يموت . اذبحه ووزعه أو بعه لصاحب الدكان . هذه نصيحة .

في احدى المصاطب المدرجة كان هناك أرنب يقف في الزاوية . أطلق عليه العريف محمد من مسدسة الرشاش ولكن في الطلقة الثالثة توقف المسدس اليريتا وحصل فيه استعصاء .

قال العريف محمد :

ـ طلقتان والثالثة توقف . كيف سيعمل مع العدو اذن ؟ هذا المسدس يقتل صاحبه . والأرنب لم يصب وقفز يدور داخل المصطبة حتى اختفى . بينما هرب ثعلب من المصطبة اللاحقة . كان ينتظر صيدا ما وهناك ذئب فر من بعيد أيضا على أثر اطلاق النار . كان ينتظر احدى العنزات الضالة ليفتك بها ولكنه ذئب وحيد . قلما يسير ذئب وحيد في المنطقة .

الطيور تحوم عند الغروب فوق وادي السمك . وصوت الحجل يأتي مسموعا . هناك في جنوب السرية تقف على الأحجار البازلتية الحجال وتحدث أصواتا مثل الدجاج عند الغروب . كان الوادي قد خلا تماما من الرعاة والمواشي وهبطت الان الخنازير البرية الى المياه . وبعض الذئاب والثعالب علها تجد ما تصطاده . وكثيرا ما يوجد خنزير بري مقتول لأن الذئاب تنفرد بأحدها وتهاجمه

وتقتله .

يحظر على الجنود النزول ليلا الى وادي السمك وكذلك الذهاب الى القرية افراديا . كما يمنع على السكان المحليين التجول ليلا خارج القرية . وفي حال فقدان احدى المواشي والأبقار أو الخيول يعلم المخفر المجاور للقرية الذي يعلم السرية . وتشكل دورية . وفي حال ايجاد الماشية يعلم صاحبها ويستلمها .

كان المرشح أحمد يمزح مع الجندي نويصر قائلا : ماذا غذتك غزالة ؟ وكان الأخير يلفه الحزن قليلا .

قال المرشح :

ـ نعم يا عريف محمد . لنعد الى حديثنا . تحدثنا عن التابلاين . ما رأيك بحلف بغداد ؟

ورد العريف محمد : حلف بغداد ؟

وعلق الجندي نويصر قائلا :

ـ أبو خليل يريد أن يفتح معركة معي ، وقال لأم خلف سوف أنقله من هذه المنطقة .

وتابع المرشح : نعم حلف بغداد . ألم تسمع بحلف بغداد ؟؟

ورد العريف : وهل يوجد انسان لا يعرف حلف بغداد .

كان نويصر يفكر بقضيته مع غزالة .

فقبل أسبوع حاول أبو خليل بحث موضوع غزالة مع والدها عندما كانوا يصلحون قطعة من الأرض . يومها قال أبو خليل : نعم يا «أبو خلف» . أنت تعرف اننا جيران منذ سنوات . قالها وعدل من وضع جلوسه على الحجر البازلتي الغير مريحة ، وعلى السلسال القريب من القرية . وكان أبو خلف يعمل جاهدا على تنظيف مصطبة الأرض ليزرعها قمحا في بداية الموسم القادم . كان أبو خليل يدخن سيكارة وقد عدل من حطته وعقاله ، وحلق ذقنه ومدّ شاربيه . وعندما قال نحن جيران عدل من قعدته ولوى رقبته باتجاه «أبو خلف» الذي كان قد تربع على الأرض وبدأ يلف سيكارة . والمعول تركه على الأرض وعلى بعد أكثر من ثلاثين مترا كانت هناك ابنة خلف غزالة وأختها تعاونه في تصليح هذه

القطعة وتنظيفها من الحجارة البازلتية ما أمكن . وكان الوقت قبل أن يشتد الحر والهجير .

وهناك على شجرة سنديان كان يقف غراب فقد شيئا ما أو يحتاج الى شيء ما وهو ينعق .

جلس أبو خليل يستمع الى «أبو خلف» . أبو خلف يرغب بالزواج أيضا من مها بنت «أبو خليل» ولكن هناك مشكلة : القرار ليس بيده . القرار لأمه التي ربته ولا زال يحترمها كثيرا . تلك الأم العبوس الصارمة التي لا تبتسم . وأبو خلف وأبو خليل هما من عمر واحد . وزوجتاهما أيضا من عمر واحد . ولكن الزواج مرة ثانية مشكلة معقدة بنظر «أبو خلف» .

قال أبو خلف :

ـ أنت تعرف يا «أبو خليل» ان الرأي لوالدتي في مثل هذه الأمور . صحيح أولادنا شباب وبناتنا صبايا . ونحن لا نخسر شيئا . الزواج بدائل . ولكن والدتي لا ترغب بزواجي وأنت تعرف انني لا أرغب اطلاقاً في ازعاجها .

وأردف أبو خليل قائلا :

ـ يا رجل نحن رجال ومتى كان للمرأة رأي بهذا أو ذاك ؟ قد لا توافق غزالة على الزواج مني . وكذلك لا توافق مها على الزواج منك . ولكن هل لهما الرأي ؟ الرأي للرجال أولا وأخيرا . ماذا تريد والدتك ؟ هل تريد حلالا ؟ . اذا لم ترغب بالزواج لابأس أنا أدفع لك مهرا . كم ترغب ؟ عشرون رأسا من الماعز وبقرة ، وعجل . أو ثمنها ؟ أنا أرغب أن أتقرب منك وأقلب هذه الصداقة الى مصاهرة .

وأخذ سحبة من سيكارته . وأشار بيديه . بينما كان أبو خلف صامتا ، يفكر هو الآخر (عشرون رأسا من الماعز وبقرة وعجل) ، يمكن أن تساعده . ولكنه يعرف أن غزالة ابنته تهوى الجندي نويصر . ماذا يعمل ؟

وكذلك والدتها ترغب باعطائها للجندي نويصر فهما من عمر متقارب . ووالدته لا ترغب «أبو خليل» حتى لو دفع ابنته ومعزاه كلها . انها تقول عنه بأنه

رجل وجدانه قليل يشغّل أولاده ويتسكع في زواريب القرية وعند الدكنجي يتلصص على النساء وحركاتهن . ولكن الجندي نويصر لا يملك شيئا سوى راتبه فمن أين يدفع المهر لي ؟

قطع الحديث عبور كلبين يتشاجران قربهما . وأسرع خلف بعصاه حيث فر احدهما وهو الأقوى . بينما الآخر لاذ بجانب السلسال البازلتي داخل قطعة الأرض .

كان خلف يعرف علاقة غزالة بالجندي نويصر . ويعرف أن جارهم أبو خليل يود أخذ غزالة زوجة ثانية . وهو يعشق شقيقة أم شحادة ولذلك لا يحب أبا خليل ويخشى أيضا من والده وجدته بأن يفرضا عليه الزواج من مها بنت أبي خليل . كل هذه الأمور معلقة الآن .

ألقى خلف السلام على أبي خليل قائلا : أهلا بك يا أبو خليل . خير ان شاء . الحديث مع والدي عن الأرض واصلاحها . أم عن الرعي ؟ علينا أن نصلح هذه الأرض فهي مصدر الرزق . بدونها لا نأكل . قالها بصوت عال واسمع حديثه أخته غزالة بأن البحث لا يدور حولها .

كان قد لبس شحاطة من البلاستيك ولف حول رأسه حطة تقيه حر الشمس ، وحزم وسطه بنطاق يبدو أنه من أحد الجنود . وأراد أبو خليل أن يلطف الجو مع خلف قائلاً :

ـ سوف أبذل جهدي حتى يكون معك مسدس تحمله بشكل دائم .

ولكن يبدو أن الكلام جاء بوقت متأخر . قالت غزالة من بعيد :

ـ لماذا تعطلنا عن العمل يا «أبو خليل» . اطمئن لو بقيت العمر عازبة لن أتزوجك .

هب أبو خليل واقفا وقال لأبي خلف :

ـ متى كان للنساء رأي في الزواج ؟ ومع ذلك أنا عرضي قائم وشاور عقلك يا «أبو خليل» . مها وعشرون عنزة وبقرة وعجل .

آه ـ قال لنفسه : سوف اذل الكلبتين أم خلف وأم خليل . ونهض واقفا . لا أريد أن أعطلكم عن أعمالكم . كنت أود أن أشتغل عنك يا غزالة .

ولكن لا ترغبين في ذلك . سوف أعمل جاهدا لاسعادك .

كان يتقبل الاهانات من أجلها . كانت ترتدي جلبابا أسود جميلا . وقد لفّت رأسها بمنديل ملون يغلب عليه اللون الأحمر . وأرخت ضفائر طويلة نزلت تحت حزامها . كان يرنو اليها قائلا لنفسه :

ـ لسوف آخذك زوجة لو دفعت كل ما أملك .

كانت حدأة تقف في أعلى الرجم وتصوت . وحط غرابان على شجرة سنديان مقابلها . في انتظار بعض الحبوب التي تزرع في الأرض . اشتد الهجير . فقفل الفلاحون راجعين الى البيوت بينما شق أبو خلف طريقه باتجاه الدكان .

تتالت تلك الصور في خيال نويصر كما روتها له غزالة ، وهو يغذ السير مع جماعته ، وانتبه للعريف محمد وهو يخاطب المرشح :

ـ نعم يا سيدي المرشح . تسألني عن حلف بغداد . انت تعرف كما أعتقد مثلي . اذا تورطت سورية بهذا الحلف . ستكون كارثة ليس فقط على سورية ولكن على العرب كلهم . لو كان لدينا راديو بهذه السرية لكنا نسمع أخبارا وتعليقات حول حلف بغداد .

وعلق نويصر : يوجد عند الدكنجي راديو على البطاريات الكبيرة وهو راديو كبير يفتحه أحيانا لنسمع عنده الأخبار .

قال العريف محمد :

ـ هل تعرف . عنده جرائد من أيام الزعيم حسني الزعيم ؟ لقد قرأت فيها عن الملوك والرؤساء وعن نظرية دالس .

ما رأيك يا سيدي المرشح بنظرية دالس ؟ نظرية الفراغ ؟ أثناء ذلك عبر ثعلب بسرعة من أمامها وحاول المرشح صيده بطلقة من مسدسه ولكنه لاذ بين الصخور البازلتية الكبيرة وجفلت الطيور التي كانت قد حطت على تلك الشجيرات . وأقلعت أسراب الغربان من شجرة لأخرى وحطت على قمم الصخور الكبيرة .

لا زالت درجة الحرارة مرتفعة . ومع ذلك كانوا ينزلون بسرعة عالية لأن

الهضبة منحدرة والطريق متعرج . عبرهم بغل صغير يبدو أنه متخلف عن المواشي . لقد ألم به الخوف وعليه أن يصل دار صاحبه قبل عتمة الليل .

كان مسرعا يشخر والمسافة قريبة لكنه أبطأ حركته في الصعود .

قال العريف محمد :

ـ نعم يا سيدي لم تجاوبني عن رأيك في مشروع دالس . نظرية الفراغ في الشرق الأوسط ؟ أنت تعرف (المنطقة خلقت فيها اسرائيل بالقوة بواسطة الانكليز) والان الامريكان يدعمون اسرائيل . ويأتون كل يوم بمشروع جديد . الان مشروع ايزنهاور . وحلف بغداد . والنقطة الرابعة . ثم نظرية الفراغ .

هل تعلم يا سيدي . اليوم قرأت مقالا من جريدة قديمة كما قلت لك أيام حسني الزعيم رحمه الله . يترحمون عليه عندما يأتي غيره . وأنت تعلم الشيشكلي لا داعي لشرح ذلك . قرأت حول اتفاق رودس وتهاني الملك فاروق له بذلك . وكذلك الملك عبد الله . لاحظت أن برقية الملك عبد الله بالتهنئة فاترة جدا . ولكن برقية الملك عبد العزيز طويلة حول اتفاق التابلاين . فيها حرارة كبيرة . ما رأيك ؟

فقال المرشح :

ـ علينا أن نترك السياسة لأهلها يا رجل .

وقطع الحديث الجندي نويصر قائلا :

ـ هل تساعدني يا سيدي من أجل خطبة غزالة ؟

وسمع عواء ثعلب من المصطبة اليمينية التي اجتازوها ، ولم يتوقفوا . ولاح المرشح أحمد برأسه قائلا :

ـ طبعا يا نويصر . سوف نساعدك وسنحاول أن تأخذها بأقل ما يمكن من مهر . أقدم ولا تخف .

وأردف : لا بد من تفشيل حلف بغداد .

وقال العريف محمد :

ـ المهم الشعب ، البرلمان سنة ١٩٤٨ ، وبداية ١٩٤٩ لم يستطع أن يوافق على اتفاقية رودس ، والتابلاين رغم أنه حكم رجعي وأتى انقلاب الزعيم ،

وخدعنا ، مسكين . أنا أعتقد أنه خدع أيضا ولا يعرف لماذا قام بالانقلاب . فوقع هذه الاتفاقيات وانتهت مهمته فقتلوه . والذين أتوا بعده لم يكونوا بأحسن منه ، الذي قتل قتل وهرب الشيشكلي . هكذا تقول بعض الصحف المكدسة في دكان القرية .

وسأل المرشح :

ـ هل تعلم رغم أني أتردد على هذا الدكان منذ عدة شهور لم تلفت انتباهي اطلاقا ؟ رغم انه صرّ لي السكر والشاي والحلاوة بورقة من هذه الجرائد . ولكن يا رجل في تلك الايام كل يوم اضراب . وقد هللنا لانقلاب الزعيم واعتبرناه منقذا لنا من الفوضى وسوف يحرر فلسطين ، والنتيجة كانت كما ترى ؟

لم يعد بين الجنود وبين مركز السرية أكثر من ثلاثماية متر . بدأت الظلمة تزحف من الشرق طاردة الضياء وقد ازرق الأفق . سمعوا أصواتا خفيفة تنم عن أن هناك على بعد أكثر من مئة متر بالمصطبة ذئبا قد قنص معزاة في غفلة عن الرعاة وهرب بها ليتقاسمها مع بقية الذئاب الأخرى .

وأشهر نويصر بندقيته وكذلك المرشح أشهر مسدسه . أما مسدس الرشاش البريتا كما قال العريف محمد : لو اشتبكنا مع العدو بهذا المسدس الرشاش لكنا في وضع لا نحسد عليه اطلاقا . حتى هذه الذئاب لا تحسدنا . وأطلق الجندي نويصر باتجاه الذئاب طلقة وأطلق المرشح طلقة ثانية من مسدسه وكأن أحد الذئاب قد أصيب اصابة غير قاتلة حيث عوى عواء حادا واختفى داخل الصخور وبين الأشجار .

وهناك كان صوت المساعد ١ حسين مسموعا : انتبه استعد . كان يسير باتجاه قائد السرية الملازم ياسر الذي ترجل عن الفرس ، ليقدم له الفصيلة الثانية وجاهزيتها لتنفيذ المهمات .

وعندما دخل المرشح أحمد مركز السرية ، ومعه العريف محمد والجندي نويصر . قال المرشح أحمد :

ـ «سنتابع الحديث لاحقا عن المشاريع الاستعمارية والاتفاقات الخيانية

ولكن انتبه السياسة ممنوعة في الجيش يا عريف محمد» .

كانت الفصيلة الثانية مجتمعة . وقد وقف العريف زيد أمام الحضيرة الثانية وعندما وصل العريف محمد عاد الى أول الزمرة . كان قائدا لزمرة الرماة . بينما الجندي نويصر قائدا لزمرة الجوالة .

قال الرقيب قائد الحضيرة الأولى هامسا :

ـ عريف محمد قل بسرعة كيف كان التحقيق ، وهل التحقيق خاص بك فقط ؟ أو شمل كل الذين يزورون القرية . قل بسرعة حتى اطمئن أني ذاهب بالدورية الان . هل زار المرشح بيت أم كويعان ؟ قل هل زار أم راشد ؟ هل زار بيت أم خليل ؟ كان يستغل وقوف المساعد ١ أمام الملازم ، ويتحدث مع العريف محمد على عجل : «أين ذهبتم ، الى بيت من ؟ أين أكلتم ؟ قل» .

والتفت الرقيب آمر الحضيرة الثالثة قائلا :

ـ طبعا عزموكم على الغداء ، في بيت أم خلف أخذكم الجندي نويصر الى هناك . لكن المرشح قطعا عزمه أبو شحادة ، ومهما كان الجميع يعلم انني أذهب الى بيت حليمة ، ومهما كان التحقيق من قبل المرشح عني فلا يجد شيئا نحن نذهب للتسلية ولن نؤذي أحدا . لم يشتك علينا أحد اطلاقا .

ورد العريف محمد :

ـ ألا تر المساعد ١ قدّم الصف واتجه باتجاه الفصيلة انه لا يرغب بقلة الانضباط .

وخيم السكون فوق المكان . وتوقفت الحركة في السرية أثناء تقديم الصف للملازم . زاد من ثقل الصمت زحف الظلام على الضياء . ثم بدأ اعداد السرية للمهمة الليلية التي تقوم بها يوميا .

قطع السكون صوت حدأة كانت تصوت جنوب السرية بين الأشجار . بينما تعالى نقيق الضفادع وغدا يسمع من بعيد من داخل وادي السمك . وكان ثمة عواء بعض الذئاب يتردد صداه بين جنبات الوادي .

لقد ذهب المرشح الى خيمة الملازم ياسر ، واستقبله عند الخيمة رقيب ١ السرية قائلا :

ـ ليست مشكلة كبيرة ، فهمنا انهم عالجوا المجند من لسعة الأفعى بالحليب في بيت أم خلف . والعريف محمد ليس له ذنب ، أنا أعتقد هذا يا سيدي المرشح . صحيح لم يعد في الوقت المناسب ولكن أنقذنا انسانا . نعم أنقذ انسانا يا سيدي . وقد تسرع الملازم بتكليفكم بالتحقيق . طبعا واضح أن الدورية توقفت في بيت أم خلف وعالجوه هناك . هل شاهدت غزالة ؟ يريد أن يتزوجها نويصر . ولكن أختها وضحة جميلة جدا أفضل منها . هل كانت موجودة ؟ قال هذه الكلمات دفعة واحدة قبل أن يجيب المرشح الذي بدا غير مكترث وان كان يسمعه .

وأجاب المرشح بعد فترة :

ـ لم نذهب الى بيت أم خلف . وصمت . ثم تابع الرقيب أول : أين كنتم طوال هذا الوقت ؟

لم يعره المرشح انتباهه ومضى .

بدأت حركة السرية حسب مهماتها . فالكمائن اتجهت الى مواقعها قرب النهر ، والدوريات استعدت لتنفيذ مهماتها وفق الطرق المحددة لها . والقسم الباقي من السرية اهتم بحراسة مركز السرية . وبذلك يكون ربع السرية بالحراسة ونصفها بمهمات كمائن ودوريات والربع الأخير في اجازة خارج منطقة السرية .

عاد المساعد ١ حسين من عند الملازم ونظر الى وجه العريف محمد ، ولاح برأسه قائلا :

ـ هي عادت ، ويقصد العريف محمد . نعم جيد ، ليس مهما تعرفون مهماتكم . خذ آمر الحضيرة الأولى ولقنه كلمة . . لا يريد أن يفهمها الجميع هي كلمة (السر) لدورية الملاقاة .

كان الرقيب آمر الحضيرة الاولى قصيرا ، لونه أشقر ولشدة الحر ووهج الشمس بدا كأنه محروق في وجهه وقد شفي لتوه أو خرج من المشفى . وقد بدا على وجهه القلق لأنه لم يعرف نتائج التحقيق وماذا كتب المرشح في تقريره ؟

لكن الرقيب آمر الحضيرة الثالثة كان يقول وكأنه قد ارتكب جرما ما في القرية : ماذا يكتب ؟ طبعا سيكتب انهن يعشقن ولن نعتد يوما على أحد .

كان آمر الحضيرة الثالثة رجلا طيبا ، وكان خائفا من تقرير المرشح الذي قد يمس سمعته . لا يريد أن يقول عنه أحد بأنه أساء يوما ما . قال وهو يكتم غيظا :

- نحن لم نسيء لأحد . هم يعزموننا الى بيوتهم . لنلعب الورق أو لنشرب الشاي .

وأردف موجها حديثه الى العريف محمد قبل أن يتجه الى الكمين : لا يهمك .

قال العريف محمد :

- اعتقد أنه لن يكون هناك تقرير ولا تحقيق . اذهب وكن مطمئنا يا رجل . المرشح رجل طيب جدا ، لكن سألتني عنك امرأة جميلة لم أسألها عن اسمها . أتت الى الحانوت واشترت وكنت هناك فسألتني كيف الرقيب خمسان لماذا لم نره منذ يومين . وقلت لها لا أدري قد يكون عنده عمل سيأتي غدا أو بعد غد .

قال الرقيب خمسان :

- عويش . يمكن أن تكون عويش . ألم تقل لك اسمها . طويلة ؟ سمراء ؟ عيناها سوداوان ؟

أجاب العريف محمد :

- نعم سمراء وعيناها سوداوان . قال ذلك وهو يضع على صدره المسدس الرشاش . ثم التفت باتجاه المساعد ١ حسين الذي كان يتأكد من الحضيرة والكمين ويتفقد الرشيش والذخيرة حيث قطع عليه العريف محمد هذا التفتيش بقوله :

- يا سيدي المسدس الرشاش بريتا غير صالح للمعركة وقد أطلقت منه ثلاث طلقات والثالثة حصل فيها استعصاء ولم يطلق وانتفتخت حجرة الانفجار وبقي الغلاف داخلها ولم يخرج . وكسر مسمار النزع .

فرد المساعد ١ حسين قائلا :

ـ ماذا تقول يا عريف ؟ كرر ماذا قلت ـ **قالها صائحا ـ ثم أردف** : تقول المسدس الرشاش لا يعمل . كيف لا يعمل ؟ المسدس الايطالي حاربت فيه ايطاليا . والان تقول لا يعمل !!

فقال العريف محمد :

ـ يا سيدي هذا ما حصل أنا أعرف انه ايطالي . ولكن لم تحارب فيه دولة ترغب في الانتصار .

فقال المساعد ١ :

ـ ماذا تقول هل تنتقد القيادة التي أرسلته لنا ؟ منذ سنين ونحن نحمله . اذا حصل استعصاء نصلحه أو نرسله للاصلاح .

فرد رقيب آمر الحضيرة الأولى قائلا :

ـ منذ سنة ومسدسي في الاصلاح . أعتقد لن يعود . وسنرسله الى الاصلاح أفضّل البندقية ٤٩ أنها أفضل من أي مسدس .

ولاح المساعد ١ حسين قائلا :

ـ لم تصل يا عريف بعد . وخلقت لي مشكلة البارحة بالدورية واليوم بالمسدس وغدا لا أدري ؟

فقال العريف محمد :

ـ على أي حال يا سيدي هذا ما حصل ومن واجبي أن أعلمك بأن سلاحي غير صالح للعمل .

فقال المساعد ١ حسين :

ـ اكتب تقريرا كيف حصل الاستعصاء معك ؟ ومن قال لك أطلق على الأرنب بالمسدس الرشاش ؟ كان المساعد حسين غاضبا وضح ذلك من نبرات صوته العالية .

وساد صمت ثقيل . قطعه المساعد ١ حسين : ماذا أعمل لكم ؟ هذا ما أرسلوه لنا . هل اصنع لكم سلاحا ؟ قال ذلك بصوت عال ولكن ينم عن ألم في صدره ، ولم يستطع أن يتحدث بطلاقة فانتابته نوبة سعال قصيرة . ثم قال

للعريف زيد :

ـ اعطني مطرة الماء . لعنة الله على الذي صنع هذا المسدس . لم يأتنا منه الا البلاء . ولعنة الله على الذين اشتروه أيضا . كيف نقاتل بسلاح فا . . . فا . . . فا . . . لعنة الله على الشيطان .

ثم صمت .

وعلت همهمة بين المجندين والجنود غير مفهومة . كانوا يهرشون أجسادهم بين الفينة والفينة .

« ٤ »

كانت أسراب متلاحقة من البعوض تحوم فوق المكان . وهي تطن فوق الرؤوس .

قال العريف زيد موجها حديثه الى الجندي نويصر :

ـ اشعل النار حتى نطرد البعوض بالدخان .

كان الهواء الساكن قد بدأ يتحرك من جهة الجنوب الغربي من جهة البحيرة . ولذلك أشعل نويصر الروث والحطب من هذا الاتجاه . وكان الدخان كثيفا . لقد دمعت العيون . ولكنه كان أخف وطأة من البعوض الذي يسبب مرض الملاريا .

التفت الى الرقيب آمر الكمين قائلا :

ـ عندما أعود سوف أوقظك . عليك أن تعرف ما يدور بالتحقيق وماذا يود أن يكتب المرشح أحمد ووجه الحديث الى العريف زيد كونه يعرفه أكثر . زيد أنت تعرف أكثر من الرقيب ١ . سامع .

وأردف زيد بصوت هامس :

ـ نعم يا حضرة الرقيب توكل على الله وعلي في هذا الأمر لن أنام حتى أعرف ماذا كتب ؟

كانت رائحة الدخان كريهة . وأردف المساعد ١ حسين : حتى الأفاعي

تهرب من هذا الدخان . وكذلك العقارب . حياة . . . أهذه حياة ؟! وراح يتحدث مع رقيب الدورية . كان الظلام حالكا .

وخيل الى العريف محمد أنه يتحدث مع امرأة . نسي أنه يذكر المؤنث ويؤنث المذكر . وكان بعض الجنود يضحكون همسا عندما كان غاضبا . ويقول موجها حديثه الى العريف محمد :

«هي أنت أول ماجيت الى الفصيلة ، عملت مشاكل» .

لم يكن حال الفصائل بأحسن من حال الفصيلة الثانية . ولن يكون هناك دخان بدون نار . اذن يجب أن تشعل النار وتدخن ويوضع بالقرب منها بطانية حتى لا يشاهد العدو الضوء ويدل على مكان تواجد السرية . التمويه أساسي . حتى وجوه أفراد الدورية تمسح بالسواد أحيانا . وأخمص البنادق حتى لا تلمع اذا وجهت اليها الأنوار الكاشفة .

لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . قال المساعد ١ حسين ودخل خيمة العريف محمد .

وصاح العريف بصوت عال : نويصر . حضر شاي للمساعد ١ بسرعة . كان المساعد ١ حسين الذي بدا تحت شمعة يرقص ضؤوها ، متجهما ، عابسا ، وكأنه يريد أن يدخل معركة مع من ؟ هو لا يعرف مع من . كان ينفخ الهواء . أشعل سيكارة ونفخ الدخان بالهواء ـ وتربع على البطانية الممتدة في أرض الخيمة الصغيرة . ولاح برأسه يمينا وشمالا . وظهر شعر صدره الذي ابيض جزء قليل منه وقال :

ـ معركة مع من ؟ لا أحد يعرف . واضح المعركة مع العدو غرب النهر . المعركة معركة فلسطين . والتفت الى العريف محمد الذي كان يجلس بجانبه . وقد رمى المسدس الرشاش بزاوية الخيمة كأنه أحد أوتادها . ليس له فاعلية اطلاقا . قائلا :

ـ انظر المسدس الرشاش ليس له قيمة .

وأردف العريف محمد قائلا :

ـ لماذا يا سيدي أنت غاضب ؟ ماذا بوسعنا أن نعمل نحن ؟ أنا عريف

مجند آمر حضيرة .

وأنت مساعد ١ قائد فصيل . ويجب أن نعلم قائد السرية بأن هذه المسدسات فاسدة :

وأردف العريف محمد بعد أن شعر أن المساعد ١ حسين يستمع اليه . هازا يده اليمنى قائلا :

ـ عندما كنت في المدرسة جرت مظاهرات كثيرة . قال يومها الزعيم حسني الزعيم أن هذه الأسلحة فاسدة وهي خيانة للشعب والجيش معا .

والتفت المساعد ١ حسين بغضب وقد عقد حاجبيه وزور العريف محمد قائلا :

ـ اسكت يا رجل ما لنا ومال السياسة ؟ لا دخل لنا بالذين اشتروا وباعوا . نحن هنا نريد سلاحا صالحا للاستخدام فقط . آه يا فلسطين .

كان نويصر يغلي الشاي وصوت طباخ الكاز يعلو في الزاوية . ولهيبه الأزرق ينشر في المكان طيفا جميلا . كان الجندي نويصر يجلس القرفصاء بجانبه . يراقب فوران الماء . خلف حجر بازلتي لا يمكن أن يشاهده العدو .

قال نويصر : سيدي المساعد . نضع السكر في داخل الابريق ؟ أنا أعلم أنكم ترغبون الشاي سكره زائد .

ـ طبعا يا نويصر . ضع سكر زيادة في الشاي وأكثر من الشاي أيضا حتى نستطيع أن نسهر ونراقب أخبار الدورية والكمائن ، وحراسة مقر الفصيل .

اتكأ على البطانية المدرجة خلف ظهره ومد رجليه دون أن يخلع جزمته . ولاذ بالصمت ، بينما اقترب كلب من الخيمة ، وعندما لم يجد شيئا ضربه المساعد بقطعة خبز جافة ، فلحق بها مسرعا وهو يحرك ذيله الأعوج .

قال العريف محمد مازحا :

ـ هذه الأيام المؤامرات تحوم فوقنا يا سيدي المساعد . مثل البعوض .

ودخل الجندي نويصر حاملا ابريق الشاي وأقداحا من معدن . وضعها على البطانية وملأ كأسين بالشاي .

وقدم الصينية وقال للمساعد حسين :

ـ تفضل يا سيدي شاي عراقي . أتمنى أن تساعدني في الحصول على اجازة ليلية . نحن الان في الاستراحة .

وقطع كلماته المساعد ١ قائلا :

ـ نويصر عصر كل أفكاره بـ . . . غزالة . لعنة الله عليك وعليها . اذهب الى القرد .

فرد الجندي : شكرا يا سيدي ، وخرج من الخيمة متوجها الى خيمته .

دخل رقيب ١ السرية الى الخيمة . وبعد أن حيا المساعد ١ حسين قال موجها حديثه للعريف محمد .

يالله يا محمد كونك جديد وأول خطيئة لك بالسرية ، أقنعت المرشح بالتريث وعدم رفع تقرير الان ، هذه واحدة عندك . كانت يتحدث وقد غارت عيناه الصغيرتان تحت حاجبيه .

فقال العريف محمد : هل تشرب شاي ؟

فرد : الآن عندنا عمل .

ـ أم شحادة تسلم عليك .

والتفت المساعد ١ حسين قائلا : لم تعش هنا الا يوما واحدا . وتعرفت على أم شحادة .

ولكن العريف محمد بادره بالقول : هي قالت لي سلّم على الرقيب ١ وأنا لا أعرفها . وعرفت اسمها أم شحادة . ما ذنبي . وكذلك أرسلت أم خليل سلاما آخر .

كان كلب ينبح بكسل بجانب خيام السرية بين الحين والآخر . دالا على وجود بشر في الظلمة . لقد تغير وجه رقيب ١ السرية بعد أن أيقن أن هذه السلامات كلام عابر . وقال :

ـ كل القرية تعرفني . انني اذلل لهم كل المصاعب التي تعترض حياتهم . انهم أهلنا . ولكن بيوم واحد كيف عرفت كل هؤلاء الناس ؟ آه . يبدو أنك حزبي . هل أنت حزبي ؟

ولم ينتظر الجواب من العريف محمد بل قال :

ـ أنت تعرف أن الحزبية في الجيش ممنوعة ، ولكن اذا كنت حزبيا سابقا هذا شيء آخر .

اعتبر الجندي نويصر كلمات المساعد ١ حسين أذنا له بمغادرة السرية الى قرية جرابا . وقد اجتاز المصطبة باتجاه طريق القرية وسط الظلمة التي تضيؤها النجوم المتلألئة وزاد من سرعته خوفه من أن يعدل المساعد ١ عن رأيه بعد وصول رقيب ١ السرية . كما أن الغيرة من «أبو خليل» جعلته يغوص في روث الحيوانات على الطريق ويصطدم في الصخور .

قال جندي كردي :

ـ مسكين نويصر . كل يومين يهرب في الليل الى غزالة .

كان يسمع وقع خطواته على بعد خمسين مترا ؟ واختفت رويدا وسط الظلمة . بل تلاشت . وتبعه كلب من داخل الفصيل حيث لاذ به كظله .

لم يخش نويصر الليل رغم أنه كان وحده ، كل أفكاره كانت محصورة الان بالسؤال الوحيد كيف يتزوج غزالة ، ولكن هواجسه تقول أن المهر غال وسوف يصعب عليه تأمينه . لقد حصل على موافقتها وموافقة والدتها . ولكن جدتها العجوز ظلت مترددة . تقول : بدون مهر ، كيف هذا ؟

أبو خليل يدفع ابنته بدلا بالاضافة الى عشرين معزاة زيادة ، ولكن ابنه خليلا أكبر منها ، وقد تكون هناك مشاكل كثيرة ، وهي تهوى نويصر . جدتها لا تتحدث عن هذه المشكلة كثيرا بل تقول كلمتها التقليدية :

ـ الحياة قسمة ونصيب .

سمع عواء ذئب من بعيد قادما من وادي السمك ، كان صدى صوته يتجاوب مع الوادي والهضبة في الليل الهادىء الحار .

كان نويصر مسرعا في صعوده . وهناك سمع وقع أقدام أمامه . جلس القرفصاء فلمح اثنين يصعدان أمامه ، لم يرغب الالتحاق بهما ، ولكنهما كانا مسرعين أيضا ، لقد أحس بوجود من يلحق بهما .

ليست المسافة بعيدة ، أقل من كيلومتر من مركز الفصيل الى بيت غزالة ، وكلما أسرع ازدادت سرعة اللذين أمامه ، أصوات كلاب كأنها تترصد بعضها

بعضا عند الولي ، وقرب البيدر .

وصل القرية . ثم وصل الى بيت «أبو خلف» وطرق الباب ، وقال صوت من الداخل عرفه نويصر صوت خلف : من ؟ وأجاب نويصر : أنا صديق .

كانت غزالة دلته كيف يدخل دون أن يطرق باب الدار ، كلابهم يعرفونه بأنه صديق . وهكذا تسلل الى داخل الدار دون أن يراه أحد .

النجوم في السماء كانها الماسات لامعة . هناك نجم الجندي ، وفي القرب منه نجوم بنات النعش والدب الأكبر ، ونجم القطب ، الذي بدا باهتا بلمعانه الأحمر قرب بنات النعش .

توقف نويصر داخل الدار ، وهرب الكلب باتجاه العودة خوفا من كلاب غزالة ، وراح نويصر يمسح عرق جبهته البارد بكمه ويأخذ نفسا عميقا بهدوء ، لقد تعب من الصعود ، ثم تنحنح داخل الدار ، وفهمت غزالة عليه كانت تربط بقرة في الزاوية فاتجهت اليه مباشرة .

كان رقيب ١ السرية يناقش العريف محمد ، ويمطره بأسئلة متلاحقة عن الأحزاب : متى كنت معلما ؟ وبأية قرية ؟

أجاب : معلم ! ما قيمة معلم على أساس كفاءة ، مثل شيخ الكتاب ، قالها بدون اكتراث وقد ضم شفتيه اللتين شققت الشمس السفلى منهما ، وغطى العليا شاربان قصيران كشوك الدردار ، هز رأسه :

ـ آه . بأي قرية ؟

ـ نعم يا حضرة الرقيب ١ كنت في قرية الصور في محافظة دير الزور على الخابور . وقبلها عند تقاطع الفرات بالخابور مع البدو .

ولاح الرقيب ١ برأسه قائلا :

ـ ايه . . عند البدو . أكلت خرافا كثيرة طبعا ، كانوا يعطونك سمنا . . . . ؟ المعلمون يا سيدي المساعد ١ يخافون الليل ، هل تخاف الليل ؟

وقال العريف محمد الذي أغاظه هذا السؤال :

ـ أنا أخاف من المجهول ، ومن الأفاعي فقط .

ضحك الرقيب وقال المساعد ١ حسين مبتسما :

ـ من المجهول ؟! أين هو ، ومن الأفاعي ! ـ الدنيا مليئة بالأفاعي وهذه الأراضي بالذات مليئة بالافاعي السامة وخاصة غرب النهر . ولا يفيدها حليب كل ماعز القرية . وضحكوا جميعا .

ولكن الرقيب ١ قال :

ـ قلت تخاف من الأفاعي . انتبه يا عريف محمد الأرض مليئة بالأفاعي السامة ليست أفاعي مائية قد تجلب أجلك . . ونظر في وجه المساعد ١ قائلا :

ـ الملازم قائد السرية طلب الى قيادة الفوج وذهب بالسيارة ، على ضوء المصباح الحربي . والمرشح أحمد مكانه الان . سأذهب بدورية الى القرية وسوف أصطحب معي العريف زيدا . اذا سمحت له ،

وقال المساعد حسين :

ـ من يذهب الى هناك في هذا الليل وعلى الطريق المملوءة بروث الحيوانات الا اذا كان مثل نويصر عاشقا ، فهل أنت عاشق يا رجل ؟

وضحك الأخير قائلا :

ـ عندي نصف دزينة أولاد يا رجل يسكنون في القنيطرة وأنت تعلم ، لكن سنذهب الى هناك عند «أبو رابح» الدكنجي نسمع الأخبار ، ووافق المساعد ١ قائلا بصوت عال : عريف زيد اذهب مع رقيب ١ السرية .

وخرجوا جميعا من الخيمة الصغيرة ، وهو يقول هامسا الى العريف محمد قلت : انك حزبي . آه حزبي . بسيطة . ومشى وأخذته الظلمة مع العريف زيد باتجاه طريق قرية جرابا .

كانت تسمع حشرجة خنازير من بعيد من وادي السمك يصاحبها عواء ثعلب كسول يبدو أنه فقد أنثاه ، وكانت هناك رشات متقطعة من رشيش كسلان مثل نباح كلب السرية ، من منطقة بحيرة طبريا ، وأنوار كاشفة تمسح شرقي البحيرة ، كانت تبدو واضحة .

قال أحد الجنود ، انه أحس بفحيح أفعى تجتاز الفصيل الثالث وقد

اتجهت باتجاه الفصيل الأول ، وساد لغط بين الباقين من الفصيل الثالث وهي حضيرة واحدة ، وزادوا من الدخان لأجل طردها ، ورغم كثافة الدخان كان يسمع طنين البعوض فوق الرؤوس أغلب الأحيان .

مر المساعد 1 حسين مع العريف محمد وتفقدا الحراسة ، ثم تابعا الى مركز قيادة السرية .

كانت الفرس الواقفة تحت الشجرة تلوح بذيلها طاردة البعوض الذي تجمع أسرابا فوقها ، ورغم الليل فهي تهز برأسها الى الأعلى والأسفل حتى لا تمكن البعوض منها .

عندما دخلا خيمة قائد السرية ، كان المرشح أحمد يقرأ مجلة الجندي ، لكنه نهض مرحبا بالمساعد ١ وطلب الشاي ووجه حديثه الى العريف محمد :

ـ قلت لي أنك قرأت عن اتفاقية رودس في الجريدة ، ولم تجبني ونحن نازلين عندما سألتك عن هذه الاتفاقية .

وأثناء ذلك دخل عريف الفصيل الأول وقال للمرشح :

ـ سيدي يقولون أن أفعى في منطقة الفصيل ماذا نعمل ؟

ـ أفعى واحدة ؟ وصمت العريف .

فقال المساعد ١ حسين : دخنوا كثيرا ، سيهربها الدخان .

كان العريف يهرش ويده ثابتة على فخذه ، يهرش بهدوء وينتظر جواب المرشح الذي أجابه كما قال المساعد ١ حسين : دخنوا كثيرا فيهربها الدخان .

كان وجه العريف مصفرا لوجود أفعى في مركز الفصيل ، وضحك المساعد ١ حسين قائلا :

ـ العريف محمد يخاف من الأفاعي .

ووجه كلامه للمرشح :

ـ قل يا سيدي المرشح متى ترفع تقريركم ؟ لم نعرف عنه شيئا .

وابتسم الأخير وهز انفجار ضخم الفضاء من اتجاه جـ ١١ .

كان انفجارا كبيرا أكثر من لغم ضد الأفراد ، وأكثر من قنبلة يدوية ، فخرج الجميع من الخيمة . وبدأت كشافات العدو تمسح المنطقة تتبعها رشات

متقطعة ، وتجمعت الكلاب التي تحوم حول السرية في داخلها خائفة من صوت الانفجار ، لم تنبح داخل السرية بل التجأت اليها صامتة .

قال المرشح : هل اشتبكت الدورية من الفصيل الأول ؟ تجاه تل مشنوق بدأ اطلاق نار كثيف من رشاش ثقيل كانت الطلقات الخطاطة تمر فوق السرية محدثة أزيزا ، كان الرشاش يطلق بدون توقف كالكلب النشيط الذي اكتشف عدوه . وأخذ الجنود المرتاحون مواقعهم في الخنادق كل في مكانه للدفاع الدائري عن مكان تمركزهم .

هناك مدفع هاون صغير أطلق من منطقة تل أسود عدة قذائف مضيئة باتجاه السرية وبدقيقة واحدة أضيئت المنطقة ، وعلى اضاءتها كان الرشاش الثقيل يمسح المنطقة ، كان الاطلاق بدون تسديد ، وضح ذلك من الطلقات الخطاطة التي كانت تظهر من عين علمين حتى منطقة جرابا . وقرية جرابا ليس لها نوافذ بيوت من جهة الغرب وجدرانها من البازلت فهي تصد الطلقات التي تضرب باتجاهها .

استمر اطلاق النار ثلاثين دقيقة ، ثم ساد صمت ولا يزال الجنود في خنادقهم .

عاد المرشح والمساعد ١ والعريف محمد الى الخيمة ، كان الجندي قد حضر الشاي ووضعها على الطاولة في أكواب من توتياء .

قال المرشح :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله لا نعرف عن الدورية شيئا ، والكمين في منطقة اطلاق النار .

وأردف : تفضلوا اشربوا الشاي :

كان المرشح يعامل العريف محمد معاملة خاصة ، فهما معلمان في الحياة المدنية . ولذلك لم يعامله كعريف ، أدنى منه رتبة .

وقال المرشح بعد أن أخذ رشفة من كوب الشاي . وخلع عن رأسه خوذته الفولاذية :

ـ قلت يا محمد أنكم كنتم تتظاهرون ضد اتفاقية التابلاين .

لم يعلق المساعد ١ على ذلك بأي كلمة . بل تابع : سألتك عن اتفاقية رودس ولم تجبني !!!

جفلت الغربان في الخارج من صوت الانفجارات واطلاق النار ، واتجهت من فوق السرية باتجاه وادي السمك . بينما كانت أصوات ذئاب بعيدة من منطقة تل أسود تعوي عواء جماعيا .

وقال المساعد ١ حسين :

ـ علينا أن ننتبه في هذا الليل ، انصتوا هناك أصوات ذئاب كثيرة ، وارهفوا السمع .

داخل خيمة قائد السرية يوجد قنديل هوائي وعلى ضوئه الشحيح ، شاهد المساعد ١ حسين عقربا أسود كبيرا يسير على الأرض باتجاه قدم العريف محمد ، فأسرع وسحقه تحت قدمه وقد سمعت طقطقة حراشف العقرب تحت حذائه ، وهو يقول ويحك أسنانه (يلعن أجدادك) لسعته مميتة ، ايه لو لسعت أي واحد منا كان لا بد له من الطبيب ، وأين الطبيب الآن ؟ في قيادة الفوج ، ومن يستطيع أن يصل الى قيادة الفوج الآن ؟ قد يأتي أجله ولا يصل ، لعنة الله على الشياطين .

وصرخ المرشح بالجندي : هات شاي ساخن يا بني . وأخذ سيكارة وبدأ المرشح والمساعد ١ يدخنان دون كلام ، كان المرشح ساهما ، بينما أصفر لون العريف محمد من منظر العقرب .

فقال المساعد ١ حسين :

ـ هل أنت خائف ؟ كيف لو كانت أفعى ؟ والأفاعي مثل العقارب كثيرة في هذه الأرض ، عليك أن تنتبه بشكل دائم .

رن جرس الهاتف . وكان على الخط قائد السرية نفسه . يستفسر عن اطلاق النار فطمأنه المرشح قائلا :

ـ كل شيء على ما يرام . لا تقلق يا سيدي . لكن يمكن أن يأتي الطبيب غدا من أجل ايجاد علاج للقمل الذي انتشر بين أفراد السرية . وهذا مرض لا بد من طبيب لمعالجته . القمل أبيض مذنّب طويل لا يذهب بالصابون .

أرجوك يا سيدي الملازم . كلنا مقملين حتى نحن قادة الفصائل . اجتاحنا القمل . وقد يجتاح كل السكان . أرجوك أن تحضر الطبيب .

وأجاب الملازم : طيب . . راقب الوضع وكن حذرا لا تناموا حتى أعود . وأقفل الخط .

قال المرشح وهو ينظر في وجه المساعد ١ حسين : ما رأيك بطلب احضار الطبيب ؟

لكن المساعد ١ حسين لم يكن قادرا على التفاؤل . فلم يرد جوابا . بل هز رأسه وقال .

ـ ان شاء الله خيراً يا سيدي .

وخرجوا ثانية من الخيمة . ولم يزل هناك على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا تبادل اطلاق نار من رشاشات ومدافع هاون بين العدو والقوات الصديقة المتمركزة قرب البحيرة . أحيانا كانت تضيء طلقات الهاون السماء حيث يختفي لمعان النجوم لفترة من الوقت .

وانتشر همس بين الجنود الجاهزين خلف بنادقهم في الخنادق ، مترقبين ومتأهبين للدفاع عن السرية حتى لا يأخذهم العدو على حين غرة .

وسمح لهم المرشح بأن يشربوا الشاي . وأن ينام واحد ويسهر الآخر بجانبه . وبين حين وآخر كان المساعد ١ حسين مع العريف محمد يقومان بجولة على مركز الفصيلة الثانية ثم يعودان .

لم يسأل المرشح أحمد عن المرشح قائد الفصيلة الثالثة . وفهم منه أنه ذهب مع الملازم قائد السرية الى قيادة الفوج . كما لم يسأل عن رقيب السرية أيضا لأنه يعرف انه في القرية أيضا .

ساد صمت ثقيل وقد توقف كل شيء في هذه الليلة ، عدا بومة كانت تنعق بين حين وآخر والجنود لا يحبون نعيق البوم والغربان . كما انهم يكرهون أصوات الذئاب . لأن العدو دائما يقلّد أصوات الذئاب بكل دورياته وكمائنه وكون الذئاب كثيرة في المنطقة فلم يكن سهلا أن تعرف الذئاب الحقيقية من المزيفة . وقال أحد الجنود ، على أي حال كلهم ذئاب أصابها الكلب . وعلى

هذا فالرشاش جاهز .

أخبر مرصد جرابا المرشح وقال عنده فلاح يفيد : ان ثوره لم يعد الى البيت ، وقد كان قرب باب الدار عند الغروب .

وهز المرشح برأسه قائلا : الآن وقت الثور ، ماشي الحال ، يمكن أن يجده على البيدر عند الولي . الطريق آمن ولا توجد في طريقكم دورية . أرسل معه جندي .

ونظر المرشح في وجه العريف محمد قائلا :

- أين الجندي نويصر . حتى نبحث معه موضوع غزالة ؟

ورد المساعد حسين قائلا :

- لقد أعطيته اجازة ليلية ، وذهب الى القرية .

ورد المرشح : لو شاهدته اليوم وهو ينظر الى «أبو خليل» يريد أن يأكله .

عندما بزغت نجمة الصبح وصاحت الديكة آذان الفجر واستيقظت كلاب القرية ، بدأت الدوريات بالعودة تلتها الكمائن ، وشق الضياء الظلمة من الشرق طاردا الليل ، وأحمر الأفق الشرقي ، ونام الجنود ليأخذوا قسطا من الراحة .

نام العريف محمد في الخندق الى جانب أحد الجنود نوما عميقا واستيقظ على أثر أشعة الشمس ووهجها ، وبدأت الحرارة بالارتفاع ومواشي القرية بالهبوط باتجاه وادي السمك . كانت الكلاب أيضا تنام فوق الصخور الملساء التي لم تستطع الأفاعي تسلقها . وعاد بعد الشروق رقيب ١ السرية والعريف زيد وآخرون . والجندي نويصر عاد وحده ، والآخرون مع مواشي القرية التي سلكت الطريق الوحيدة في رتل أعوج . وثمة أرنب صغيرة كانت ترعى في المصاطب بقايا أوراق ذرة بيضاء يابسة ، تتربص بها الثعالب المختبئة بين الصخور وأشجار السنديان وسلاسل المصاطب .

كان يرافق رقيب ١ السرية أبو خليل قادما من القرية يجر بغلته وقد حمل عليها خرجا فيه بعض طيور الحمام ، وعلبة من اللبن المخثر حديثا ، وعلبة حليب ماعز وزبدة طرية أيضا ، حملها الى قيادة السرية .

كان يسير جارا مقود بغلته خلف رقيب ١ السرية ، وكادت البغلة تجفل وهي تعبر ساحة السرية ، الا أن أبا خليل أمسكها من مقودها وهي تشخر . وعندما انزلوا الخرج في خيمة رقيب ١ السرية وربطها بجرن فرس قائد السرية ، كانت ترى كل شيء حولها غير مألوف بالنسبة لها . وتركت وراءها روثا طريا ثم بالت .

لم تأكل بل كانت تلتفت يمينا ويسارا ، وقد وضع لها الجندي بقايا خبز يابس وراحت تشمه بهدوء .

لفتت البغلة انتباه الجندي نويصر ، بغلة «أبو خليل» فهو يعرفها جيدا ، وبدأ يسأل نفسه لماذا جاء مع رقيب ١ السرية ؟ لعنة الله عليه ، هكذا حدث نفسه .

قال العريف زيد ، وهو يخلع حذاءه ويتحدث كأن الأمر لا يعنيه :

ـ أيامك صعبة يا نويصر ، عاشق ، آه ، عاشق غزالة بنت أبو خلف . لكن سوف تدفع الثمن غاليا . ونظر باتجاه الجندي نويصر نظرة تنم عن شماتة !!!

ورد الجندي نويصر وقد احمرت عيناه من قلة النوم :

ـ وهل العشق حرام يا ناس ؟ أنا لم أذهب في السر ولا أريد التسلية ، ولكن اطمئن يا حضرة العريف زيد انني غير خائف من أحد وكل الأمور تسير لصالحي ، أمها راغبة بي أكثر من «أبو خليل» وهي لا يمكن أن تقبل «بأبو خليل» .

وقطع الحديث العريف محمد موجها حديثه الى العريف زيد والجندي نويصر :

ـ نظفا سلاحيكما قد يجري تفتيش من قبل قائد الفصيلة الآن . وقد يحضر قائد السرية ، ونهض الاثنان . وعقب العريف زيد قائلا :

ـ تمنيناك البارحة معنا وقد سهرنا حتى الصباح . آخر السهرة كانت في بيت «أبو خليل» أبو خليل مصرّ على الزواج من غزالة ، مهما كلفه من ثمن . وقد حضر مع رقيب ١ السرية وأتى بفطور لقائد السرية . وقد يفطرون مع

بعض ويذهب الجندي نويصر فرق عملة .

قال العريف محمد :

ـ امسحوا الأسلحة الآن ، وبعد ذلك سوف نسمع ما يجري .

كان المساعد يتفقد كل بندقية . وكان يرتدي مثل المرشح النطاق الجلدي مع الحمالة ومسدسه معلق فيه .

ينظر الى السبطانة وعلبة المغلاق وكل قطع البندقية المفككة على البطانية أمام خيمة كل فرد من أفراد الفصيلة . يرافقه آمر كل حضيرة .

وعلق رقيب الحضيرة الثالثة قائلا :

ـ ماذا عمل المرشح وكيف كان التحقيق ؟ وما هي العقوبة التي فرضت بالعريف محمد ؟

قال ذلك للعريف زيد كي لا يجرح العريف محمد بسؤاله حول العقوبة .

فأجاب العريف زيد :

ـ حتى رقيب ١ السرية لا يعرف . ولكن يبدو من حديثه أنه سيفرط كل شيء وتمر الأمور بدون تحقيق . وسوف يعاقب العريف محمد فقط من قبل قائد السرية .

بدأ العساكر ينظفون خيامهم وبطانياتهم . وكذلك قسم منهم أخذ يتناول فطوره بانتظار وصول قائد السرية .

ومن بعيد سمع غناء فتيات . كن ينزلن وادي السمك مع المواشي (على دلعونا . على دلعونا . وأهلا بالعكسر ياللي يحبونا) .

كان جندي من الفصيلة الثالثة يعزف على ناي بلحن مرتفع وكأنه يعزف لهن .

قال المساعد ١ حسين :

ـ آه عريفة محمد . أنا راحت علي ، كبرت ، البركة بالشباب . أنت سامع مثلي . الصبايا شو بيقول ؟ برخبوا بالعساكر الذين يعشقونهن .

كانت أسراب من الحمام تحوم فوق المواشي متنقلة بين القرية ووادي السمك . وكانت أصوات الحملان وجدايا الماعز تسمع الى مقر السرية .

كان نويصر وغزالة وكذلك شقيقها خلف قد سهروا سوية لم تنم غزالة اطلاقا ولا نويصر . وكانت أمها قلقة من كلام الناس . هي تريد أن تنهي هذه الخطبة حتى تقطع الطريق على «أبو خليل» . قتلها الخوف من تهديد «أبو خليل» لها بأنه سيزوج زوجها من ابنته ضرة عليها ويأخذ ابنتها . كانت قلقة . ماذا يعمل الجندي نويصر مع ابنتها وهو يجلس معها زمناً طويلاً في زاوية الدار خلال الليل ؟ كل ذلك يثقل عليها . وكذلك أولادها العشرة من تزوج ومن تأخذ ولمن تعطي ؟ انها عائلة كبيرة . وكانت دائما تترك الأمور لله .

بينما زوجها لا يريد الزواج ، ولكن عشرين عنزة أو أربعين . كمهر لغزالة من «أبو خليل» تساعده في اطعام هذا الفصيل من الأولاد . وأمهم وأمه وضيوفه . ماذا بوسع نويصر أن يعطيه ؟ ما هو الا جندي ، يمكن أن يأتي جنود ويأخذون البنات أيضا ، والحياة كما تقول والدته قسمة ونصيب .

كانت النار تغلي في صدر أم خليل من زوجها الذي يبذل جهدا للزواج عليها من امرأة ثانية وكأنها كبرت قليلا . يرغب بفتاة بعمر ابنته ؟ ماذا بوسعها أن تعمل ؟ دين الاسلام يسمح بهذا الزواج . الشيخ قبل أن يذهب كان يقول دائما : يحق للرجل مثنى وثلاث ورباع . وعليكن تقبل ذلك في هذا أمر الله ولا رد لأمره . هل من المعقول أن يكون هذا من أمر الله كما قال الشيخ ؟ وهي تعلم أن الله عادل ، ولكن ماذا بوسعها أن تفعل . تريد من الجندي نويصر أن يأخذ غزالة بسرعة . حتى ترتاح وتنام . لقد خف وزنها من القلق .

لكن غزالة التي سهرت مع نويصر أقسمت أن لا تتزوج غيره مهما كانت المصاعب ، وسوف تخالف كل العادات والتقاليد اذا لزم الأمر .

كانت الجدايا قد فلتت من زريبتها داخل الدار وهجمت على أمهاتها ترضع الحليب وهي تصرخ لتتعرف كل منها على وليدها . وخرجت أم خلف التي لم تنم بعد . انها تعرف أن الجندي نويصر ، يقبل غزالة ويجلسان في زاوية الدار . وهي تتنحنح عندما تفتح الباب . دائما تحرص بأن لا تشاهد ما يحصل في هذه الزاوية . والجدة تلوذ بالصمت . كأنها قطعة من فولاذ . تقول كلمة واحدة «الحياة قسمة ونصيب ولك انسان في هذه الحياة نصيب يلاقيه» . كانت

تحاول أن يرتاح ابنها خلف . وهي لا ترغب «بأبو خليل» اطلاقا . رغم عدد الماعز الذي عنده . وقد يدفع نقودا اذا وافقت . ولكن ليس بالأمر حيلة . فالجندي نويصر شاب . والأحاديث في القرية كثيرة ومتنوعة وتقول :

- (كل عود لا بد من أن يلوحه الهوى) . وكانت غزالة تشكو لأمها كل همومها ومشاكلها . والأم تغفر لابنتها كل ما لم يغفره الآخرون ولا العادات والتقاليد .

كان أبو خليل جالسا في خيمة رقيب ١ السرية . وراح رقيب ١ السرية مع أحد الجنود يجهز فراخ الحمام فطورا للملازم . يساعده أبو خليل في نتف فراخ الحمام التي أتى بها حية من القرية .

قال المرشح أحمد :

- اليوم سوف نفطر على حسابك يا «أبو خليل» .

أغلب الرقباء يعرفون أبا خليل . وقسم من الجنود بل كل الجنود والمجندين . لأن أبا خليل كان يتردد لعند رقيب ١ السرية دائما . وقد اتفق مع رقيب 1 السرية على نقل الجندي نويصر من السرية الى قيادة الفوج البعيدة عن قرية جرابا . وعلى المثل القائل (ابعد عن العين ـ ينساك القلب) وبذلك يخلو له الجو مع غزالة ويقنعها بالزواج منه . وأخذ الرقيب ١ على عاتقه اقناع الملازم بابعاد نويصر عن السرية .

ماذا قدم أبو خليل لرقيب ١ السرية . هذا ما بقي سرا ، غير معروف طواه الزمن . لكن أبو خليل يمكن أن يتحدث مع الملازم ياسر مباشرة . ويشرح له أن الجندي نويصر يسيء الى سمعة الجنود والى سمعة السرية في القرية . خاصة أن قائد السرية يراعي الناس ويحاول أن تكون علاقات الجنود مع السكان المحليين جيدة . كون الجميع أهلا ومواطنين جيدين ومنهم اللاجئين الذين تتعقبهم مآسي كثيرة والجروح لا تزال طرية . هكذا كان يفكر أبو خليل بالحديث مع الملازم .

في تلك اللحظة شنت الكلاب الجائية حول السرية هجوما مباغتا على أرنب ، ولكنها لم تستطع اللحاق بها ، وصفر الجنود لها ، لكن المرشح أحمد

صرخ منبها : لا يطلق أحد النار . لقد خاف من اطلاق النار عليها أن يصاب أحد بأذى . وعبرت الأرنب السرية ومرت بسلام . كان الجنود يصرخون . «عندك . امسكها» . رجعت الكلاب تدور حولها ولا تستطيع الامساك بها .

وظهرت من بعيد على الدرب سيارة قائد السرية تاركة خلفها سحابة من الغبار رغم أن سرعتها كانت بطيئة وكانت تعلو وتتأرجح وخلفها على بعد مئتي متر كانت أيضا سيارة ثانية . وقد غطى غبار السيارة الأولى الثانية . اقتربت السيارة وسمع صوت المحرك الذي كان (الاشكمان) مثقوبا ويحدث أحيانا أصواتا كأنها طلقات بندقية . لقد شاخ المحرك انه من مخلفات الحرب العالمية الثانية .

كان الملازم ياسر يجلس بجانب السائق وخلفه المرشح قائد الفصيلة الثالثة . وعند توقف السيارة نزل الملازم ياسر وقد غطاه الغبار . وكذلك المرشح والسائق . وعادت السيارة الى مكانها في الحفرة تحت شجرة السنديان الكبيرة .

وصلت السيارة الثانية وكانت سيارة جيب ويلز اميريكة الصنع . فيها رجل خلع سترته وأبقى على البنطال فقط . كان أشقر اللون ولكثرة ما لوحته الشمس بدا جسمه أحمر موردا يكاد الدم ينفر من رقبته . كان يرافقه رقيب ١ يحمل حقيبة . وقد دخلت السيارة الى مكان اجتماع السرية مجللة الجنود بالغبار .

قال المساعد ١ حسين بعد أن شاهده :

ـ لقد وصل الطبيب . سيعالج مرض القمل المنتشر في السرية بين الجنود .

فوق السرية طارت جماعة من الغربان طردتها الكلاب المرافقة للمواشي من وادي السمك بدأت تحوم فوق السرية وتكرّ راجعة لتحط فوق الأشجار هناك .

نزل الطبيب من السيارة وتبعه الرقيب ١ حامل الحقيبة الجلدية ، وقد لبس بدلة نظيفة وأرخى البنطال فوق الحذاء العسكري .

كان الملازم ياسر واقفا أمام الخيمة عندما وصل الطبيب فرحب به وصاح المرشح أحمد بأعلى صوته . وكان صوته حادا :

- (سرية - انتبه استا . . عد . وكرر لم أسمع صوت أرجلكم تهز الأرض ، يجب أن أشعر أن الأرض ترج تحت أقدامكم . مرة ثانية - استا . . رح . . استا . . عد) وقدم السرية الى الملازم ياسر . حيث حيا الاخير تحيتين احداها للسرية ومشى يلقي نظرة على الخيام . ثم عاد . وتحدث مع الطبيب بالفرنسية .

قال المرشح أحمد بصوت عال :

- اجتماع السرية . الكل يخلع ثيابه .

وساد هرج «كل الثياب حتى الثياب الداخلية» . . .

ولكن المساعد ١ حسين قال :

- ليست مشكلة ، تبقى السراويل .

دخل الملازم ياسر مع الملازم الطبيب الى خيمة قائد السرية ودلف خلفهم المرشح أحمد ثم المرشح نافع ، ثم دخل الرقيب ١ السرية وخرج وبعده دخل أبو خليل . وبدأت ترد الى داخل الخيمة صحاف طعام الفطور . . .

استغرق طعام الفطور ساعة من الزمن كان خلالها الجنود مجتمعين ينتظرون الطبيب لمعاينتهم .

كان الطبيب اختصاصيا بأمراض القلب ، تجاوز الخامسة والثلاثين ، وفقد القسم الأكبر من شعره فبانت صلعته حمراء . قال :

- مرض القمل . قلتم لي مقملين . ماذا نعمل بالقمل ؟

كان ينظر الى جلود الجنود ، كانوا مسمرين أمام الملازم الطبيب والملازم قائد السرية . وعندما كان الطبيب يتوقف عند أحد الجنود كان يتكلم بالفرنسية مع قائد السرية ، لا أحد يعرف ماذا يقول . ألقى نظرة على البطانيات . وأخذ الرقيب عيّنة من القمل في قارورة زجاجية . وقال : نظفوا أجسامكم ، يوجد مياه في وادي السمك ، واغسلوا ثيابكم وأمتعتكم هناك «استغرق تجواله في السرية حوالي خمسة عشر دقيقة بعد ذلك غسل يديه بمياه المقطورة . ونظر الى

حذائه الذي تلوث . ثم غادر السرية دون أن يعرف أحد ماذا قال للملازم . ولكن المرشح فهم أنه سيكتب تقريرا الى قيادة الفوج اليوم . وان وضع السرية سيء من الناحية الصحية .

تقدم كلب واقترب منه عندما ركب سيارة الجيب ، وظنه الطبيب كلبا أليفا يمكن أن يمسك به ويأخذه وعندما حاول أن يمسك به هرب الكلب ملقيا نحوه نظرات خوف . لكن الملازم ياسر قال :

ـ سنرسل لك كلبا أو جروا تربيه أنت فيما بعد وسوف ألقاك مساء في قيادة الفوج .

كان العساكر يتهامسون ويتغامزون حول منظر الطبيب ، وبعد أن دفعوا السيارة ودار محركها ، غابت وسط زوبعة من الغبار .

قال العريف محمد للمرشح أحمد :

ـ مسكين هذا الطبيب ، يبدو أن في عقله لوثة .

وقال قائد السرية الذي لا يزال خارج الخيمة مبتسما :

ـ قلبه طيب .

وصاح الملازم : هاتو شاي هنا تحت شجرة السنديان أبرد من الخيمة . وصرخ بأحد الجنود أن يبقى قرب الهاتف الموضوع على طاولة داخل الخيمة .

تحلقوا حول قائد السرية فجلس المرشحان على الأحجار البازلتية بينما بقي المساعد ١ حسين واقفا وكذلك العريف محمد .

قال المرشح أحمد موجها حديثه للملازم ياسر :

ـ ان العريف محمد كان معلما في مدرسة في المناطق الشرقية . وتناقشنا ليلة البارحة طويلا .

ولكنه التفت باتجاه «أبو خليل» قائلا :

ـ ماذا تعمل يا «أبو خليل» لا زلت مصمماً على الزواج من غزالة ؟

وتململ أبو خليل في مكانه . كان يدخن سيكارة أخذها من رقيب ١ السرية . حيث أخذ نفسا وعبأ رئتيه ثم نفخه في الهواء . وبعد أن مسدّ لحيته وشاربيه قال :

ـ الله أجاز لنا ذلك . جئت أشكو من تصرفات بعض الجنود عندكم جندي يدعى نويصر ، يأتي الى القرية ويثير المشاكل .

والتفت الى رقيب ١ السرية قائلا :

ـ الرقيب ١ يشهد على ذلك ، فهو يعرف كل مشاكله ، وكذلك العريف زيد ، ونحن ليس لنا ملجأ للشكوى الا قائد السرية .

كان قائد السرية ينظف أسنانه من بقايا لحم فراخ الحمام التي علقت بين أسنانه ويصغي اليه .

قطع الحديث صوت انفجار هز الأرض من جهة بحيرة طبريا . وأخذ قائد السرية المنظار ولكن سمع عن قرب اطلاق نار من جهة تل أسود حدث اشتباك بالرشاشات بين أسلحة الوضع والعدو لمدة دقائق ثم توقف . بعد ذلك سمع اطلاق عيارات نارية من وادي السمك ، وأفاد أحد الجنود لاحقا أن بعض الذئاب أغارت على المواشي ، فأطلق عليها الرعاة النار .

بدأت الشمس تتوسط كبد السماء ، كانت الحرارة أقل من اليوم السابق ، وقدم الجندي الشاي للجميع بأكواب من الالمنيوم .

قال الملازم ياسر :

ـ اشرب الشاي عريف محمد ، وساد صمت قطعه أبو خليل ثانية قائلا :

ـ يا سيدي الملازم ، فهمكم كاف ، البارحة أمام المرشح والعريف محمد ، حرض علي أحدى النسوة وبهدلتني وهم يسمعون ، كان الملازم يشرب الشاي دون أن يقول كلمة واحدة .

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ أنا أقترح يا سيدي نقله الى قيادة الفوج لأنه أساء الى سمعة السرية في القرية ، كل يوم يهرب للقرية :

والتفت المساعد ١ حسين غاضبا وقال :

ـ لا .لا . هذا ليس صحيحا انه يأخذ اجازة مني لم يهرب اطلاقا ، أما ماذا يعمل هناك ؟ أنا لا أدري ، يقال انه يريد أن يتزوج من بنات القرية ، هذا رأيه هل نمنعه من الزواج ؟ قال ذلك موجها حديثه الى الملازم .

وأردف المرشح أحمد قائلا :

ـ كما يقرر الملازم ياسر .

وتعارك كلبان ثانية قرب مربض الفرس حيث جفلت البغلة وقطعت رسنها وولت هاربة ، تضرب الهواء برجليها ، ونهض أبو خليل حيث قال موجها الحديث الى الملازم :

ـ ادعوك يا سيدي الى الغداء في القرية أرجو قبول دعوتي مع الاخوان ، وأشار الى الجميع ، ولكن الملازم ياسر قال : فيما بعد ، حتى نقرر وضع الجندي نويصر .

لكن الرقيب ١ قال : لا مانع يا سيدي بيت «أبو خليل» بالقرية بيت كرم .

فقال الملازم :

ـ في الأيام المقبلة ممكن ، أما الآن لا ، لكن نويصر اذا كان يسيء لا بد من معاقبته ليس فقط نقله ، على كل حال ، يحقق في هذا الموضوع المرشح أحمد .

وابتسم العريف محمد ولم يعلق أحد على ذلك سوى الرقيب ١ قائلا :

ـ لا تحتاج الى تحقيق يا سيدي .

وقطع الحديث متابعة رشاش ثقيل من منطقة غرب النهر ، ولاحت في الأفق غيوم بيضاء ، عقب على ذلك المرشح أحمد قائلا :

ـ يجب أن يتبدل الطقس انه ايلول (وايلول ذنبه مبلول) . ونهض الملازم موجها حديثه الى «أبو خليل» قائلا :

ـ سوف نتغدى عندك في يوم آخر ، وقال للسايس : أسرج الفرس .

وصل بغلان يحملان الغداء الى السرية من قيادة الفوج . وساد صمت .

ثم استأذن أبو خليل وبعد أن شاهد الملازم يذهب باتجاه القرى الشرقية وجّه بغلته الى وادي السمك .

لقد حزن العريف محمد من أجل الجندي نويصر . ولكن الذي جعله يطمئن . ان المرشح هو الذي يحقق بالموضوع .

لم يستطع الرقيب ١ أن ينتزع أي قرار من قائد السرية . لأن الملازم لا يرغب باتخاذ قرار دون تحقيق . ويعتمد بذلك على المرشح أحمد الذي يليه بالقدم .

كان الجندي نويصر يراقب عن بعد أبا خليل عند رقيب ١ السرية وكذلك عند الملازم . ماذا يعمل ؟ لم يكن يعلم بأنه يحوك له دسيسة سوف تؤدي الى نقله في أحسن الحالات بدون عقوبة . كانت الغيرة تكاد تقتله .

كان يشرب الشاي مع رقيب الحضيرة الثالثة . ويتحدثان عن سهراتهم في القرية . كان رقيب آمر الحضيرة الثالثة بالفصيلة الثانية رجل طيب وهو رقيب متطوع لكنه لا يزال عازبا . وهو في الخامسة والعشرين تقريبا عيناه تنمان عن طيبة وقلة ذكاء . فبأي موقف يتبدل لونه ويخاف كثيرا من رقيب ١ السرية . وكذلك من قائد السرية . يحاول أن يبتعد ما أمكن عن مشاهدتهم . كان يذهب دائما الى القرية وخاصة برفقة الجندي نويصر . لم يكن على علاقة جيدة مع العريف زيد لماذا ؟ لم يستطع العريف محمد أن يجد جوابا لذلك سوى أن العريف زيداً هو عين رقيب ١ السرية في الفصيلة الثانية .

كان بعض الجنود يلعبون الورق في ظل شجرة السنديان ، وآخرون يعزفون على الناي . وجندي آخر يغني الميجانا والعتابا على عزف مزمار . والكل في حالة استراحة استعدادا للمهمات الليلية .

كانت الكلاب التي تعيش من فضلات السرية قد أخلدت للراحة في ظل سيارة الدودج وقرب مقطورة المياه . وتحت الشجيرات التي تقيها الحر . وعددها يزيد عن خمسة عشر كلبا وكلبة . كلها كلاب ضالة ولكنها مفيدة فقد تنبه الحرس ليلا من كل طارىء عن بعد . وبجانب كل محرس كان يوجد كلب الى جانب الغفير الذي يطعمه من بقايا الفضلات . ولطول عشرتها فقد تعرفت على كل الجنود وغدت أليفة جدا .

مالت الشمس عن قبة السماء ، بعد الغداء أخذ الجنود ينعمون بالقيلولة عدا عناصر الرصد الدائمة ، لم تعط السرية أي اهتمام لانفجار لغم ، أو رشات من مدفع رشاش ثقيل الذي يصل مداه حتى أربعة كيلومترات .

مالت **الشمس باتجاه الغرب ، وعادت** مواشي القرية كالعادة ، مع الصبايا والشباب وسبقتهم الخيول التي تحمل قرب المياه . الحياة الرتيبة تسير كالعادة بشكلها اليومي ، لا تنغصها سوى بعض قذائف المدفعية اذا سقطت على المواشي أو قرب القرية . والجميع يأمل بالعودة الى الأرض التي تركوها .

« ٥ »

خاف الجندي نويصر عندما علم بأن أبا خليل طلب ابعاده من المنطقة . ونقله من السرية وحسب لذلك حسابات كثيرة . ماذا عليه أن يفعل ؟ كيف يخبر غزالة بذلك ؟ الوقت ضيق وهذه الليلة دوره في الكمين . لم يأذن له المساعد بمغادرة السرية وهو جندي متطوع ، وقد يصبح «جندي أول» في أول ترفيع يصدر وقد يتبع دورة عريف . أمامه مستقبل وعليه أن يفكر فيه .

كان قلقا مضطربا ، كيف تعقدت الأمور بسرعة منظورة لا يدري ؟ وحصر تفكيره بشيء واحد هو أن يتزوج غزالة ، ولكن كيف فليس معه مهر لها ؟

قبل الغروب بقليل . كانت الطيور تحوم فوق أشجار السنديان في وادي السمك بحثا عن مأوى لها . وقد شد البغال بعد انتهاء الغداء . حمدان وجدعان ، باتجاه قيادة الفوج . كان أحد الجنود يجري مسرعا خلفهما. كان الجندي الذي كتب له العريف محمد رسالة الى أهله. وسأل فيها عن الموسم. وهل قطفوا القطن . وماذا عن الديون المتراكمة لصاحب الخان في حلب ؟ هل وفوها أم لا ؟ وعن نتائج الحادث الذي قام به أحد أفراد عشيرته بقتل رجل من عشيرة ثانية ؟

وما هي الاحتياطات الواجب اتخاذها حتى لا يكون هو الضحية اذا حضر باجازة الى القرية ؟ وهل حلّوا هذه المشكلة ودفعوا الدية أم لا ؟ كل ذلك في رسالة لا تتعدى صفحة كتبها له العريف محمد بسرعة بقلم رصاص ، كان يجري مسرعا خلف البغالة كي يسلم لهم الرسالة ، وعندما عاد كان العرق يتصبب من جبهته وهو يقول :

ـ آه ماذا سنفعل العدو يهددنا في كل مكان ، كان يهرش جسده بأظافره ، لأن القمل يتحرك من موضعه عندما يتعرق الجسد وكان يلعن الساعة التي ولدته فيها أمه . ولاذ بالصمت وهو يتأكد من مخزن البندقية وطلقاتها . ويجهز مزودته وخوذته استعدادا للتحرك من أجل الكمين .

عاد قائد السرية ، وها هي الفرس مقبلة ، تنهب الأرض بحوافرها . وقد اشرعت ذيلها قليلا الى الأعلى . وصل قائد السرية الى خيمته وتولى أحد الجنود ربط الفرس . كانت خاصرتاها تخفقان وقد بللهما العرق .

صاح المرشح أحمد : انتبه استا . . . عد . وكررها ثانية . وساد صمت في السرية .

وفي تلك اللحظة كانت طائرة معادية تسير عبر النهر محدثة خرخرة في محركها على ارتفاع شاهق وهي تصور المنطقة . لا تصل اليها قذائف الرشاش الهوتشكيس لأنها أعلى من مداه بكثير . كم كانت تقلق الجنود عند مرورها كان هذا يعني أن هناك احتمالا لقصف مدفعي جديد واشتباكات جديدة .

كان المساعد ١ حسين يقول : (عندما أراها ، كأني أرى الأفعى) .

وأردف وهو يشد على محزمه ويطبطب بيده على مسدسه : لا يهم نحن لا نخاف . عندما يأتي الموت للانسان سوف يموت ولو في برج . وهل نخاف الموت ؟ وضرب مثلا على نفسه كم عانى أيام فرنسا وفي عدة مواقع ولم يمت .

نظر في وجه العريف محمد وقال :

ـ البارحة كنت في الدورية ولم تنته المشكلة بعد . واليوم أنت كمين . أرجو أن تعود بخير وبدون مشاكل .

كان الملازم قائد السرية يتفقد الفصائل وجاهزيتها . وخاصة الكمائن والدوريات . كان يرتدي بذلة العمل ويعدل من وضع مسدسه المتدلي بواسطة حمالة النطاق على فخذه الأيسر . ونطاقه يلمع قليلا وخلفه المرشح أحمد ورقيب ١ السرية ، الذي كان يحمل ورقة يسجل فيها ملاحظات قائد السرية .

بدأ الغروب يغطي الكون واحمر الأفق ثم ازرق . وذهب قائد الفصيلة حيث احضر كلمة «السر» التي لقنها للعريف محمد (معكم بطيخ) وضربتين من

حجرين فوق بعضهما اضافة الى ذلك .

ثم تفقد المساعد ١ حسين البوصلات مع أمار الحضائر حتى لا يضلوا الطريق اذا كانت هناك غيوم .

الغيوم تبدو شحيحة ، لا ترغب في الصعود الى كبد السماء ، ما زالت عند الأفق ، وقد ازرقت بعد احمرارها وبدأت العتمة تزحف طاردة آخر ضياء للشمس . وتحركت الكمائن والدوريات بعد ساعة تقريبا . هذا عمل يومي لسرية الخطوط اضافة للمراصد . وجنود أسلحة الوضع التي كان يشغلها دائما الحرس الوطني من سكان القرى المحلية ومن اللاجئين أحيانا .

كان صوت مزمار من بعيد ينغم قرب مكان الولي . ويختفي الصوت رويدا رويدا . والكمين في منطقة غرب المشنوق جنوب مرصد جـ ١١ القريب من المخاضة على نهر الشريعة . وكان صوت المياه مسموعا فعلى اليسار مرصد تل أحمر وعلى اليمين جـ ١١ وخلفهم تل المشنوق . وبدأت الغيوم تحجب عنهم النجوم . وتبدل الطقس قليلا كأن السماء ترغب في أن تمطر وهي خجلى من نفسها .

كان كل شيء هادئا على طول خط وقف اطلاق النار . وبدأت من جانب العدو الأنوار الكاشفة تمسح المنطقة من الشمال الى الجنوب وبالعكس .

لقد وصل الكمين الى موقعه وسط حذر شديد حتى لا يكشفه العدو . وخاصة للعدو مراصد وكمائن وقد استطلعت السرية موقع الكمين قبل التمركز فيه من تسرب العدو ووضع الألغام . ثم توزع الأفراد وكان عددهم سبعة أشخاص . ستة جنود والعريف محمد آمر الحضيرة ومعهم الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ولوحات خشبية تثبت فيها قوائم الرشيش . وقد وزع مهامهم . ثلاثة جنود في الاستراحة ، والآخرون وراء أسلحتهم . والعريف محمد مع الرشيش .

عوى ذئب غرب النهر . اصغوا جميعا هل هو صوت ذئب حقيقي أم عدو يقلد الذئب ؟ عليهم أن يصغوا جيدا لكل شاردة وواردة تحدث حولهم . لقد سمعت شرقا حركة لم يعرف مصدرها . فدققوا السمع ووضع العريف محمد ومجند بدوي كان راعيا قبل سوقه للجندية آذانهما على الأرض كي يميزا أصوات

الحيوانات وحركتها ليلا . وعرف العريف أن بعض الخنازير البرية تعبر النهر وتتجه غربا . وقد مرت قرب الكمين ويبدو انها اشتمت رائحة عناصر الكمين فذعرت وابتعدت عن موقع الكمين . ولكن الذي أقلق الكمين صوت الذئب . عاد ثانية . وبدأ الجنود بتحليل عوائه هل هو عواء ذئب حقيقي أم انسان ؟

اتجهت الخنازير نحو النهر تشرب فبدت وكأنها تستحم فيه . ليس واضحا منظرها فالعتمة شديدة . والريح ليست باردة كثيرا . بدأت تهز الشجيرات على حافة النهر . وأخذت أصوات الخنازير تبتعد وتختفي وسط ضجيج المياه وصوت الأشجار التي يهزها الهواء . ولكن صوت الذئب ما برح يطن باذن العريف محمد . كان يشق الظلمة بين الحين والآخر الكشاف المعادي الذي يمسح المنطقة . سمع اطلاق نار من الجنوب على شاطىء بحيرة طبريا . كانت رشات متقطعة وبعيدة عن موقع الكمين . وهناك أيضا رمي مدفعية هاون تسمع انفجاراتها شرقي البحرة . وكأنه يطلق على زوارق داخل البحيرة لا تصلها نيران الرشاشات .

كان رامي الرشيش متوتر الأعصاب بشكل دائم . ولكن اطلاق النار لا يتم الا بأمر العريف محمد . والرامي يهمس باذن العريف أحيانا : انظر غرب النهر كأن هناك أشخاصا يتحركون . ويدقق العريف محمد النظر . ويصغون جميعا بانتباه أكثر .

كانت الريح تهز الشجيرات الملاصقة للماء . الأرض مملوءة بالخنازير البرية التي ترتاد النهر ووادي السمك ليلا .

قال نويصر وهم يدققون السمع على وقع شخير داخل النهر :

- هل تعتقد أن الملازم يستمع الى «أبو خليل» وينقلني من السرية الى قيادة الفوج ؟

ولكزه العريف محمد هامسا :

- يلعنك ويلعن «أبو خليل» هذا وقته . اصمت .

كان الكشاف المعادي يقترب من الكمين المموه بشكل جيد . وكانت

قلوبهم تكاد تتوقف ويستعدون لفتح النار . وعندما يبتعد عنهم يعاود الجندي نويصر هامسا باذن العريف محمد :

ـ انصحني ماذا أعمل ؟

كان موقفه ضعيفا ليس لديه نقود ولا عند أهله ماعز . ولكن سؤاله في هذا الوقت كان مأساويا بالنسبة للعريف .

وهمس جندي من اليمين باذن العريف محمد :

ـ انظر . هناك بعض الأشباح ؟

كان العريف محمد يقوم بمهمة ميدانية لأول مرة . وأي خطأ قد يكلفه وجماعته حياتهم .

بعد منتصف الليل زحف أحد الجنود وهبط الى النهر وملأ الخوذة ماء وعاد مسرعا حاني الظهر . وقد شاهدوا ضوءا خافتا من الشرق يسير بسرعة . فقال الجندي نويصر :

ـ هناك سيارة قائد السرية انه ذاهب الى الفوج ـ واختفت الأنوار ـ سينقلني غدا . ولكن ليس مهما اذا نقلني لأي مكان سوف أعود الى الحرس الوطني في هذه المنطقة . وكل يوم سأذهب الى جرابا . كان يشكو همه لجندي يتمدد الى جواره .

حصر العريف محمد تفكيره بالعدو . من أين يهاجم الكمين ؟ من أين يمر العدو ؟ . وقد نشطت الأنوار الكاشفة المعادية . وثمة اشتباك بالرشاشات كان يسمع شمال جسر بنات يعقوب . وكانت الطلقات المضيئة تطلق كل نصف ساعة وبوتيرة واحدة من قبل العدو .

كان الكمين يلتصق بالأرض عندما تنفجر القنبلة المضيئة التي تهوي بهدوء الى الأرض .

وقد شاهد الكمين ثورا يرعى شمال تل المشنوق . كانت القذيفة المضيئة فوقه . وهناك بعض الخنازير تبدو واضحة عند ضفتي النهر .

لقد اقترب موعد انسحاب الكمين . وقبل ذلك بقليل حدث اطلاق النار بين جـ ١١ ومخفر تل أسود بقذائف الهاون واستمر الاطلاق المتقطع حوالي ساعة

بواسطة الرشاشات الثقيلة من قبل الطرفين . وقد جفلت الخنازير . وكانت بين الحين والآخر تسمع انفجارات في حقول الألغام التي دخلت فيها .

وفي غمرة الاطلاق المتواصل سمع وكأن هناك أشخاصا يخوضون في الماء . فجهز العريف محمد قنبلة يدوية دفاعية : قد تكون خنزيرا او عدوا . ثم ألقى القنبلة اليدوية الدفاعية وانتظر الجميع واجمين . ولكن القنبلة أجدبت ولم تنفجر . فرمى الثانية ! كذلك لم تنفجر ! ورمى الجندي نويصر قنبلتين وراء بعض . فانفجرت واحدة من أصل عشرة . وبعد انفجار القنبلة . سلط الكشاف ، وبدأ يمسح منطقة الانفجار وتبعه رش غير دقيق . ثم ساد صمت . وسط العتمة التي حجبت الغيوم . كانت تحمل الرطوبة وهي تلامس الأرض مع ريح خفيفة تسوقها باتجاه الشرق . لم تشاهد نجمة الصبح التي ينسحب الكمين بمجرد بزوغها . ولذلك كان عليهم أن يستخدموا البوصلة ليلا . وتل المشنوق يجب أن يكون على اليمين أثناء الانسحاب .

كانت حدأة تصوت . وضفادع تنق على شاطىء النهر . مع بدء الانسحاب . كلاب السرية لم يسمع لها صوت اطلاقا .

واقترح الجندي نويصر أن يمروا على قرية جرابا أثناء الانسحاب ليشربوا الشاي في بيت أم خلف .

ولكن العريف محمد رفض . كان عليهم قطع كيلومتر على الأقل بدون أي صوت حتى لا تسمع خطواتهم ثم يخف الحذر بعد ذلك . وبعد وصولهم الى الطريق العام عليهم السير بسرعة . حيث يكونون قد ابتعدوا عن مراصد العدو وموقع الكمين .

عندما اجتازوا الطريق . بدأ كلب في تل المشنوق ينبح عليهم نباحا متقطعا مثل مدفع الهاون .

وبدأ شعاع الفجر من الشرق . لم يضلوا طريق العودة رغم الظلمة الحالكة . لقد استخدموا البوصلة بدقة أثناء العودة . وبدأ الضياء . عندها استيقظت مواشي قرية جرابا وهم يسيرون منحدرين باتجاه تمركز السرية . ورغم احمرار الأفق فقد ظهرت معالم السرية وهم على بعد مئات الأمتار منها وبدا

واضحا المساعد ١ حسين وهو يسير بين الخيام ينتظر عودة الكمين . لقد عادت الدورية قبل الكمين بساعة . وعندما شاهدهم هز برأسه واقتربوا منه . ومشى الجنود بالرتل الأحادي يتقدمهم العريف محمد ، ووقفوا حيث قدّم العريف محمد الكمين قائلا :

ـ الكمين كامل . والذخيرة . خسائر عشر قنابل يدوية دفاعية تسعة منها فاسدة .

وقطب المساعد ١ حسين حاجبيه قائلا :

ـ كيف . ماذا حدث . هل اكتشف موقع الكمين ؟

ورد العريف محمد :

ـ كان هناك اشتباه . فألقينا عشر قنابل انفجرت منها واحدة فقط .

وصاح المساعد ١ حسين :

ـ عشرة قنابل ألقيتم لم تنفجر الا واحدة ؟ هذه كارثة .

وقال جندي دون اذن من العريف ولا من المساعد :

ـ منذ سنة ونحن نحمل حجارة في مخازننا . ولو عرفنا انها حجارة لكنا نتعامل معها كالحجارة . انها قنبلة وعند اللزوم لم تنفجر . لم تنفجر يا سيدي .

وصرخ به العريف : اسكت لا داعي للكلام .

وشرد المساعد ١ حسين . ونظر الى نطاقه أنه يحمل قنبلتين دفاعيتين . وهذا يعني أن هناك احتمالا بأن تكونا فاسدتين . لقد اضطرب المساعد ١ حسين وأخذ يكيل الشتائم باللغة الشركسية . كان ينظر الى القنابل المعلقة بنطاقه . انها جاهزة للدفاع . في أي وقت قد يفاجئنا العدو . وهذه للدفاع السريع . ثم عاد ولبس خوذته . وصاح بالعريف محمد :

ـ أنت عريف محمد اتبعني .

لبس خوذته بعد أن ذهب جنود الكمين وسارا سوية أكثر من مئتي متر بعيدا عن مركز السرية باتجاه وادي السمك . كان المساعد ١ حسين يحدث نفسه بالشركسية فلم يفهم العريف محمد منه الا كلمة بريتا ايطالي وفهم أنه يتحدث عن المسدسات الفاسدة . والان القنابل .

وقفا خلف سلسال حجري . وأخرج المساعد ١ حسين القنبلتين قائلا :

ـ معقول نحمل حجارة . هذا معقول . اذا كان ذلك صحيحا يجب أن نلعن كل المسؤولين عن تسليحنا . معقول في مواجهة العدو والسلاح فاسد . معقول يا عريف محمد ؟

وجلس خلف السلسال . ونزع مسمار الأمان وألقى القنبلة . ولكنها لم تنفجر . وانتظر أكثر من دقيقة ونزع الثانية وألقاها كذلك لم تنفجر . فأخذ العريف محمد البندقية وأطلق النار عليها من خلف السلسال وفجرهما .

فقال المساعد ١ حسين :

ـ سنتين وأنا أحملها . كأني أحمل حجارة . لماذا ؟ علينا أن نحقق الان . فقدت عشر قنابل . لم تنفجر من يصدقنا في القيادة العليا بأن القنابل لم تنفجر ؟ قل لي : ونظر في وجه العريف محمد . وأردف لنجرب القنابل الهجومية . لنجرب ، لعنة الله على الصانع والشاري . لا حول ولا قوة الا بالله العظيم . ماذا أعمل يا ربي الآن ؟ وألقى القنبلة الهجومية ولكنها أيضا لم تنفجر . ثم ألحقها بالثانية فانفجرت . عندها انتبه الجنود لصوت انفجار القنبلة الهجومية . وأسرع رقيب الحضيرة الثالثة والمرشح أحمد باتجاه المساعد ١ حسين وهم يرونه يرمي قنابل ويتساءلون هل هناك عدو ؟

وقال من بعيد بصوت عال : ايه مساعد حسين . ماذا عندك ؟

لم يرد المساعد ١ حسين حتى وصل المرشح فوجده غاضبا . وقال : قنابل فاسدة .

دهش المرشح أحمد لهذا الجواب . قنابل فاسدة ! ونظر مقطبا حاجبيه . قنابل فاسدة لا تنفجر ؟

ـ نعم قنابل فاسدة . أقول لك لم أصدق العريف محمد . وقبل أن أفرض عليه عقوبة أو تشكل لجنة تحقيق قلت سأجرب القنابل التي أحملها . ولم تنفجر الدفاعية . نحن يا سيدي المرشح نحمل حجارة . نعلقها بوسطنا . نظن انها تقتل العدو وهي تكاد تقتلنا . ما رأيك ؟ .

لم يكن المرشح أحمد يحمل قنابلاً . ولكنه نظر الى الرقيب الذي يحمل

بنطاقه أربع قنابل اثنتان دفاعيتان واثنتان هجوميتان . فأخذها . وألقى المرشح قنبلتين دفاعيتين فلم تنفجرا ثم أطلق عليهما النار من بندقية العريف محمد .

سرت شائعة بأن القنابل الدفاعية فاسدة لا تنفجر . وتم تجربة ذلك من قبل المرشح أحمد والمساعد ١ حسين وذعرت الطيور النائمة على الأشجار وطارت غربان كانت تقف على شجر السنديان . وجفلت الفرس التي رفعت رأسها الى الأعلى وحركت ذيلها . واستنفرت كلاب السرية .

لقد عادوا وكأن ماء باردا صب على رؤوس الجميع . القنابل فاسدة . كان المرشح أحمد يلوح برأسه ويلتفت بين حين وآخر الى العريف محمد قائلا :

ـ ألقيتم عشر قنابل في النهر ولم تنفجر . انفجرت واحدة فقط . ايه . بسيطة . عندما يعود قائد السرية نعلمه بذلك .

كل جندي أصبح يشك بالقنابل التي معه . من بعيد جاء رقيب ١ السرية مسرعا . يريد أن يعرف سبب الانفجارات في مركز السرية . كان معه العريف زيد ورقيب من الفصيلة الثالثة .

قال المساعد ١ حسين :

ـ القنابل الدفاعية فاسدة وأغلب القنابل الهجومية . ونظر في وجهه مستغربا . كان وجهه متعبا كأنه لم ينم بعد . وأشار بيديه : مستحيل ، قنابل أخذناها بشحمها من الصناديق .

وقال المساعد ١ حسين : لقد ألقوا عشر قنابل في الكمين ولم تنفجر الا واحدة .

ورد الرقيب ١ بصوت عال : ومن رموا هناك ؟ شكّوا فرموا ولم تنفجر !؟

وسأل : من هو قائد الكمين ؟

ورد المساعد ١ بكل قرف :

ـ العريف محمد .

قال الرقيب ١ :

ـ منذ وصوله لم نرتح . بالأمس خلق لنا مشكلة واليوم يلقي القنابل وتنفجر واحدة ويكشف موقع الكمين لا بد من معاقبة العريف محمد . ـ ونظر

في وجه العريف محمد ـ لا بد من عقوبة قاسية لك . كل حركة تقوم بها تحدث لنا مشكلة . كيف تكشف موقع الكمين ؟ قد يرصدنا العدو ويمكن أن يكمن لنا هناك .

وقاطعه المرشح أحمد :

ـ يا رجل قنابل فاسدة ، جربناها نحن ماذا بوسع عريف أو مساعد أو مرشح أن يعمل . القنابل فاسدة . هل تفهم معنى أن القنابل فاسدة ؟ هل تعرف معنى المسدسات الرشاشة الفاسدة ؟ عندما يعود قائد السرية يجب اتلاف كل هذه القنابل التي نحملها . لا حول ولا قوة الا بالله . ونظر اليه بدون احترام قائلا :

ـ العريف محمد ضرّتك ، منذ وصوله وأنت تريد أن تعاقبه . وساد صمت وهم عائدون الى مركز السرية باتجاه خيمة قائد السرية . كان يسمع صوت هرش من القمل المعشش في ثيابهم وهم غير قادرين على ازالته .

كان جنود السرية خارج خيامهم كأن هناك كارثة حلت بهم . حتى الكلاب كانت صامتة لا تنبح . وقطع السكون صوت محرك السيارة القادمة من الفوج . وفيها الملازم ياسر .

قال العريف زيد للجندي نويصر :

ـ راحت عليك . ذهبت تحت حوافر الخيل . قرر أبو خلف اعطاء غزالة الى «أبو خليل» وقد توافق والدتها ، ومها بنت «أبو خليل» الى خلف ، وغزالة عندها مأتم . لم يأخذ أحد برأيها . لكن جدتها بقيت صامتة لم تعط الرأي القاطع . وأبو خلف علق موافقته على رأي والدته . وأم خلف عندما علمت أن أبا خلف لا يتزوج عليها لاذت بالصمت . وأنت تعرف يا نويصر صمت المرأة يعني الموافقة .

لم يصدق نويصر . وكاد يضرب العريف «زيد» شاتما اباه قائلا : عريف حقير .

ونهض العريف زيد يريد أن يضربه وتدخل جنود من الحضيرة بين الاثنين .

« ٦ »

عندما بزغت الشمس خرجت المواشي من دور أصحابها على الطريق باتجاه وادي السمك . كانت أصوات الجدايا والماعز تشق السكون . وكذلك خوار الأبقار . والكلاب تنبح أمام دور أصحابها .

استيقظت القرية كعادتها وفتح أبو رابح دكانه وأخذ المسنون يتوافدون اليه لشرب الشاي .

كان رقيب ١ السرية والعريف زيد ورقيب آخر قد عادوا من القرية بعد أن سهروا هذه الليلة مع «أبو خليل» أمام داره على حجر بازلتي قطعه الزمن عبر البراكين منذ آلاف السنين . كانوا قد جلسوا يشربون الشاي وقليلا من الخمر . وقد وعدهم «أبو خليل» اذا أقنعوا أبا خلف باعطائه غزالة زوجة له سيكون للرقيب ١ هدية كبيرة . وقال أبو خليل موجها حديثه الى الرقيب : الرجال ماتوا حتى يؤخذ رأي امرأة ؟ ولكن أبو خلف ضعيف الارادة الى حد ما . لا يرغب في الزواج لأن والدته لا توافق على ذلك فلديه عشرة أولاد اذ كيف يرتب أمورهم وزوجته حامل ؟

قال أبو خليل : مثل الأرانب كل سنة تلد . والحياة تسير ولا بد من زوجة تهتم بالرجل . وأم خليل تهتم بأولادها وتهمله هو ولذلك قرر الزواج . وغزالة رغم أنها عنيدة . الا أنه سوف يروضها كما يروض فرسا شموسا . كان أبو خليل يتحدث بصوت عال ويصادقه رقيب ١ السرية على كلامه .

بعد ذلك حضر أبو خلف وجلس مع الجماعة . وبادره أبو خليل بالقول :

ـ ما رأيك يا أبا خلف اذا أنت لم ترغب بالزواج . خذ مها ابنتي لابنك خلف فهو أكبر منها بسنة واحدة . وكذلك عشرين ماعزا فوقها من أجل غزالة .

فأجاب أبو خلف :

ـ ليس هذا هو المهم . صحيح انها تفيدني . ولكن لماذا تريد أنت الزواج ؟ أنا موافق أن أعطي غزالة الى خليل ولكن لك ؟!

ورد أبو خليل قائلا :

ـ اسكت يا رجل . اذا كنت مصرا فسوف نزيد من المصاهرة فنأخذ ابنتك الثانية وضحة لخليل ووطفة لحمد وأنا آخذ غزالة ما رأيك ؟

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ وبهذا تكون يا «أبو خلف» قد زوجت ثلاثا من بناتك .

وتابع أبو خليل :

ـ وكل واحدة لها نقد عندي . تريد ماعزا أو أبقارا أو تريد نقودا كما ترغب يا «أبو خلف» . واذا أردت أن تتزوج ابنتي مها فسوف اعطيك اياها بديلة عن غزالة والثانية لخلف ما رأيك ؟

كانوا يجلسون على صخرة وقد مد عليها أبو خليل بساطا .

قال أبو خلف :

ـ أنتم أصدقاء ونحن أهل . ولكن عندي مشورة . لا بد من مشورة والدتي بهذا الأمر .

قال رقيب ١ السرية :

ـ لو كان الشيخ عبد الجليل في هذه القرية الان لكنا نذهب كي نقرأ الفاتحة . أولا غزالة «لأبو خليل» وكل شيء يأتي لاحقا . المهم البداية .

وقال العريف زيد :

ـ سوف أقطع رجل نويصر من بيت «أبو خلف» . قالها موجها حديثه الى «أبو خليل» .

ورد أبو خليل :

ـ ليست مشكلة . كل الناس يعشقون ولكن ليس كل من تعشق تأخذ عشيقها . والا لخربت الأرض .

كان يحدث نفسه . . . ايه يا «أبو خليل» . تشتمك أم خليل أمام الناس . وتهينك أم غزالة أمام المرشح أحمد والعريف ونويصر وتتحداني بأخذ نويصر لغزالة ؟ سوف أمرغ أنوفهن بالوحل . أنا أبو خليل .

ساد صمت في الليل الحالك لكن فجأة أخذت أنوار الكاشفات المعادية تصل الى القرية وتضيء طلقات الهاون المنطقة حيث أخذ الساهرون يشاهدون وجوه بعضهم بعضا .

علق الرقيب : ذئاب لا يتركون أحدا يرتاح .

تفرقوا ليلا وذهب رقيب ١ السرية الى أبو رابح الدكنجي . وذهب الرقيب الآخر الى مكان واختفى داخل القرية ودخل العريف زيد مع «أبو خلف» الدار حيث شاهد غزالة في أرض الدار كانت قرب الجدار تسترق السمع عما يدور بينهم . سمعت قليلا من الحديث حول زواجها من «أبو خليل» وزواج والدها من مها . كانت صامتة والعبرة تخنقها ولكنها ليست سهلة كما تصور العريف زيد . حيث بادرها :

ـ عساه خيرا يا غزالة . سوف يخطبك أبو خليل . انه رجل محترم وأحواله جيدة .

وردت : وسوف يزوج والدي . قالتها وهي توجه الحديث الى العريف زيد .

وقال الأخير :

ـ يا غزالة . هذا جاركم . مالك ونويصر . قد ينقله قائد السرية غدا من السرية ؟ وهو فقير لا يملك شيئا قد تجوعين عنده . هذه نصيحتي . كانت أمها تسمع حديث العريف زيد وكذلك جدتها .

قالت أمها :

ـ هذا الحديث سوالف نسوان . لن يتم هذا الأمر . يا زيد أنتم مثل

أولادي تأتون وتأكلون . أنت مثل خلف . وكذلك الجندي نويصر . وغزالة تعشقه . والدنيا قسمة ونصيب . ولن يتزوج أبو خلف أنا واثقة من ذلك . ولن تكون احدى بناتي ضرّة على أحد . الشباب كثيرون . والرزق على الله .

ولكن العريف زيد قال :

ـ لقد اتفقوا على خطبة غزالة الى «أبو خليل» أمام الرقيب ١ .

وصاحت جدة غزالة . الجالسة عند باب البيت قائلة :

ـ لم يعط كلاما بذلك أبو خلف . يا زيد لن يتزوج أبو خلف اطلاقا . قالتها وهي تريد أن تطمئن أم خلف التي قد تلد صباحا أو مساء . ولكن غزالة لم تسكت على ما سمعته فقالت :

ـ اسمع يا زيد . قل للرقيب ١ ان أكل فراخ الحمام لن يفيده . حتى ولا علب السردين التي يبيعها لأبو رابح الدكنجي . أكل الجنود يبيعه الى «أبو رابح» وهذا يبيعه ثانية الى الجنود . لا تفيده كل هذه الالاعيب . أنا لن أتزوج اطلاقا . وخاصة «أبو خليل» .

عندما بزغ الفجر . صاحت الديكة . ونبحت الكلاب الكسلى . وسمع عواء ذئاب من بعيد .

استيقظ الناس على صوت عال . هو صوت غزالة تعاتب جارتها أم خليل وابنتها قائلة :

ـ اسمعي يا خالتي أم خليل . لقد حدثنا العريف زيد ليلا عن «أبو خليل» . وهذا أبوك يا مها يريد الزواج مني . وأنت أصغر مني ويفاوض والدي على الزواج منك ، هل تريدين أن أنزل ضرّة على أمك ؟ هل تريدينني يا أم خليل ضرّة عليك ؟ أنا لا يمكن أن أقبل أي بديلة ضرّة على أمي مهما كان ذلك ؟ صحيح هم رجال ولهم الرأي . ولكن قولي لزوجك «أبو خليل» الذي يميّل عقاله طول النهار ويتسكع في الأزقة ويشرب الشاي عند «أبو رابح» . ويعاكس بنظراته البنات متميزا أردافهن . قولي لوالدك يا مها . أفضل من ذلك لو اشترى بندقية وقتل ذئبا من الذئاب التي مزقت أخته بعد أن سلبتها عرضها ورمتها في النهر . ومزقت الذئاب اخوته ووالدته وفر معكم الى هنا . والآن

بدمائهم يعدّل عقاله وشماخه ويرغب الزواج من البنات الصغيرات . عامل مثل شيخ العربان وأمرائهم كل سنة واحدة . ويتولاها الرعيان آخر الليل . اسمعي يا أم خليل وأنت يا مها قولي لأبيك . غزالة لا تريدك زوجا واذا أصر وأقنع والدي سوف يشاهد النهار ليلا والليل نهارا . وسوف يرى كل جندي آخر الليل عندي . سمعت يا مها ؟

والتفتت غزالة الى أمها قائلة :

ـ الان يسمع أبو خليل وهو على قمة الصخرة مثل الحردون الذي يراقب .

وردت أم خليل التي أعجبها موقف غزالة قائلة :

ـ ماذا أعمل يا ناس رجل جاهل . وعنده مال . وأردفت موجهة الحديث الى ابنتها مها :

ـ قولي لوالدك ما سمعت من غزالة .

وهبطت غزالة بعد أن طمأنتها جدتها لاحقة بأبيها الى وادي السمك مع شقيقتها وضحة .

لقد حجبت الغيوم في ذلك الصباح الشمس . وبدأت حركة الناس وذهبت العجوز الى شجرة السنديان بانتظار عودة ولدها . ودلف أبو خليل الى دكان أبو رابح الدكنجي . ونبحت الكلاب الكسلى التي لم تلحق بالمواشي الى وادي السمك .

كان المساعد ١ والعريف محمد عند خيمة قائد السرية . وها هي السيارة مقبلة تعلو وتهبط وتتأرجح ، يمينا ويسارا من الطريق الترابي الرديء .

كانوا ينظرون في وجوه بعضهم بعضا بصمت ينتظرون قائد السرية . وها قد توقفت السيارة وترجل منها الملازم . وأسرع المرشح أحمد حيث صاح بأعلى صوته : سرية :

ـ انتبه . . . . استا . . . . عد . وقدّم الصف وحيا الملازم قائد السرية .

ومن بعيد بدا غرابان يتقاتلان في الهواء حطا سوية على شجرة السنديان ونعيقهما يشق سكون السرية .

وبدأت مواشي القرية كالعادة تهبط الى وادي السمك مع الرعاة والفلاحين والصبايا يغنون أغانياً شعبية تصل الى مسامع الجنود . لم تكن غزالة مع والديها الذي ينزل يوميا الى الرعي برفقتها . كان نويصر يذهب الى الطريق ويسلم عليهما لكن هذه الأخبار جعلته في موقف لا يحسد عليه .

حدّث نفسه . لماذا فعل رقيب ١ السرية هذا ؟ ولكن لن ينسحب مهما كلفه الثمن . هو يعرف غزالة جيدا فلا يمكن أن تكون كالمعزاة تقاد الى الذبح بل يجب أن يكون لها رأي .

أعطى المرشح استراحة للسرية وصاح بأعلى صوته : ممنوع مغادرة السرية لأي كان حتى صدور أوامر أخرى . على قادة الفصائل وأمار الحضائر تفقد العتاد والسلاح .

كانت الفرس تضرب الأرض بيدها وتصهل تطلب العليق الصباحي . السايس كان مع رقيب ١ السرية وقد شرب العرق في بيت الدكنجي ولا يزال مخموراً لا يعرف الغرب من الشرق .

ونظر الملازم ياسر في الوجوه المقطبة فشق عليه الأمر .

ولكن المرشح قدّم الصف كاملا .

نظر في وجه المرشح أحمد قائلا :

- أرى في وجوهكم كلاما أو شيئا ماذا حدث في السرية ؟

وأردف المساعد ١ حسين :

- نعم يا سيدي . شيء رهيب لم أستطع أن أتصوره حتى الان ، ونظر قائد السرية متجهما .

- ماذا قلت يا مساعد حسين ؟ .

وقال المرشح أحمد :

- نعم يا سيدي حدث شيء رهيب . تصور يا سيدي لو نشبت معركة مع العدو عن قرب واستخدمنا القنابل اليدوية ، ولم تنفجر ماذا ستكون النتيجة ؟ .

ونظر الملازم ياسر قائلا :

- ماذا ؟ لم تنفجر القنابل ؟ هذه مؤامرة على السرية لقتلنا .

ـ اذن يا سيدي القنابل الدفاعية فاسدة .

تململ الرقيب ١ في مكانه قائلا :

ـ يا سيدي قسم منها قد فسد منذ سنتين وهي معنا لم نستخدمها وأصابها المطر والحر والبرد وفسد عدد منها .

لكن المساعد ١ حسين قال :

ـ لا يا سيدي كلها فاسدة وليس قسماً منها .

وتابع الملازم : من قال لكم انها فاسدة ؟ قالها بصوت عال وانتابه الغضب وعقد حاجبيه :

قنابل فاسدة . معقول قنابل فاسدة ؟ ونظر الى القنابل في زاوية خيمته ـ معقول قنابل فاسدة ؟ بالأمس كانت المسدسات الرشاشة فعلا فاسدة . ولكن القنابل . معقول هذا ! تلك المسدسات ايطالية وقد غشنا الايطاليون فيها . لكن القنابل انكليزية . معقول الانكليز غشاشون مثل الايطاليين ؟

وأردف المرشح : لقد جربناها يا سيدي .

وقال الرقيب : جربوها بدون أمر منكم .

ورد المرشح : نعم جربناها . بعد أن قدم التقرير العريف محمد أثناء الاشتباكات الليلية .

وقطع الرقيب ١ السرية قائلا :

ـ نعم خاف من الليل وتوهم أن هناك عدوا فقذف القنابل في النهر .

وتابع المساعد ١ حسين :

ـ نعم يا سيدي كل الجنود قذفوا قنابلهم الدفاعية ولم تنفجر الا واحدة منها .

وتابع رقيب ١ السرية وهو يهز برأسه :

ـ نعم يا سيدي وقد كشف موقع الكمين . لا بد من تغيير موقع الكمين الان بعد انفجار القنبلة .

وقال المرشح :

ـ ذهبت أنا والمساعد ١ حسين قبل أن أعاقب العريف محمد . ورميت

قنبلتين فلم تنفجرا .

وتابع : يا سيدي قنابل فاسدة يجب اتلافها فورا . الجنود لن يثقوا بها اطلاقا .

وأردف رقيب ١ السرية :

ـ هذه ليست قنابل تدريب يا سيدي . يجب أن نكتب تقريرا بذلك وننتظر الأوامر حول اتلافها . لقد فقد قائد السرية صوابه من كثرة الكلام حوله وأعطى أمرا للعريف محمد أن يحمل حقيبته المملوءة بالقنابل الدفاعية من زاوية الخيمة ويلحقه الى خلف السلسال . وهكذا فعل . ولحقهما الجميع .

كان الملازم شاردا ، لم يجب على أي سؤال وهم عائدون . كان يردد : أسلحة فاسدة . نعم فاسدة .

وصلوا الى الخيمة ولم يتكلم كثيرا . كان ينتظر هاتفا من قيادة الفوج . وبقي الجميع وقوفا تحت شجرة السنديان وجاؤوا بالشاي . قال قائد السرية للجندي الذي سكب الشاي : اسكب الشاي أيضا للعريف محمد . واعتبرها رقيب ١ السرية إهانة له أن يشرب العريف محمد الشاي مع قائد السرية . وظهرت على وجهه علائم عدم الرضى ولكنه لم يتكلم .

المشادة بين الجندي نويصر والعريف زيد لم تنته بعد . فكالا لبعضهما الشتائم . ثم اتجه العريف زيد الى خيمة رقيب ١ السرية وتبعه رقيب آمر الحضيرة الثانية . ولحق بهما الجندي نويصر .

دخلوا الخيمة ولحق بهما رقيب ١ السرية مسرعا . ومن هناك صدرت أصوات شتائم وصلت الى مسامع قائد السرية حيث طلبهم جميعا .

سألهم قائد السرية : لماذا تصيحوت وتتشاجرون ؟ انتهى الانضباط من الجيش لم يعد هناك احترام ؟! جندي يشتم العريف ؟!

فقال الرقيب ١ :

ـ نعم يا سيدي الجندي نويصر شتم العريف زيد وقد شتمني أيضا يا سيدي .

كان الجندي نويصر واقفا وهو يرتجف وكأنه فقد وعيه . قاطع حديث

الرقيب ١ قائلا :

ـ نعم يا سيدي . في الليل ذهبوا الى القرية وهناك سكروا وطلبوا من «أبو خلف» أن يزوج ابنته «لأبو خليل» وهم يعلمون أني سأخطبها . لقد غدروا بي . والمرشح عندما ذهب للتحقيق علم بذلك .

فقال الرقيب ١ :

ـ مالنا يا سيدي ومال «أبو خليل» أو «أبو خلف» يلعن آباءهم جميعا نحن لا نتدخل بشؤون الناس . كنا موجودين مصادفة وعزمنا أبو خليل ـ وقطع النقاش صوت انفجار من اتجاه جـ ١١ داخل قطاع السرية .

وقال المرشح :

ـ انفجار لغم .

كانت السرية في حالة استنفار . أعطى قائدها أمرا بخلع الخيام والاستعداد للرحيل . فانهمك الجنود بحزم مهماتهم وخيامهم .

وقال قائد السرية معنفا رقيب ١ السرية :

ـ أنا قلت لك لا أريد أن يأتي الى مكان تمركز السرية أحد . لماذا جاء أبو خليل البارحة ؟ يطلب نقل الجندي نويصر . أخبرني من هو وراء هذا الطلب ؟ وماذا كان يعمل العريف زيد في القرية .

وجمد العريف زيد في مكانه لم يعد يعرف ماذا يقول ؟ وبلع ريقه وتلعثم . وحك فخذه من مرض القمل ونظر في وجه رقيب ١ السرية عله يسعفه . ولكن المرشح أحمد قال :

ـ نعم يا سيدي . نويصر يود أن يخطب فتاة من القرية ويبدو أن «أبو خليل» يريد أن يتزوجها أيضا ولكن كبديلة عن ابنته وانقسمت العائلتان ضد «أبو خليل» و«أبو خلف» .

فقال الملازم :

ـ ومادخلنا نحن بمشاكل السكان؟ يجب أن تكون عواطفنا مع جنودنا. على كل حال ليس هناك مشكلة . انصرفوا الآن . لعنة الله عليكم جميعا . حيوه وانصرفوا كل في اتجاه .

وأردف موجها كلامه الى المرشح أحمد وقادة الفصائل :

ـ نحن أمام مشكلة القنابل الفاسدة والأسلحة الفاسدة ، أو بزواج هذا الكلب «أبو خليل» ؟

البارحة جاء يطلب نقل الجندي نويصر . اذن لهذا السبب ! اسمعوا استعدوا للرحيل . صدر أمر بنقل السرية وابدالها بالسرية الأولى . عندئذ ظهرت من بعيد سيارة قادمة باتجاه السرية وهي دودج كندي كبيرة تحمل أمتعة يعلوها الغبار . وصوت المحرك يجعر لعدم الصيانة . فقد فقد كاتم الصوت للمحرك .

هربت الطيور من صوتها ونهضت الكلاب مذعورة . دخلت السيارة مركز السرية وتوقفت ونزل منها مرشح بلباس الميدان الكامل مموها خوذته بشبكة التمويه وكانت السيارة أيضا مموهة من كل جوانبها بالطين حتى لا تلمع . فقد ترك للسائق فجوة في زجاجها الأمامي كي يرى السائق منها الطريق . كان واضحا أن السيارة تحمل حقائب وصناديق ذخيرة وخيام . وعلى ظهرها كان يركب ثلاثة جنود ورقيب ١ . أمر الرقيب ١ بانزال حمولة السيارة . بينما اتجه المرشح الى الملازم ياسر وحياه وقدم نفسه المرشح مصطفى قائد السرية الأولى بالوكالة .

تجمع بعض الجنود حول السيارة وساعدوا بافراغ الحمولة .

لقد انقشعت الغيوم قليلا وبدأت الشمس تنشر أشعتها الوهاجة .

كان المرشح مصطفى ذا قامة طويلة وقد أرخى شاربين طويلين غطاهما الغبار .

سأل : أوامركم يا سيدي ؟

وبدا الجنود فرحين بعد أن علموا بخبر تبديلهم ونقلهم الى الخلف .

كان قائد الفوج الرائد سليمان بناء على تقرير الطبيب واصابة السرية بمرض القمل قد أمر بتبديل السرية وأعطى كل التعليمات حول ذلك . ويجري التبديل وفق الأنظمة . وتبقى السرية على استعداد حتى تأخذ السرية الأولى مواقعها حتى لا يستغل العدو عملية التبديل .

جميع الجنود كانوا فرحين . الا الجندي نويصر فقد وقع عليه الأمر مثل المطرقة لأنه لم يعد بامكانه مشاهدة غزالة .

كان رف من الحمام يحوم فوق المنطقة . من وادي السمك الى القرية وبالعكس . وأغنيات الصبايا تصدح والجنود الذين يجلسون في ظل شجرة السنديان يرددون الأغاني وهم مستعدون للتحرك .

بينما كان نويصر في حالة شرود . ينظر في وجه العريف زيد . يريد أن يهشمه بنظراته ولكن بصمت . كانت الكلاب قلقة أيضا لقد شاهدت وجوها جديدة . ولكنها مألوفة بالنسبة اليها . تنظر باتجاه الحمولة تظنها طعاما أو وليمة .

وقف جنود السرية الثانية ينظرون الى هذا الرتل والفرح يغمر قلوبهم . قال أحدهم :

ـ سنة في هذا القمل . مئة دورية ومئة كمين ومئة حراسة حسبتهم والباقي بين اجازة ومرض .

والتفت الى رفيقه قائلا :

ـ لقد فرجت هناك في الخلف نحصل على اجازات ونصل بسرعة الى الشام والى القنيطرة . آه يا وادي السمك .

كان نويصر ساهما وكثير من جنود السرية لا يرغبون بالانتقال . لهم علاقات مع بعض البنات في تلك القرى . ولكن الأوامر هي الأوامر . كان الرقيب ١ مسرورا لانتقال السرية . لقد انتقل الجندي نويصر كما وعد أبو خليل . هو يستطيع أن يعود اسبوعيا الى جرابا ويذهب الى بيت «أبو خليل» مع «أبو رابح» ولكن نويصرا لا يستطيع العودة .

وصلت أوائل السرية وكان يتقدمها مرشح وآخرون قد بلل العرق بدلاتهم . كانوا يحملون على أكتافهم أكياس البحار وبطانياتهم وسلاحهم . وكان الرقيب الذي يليه يحمل مسدس بريتا الايطالي وكل واحد يحمل قنبلتين دفاعيتين واثنتين هجوميتين .

لقد حدد الملازم ياسر مواضع الفصائل قبل وصول السرية . وبذلك اخذت الفصائل مواضعها .

وحمل الكميون أدوات السرية الثانية ما عدا خيمة قائد السرية الملازم ياسر التي بقيت كما هي . وحملت حقائب المرشحين وقادة الفصائل وحقيبة تنك للعريف محمد كان في داخلها كتب مدرسية وطباخ كاز . وكذلك صناديق السرية وعتادها . وركب في الكميون المرشح قائد الفصيلة الثالثة وفي الأعلى رقيب ١ السرية وثلاثة جنود أحدهم عريف . وتحركت السيارة بعد أن دفعها عناصر الفصيل الأول من السرية لتشغيلها حيث شخر محركها وصار يطقطق ناشرا الغبار خلفها وفوقها .

اصطفت السرية الثانية حيث قدّم المرشح أحمد السرية للملازم وجاهزيتها للتحرك . وألقى الملازم ياسر كلمة مؤثرة في السرية قائلا :

ـ سأبقى مع السرية الأولى وعندما تعودون ثانية سأبقى معكم . هذه هي أوامر قائد الفوج الرائد سليمان . وقد كلف بقيادتكم المرشح أحمد . وتوقف قليلا ثم قال :

ـ يبقى معي طبعا حمدان وجدعان ، وكذلك البغال ، والفرس والسيارة .

كان نويصر ينظر اليه ، بعينين ذليلتين . يعتصره الألم . ينظر الى القرية التي تعلو الى خط النظر والى الطريق الذي سلكه مئات المرات ليلا دون أن يخاف الذئاب ولا الأفاعي .

عندما بدأت السرية بالتحرك حسب ترتيب المسير . صاح السايس راكضا خلف السرية وقال للمرشح أحمد : ان الملازم ياسر يأمر ببقاء الجندي نويصر معه في السرية الأولى .

وصاح المرشح أحمد بالعريف محمد :

ـ ارجع الجندي نويصر الى السرية الأولى لقد نقله الملازم ياسر من السرية الثانية .

الفصل الثاني

* ٧ *

سطعت أشعة الشمس وارتفعت درجة الحرارة رغم الغيوم المتناثرة في السماء والمائلة الى السواد قليلا وكأنها تحمل المطر .

قال الرقيب حمسان : ايلول ذنبه مبلول . كان العرق يتصبب على جبهته وهو يحزم أمتعته على ظهره يساعده في ذلك العريف محمد .

وقال العريف زيد : ولكننا في بداية شهر أيلول وليس في نهايته . ساعدني يا عريف محمد .

كانت الأمتعة محزومة بطريقة فنية ، الخيمة الفردية وأوتادها ، وكذلك كيس البحار ، وفوقها بطانيتان ، اضافة الى أدوات الحفر المربوطة بنطاق الجندي ، ومطرة المياه ، ومزودة اضافية للسلاح .

وقد لبس الجنود الخوذة وبعضهم وضعها فوق أمتعته وحملها على ظهره من شدة الحر .

وأعطى المرشح أحمد تعليمات المسير لقادة الفصائل . صاح بأعلى صوته حتى سمعه جنود السرية .

المرشح أحمد يحمل مسدسه الحربي وهو سلاح قائد الفصيلة ، ويلبس سيدارته على رأسه وقد شمر عن ذراعيه وظهر شعر صدره ، وهو واقف على صخرة من البازلت ، والسرية منتشرة كيفما اتفق دون ترتيب ، لأن كل جندي

وصف ضابط يبذل جهدا في شد أمتعته الى ظهره حتى لا تتعبه أثناء المسير ، وخاصة أن أغلب الجنود يعرفون أن الطريق صعب وضيق على كتف وادي السمك ، بين شجيرات السنديان وصخور البازلت .

تجمعت كلاب السرية حولهم وقد بدا أنها فهمت أن هناك أمرا ما يحدث .

وعندما وقف المرشح أحمد يوجه تعليماته كانت الكلاب مشرئبة بأعناقها باتجاه مصدر الصوت .

قال : الفصيلة الأولى ـ باتجاه الأمام اذا وقعنا في كمين . مهمتها ، الى الأمام واليمين . الفصيلة الثانية ، مهمتها الى اليسار ، عدا عن الجماعة الثانية مهمتها الى اليمين ، ومهمة الفصيلة الثالثة ، الى الخلف واليمين عدا عن الجماعة الثالثة مهمتها اليسار . المهمة واضحة ـ الفاصل بين الجندي والآخر خمس خطوات ، بين الجماعة والجماعة عشر خطوات ، بين الفصائل عشرون خطوة ، قادة الفصائل يشرفون على ضبط المسير . البنادق باليد ، وكذلك الرشيشات ، والقنابل اليدوية . وعندما قال القنابل اليدوية ، ضحك أغلب الجنود ، حيث قال رقيب من الفصيل الأول : الحمد لله أتلفت لأنها فاسدة ، وتخلصنا منها يا سيدي المرشح . لكن المرشح استدرك قائلا : هذا ليس مهما ـ باتجاه الطريق رتلا أحاديا الى الأمام سر .

هربت بعض الطيور التي كانت تستظل تحت الشجيرات قرب الطريق ، ولحقت الكلاب بجنود السرية . وطار رف من الحجل بشكل مفاجيء باتجاه وادي السمك ولحقت به الكلاب لعدة أمتار ثم توقفت . وجفل خنزيران بريان راحا يهبطان باتجاه الوادي ، وصاح المرشح بأعلى صوته : ممنوع اطلاق النار ، وكرر قادة الفصائل ممنوع اطلاق النار تحت أشد العقوبات .

في البداية كان العساكر يسيرون بصمت ، وقد سمع من بعيد صوت شبابة يعزف عليها صاحبها لحنا حزينا . كان الصوت أسفل الوادي .

اتخذ المرشح أحمد مكان سيره في وسط السرية حتى يسمعه الجميع اذا ما حدث شيء ما ، وأعطى أمرا . وسار أمامه العريف محمد .

كانت السرية تسير في ذلك الطريق الفردي الوعر بين الصخور البازلتية

وشجيرات السنديان . وكانت بداية السرية تغيب أحيانا عن عيني المرشح أحمد . الطريق هو طريق الماعز ، ويسلكه البغالة والرعاة ، حتى الماعز تسير افراديا في هذا الطريق .

فجأة ساد هرج في الفصيلة الأولى صرخ أحدهم : افعى احذروا . ولكنها اختفت دون أن يتمكنوا من قتلها . لم تعط أهمية لذلك لأن الأفاعي كثيرة ، بينما جفلت ذئاب متجهة نحو الغرب دون اكتراث بالجنود . حيث قال جندي يبدو انه كان راعيا : الذئاب ، وصاح المرشح إياكم واطلاق النار .

صاح جندي آخر : لعنة الله على هذه الحالة التي نحن فيها ، كان متعبا ، بل مرهقا . وبدأ الجنود يتسلقون الهضبة باتجاه الشمال الشرقي ، مبتعدين عن مراقبة العدو ، بينما انطلقت عدة انفجارات قرب نهر الشريعة ، ولكن السرية لم تعرها اهتماما . كان هم المرشح أحمد الوصول الى القرية قبل أن تغيب الشمس . ولذلك كان يحث الجنود قائلا : يا الله يا شباب افتحوا خطواتكم .

والتفت الى العريف محمد قائلا : حدثني بالأمس ، عن التابلاين ، والنقطة الرابعة ، وحلف بغداد وان على الجماهير أن تناضل لاسقاطها .

وقال جندي كان يسير خلف العريف محمد قائلا : لقد فرح الجندي نويصر ، بقي جار غزالة .

وقال الآخر : سنة ونحن قرب جرابا . أكلنا القمل والبراغيث . لعنة الله على هذه الحالة التي نحن فيها ، وكل مرة يأتي الطبيب ويعد بالعلاج ويذهب دون عودة . وخفض صوته عندما شاهد المرشح أحمد قريبا منه . بل صمت ثم غير الحديث قائلا : عادت الكلاب باتجاه وادي السمك ، حتى الكلاب تحب الأرض التي تعيش فيها .

ورد جندي خلفه : الكلاب حريصة على الأرض التي تعيش عليها أكثر من البشر يا رجل ـ انظر عادت تدريجيا عندما تأكدت أننا نبتعد عنها .

غربان تحوم فوق وادي السمك ، محدثة أصواتا . قال أحدهم : لقد تعبت ، لا نسمع الا نعيق الغربان وأصوات الذئاب ايه . . .

كان الرقيب خمسان ساهما شاردا . والعرق يتصبب من جبهته .

التفت باتجاه العريف محمد ثم باتجاه قرية جرابا قائلا : يبدو أنني سأطلب نقلي الى السرية الاولى ، أو الحرس الوطني ، لأكون هناك ـ ولم يقل أين ـ وضحك العريف محمد قائلا :

ـ هناك . . اسمع يا سيدي المرشح أغلب جنود السرية يرغبون في البقاء عند قرية جرابا ولاح المرشح برأسه دون أن ينظر الى أحد قائلا : بسيطة .

كانت أصوات الأحذية التي تطرق على الأرض وحدها المسموعة ، وخاصة عندما يدوس أحدهم على صخرة في الطريق ، مسامير الحذاء صوتها كوقع حوافر الخيل على البلاط في شارع مرصوف بالحجارة البازلتية .

قال المساعد ١ حسين : سوف تذهب كل المسامير من الأحذية في هذه الطريق السيئة .

وساد صمت رهيب ، لا يقطعه سوى لهاث الجنود وطرق الأحذية على الأرض . ويقطع الصمت بين حين وآخر كلمة ، يا رب يا ساتر ، عندما يكاد أحدهم يقع وهو يتعثر بصخرة أو بجذع شجرة .

وتحت وهج الحر الشديد كانت السرية تسير صعودا باتجاه الشمال الشرقي الى قرية عين سمسم .

قال المرشح : افتحوا أرجلكم (يا الله يا شباب اقتربنا) .

قال العريف محمد موجها حديثه للمرشح أحمد : مثلنا بهذه الحمولة مثل مهربي الدخان من الساحل الى الداخل . كان يحمل كل شخص حوالي خمسين كيلوغراما على ظهره ويقطع مسافة مئتي كيلو مترا ، بأجرة كيلو قمح عن كل كيلو دخان ويعود حاملا القمح أيضا على ظهره . تصور هذه الحالة ، حالة الجوع التي يعاني منها هؤلاء الناس ، انهم كما أتصور يقطعون حوالي مئة كيلومترا حاملين على ظهورهم خمسين كيلوغراما ذهابا وايابا .

ورد المرشح : هل هذا معقول يا رجل ؟

ورد العريف محمد : نعم يا سيدي المرشح أنا شاهدت كثيرا منهم يأتون الى القرى شمال شرق حماه يحملون هكذا وبينهم أيضا نساء . وهز المرشح برأسه

قائلا : أنا لا أصدق هذا الكلام ، الجنود لا يستطيعون أن يسيروا هذه المسافة فكيف برجال عاديين ؟

وقال جندي يسير في الأمام سمع الحديث دون أن يلتفت الى الخلف : نعم يا سيدي المرشح ، أنا كنت أحد الذين قال عنهم العريف محمد . الجوع كافر ، وكان لا بد من ايجاد الطعام ولو على بعد ألف كيلو متر ، ماذا نعمل ؟ أيام الحرب العالمية الثانية كانت فرنسا تنهب كل شيء .

وقطع كلامه صوت من الخلف قائلا : أيام زمان ذهبت الى غير رجعة يا رجل ، لكن هؤلاء الذئاب الذين وفدوا الينا أرسلهم الانكليز ، الانكليز أسوأ من الفرنسيين .

وأردف العريف محمد : كلهم مثل بعض . لكن يا سيدي المرشح الآن يحاولون اخضاع المنطقة .

وقطع حديثه المرشح قائلا : كأنك من حزب البعث العربي الاشتراكي ، هكذا يكتب في جريدة حزب البعث العربي الاشتراكي .

وقال المساعد ١ حسين الذي كان يسمع الحديث دون أن يتكلم : الأحزاب ممنوعة في الجيش وكذلك الجرائد ممنوعة أيضا .

ورد العريف محمد : وهل الجيش منفصل عن الشعب ؟

ورد المساعد ١ حسين : النظام هو النظام . اسمع يا عريف أنت حديث في هذه السرية . منذ وصولك وكأن المشاكل خلقت معك ونحن في غنى عنها يا رجل .

وتدخل المرشح أحمد قائلا : ولكن الجيش الآن من أبناء الشعب يا مساعد حسين والناس متماثلون جنود ومدنيون لا يمكن فصل الناس عن بعضهم بعضا .

وصمت المساعد ١ حسين عندما تكلم المرشح . وقال العريف محمد : نتحدث وكأننا في واد آخر عن العالم ، ألم تسمع بثورة الجزائر يا رجل ؟ وثورة مصر ضد فاروق ؟ والان الصراع في فلسطين ؟؟

قل يا سيدي المرشح لماذا نحن هنا في هذه المنطقة ؟ لماذا نسير في هذا

الطقس الخانق من الحرارة ؟ أليس ذلك من أجل فلسطين ؟

كنا ندرس التلاميذ أرض وتاريخ فلسطين العربية وها نحن الآن في الميدان في مواجهة هؤلاء الذئاب من أجل استعادة الأرض . وساد صمت .

قال جندي من الخلف هامسا :

ـ رقيب ١ السرية كان في الليل في بيت أبو خليل عنده بنت لابأس بها .

ورد آخر : ليس فقط رقيب ١ السرية والأكبر منه عند غيره .

وسمع المرشح أحمد كلمة والأكبر منه عند غيره . ولكنه قال : ومع ذلك الأحزاب ممنوعة في الجيش لا أريد أن أسمع أحدا من السرية يتحدث عن أي حزب ، دمشق مملوءة بالأحزاب الان ويتطاحن أعضاؤها على السلطة . والناس ترفس بالأقدام ولهذا لا أريد أي كلام حول الأحزاب داخل السرية هذا أمر .

ورد المساعد ١ حسين قائلا ، وهو يلهث من صعود الهضبة : هذا هو الصحيح .

اقتربت السرية من سراس قطعت قرابة ثمانية كيلومترات دون توقف ، وضاق الوادي في أعلاه والأشجار بدت خفيفة ، والأحجار البازلتية أكثر منها . وفي مجرى الوادي جرت مياه متدفقة . ان قرية سراس هي في أول الوادي ، ومنها تنحدر المياه ، اضافة لعيون متفرعة على كتفيه . كانت أسراب الحمام تحوم متجهة الى قرية سراس وقد اختلط البري منها بالجوي ومالت الشمس قليلا نحو الغرب .

صاح المرشح أحمد بأعلى صوته : افتح الخطوة اقتربنا أسرع . ابتعدنا عن مراقبة العدو حوالي ثمانية كيلومترات الآن . هيا أسرعوا ، الآن نحن مكشوفون بلا شجر والأحجار لا تغطينا أسرعوا .

فجأة ظهرت أفعى ، فقال المرشح أحمد وقد أخذ بندقيته : سأطلق عليها النار بلغ الجميع . الاطلاق على أفعى من قبل المرشح ، لا تفكروا بشيء . ودوت طلقة ثم ثانية وثالثة . رفعت الأفعى رأسها الى الأعلى ثم اختفت داخل الأحجار .

قال جندي : لقد قتلها ، وقال آخر ماتت . وصاح ثالث يمكن أن تكون

مجروحة وهي لهذا قد تؤذي أكثر . ولكن العريف محمد قال للمرشح أحمد : لقد اختفت بين الأحجار المسافة أكثر من مئة متر .

وقال المرشح : الطريق من جانب القرية الشرقي يمنع الدخول في القرية اطلاقا .

كانت مواشي القرى منتشرة على كتفي الوادي وفي أسفله وحول مجرى الماء . وكان الرعاة والفلاحون رجالا وشبابا وبناتا ينظرون الى الجنود الحاملين أمتعتهم وهم يسيرون في رتل طويل أكثر من ثلاثمائة متر على الطريق الترابي الصعب ، الشباب والصبايا ، اقتربوا من طريق السير يتفرجون على الجنود ، اقتربوا أكثر ، جاءت فتاتان تتفحصان وجوه الجنود . ان عزيمة الجنود قد قويت ولم يعودوا يبالون بالتعب بعد ثلاث ساعات من المسير المتواصل صعودا ، لقد بلل العرق بدلات العمل التي يرتدونها وظهروا كأنهم عائدون من معركة خاضوها لساعتهم .

أسرع شابان من الرعيان الى جانب البنات وتكاثر الرعاة ، كانوا يتفحصون وجوه الجنود ، يلوحون برؤوسهم ويتهامسون ، لقد عادوا ، ذهبوا في الصباح الباكر وهربوا ، هربوا الآن ، خافوا من الذئاب ، وقالت فتاة :

ـ معقولة رجل يحمل بندقية يخاف من الذئاب ؟

ورد صبي : لماذا عدتم الان ، ذهبتم في الصباح وتعودون الآن . وقالت فتاة : متعبون ، ورد فتى ، العرق بلل ثيابهم كأنهم سبحوا في الماء .

كانوا يسخرون من الجنود ، ومع ذلك كانت تعليقاتهم تطلق همسا ، وعندما وصلوا الى قرية عين شمس ، تجمع الأطفال والنسوة ، عند جدران البيوت ، وأخذوا يراقبون الجنود وهم يحملون أمتعتهم .

وصاحت امرأة تحمل عصا ، قائلة : الى أين أنتم راجعون ؟ ذهبتم صباحا وتعودون مساء ، هل أنتم هاربون من وجه الأعداء ؟ ألا يكفي سنة ١٩٤٨ ؟ أعطونا البنادق نحن النساء نقاتل هؤلاء الذئاب .

ورد المرشح أحمد : لا يا خالتي الذين ذهبوا صباحا أخذوا مكاننا وعدنا نحن مكانهم لا تخافي .

وردت : الى أين أنتم ذاهبون ؟

ورد جندي آخر : سوف ننام هنا .

وقال آخر : سوف نزور الدكان في القرية . قطعا يرجد دكان وسوف نزور القرية اليوم .

قال الرقيب خمسان وهو ينظر الى العريف محمد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، كيف يحتقرنا الناس عندما يشاهدوننا عائدين من الامام ؟

كانت الشمس تميل الى الغروب ، وقد كسرت حدة أشعتها اللاهبة وهناك بين الشجيرات كانت تسعى بعض المواشي ، الماعز مثل أحجار البازلت ، ما أخصب هذه الأرض وما أغناها !!! قطعان الأبقار المنتشرة على السفوح بين مربعات البازلت كلها ترتاد ذلك الجدول الرقراق الغني بالمياه في وادي السمك ، والقرى الفقيرة ، المبنية على تلك السفوح وعلى كتفي الوادي من الشرق تنظر الان الى ذلك الوادي الذي تجمع فيه المخلوقات المتناقضة . الذئاب الى جانب الغزلان ، الضباع مع الثعالب ، والخنازير البرية ، تشبه قطعان الماعز عند الشروق عندما تهبط الى الوادي وتغيب ضمن تلك الأحراش الصغيرة في منطقة البطيحة حتى الجاموس كان موجودا .

هذه المنطقة البكر التي يسكنها البدو ، الهاربون من غربي نهر الشريعة . هذه المنطقة تكثر فيها الأمطار وتربتها السوداء خصبة ، ولكن أهملتها يد الانسان عبر الحروب المتلاحقة ، منذ معركة الواقوصة واليرموك ، وحطين . مئات الجيوش زحفت عبرها ، وبقيت لأصحابها العرب الساكنين الان فيها .

كان الدخان يتصاعد من الدور عند الغرب ، كانت الفلاحات يخبزن على (التنور) ويحضرون العشاء لأسرهن .

عند الغروب ، لا تزال الشمس تنشر أشعتها الذهبية ، على تلك السفوح ، والعدو يشاهد من غربي النهر بدون منظار . المسافة بحدود ثمانية كيلومترات . ورغم أن هناك في الأفق الغربي قطعاً من الغيوم المتفرقة ، لا تزال الشمس فوقها ، تعكس عليها أشعتها فظهرت بلون أحمر قان .

كانت احدى النسوة تحمل عصا وتتحدث بصوت عال الى أين أنتم عائدون ؟ هل هربتم ؟ هل أسلحتكم فاسدة . وقد اختلط صوتها بصوت الأطفال الذين تزاحموا يتفرجون على الجنود المتعبين . وبدأ الرعاة يسيرون مع الجنود على الطريق الوحيدة ، اختلطوا بهم مع كلابهم . أخذت الكلاب تنبح نباحا كسولا في البداية . ثم توقفت . كانت تنظر الى الجنود كغرباء ، فهي لم تألف هذا المنظر بعد . النساء الشابات المتزوجات كن ينظرن من خلف الدور ، أما العجائز والصبايا فقد وقفن في ظل الجدران يتحدثن مع الجنود كيفما اتفق : أين كنتم ؟ من أين أتيتم ؟ لماذا ذهبتم ؟ وعشرات الاسئلة تلقى من الكبار والصغار . والاجابة على الأسئلة كانت محرجة . هل هربتم قالت احداهن ؟ يا حيف على الرجال . هربتم .

ويلوح المساعد ١ حسين برأسه قائلا : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم .

ويرد موجها حديثه الى العريف محمد : (قل لهن نحن لم نهرب ، تبدلت السرية) .

ويرد عليه العريف محمد : بسيطة يا رجل ، بهذه السرعة لا أحد يفهم علينا ماذا نقول ؟ أسلحة فاسدة ، أم نحن مرضى بالقمل ؟ امشِ الآن .

قدمت المواشي التي كانت ترعى شمالي القرية وقد جفلت من منظر الجنود الذين تنحوا لها عن الطريق . كانت مذعورة من المنظر الذي لم تألفه .

قال المساعد ١ حسين : لعنة الله على الشيطان كان علينا ان نصل قبل عودة البقر والمواشي .

حاول جندي أن يتحدث مع السكان فصرخ به المساعد ١ حسين : ادخل الرتل يابن الكلب .

لقد ازرق الأفق تماما . كان هناك تجمع بشري في القسم الشمالي الشرقي من القرية أمام الدكان الوحيدة في القرية ، وقد فتح بابه ووقف صاحبه قائلا : عندي كل ما يحتاجه الجنود ، مناديل ، حلاوة ، راحة ، عطور للصبايا ، أمشاط ، ظروف للرسائل .

كان الوحيد الذي غمره الفرح ، ولكنه لم يعرف أين يتمركز الجنود ، انهم

لم يتوقفوا بعد . بدأ الرتل يجتاز القرية . ولكن أوله توقف قرب نبع المياه الغزير المتدفق الذي يبعد عن الدكان حوالي مئتي متر. اذن لماذا توقف هناك ؟ كانت أنظار القرية تتابعهم . النساء والرجال حتى الصبية وكذلك الكلاب .

لم تغب الشمس بعد ولكن الأفق بدأ يزرق قليلا . أسراب الحمام جفلت من الجلبة كانت تحوم فوق القرية ، رغم أن هناك أسرابا من الغربان كانت تتجه باتجاه وادي السمك وتحط على الشجيرات في عمق الوادي ، محدثة نعيقا كثيبا .

كان كل شيء هادئا ، وقد هز ذلك السكون صوت انفجار كبير من الغرب تبعته عدة طلقات من رشاش ثقيل . ولكن زخات الرشاش لم تصل الى القرية فالقرية في مأمن من رمي الهاون والرشاشات المعادية ، ولكن كل ما في القرية جفل منها . لأن الانفجار هز الأرض ، فاشرأبت الأعين من خلف الدور ونظر الرجال الواقفون أمام الدكان باتجاه الغرب . ولكن قائد السرية المرشح أحمد وزع الأوامر بسرعة وحدد على الأرض أماكن كل فصيلة . ثم أعطى أمرا بأن يذهب من كل فصيلة ثلثها الى القرية لمدة عشرين دقيقة ويعودون بعدها ، ليتمكن الجنود من شراء ما يحتاجونه من دكان القرية .

كان تمركز السرية داخل ثلاث مربعات من الأرض المستصلحة ، تحيط بها سلاسل من البازلت المعمرة بيد الانسان حديثا :

انزل الجنود حمولتهم عن ظهورهم . وراح قائد الفصيلة المساعد ١ حسين يدقق مع قادة الجماعات تمركز كل منهم وطريقة المناوبة الليلية . فقد نبه الجميع بأن هذه الأرض يوجد فيها مثل غيرها عقارب وأفاع ولذلك لا بد من التدخين فيها . هذه الأرض المهجورة وهذه الكتل البازلتية المتناثرة هنا وهناك على سفح هذه الهضبة ، وتلك الوديان المتلاقية والمتفرقة التي تسير فيها المياه والتربة السمراء المائلة الى السواد هي أرض السرية من جديد . كم من البشر تطاحنوا فوقها عبر التاريخ وبقي العرب ؟ حاول كثير من الغزاة المكدونيون ، السلجوقيون ، الرومان ، الفرس ، المغول ، الصليبيون احتلال هذه الأرض ، لكنهم ذهبوا جميعا أمام سكانها في النهاية . هؤلاء العرب الأشداء أصحاب هذه الأرض . واليوم تأتي ، الغزوة الصهيونية الجديدة من كل أصقاع الأرض

وستذهب كما ذهب غيرها . ذئاب هاربة ومتجمعة في غفلة من التاريخ أرهبت السكان ولا بد من وضع حد لها .

الغيوم الزرقاء بدأت تصعد فوق القمم من .تجاه الغرب .

هناك حيث تنتظر العجوز الصامتة في قرية جرابا ولدها حين يعود عبر تلك القمم التي تغطيها الغيوم . وهناك المعتوه يصيح ـ أين أنت يا خالد يا قائد اليرموك . خذلك قومك . آه ـ الذئاب مزقتنا وأنت راقد انهض وجرد سيفك ، هناك في قرية جرابا ينظرون الى الغرب الى بيوتهم وقراهم متى يعودون ؟ صحيح أنهم رعاة في هذه المنطقة ولكنهم مقاتلون ينتظرون بفارغ الصبر عودتهم الى قراهم . انهم أقرباء ، كل عائلة تستضيف عائلة من القرى غرب النهر ، من عشيرة واحدة .

لقد اختفى وهج الشمس ومع ذلك لا زالت الحرارة مرتفعة تلف تلك المرتفعات وقد استكان أهلها وجمعوا مواشيهم ، وقرية عين سمسم تنظر الى توقف السرية قربها ، تطمئن الى وجود الجنود ، انه الأمان بالنسبة لأهالي القرية اذا ما غدر بهم العدو على حين غرة .

لقد اتخذ المرشح أحمد موقعه وسط أرض السرية لقيادتها والاشراف عليها . تعالت أصوات متنافرة داخل السرية . جنود يشتمون الساعة التي ولدوا فيها ، وآخرون مشغولون بجمع الحطب من أجل حرقه . وهناك آخرون يدقون الأوتاد بحجارة وينصبون خيمة المرشح . وفي الطرف الجنوبي كان جنود شبان يضحكون ضحكات عالية . يتحدثون عن البنات وعن الراعيات ويقارنونهن بصبايا قرية جرابا ، سمراء عيونها حلوة ، آه ـ لكن موشومة على شفتها . أنا لا أحب الوشم . آخر يقول نحيفة كأنها لم تأكل ـ أنت تحب السمان ، مثل البقرات المعلوفة . لا مثل الغزلان .

دق الوتد بقوة ، قد تهب الريح وتخلع الخيمة . وعندئذ يخلع رقبتنا الرقيب ، دخن من جهة الغرب حتى تهرب الأفاعي ، وكذلك البعوض ، البعوض يهوم أسرابا كثيفة ويطن قرب الاذان ويحوم فوق الرؤوس . دخنوا يا ناس طفشوا هذا البعوض . انه اسوأ من العقارب . شخص يشتم الساعة

التي ولد فيها .

كان هناك جنود يأكلون ، آخرون أسرعوا الى نبع المياه وملؤوا خوذاتهم ثم عادوا . آخرون يغلون شاياً داخل الخوذة الفولاذية التي خلعها عن رأسه أحدهم ولم يبق الا واقيتها على جبهته . جنود أسرعوا الى الدكان واشتروا بعض الحاجات وعادوا مسرعين . اشتروا تمرا وحلاوة ولم يكن في الدكان خبز .

بدأت زوجة صاحب الدكان باشعال التنور ، واستنفرت جارتها لتعاونها في العجن والخبز على التنور ، الجنود يشترون الخبز .

وقف المجندون الذين لا يملكون نقودا ينظرون باتجاه الدكان يستطلعون الذاهبين والعائدين . صوت المرشح يجلجل داخل السرية . ممنوع الذهاب الى القرية دون اذن من قائد الفصيلة .

جماعة الرشيش ـ ٢٤ ـ ٢٩ يعلّمون الرمي الليلي حتى لا يصيب بيوت القرية ، السرية في حالة تأهب كامل .

بدأ الظلام يزحف من الشرق . وظهرت بعض النجوم اللامعة . واشتد الهرج في السرية . القمل يتحرك عندما يهدأ الجنود ، يبدؤون بهرش أجسامهم . احدهم ذهب وسبح عند نبع الماء بسرعة . بلل جسمه وعاد مسرعا . كان العريف زيد يتناقش مع الرقيب خمسان عن مكان التمركز الجديد الذي هو أسوأ من قرية جرابا . ولكن الرقيب خمسان لم يجرؤ على الكلام والخوض في هذا الموضوع .

التفت الى العريف محمد قائلا :

ـ انني أحسد الجندي نويصر رغم الصعوبات التي عانيناها على خط وقف اطلاق النار . لا أنسى قرية جرابا ما دمت حيا .

وأردف العريف محمد :

ـ لا تحزن كثيرا قدم طلب نقل الى الحرس الوطني في مخفر تل أحمر جانب جرابا . تبقى هناك حتى موتك أو تقاعدك أو استشهادك . وزفر زفرة كأنه يخرج رئتيه من فمه . وضحك العريف محمد .

فقال خمسان :

ـ انت جديد لا تعرف علاقاتنا بتلك القرية ، لم تعش بعد وتتعرف على سكانها ـ أغلبهم من القرى غرب النهر نزحوا بعد حرب ١٩٤٨ وسكنوا مقابل قراهم في هذه الهضبة .

وقال العريف محمد :

ـ وهل تتصور اني جاهل بهذه الأمور يا رجل ؟ يا حضرة الرقيب ـ أنا معلم مع البدو ، ومن عائلة فلاحية من قرى الاقطاع ، فهل تعلمني كيف يمكن أن يعيش المرء بين الفلاحين ؟

كانا يتحدثان وهما يدقان أوتاد خيمتهما الصغيرة .

جاء جندي يطلب من أحد الجنود أن يساعده في ترتيب خيمة المرشح أحمد .

فقال العريف زيد ساخرا دون أن يرفع صوته ، مخاطبا الرقيب خمسان :

ـ ما رأيك بارسال العريف محمد كي يرتب خيمة قائد السرية ؟

فقال الرقيب خمسان :

ـ معلمون ، هذه هي حال الدنيا . لو كان معه (بكالوريا) كان مرشحا مثلهم . وكنا نقول له يا سيدي . وضحك العريف زيد قائلا :

ـ ما رأيك بأن تقذفه الى جماعة قيادة السرية وأقود الجماعة أنا بدلا عنه ؟ هل نسيت يا رقيب خمسان سهراتنا سوية في قرية جرابا ؟ هل نسيت ؟ كنت تريد غزالة وأخذها نويصر منا نحن الاثنين . بسيطة لن يتركه رقيب ١ السرية هناك سوف يعمل على نقله حتى من الفوج بكامله من يدري ؟ حتى لو كان الملازم ياسر معه . الرقيب ١ في قيادة الفوج يعرف الجميع ويرتب كل أموره ، وهو متضايق من العريف محمد منذ اللحظة التي وصل فيها . ما رأيك أن نحرض عليه المساعد ١ حسين ؟ نقول له بعد شهر سوف يترفع الى رقيب مجند ، وقد يكون قائدا للفصيلة بدلا منه . آه . لكن المرشح أحمد يحترمه كثيرا يجب أن نعترف بذلك ، لكل مشكلة حل وحلال . وصاح جندي من بعد أسرعوا ـ ابتدأت المناوبة الليلية . من يستلم الحراسة الآن ؟ .

هدأت الريح وسكن الهواء . الغيوم السوداء الداكنة تجمعت في الغرب

فوق الجبال . عوى ثعلب ، وردت عليه الثعالب عبر الهضاب ورددت الوديان اصداءها . ونبحت الكلاب بكسل دون أي اهتمام . من الغرب عوت الذئاب ، فرادي وجماعات . وصوتت بومة . فوق شاهدة قبر . لقد فهم العريف محمد انها تصيح منذرة البشر من الخطر المقبل الداهم . صاح جندي الحراسة من بعيد ، ان مختار القرية ، مع آخرين يرغبون مقابلة قائد السرية .

ورد جندي بصوت عال : دعهم يأتون .

كانت العتمة قد خيمت فوق المكان . أشكال وتفصيلات الرجال لم تعد تميز داخلها . كان الجنود متحلقين حول المرشح أحمد وقوفا ، يشربون الشاي في أقداح من الألمنيوم . غلى مجند الشاي بسرعة في خوذته على نار أوقدها من مجموعة عيدان . والوجوه تحت وهج النار حمراء ثم بدت ملونة ثم سوداء قليلا . أشكال باهتة كأشباح ولم يعد يسمع الا رشفات الشاي الساخنة عندما تشفطها الأفواه المتعبة ، وكانوا بين حين وآخر يهرشون أجسامهم من القمل . ومع ذلك كانوا يستمتعون بالاستراحة بعد عناء مسير منهك . ووصلت من القرية أصوات متنافرة بكاء الأطفال ، وأصوات الجدايا ، وخوار البقر ، ونباح الكلاب . وأصوات النساء . وصياح الرجال .

تعليمات المرشح وصلت الى كل بيت في القرية . ممنوع التجوال ليلا في منطقة السرية وشمالي القرية ، وقرب نبع المياه ، وأي دابة أو حيوان متخلف عن القطيع أو ضائع يبلغ عنه فورا ، يمنع البحث عنه ليلا خوفا من مفاجأة العدو ولذلك أسرع الناس . ولم يفاجأوا بمثل هذه الأوامر لأنها تتكرر كثيرا وقد أصبحت مألوفة لدى الفلاحين بين حين وآخر كلما توقف جنود في تلك القرية .

الدخان يتصاعد من القرية من كل دار تقريبا ، حتى ان البعوض يهرب من فوقها في تلك اللحظة ويهبط ليلتصق بالأرض . السرية أشعلت نارا وتركتها تدخن حتى يهرب البعوض .

هناك في الفصيلة الثالثة كان أحد الجنود يعزف على شبابة . وآخر يغني بصوت منخفض واثنان يرقصان على صوت العزف .

بدأ العزف يرتفع ، يريدون أن تسمع القرية عزف الناي ، وعزف المزمار بل كان الجنود يريدون أن تسمع الصبايا هذا العزف . لقد نسوا تعبهم وألمهم ومرضهم ، شاهدوا الصبايا في القرية لم يجرؤوا على مغادرة السرية ولكن عليهم أن يغنوا ويعزفوا حتى يصل غناؤهم الى أهل القرية وبناتها . ويشتد العزف وترتفع الأصوات أعلى فأعلى بالغناء . ويزداد الجنود حماسة ، الجميع ينظرون باتجاه القرية ، تجمع شباب القرية وصباياها قرب الدكان ، ولكن الأوامر تنص : ممنوع الاقتراب من السرية ، واقتراب الجنود من القرية . نظمت عملية الشراء من دكان القرية ، دقائق ويعود الجندي .

شباب القرية يريدون أن يتعرفوا على الجنود ولكن الأوامر هي الأوامر . فقد شدد المرشح أحمد على عدم الدخول الى القرية ليلا خاصة وأنه استلم قائدا للسرية وعليه أن يضبط الجنود . وكون المرض معديا ، يجب أن لا يذهبوا الى القرية في هذا الوقت . ولكن المسافة قريبة جدا ، حوالي مئتي متر، فأصوات النساء مسموعة تصل الى الجنود . كل القرية ترغب باستقبال الجنود .

امرأة متوسطة عندها أربع بنات صبايا ، كانت تفكر لو يتعرف الجنود عليهن فقد يتزوجونهن . تقول في سرها ، يا رب ، لماذا النساء أكثر من الرجال في هذا الوقت ؟

القمر ونجمته يسيران غربا ، عاشقا لها يحتضنها ، يختفي أحيانا وراء الغيوم .

يرتفع صوت المزمار عاليا ، عاليا جدا ، ويرتفع صوت المزمار عاليا ، عاليا جدا ، ويرتفع صوت أحد الجنود مرددا أغنية غرامية . ثم يعود ليردد أغنية حربية . يحرض الناس على الهجوم . الموت أو النصر ، ثم يعود ويكسرها بأغنية عاطفية مؤثرة .

ومن بعيد كان أهل القرية يستمعون الى فرح الجنود يتمنون أن يشاركوهم فرحتهم ولكن المرشح منع الاتصال بالسرية .

« ٨ »

المختار في حوالي الستين من العمر ، يبدو من صوته انه رجل متزن وقد خبرته السنون وعركته . وكذلك الشيخ بدا في عمر المختار لقد أرخى ذقنا قصيرة وصغيرة يتحدث وفي صوته رنة تشي بحزن عميق . كان معهما رجل ثالث لم يتكلم . في الثلاثين من العمر . حيا الجميع وظل صامتا .

كان المرشح أحمد وقد تحلق حوله المساعد والعريف محمد ورقيب من السرية . كانوا يحتسون الشاي . كانت الملامح غير واضحة تماما . بادر المختار بكلام واضح وصوت ينم عن ثقة بالنفس :

ـ أنا مختار القرية وهذا شيخها . أرجو أن تشربوا الشاي عندنا . نحن فرحون بوجودكم . قرب القرية . نحن أهلكم .

عرض المختار دعوته بطريقة مؤدبة . ولم يتردد المرشح في قبول العرض انما قال : نشرب الشاي فقط ثم نعود . لانكم تعرفون ظروفنا الان . وتوقف ثم قال للمرشح قائد الفصيلة الثالثة : ابق هنا . أمن حراسة طريق القرية .

كانت هناك دورية سريعة تجوب القرية وأطرافها ، تستطلع الطرق والممرات قبل الغروب وقد عادت . ثم شكلت دورية من رقيب وعريف ومجند لمراقبة الجنود الذاهبين الى القرية وعدم وقوع أية مشكلة وحلها أو الاعلام عنها عندما يقتضي الأمر ذلك .

أصوات الماعز . عجل يركض خوفا على نفسه يلحق بوالدته . بعض الجدايا تقفز راكضة تلحق بأمهاتها . تلتصق بها . تريد حليبا من ضرعها .

جراء الكلاب تحدث أصواتا مضطربة . بكاء الأطفال يعلو دار امهاتهم والدخان يتصاعد . لهب التنور يعلو ورقرقة الخبز مسموعة كأنها صوت دربكة تقرع للرقص . النسوة عند التنور . العجائز يتحدثن عن آلامهن ، وتشردهن . أغلبهن من غرب النهر .

هناك عندما تضرب جبال الجليل بقبة السماء ـ تلتصق القمم بالغيوم . هناك كانت قراهم معلقة كالنجوم في حضن القمر . قراهم وبساتينهم كانت في حضن الجبل . حتى كلابهم طردتها الذئاب فهربت . تشردت ثم أطلق عليها النار . اعتبرت فيما بعد كلاباً ضالة .

لم يرغب المرشح أن يدخل بيت أحد ، فتوقف في الساحه . وتحلق حوله الرجال الذين أسرعوا للسلام . وأسرع رجل بتقديم الشاي . المختار أصله من نابلس ، والشيخ من الجليل الأعلى من جبال الجليل . التي ترى هاماتها بالأعين المجردة . وقد علقت الغيوم برأس قممها فظهرت كأنها موصولة مع السماء . هناك كان الشيخ عبد الجليل يصيح ليلا الله أكبر . كان يلف سيكارته ويدخن بغرارة . انهم يدخنون بطريقة تظل فيها السيكارة بالفم . أتوا بثلاثة قناديل هوائية . وظهرت الوجوه على حقيقتها تقريبا . وان كان ضوء القناديل قد لوحها بالاحمرار .

كان المختار الذي يجلس بجانب المرشح أحمد . يرتدي جلبابا نظيفا . وحطة وعقالا . وقد أرخى شاربيه على سجيتهما . كان يميل الى النحف قليلا حيث ظهرت عروق يديه نافرة . وتجاعيد وجهه حفرتها آلام السنين التي مرت .

كان يتحدث بهدوء الواثق من كلامه . كان صاحب جاه بينما هو الان في وضع لا يحسد عليه . قال أهلا بكم ضيوفنا وان كنا نحن ضيوف أهل القرية ايضا. ولكننا جميعنا أهل لا يوجد ضيوف ولا أصحاب دار في هذه الأرض .

هز رأسه وتنهد ، وسحب آخر سحبة من سيكارته ثم ألقاها على الأرض وداسها برجله . واستدرك قائلا :

ـ عفوا يا سيدي المرشح . ماذا نقول لكم . سوى أهلا وسهلا ، هل

نشكو آلامنا ونجتر همومنا اليومية ؟ قد نعود. ولكن متى الله أعلم ؟ قطعا سنعود .

أنا يا سيدي من قرى نابلس . في يوم عجيب ـ عجيب . . . عجيب . لا نعرف ماذا حصل ماذا عملنا لا شيء ؟ عند الفجر أغار جنود الانكليز على القرية كانوا يغيرون دائما يأخذون بعض المواشي والحبوب . ولكن هذه الغارة كانت مختلفة عن غيرها . عندي داران وزوجتان . لم نعد نميز الأصوات الا صوت الرشاشات تحصد كل شيء . . البشر . البقر . الماعز . الشيوخ ـ العجائز هربنا بكل ما أوتينا من قوة ، لم نملك سلاحا . الرشاشات موجهة الى باب كل دار لماذا ؟ كنا نصرخ لماذا ؟ خذوا كل شيء . ولكن لا فائدة ويستمر اطلاق النار متواصلاً . زوجتي الأولى أصغر مني بقليل . عندي ثلاثة أولاد متزوجون وأربع بنات متزوجات أيضا . ابنتي الكبيرة عندها خمسة أولاد ، وكذلك الثانية . الثالثة لها ثلاثة أولاد وحامل .

الى أين نتجه يا محمد ؟ الى الوادي باتجاه الشرق . الى النهر . تركوا لنا ممرا الى الشرق ، ولكنهم كانوا يحصدون كل كائن حي يمر في طريقهم .

قريتنا كبيرة أكثر من خمسة آلاف نسمة . لم أستطع أن أتصور عدد القتلى ، الجثث كثيرة . يا رب الرحمة . ولكن لا رحمة ، ولا استغاثة تجدي .

في ذلك الفجر . قتلت ابنتي الكبيرة ، هرب ولدها ، وبقي الصغير معلقا معها يبكي ويصرخ ، انها حامل ، ومع ذلك فان الرصاص اخترقها لا زالت تنظر حولها . تمسك ابنها بيدها . يا رب . يا رب الرحمة . حاولت أن أزحف اليها . لكن طلقة من الرشاش أصابت الصغير فلاذ بها . كان دمه ينزف . ينتفض ثم ذوى وهمد . بطنها مفتوح ، رأس طفل متدل من بطنها . كانوا يهودا يرتدون لباس جنود الانكليز . قاموا في صباح ذلك اليوم الأسود بتلك المذبحة .

لا أعرف ما حصل لي . زوجتي الصغيرة شاهدتها قتيلة منذ اللحظات الأولى ، ومعي طفلان ، الباقون لحقوا بي وسرنا شرقا .

لا أدري ماذا حل بالعائلة حتى الآن ، يقال الذي عاش ذهب منهم الى

الخليج العربي ، وآخرون الى اليمن . وصلتني رسالة من أحدهم يقول انه في امريكا اللاتينية . . تشردنا . تشردنا . لم يبق من العائلة سوى أنا وزوجتي وبنتين وولدين . أمهم قتلت في صباح ذلك اليوم مع ولديها .

كانت امرأة تجلس بين النسوة وقد بترت أصابع يدها . كان الدمع يسيل من عينيها . أخذت تتنهد بين حين وآخر وهي تقول : وحوش . . . كلاب . سوف يأتي يوم ينتقم لنا فيه أبناؤنا . نحن بشر ولكن الذين قتلوا الأطفال والنساء ليسوا بشرا .

غربان تنعق في الليل . ناي حزين يعزف لحنا من بعيد . ترافقه ضربات دربكة مهتاجة .

تجمع الجنود عند الدكان . كان عزف المزمار ينسيهم آلامهم . ثم تجمع الشباب والصبايا والتفوا في حلقة رقص عنيفة .

نهض محمد النابلسي : وقال : «لنبدل الحديث» .

فقال المرشح أحمد : «مصيبة النكبة لا تنسى» .

وصاح الشيخ عبد الجليل : شاي يا حسنة ، شاي للشباب . الجيش هو سندنا ومنقذنا . سينتقم لنا آجلا ام عاجلا والشعب سيصحو بعد النكبة .

صاحب الدكان غارق في بيع الجنود . والدربكة والزمر يصدحان . والشبان والصبايا يرقصون ويغنون .

في زاوية من الساحة كان هناك رجل يدعى محمود . لباسه رث ، حافي القدمين عندما رآه العريف محمد تذكر الفلاحين في قريته . انه مثلهم ، يمشون حفاة ويفرحون ويرتدون الثياب الرثة . كان يحمل عصا طويلة أطول منه . ووجهه ينم عن قوة وصلابة وحزن في وقت واحد . وقد ترك شعر لحيته وشاربيه على سجيتهما . عندما وقف الشيخ عبد الجليل معتذرا ، وراح يقيم الآذان . وصاح الله أكبر ، صاح محمود بكل قواه : الله أكبر على أعدائنا . الله أكبر أين أنت يا علي ، الله أكبر يا فاتح باب خيبر . انظر الى امتك اليوم ، انها مهزومة ، منكوبة ، الله أكبر نحن بحاجة اليك يا قاهر اليهود أعداء الله .

وراح محمود يرقص على صوت المزمار الذي أخذ يصيح صاحبه على

ايقاعه . ثم اتجه الى حلقة الدبكة ولفت أنظار الجميع اليه . كان يرقص ويلوح بعصاه حتى اذا اتسعت دائرة الرقص أكثر ، نودي الى الصلاة فغادر الحلبة بعض الرجال والعجائز ليقيموا الصلاة خلف الشيخ عبد الجليل .

بينما كانت دائرة الرقص تتوسع أكثر فأكثر . فامتدت حتى وصلت الى مكان جلوس المرشح أحمد . خاف الجنود لا بل خجلوا ، لكن العريف محمد أومأ لهم بأن يتابعوا . وتحول الرقص الى هياج . وأخذ معنى بطوليا ترتفع فيه أصوات غاضبة : الثأر . الثأر . ودخلت الحلبة امرأة عجوز أخذت تحيي الشبان وترحب بالجنود . كانت تدور بمنديل أسود ، وترقص وهي تنشد أغنية لم يفهم الجميع كلماتها .

الا أنهم فهموا مغزاها : الحزن .

قال المختار موجها حديثه للمرشح أحمد .

- نحن نفرح بوجودكم . أنتم أبناؤنا ووجودكم يعوض علينا .

وعاد الشيخ عبد الجليل يقرع على مزهره . واشتد الصياح وارتفع الغناء عاليا . وتهللت الوجوه وهي تصرخ : اليوم يوم الثأر . وارتفعت الزغاريد من كل جهة . ممزوجة بصياح محمود .

خف الهرج رويدا رويدا . وضئول ضوء المصباح ، واختفى القمر . وامتدت بعض السحب فوق قمم الجبال .

عندئذ نهض المرشح أحمد يرافقه المساعد ١ حسين والعريف محمد . وودعوا صحبهم وعادوا ادراجهم باتجاه السرية . كان العريف محمد يحمل معه مجموعة جرائد اشتراها من الدكان الذي كان صاحبه يستخدمها لصر الحاجيات .

وودع المختار ضيوفه ودعاهم لتناول الغداء في الغد لكن المرشح أحمد اعتذر وشكره . وحاول الشيخ عبد الجليل أن يقسم فمنعه المرشح . وقال : مرة أخرى .

في سكون الليل نعقت بومة تستنهض الأموات . تخبرهم عما يدور حولهم . كيف يرقص هؤلاء الناس ، ودماء قتلاهم لم تجف بعد . هكذا تصور

المرشح المشهد . بينما كان العريف محمد يفكر في اتجاه آخر . في اتجاه ما يدور في العالم خارج هذه المنطقة البائسة . فتفرس في جرائده .

كانت السرية كاملة العدد ما عدا أفراد الحراسة . وكان الرقيب خمسان يتحدث مع العريف زيد عن صبايا قرية جرابا . والى جوارهما كان ثمة جندي يغلي الشاي . مرّ العريف محمد بالجماعة دون أن يلحظها . ودخل خيمته المضاءة بقنديل هوائي ، وفرد جرائده على البطانية ، كانت : (بردى ، والرأي العام ، والبعث) . جرائد مضى عليها شهر أو شهران . وكانت تحوي أخبارا كثيرة ومقالات وتعليقات متنوعة . عن البترول والجامعة العربية ، وتاريخ دمشق ، وثورة الجزائر وحلف بغداد ، ومشروع ايزنهاور . في تلك الأثناء دخل المرشح أحمد الخيمة ونظر الى الجرائد المنتشرة فوق البطانية ، وضحك ببراءة . ثم جلسا يقرآن ويشربان الشاي . وفيما هما سادران في القراءة سمعا فجأة انفجارا كبيرا هز الخيمة . اتبعته عدة رشقات من الرصاص . ونبحت الكلاب . فتنبهت السرية وخرج المرشح أحمد يصحبه العريف محمد يستطلعان الأمر .

كانت السرية بدون قنابل يدوية . فخاف المرشح أحمد . وسأله العريف محمد : ما العمل الان سيدي ؟ يجب أن نكون مستعدين لأي طارىء بالسلاح المتوفر لدينا . الرشاشات الخفيفة والبنادق .

رد عليه المرشح أحمد :

ـ هذا هو المنطق . المناوبة جاهزة . دائما .

ومرا على نقاط الحراسة والمناوبة . حتى اذا انقطعت الأصوات عادا الى الخيمة بصمت ليتابعا القراءة . وسكن الهزيع الأخير من الليل . وبدأت نجمة الصبح بالاشراق . ودبت الحياة في القرية ثانية . وتصعدت أصوات الحيوانات من جوانبها عندئذ تعال صوت الشيخ عبد الجليل يرفع آذان الفجر . واشتعلت المواقد . لا تعنيها أصوات الرصاص المتبادل والمتقطع التي تهز السكون بين حين وآخر .

السكون والحذر يعمان الكون . النجوم اللامعة تتراقص مع ريح

خفيفة .

كان العريف محمد في تلك الأثناء يحدق في السماء ، يقوم بنوبة كرئيس لدورية الحراسة . وبين فترة وفترة كان يشق السكون سعال أحد الحراس في موقع السرية وعلى سعاله ينبح كلب يرقد قرب دكان القرية .

وفي جدار القرية البعيد كان يرد ثعلب بصوت آخر كأنه دعوة لوليمة .

الحراس متيقظون آذانهم مرهفة . وهم في حالة انبطاح على الأرض في مواقع الرشاشات . كانوا يسمعون أصواتا فلا يعرفون أنها وهم أم حقيقة . كل شيء جائز في عتمة الليل .

وها قد اقترب الفجر . بزغت نجمة الصبح المتلألئة الجميلة وارتفعت مشرئبة . واحمر الشفق . وبدأ قرص الشمس بالارتفاع مانحا الأرض أشعته الذهبية ليستيقظ معها كل شيء . ودبت الحياة في السرية ونهضت كلها تنفض عنها غبار النعاس . كانوا منهكين من رقص الامس ولهوه . وكذلك بدا عليهم المرض فكانوا في الاجتماع ، يجرجون أقدامهم . وبعد الاجتماع أشعلوا النار وصنعوا الشاي ، وبدؤوا فطورهم . أكثر المرشحين لم ينم . كان المرشح أحمد بادي التعب والاجهاد ، وقد احمرت عيناه ومع ذلك نهض نشيطا يتفقد الفصائل في مواقعها وينتظر الأوامر الآتية من قائد الفوج .

« ٩ »

في الساعة التاسعة ظهرت من بعيد مجموعة من الجنود مؤلفة من خمسة جنود مع ثلاثة بغال . كانت الجماعة قادمة باتجاه السرية . فلفتت انتباه الجميع . خاصة أن أحد الجنود يقود بغلا يركبه رجل آخر على رأسه قبعة مكسيكية .

قال أحد الجنود :

ـ لقد وصل الطبيب .

وأمام الطبيب كانت تسير فرس مسروجة لكن خيالها لم تكن لديه خبرة كافية . فقد شد على رأسها اللجام فأنهكها . كانت تريد أن ترمح حتى أن خيشومها كان يصعد أنفاسا شاخرة .

أصبحت الان الجماعة داخل مركز السرية . عندئذ تبين أن خيال الفرس كان رئيس أركان الفوج .

فصاح المرشح أحمد بأعلى صوته :

ـ انتبه . . استا . . . . عد .

وقدم الصف قائلا :

ـ السرية جاهزة سيدي .

وأسرع أحد الجنود المرافقين الى إمساك لجامها . وترجل النقيب قائد الفوج لحقه الطبيب . وعندئذ وصل الشيخ عبد الجليل والمختار وقدما نفسيهما للنقيب .

كان الطبيب يرتدي قميصا حل أزراره بكاملها . فظهر شعر صدره الكثيف ، أقرب الى شعر الماعز الأصفر ، وعلى رأسه قبعة القش ، وينتعل في قدميه خفا رياضيا . ولم يكن يحمل أي جهاز يدل على انه طبيب . أما البغال فقد كانت محملة بمواد مطهرة كالكحول والمراهم والمضادات .

وتحدث الطبيب مع النقيب عن كيفية العمل . فأكد الطبيب انه سيطهر الجنود من مرض القمل المعشش في ثيابهم وأجسادهم .

وتدخل المختار والشيخ عبد الجليل ، قائلين أن أفضل طريقة هي الكبريت . وقال الشيخ :

ـ نحن نعالج مثل هذه الحالات بالكبريت يا سيدي . فمادة الكبريت تعتبر دواء لك أنواع الأمراض الجلدية وخاصة الجرب والقمل . وقد قال المثل «اسأل مجربا ولا تسأل طبيبا» .

وقال المختار :

ـ ما قاله الشيخ عبد الجليل صحيح . والكبريت أفضل من الكاز .

نزلت الحمولة عن البغال . كانت بينها أربع صفائح من الكاز . وكان النقيب يهز برأسه وقد بدت عليه الحيرة . هل يعمل بما يقوله الطبيب أم بما يقوله الفلاحون ؟

الطبيب نفسه ، لم يفهم ما كان يقوله المختار والشيخ . وكان بادي الحيرة بينهم . يكتفي بنقل عينيه من متحدث الى آخر . فهو لم يكن يعرف اللغة العربية على الاطلاق .

عندئذ ترجم له أحد المرافقين ما يقوله الرجلان ، فلم يبد عليه أي امتعاض . بل قال :

ـ لنجرب ذلك اذن .

وحول مياه عين سمسم تجمعت السرية . وخلع الجنود ألبستهم حتى أصبحوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم . وبدأ الحلاقون يحلقون شعورهم بآلة الحلاقة .

كان المرشح أحمد يصرخ بالحلاقين :

ـ الحلاقة على الصفر تماما والشعر يلقي في النار فورا وكذلك تنفض الثياب فوق النار لتتطهر . وعلى مقربة من العين . كانت مجموعة من الجنود تحرك مادة الكبريت الاصفر الكثيف الممزوج بقليل من الماء الفاتر ، وبعصا على رأسها قطعة قماش كانت تغمس في القدر ثم يدهن المجند بالعجينة من رأسه الى أخمص قدميه ، ثم يترك ليعرض جسمه للشمس .

كان العريف محمد ينظر الى المشهد وهو يتذكر قريته ، كانت أمه تعنى بالطب العربي . خاصة فيما يتعلق بالتهاب اللوزتين . كان يأتيها عشرات المرضى للمعالجة يوميا وكانت تسدى لهم خدماتها مجانا لوجه الله .

وأم عمر ، وهي امرأة عجوز كانت اختصاصية بمرض الأذان ، فهي تضع زيت الزيتون في الاذن مساء ، وفي الصباح تشرقه بفمها ، فتخرج السوائل الممزوجة بالصديد . فيرتاح المريض .

وكانت أم عمر تصنع قطرة للعيون ، أما عبد الله فكان اختصاصه الكي . وكان يقول على الدوام (آخر الدواء الكي) فالنار تحرق كل الأمراض .

في ذلك العام في نهاية الحرب العالمية الثانية ، انتشر مرض الجرب العام وأصاب القرية بأسرها . فتجمع أصحاب الخبرة لمعالجة هذه الآفة . يومئذ تدخل الشيخ عبد الرحمن وقال :

ـ من غضب الله عليكم أصابتكم هذه المصيبة . ان قلة ايمانكم وقلة خيركم كانتا وراء هذه البلوى التي ابتلاكم بها الله عز وجل . انذروا النذور لوجه الله فتشفون .

ورد عليه عبد الله قائلا :

ـ يا شيخنا اسمع هذه الحكاية . كانت امرأة تدور بناقتها الجرباء حول الكعبة ، وتدعو الله أن يشفيها فشاهدها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال لها : اقرني دعاءك يا امرأة بقليل من القطران . وقالت أم محمد :

ـ الكبريت خير دواء للجرب .

وهكذا كان . رغم أن سعر الكبريت في المدينة تضاعف في تلك الفترة . ثم جلبوا الحلاقين . وشرحت أم محمد طريقة المعالجة على ثلاثة أيام .

ثم أمرت بغسل الثياب بالماء المغلي وتعريض الأجسام لأشعة الشمس . وهكذا نفذ الجميع التعليمات كل منهم في داره وتمت معالجة القرية بنجاح .

كان العريف محمد يراقب الجنود ويتذكر . قال في نفسه : ما أشبه اليوم بالأمس . كنا فلاحين فقراء مرضى . وها نحن جنود مرضى . ما أشبه الشيخ عبد الرحمن بالشيخ عبد الجليل . وما أشبه المختار بهذا المختار . لا ينقصنا الان سوى نسوة القرية .

أما الطبيب الذي لم يستطع أن يفهم الجميع بفائدة الكاز فقد استسلم لرأي الشيخ عبد الجليل ووقف ينظر الى عشرات الجنود المدهونين بالكبريت الواقفين تحت أشعة الشمس المحرقة . ويصغي الى امتعاض الجنود وهم يتأففون : «لقد شوونا» .

وسمع الشيخ عبد الجليل الاحتجاج فقال مخاطبا الجنود دون تعيين :

ـ هذا يفيدكم أيضا بأن تتذكروا نار جهنم .

في القرية كانت مجموعة من النساء تسترق النظر الى ما يجري في السرية العسكرية . كان الاقتراب محظورا . ولقد صرخ المختار عندما أخذ الجنود يخلعون سراويلهم بأن يدخلن الى بيوتهن . وكان الجنود يحسون بالاحراج وهم يقومون بهذا العمل المخجل أمام مرأى الآخرين .

ولقد احتجوا على حلق شعورهم على الصفر ، و شتد خجلهم عندما أعطيت التعليمات بحلق شعر العانة أيضا . لكن الرقيب صرخ بهم ، وأمرهم بالامتثال للأوامر وقال :

ـ القيادة تنظفكم من القمل وانتم تحتجون . لااحتجاج في الجيش . فترة التعرض للشمس تدوم خمس عشرة دقيقة .

انتهت الجماعة الاولى من الفصيلة الاولى وتبعتها الجماعة الثانية ثم الثالثة . وحتى الساعة الثانية انتهت السرية بكاملها من المعالجة الأولى بالكبريت .

تحلق العساكر حول قصعات الغداء . لقد وصل الطعام محمولا على البغال . كانوا يتضاحكون . وقد لفت انتباههم ـ أن الجندي نويصر قد نجا من

هذه المعالجة المخجلة . فقال العريف زيد :

ـ لا شك أنه حمل معه المرض وسيعدي به غزالة وأهل القرية جميعا .

وضحك الجميع .

جلس رئيس اركان الفوج على حجر من البازلت وهو يشرب **الشاي** .

بينما لم يظهر أحد من المرشحين الى جواره . وعندئذ علم الجنود أن مرشحيهم يتعالجون داخل الخيام . فلم يصدقوا أن أصحاب الرتب العالية يمكن أن يصابوا بالقمل ايضا .

كانت كلاب القرية متجمعة على مقربة من المكان . تتفرج على المكان ظانة بأنها أمام وليمة . لكن رائحة الكبريت المنتشرة ، أهمدتها ، فدارت عدة دورات ، ثم انسحبت خائبة .

أسراب الحمام تحوم فوق عين المياه ، لكنها كانت تجفل مرتدة باتجاه وادي السمك .

وعاد المختار بعد فترة والتقى النقيب والمرشح احمد والضباط ، ثم دعاهم الى القرية . ولكنهم اعتذروا . وأكد النقيب على استمرار المعالجة لمدة ثلاثة أيام على نفس الوتيرة .

لم يكن الجنود الاحترام للنقيب منذ الوهلة الأولى . فقد كان حواره مع قادة الفصائل وأمام السرية علنا ، ومع الشيخ والمختار ضعيفا مترددا يظهر فيه التناقض . بالاضافة الى أن وجهه لم يكن ليدل على انه قائد . بعد ذلك أخذ مرافقيه واصطحب قائد الفصيلة وغادر المكان . بينما تابع المرشح أحمد تنفيذ المهمة مع الطبيب . الذي أخذ يتجول بين الافراد بكل غرابة شكله وأطواره .

قال الرقيب خمسان :

ـ لعنة الله الله على هذه الحالة التي وصلنا اليها .

ورد العريف محمد :

ـ ماذا بوسعنا أن نعمل ؟ على المرشح أحمد أن يثير قضية الأسلحة الفاسدة . نحن الآن دون قنابل ولا مسدسات رشاشة .

وقال العريف زيد :

ـ جاء النقيب ليشرف على علاج السرية . فهل تريدون أن تزعجوه بقصة هي من اختصاص القيادة وتحتاج الى زمن طويل كي تنتهي ؟

ورد العريف محمد :

ـ لن تنتهي هذه القضية ، ما دام هناك عملاء لا نعرفهم .

وقال العريف زيد :

ـ يا عريف محمد انظر الى مستوى عينيك فنحن عرفاء . اياك أن تطلع الى الأعلى فتتعب نفسك دون فائدة .

ورد العريف محمد :

ـ لنسأل المرشح أحمد قائد السرية حول مشكلة الأسلحة . كيف نقاتل العدو ونطرده من الأرض دون أسلحة تعمل .

وسار العريف محمد باتجاه المرشح أحمد . كان المرشح أحمد يراقب مع الطبيب تنظيف الثياب .

قال له العريف محمد دون مقدمات :

ـ هل تحدثت يا سيدي عن الأسلحة الفاسدة لرئيس أركان الفوج ؟

نظر المرشح احمد الى وجهه دون أن يجيب . لكنه بعد فترة قال : وهل هذا هو الوقت المناسب لذلك . ألا يعرف رئيس الأركان ذلك دون أن أخبره ؟

وخجل العريف محمد من نفسه ولكنه كتم غيظه وهو لا يعرف بماذا يجيب زملاءه عن الموضوع .

وعندما وصل الى الجماعة قال لهم : يقول المرشح ان قيادة الفوج ورئيس أركانه يعرفون بالأمر .

فجأة دوى انفجار هائل . من ناحية الغرب قرب النهر . وتبعته عدة قذائف مدفعية سقطت احداها جنوب فرية عين سمسم ، في وادي السمك . وتنبه رماة الرشاشات وبعضهم ما يزال عاريا .

وتبينوا في النهاية أن طائرة استطلاع معادية لا تصلها الرشاشات عبرت المنطقة . ثم غابت عن الأعين .

وقال العريف زيد :

ـ قد تكون هذه الانفجارات على السرية الأولى . مسكين الملازم ياسر قائد السرية . والجندي نويصر . انه لن يلحق كي يتزوج من غزالة .

ورد العريف محمد :

ـ ولماذا أنت مهتم الى هذا الحد بنويصر وغزالة ؟

وعلق الرقيب خمسان :

ـ فعلا لا نريد ذكر أي شيء يذكرنا بقرية جرابا . اللهم امض هذا اليوم على خير .

غادر رئيس أركان الفوج السرية مودعا من المرشح أحمد والمختار والشيخ عبد الجليل . حيث ركب الفرس يرافقه جنديان على بغل . ولحقت به عدة كلاب حتى قطع مسافة طويلة ثم عادت .

لقد شيعته أنظار السرية . وكان بعض منهم لا يزال عاريا . ومنهم من ظل ينفض ثيابه فوق النار .

وأمسك جندي في حالة استراحة شبابته وأخذ يعزف عليها لحنا صاخبا . فصاح به الرقيب خمسان :

ـ اخفض الصوت .

ورد المجند :

ـ أريد أن أسمع صوتي لقرية جرابا وأقول لأهلها بأننا لم ننسهم رغم الالم والعذاب والبهـدلة . وعاود عزفه الصاخب . حتى اضطر الرقيب الى نهره قائلا :

ـ قلت لك اخفض هذا الصوت المزعج .

ـ ورد المجند :

ـ وما شأنك به . لماذا يصعب عليك أن تسمع الموسيقى ؟ انها موسيقى تفرح قلوب النساء الأرامل . أم أنك تريد لحنا حزينا يفتح جروح القلب ؟

انتهت السرية من أعمالها اليومية المعتادة ثم انسحبت من المكان . ولجأ الجنود الى خيامهم وعندئذ سمح لأهل القرية بالذهاب الى عين الماء . فتقاطرت الصبايا والنساء الى العين وهن يسترقن النظر لمعرفة ماذا حل بالجنود . ورد

الجنود على هذه البادرة بالتلويح بأيديهم . معلقين بأصوات مرحة بأنهم لا يزالون أحياء في عافية .

وأعطى المرشح أحمد أمرا بتنظيم المناوبة والطوارىء . وأعطى بعض الجنود اجازات لمدة ساعتين للذهاب الى القرية والعودة منها . وأسرع الجنود المجازون الى القرية متحمسين نشيطين .

ومرض ثلاثة جنود أرسل منهم اثنان الى مستوصف الفوج والثالث عالجه الطبيب . لقد أثرت حرارة الشمس والكبريت على أجسادهم فظهر طفح على جلودهم . ولقد ساعد الفلاحون بنقل المرضى الى المستوصف . بينما لم يعد المريضان طيلة فترة أسبوع قضياها في مستشفى الجبهة .

وصل الجنود الى دكان القرية . فاشتروا بعض الحاجات والحلويات . وأخذوا يتعارفون على أهل القرية الذين التفوا حولهم .

بقي المساعد ١ حسين مناوبا في السرية مع المرشح قائد الفصيلة الثالثة الذي عاد مساء . بينما ذهب المرشح أحمد والعريف محمد ورقيب آخر والطبيب بصحبة المختار والشيخ عبد الجليل .

كان العريف زيد قد تعرف على أسرة لها عدة بنات جميلات . ومازح احداهن قائلا :

- أترضين بي زوجا ؟

وحملت البنت هذه الفكرة معها الى بيتها . وجاء الأب وقال للمجند :

- اننا نتشرف بكل جندي يا بني .

وأنعشت الفكرة الأم . وأخذت تردد في سرها لعل الله يفتح في وجهنا هذا الباب . الشبان قليلون في المنطقة وعندي عدة صبايا . لعل هذا الجندي كان جاداً فيما يقول . وطلبت من زوجها أن يدعو الجندي ورفاقه لشرب الشاي في المنزل . وعندئذ نذرت لله نذراً فيما لو تم الأمر . لأنها فكرت بأن ذلك سيكون فاتحة لزواج بناتها الباقيات . .

وعادت المواشي من الرعي عند الغروب ، فخرجت احدى البنات إلى حلبها . وأخذت الأخرى تدور في البيت مقدمة الخدمة للجنود الضيوف .

وكان جندي اشتغل راعياً قبل مجيئه إلى الجيش ، سعيداً بهذه الزيارة ، فما رفع عينيه عن أجساد الفتيات حتى انه كان يتحرك بعض الحركات كي يصطدم بهن . وهرعت البنت الصغرى لتساعد أمها في صنع الخبز لتقدمه ساخناً للضيوف . وحاول الأب أن يذبح دجاجاً لكن أحد المجندين رفض الأمر ، وتذرع بضيق الوقت .

كانت الأم تريد أن تستثير عطف الجنود بكرم ضيافتها .

بدأ الأفق بالاحمرار . واختفت الشمس وراء الجبال . وأخذت الظلمة تزحف طاردة الضياء عندئذ أقام الشيخ عبد الجليل آذان المغرب ، ودعا الله بصوت جهوري أن ينصر الجيش والجنود على أعداء الله والوطن . وصلى لوحده في ساحة القرية دون أن يصلي أحد وراءه لأن الوقت كان وقت عمل .

عاد قسم من الجنود بعد الغروب إلى السرية . بينما بقي المرشح أحمد والعريف محمد والطبيب في القرية ليسهروا مع المختار والشيخ وبعض رجال القرية .

وفي بيت المختار طغت أحاديث السياسةوأوضاع البلاد على كل حديث آخر ، فما استطاع الضيوف أن يلقوا نظرة حب على الصبايا اللواتي يتحركن لخدمتهم . حتى انهن كن مستاءات من الحديث ، لأنه لا يترك لهن الفرصة لتبادل النظرات. كان الاهتمام منصباً على المرشح أحمد بينما كان الطبيب صامتاً طوال الوقت لأنه يجهل ما يتحدث به الآخرون . وفي بعض الأوقات كان يدور في البيت ليتعرف على أشيائه . واستمتع كثيراً وهو يرى إلى النسوة يصنعن الخبز على الصاج. ولقد تحدث المختار والشيخ عن أوضاعهما عندما كانا في الأراضي التي احتلها اليهود . وتحدثا عن اقطاعي قريتهم الذي لا يزور القرية إلا وقت الانتخابات . حتى انه في بعض الانتخابات لم يكن ليزورهم ، إنما كان يرسل إليهم وكيله حاملاً سلامه طالباً منهم أن يشاركوا في الانتخابات بهمة ونشاط . وكان على الدوا م ينجح كنائب في البرلمان . كان صديقاً لكل غاز . صديق الفرنسيين والانكليز وأخيراً اليهود .

كان العريف محمد يصغي باهتمام وهو يتذكر اقطاعي قريته . عندما كان

طالباً في المدرسة ومن توصياته للفلاحين :

ـ إذا علمتم أولادكم سوف تخسرونهم . فمن سيعمل معكم في الأرض بعد ذلك ؟ ثم تابع في تهكم : سوف يصبحون بيكاوات . وهؤلاء لا يعملون في الأرض . هكذا كان كلام صاحب القرية للفلاحين .

ونظر إلى الشيخ عبد الرحمن وقال له آمراً :

ـ لن يكون هناك سوى مدرسة ابتدائية يتعلم فيها التلاميذ أصول الدين وقراءة القرآن . أما الكتاب وتطور العلم فيحتاج إلى أبناء متفرغين .

كان العشاء قد جهز ووضع طبق الطعام أمام الجميع . وعندئذ قالت المرأة العجوز

ـ لعنة الله على كل من يخالف التعليم . الانكليز متعلمون واليهود كذلك لذلك انتصروا علينا .

انتهى العشاء ودق بوق السرية فغادر جميع الجنود القرية وهم يشتمون بغضب . الأوامر هي الأوامر . والعسكرية هي العسكرية .

قال العريف زيد :

ـ لقد نسينا قرية جرابا في يوم واحد . نسينا بنات أبو خليل ولكم كذبنا اليوم على الصبايا من يصدق أن العريف زيد قد يتزوج .

وقال الرقيب خمسان :

ـ انت خسيس

وكادا يتعاركان لولا تدخل الجنود .

نظمت الحراسة والدوريات والكمائن حول موقع السرية . وحاول بعض المجندين الهروب إلى القرية متسللين وفاء لوعود قطعوها لبعض النسوة . لكنهم ضبطوا وعوقبوا بقضاء الليل في حفرة وسط السرية جلسوا فيها تحت الحراسة .

في اليوم الثاني تمت المعالجة بالكبريت في وقت سريع . ولم يسمح في ذلك اليوم للجنود بالذهاب الى القرية، كانت السرية في اليوم الثالث تستعد للرحيل والتمركز في قرية العليقة التي تبعد حوالي ستة كيلو مترات شمال القرية .

وذهب الطبيب الذي لم يقم بأي عمل في اليوم التالي قبيل رحيل السرية إلى مكان تمركزها النهائي في قرية العليقة . كان عارياً من منتصفه الأعلى ، ودع المرشح أحمد باللغة الفرنسية ، ثم غادر السرية يرافقه الحلاق والرقباء والممرضون . وركب بغلته الحمراء التي جدع شعر رقبتها . بينما لحق به بغل ركب عليه الحلاق والرقيب الممرض . كان الحلاق برتبة عريف وقد اقترب من الأربعين . خدم في الجيش الفرنسي وتعلم الحلاقة لأنه لا يرغب القتال . وكان يقول للجنود وهو يقلب موس الحلاقة بين أصابعه : هذا هو سلاحي . رغم أنه كان يحمل في وسطه مسدساً .

وجاءت أوامر قائد السرية بخلع الخيام وحزم الأمتعة فوراً . وصاح قائد السرية ايذاناً بالتحرك رغم أنه لم يذكر اسم المكان الذي ستتحرك السرية باتجاهه . وشدد على قادة الفصائل وأمار الحضائر بالسرعة . وقال : لا أريد لأحد أن يمر على القرية إطلاقاً .

ومنعت دورية الحراسة اقتراب السكان من السرية . لكنهم ظلوا أمام بيوتهم يراقبون حركة السرية . وطلب الشيخ عبد الجليل والمختار مقابلة المرشح احمد ليعرفوا ما يدور داخل السرية . ونظمت حركة المسير وأعطى قادة الفصائل أمر الحركة . ونظموا بموجبه مسير الحضائر ضمن الزمر وبذلك كانت الحضيرة الثانية من الفصيلة الثانية آخر حضيرة تقع عليها مسؤولية حماية مؤخرة السرية في أثناء سيرها . وعلى حامل الرشاش أن يكون آخر شخص يسير في القافلة .

ولم يكن مزاج المرشح أحمد رائقا . لكن الأوامر هي الأوامر لقد تعكر مزاجه لأنه كان قد وعد الشيخ عبد الجليل بتناول الغداء في منزله ولم يستطع أن يفي بوعده . رغم أن الشيخ عبد الجليل ذبح له جدياً منذ الصباح . له ولمن يرافقه .

كانت الحرارة عالية . عندما أعطيت الأوامر لحركة السرية رغم أن الطبيب قبل مغادرته السرية اقترح أن لا تسير السرية تحت الشمس كي لا يصاب أفرادها بضربة شمس .

كل هذه الملاحظات كان العريف محمد يراقبها صامتاً . لم يكن له أي قرار

في مثل هذه الأمور التي صدرت أوامر بشأنها من الأعلى بواسطة المراسل الذي وصل يحمل برقية مرمزة .

كان يتساءل : لماذا يكون التحرك ظهراً ، بينما من المفترض أن تكون حركة الوحدات العسكرية ليلاً ، ، للحفاظ على السرية ؟

واستغرب لماذا على المرشح أحمد أن ينفذ أمراً لم يقتنع به . انه يحاول أن يثبت لقيادة الفوج أنه جدير بقيادة السرية ولا موجب لارسال قائد برتبة ملازم أول قائداً لها .

كان عليه ـ كما فكر العريف محمد ـ أن يكسب ثقة قادة الفصائل وأمار الحضائر أيضاً وكذلك الجنود ليبرهن أنه قادر على القيادة . وماكان يشك بأن أحد ضباط الصف يتابع نشاطاته بالتقارير السرية .

لقد حاول خلال الأيام الثلاثة من المعالجة أن يكون مرناً مطواعاً مع الجنود فسمح لهم بالذهاب إلى القرية في أوقات مختلفة . وحاول أن يكسب ثقة المختار والشيخ عبد الجليل . فنجح في ذلك واعتبره أهل القرية أحد أبنائهم . لدرجة أنه دعي إلى الغداء في بيت الشيخ .

لقد علمت التجارب اولئك الفلاحين الشيء الكثير . حتى لقد شعروا تجاه هذا المرشح بالالفة والحب كعادة البسطاء القرويين .

حزمت الأمتعة وقام الجنود بآخر الأعمال التي يتطلبها التحرك في ظل من كتمان الحنق . قال العريف محمد موجهاً كلامه للمرشح أحمد محاولاً أن يخفف عنه :

ـ قد يكون المسير في هذا الحر أمراً صعباً لكن في هذا الوقت يكون الرصد من قبل العدو صعباً بسبب الحرارة والسراب المتموج . فالرصد يكون أفضل عند العصر والغروب ، حتى انه لا يحتاج إلى منظار .

وقال المرشح أحمد :

ـ كلامك صحيح . لكن أقنع السرية بذلك . فأكد العريف محمد بأن الأمر عندما يكون مقنعاً يكون تنفيذه سهلاً .

وهكذا رأى المرشح أحمد وباشر بإقناع الجنود بصحة التوقيت .

أما الاعتذار من المختار والشيخ عبد الجليل عن الغداء ، فهذا لم يكن ضمن اهتمام العريف محمد فوعد المرشح احمد المختار والشيخ أن يعود إلى زيارتهما مرة أخرى . وحدد أن يكون معه العريف محمد .

وقال العريف محمد للشيخ عبد الجليل :

ـ حاولوا أن تكون لقريتكم مدرسة ، ومعلم من التربية . بهذا تضمنون مستقبلكم ومستقبل أولادكم . وتحرير فلسطين سيكون بالعلم لا بالدعوات ولو كانت صادقة . ولفت انتباه العريف محمد عريف أشقر من الحضيرة الثالثة . كان قصيراً وسميناً والعرق يتصبب منه كأنه خرج لتوه من بركة ماء . كان يردد بين حين وآخر «تحركوا يا جماعة. لقد احترقنا من وهج الشمس» . ولشدة احمراره غزا النمش وجهه «بحق السماء فلنتحرك» .

وتحركت السرية . وشيعها أهل القرية بنظرات مليئة بالأمل والحب . وبادلهم الجنود نفس الشعور .

سار الجنود باتجاه الشمال . فارتفعت أيدي الصبايا مودعة متضرعة : أن عودوا ثانية . . فما نسي الجنود أبداً نبل أهل هذه القرية وكرمها .

واستمر التحرك في صمت مطبق وكل جندي يفكر بما يشغله . بحنينه وأحلامه حتى لقد غصت العيون بالعبرات من البعض .

كان الطريق ضيقاً تعبره المواشي ، ولا يتسع إلا لفرد واحد وكانت شجيرات من السنديان القصيرة والصخور تحيط به .

لم تكن المسافة طويلة . لكن أحمال الجنود أبطأت سيرهم . وكذلك حذرهم من أن يحدث أمر طارىء . وسحب أمار الحضائر مسدساتهم استعداداً للدفاع عن السرية .

وفي فترة قصيرة من الزمن ، اختفى مشهد الناس المودعين ، وصغرت القرية في العيون حتى تلاشت وراء المنحدرات . وبعد ساعة من المسير توقفت السرية فقد انهك افرادها المشي تحت الشمس وسمح لهم باستراحة لمدة خمس عشرة دقيقة . في البداية كانوا صامتين يفكرون بالمفارقة . وهي أنهم ظلوا إلى جوار قرية جرابا عاماً كاملاً . بينما لم يمض على بقائهم قرب هذه القرية أكثر من

ثلاثة أيام ، إلا أنها بقيت في ذاكرتهم أكثر ، وظل أبناؤها وبناتها في وجدانهم وحنينهم .

قال العريف زيد كأنه يقول شيئاً عن الجميع :

ـ لقد سعدنا في هذه القرية . وأحببنا أهلها وأحبونا . ولكن ماالفائدة .

وجلس المرشح أحمد تحت شجرة يستظل بأغصانها . كان شارداً متأملاً ، لم يدرك العريف محمد بماذا يفكر ، فتركه مع صمته وتأمله . بعد ساعة تحركت السرية من جديد ووصلت إلى طريق عام يصل بين مدينة القنيطرة وقرية البطيحة . وعلى بعد أمتار كان تمركز السرية .

الجزء الثاني

« ١٠ »

صاح الجنود : «انظروا الخيام الكبيرة » . . هذه خيمة قائد السرية حتماً وتلك لقادة الفصائل . هاهو رقيب يقف على الطريق ليستقبل السرية . . من الممكن أن يكون الطعام جاهزاً» . ورد آخر :

«لا تتعجل فربما الرقيب أكل كل اللحم المخصص للسرية بحجة أنه لم يتوقع قدوم السرية اليوم» .

عبرت سيارة عسكرية فيها ضابط الطريق العام . فافسح له الجنود المجال . فمرت وقد أثارت الغبار حولها حتى التصق الغبار بوجوه الجنود وتحولت على الفور إلى وحل لأن الأجساد كانت مبللة بالعرق . وحاول أحد المجندين أن يصيح ، لكن أوامر المساعد حسين كانت قد لعلعت :

ـ الحضيرة الأولى على اليمين . الثانية إلى الخلف والوسط . الثالثة إلى اليسار والأمام . وسمع أمار الحضائر فسار كل منهم باتجاه اماكن التمركز وساد الصمت .

جمع المرشح أحمد السرية ، وأعطى تعليمات المناوبة والحراسة والطوارىء . . وأجرى تجارب صغيرة على ذلك . وفي تلك الأثناء وصل رجل مدني عرفه الجنود ، كان أبو خليل من قرية جرابا .

لم يرتح المرشح أحمد بالرقيب ١ الذي أخذ منذ وصوله يتزلف له ويحسن ضيافته . فقد قدم له اللبن والماء البارد . وأحضر له الغداء بمفرده . وهو الطعام

الذي لم يعجب المرشح احمد كان مملوءاً بالتراب نتيجة نقله من قيادة الفوج إلى تمركز السرية في سيارة كبيرة مكشوفة .

كان أبو خليل جالساً في خيمة رقيب السرية . ووصل اليها الرقيب خمسان الذي فرح بوجوده وأخذ يسأله عن قرية جرابا . وبعد فترة تجمع حوله الجنود وأخذوا بدورهم يسألون عن اصدقائهم ورغب العريف محمد في أن يسأل أبا خليل عن الجندي نويصر وغزالة . لكن الأخير تملص من الجواب . وقال بأنه لم يشاهد نويصراً منذ فترة . وقد عرف من حديثه بأنه لحق بالرقيب ١ من أجل الحاق الجندي نويصر بالسرية الثانية ليبعده عن قرية جرابا وعن غزالة نهائيا .

ورغم أن أبا خليل أبدى عدم اهتمامه بالجندي نويصر وغزالة إلا أن جميع الأسئلة والأحاديث كانت تدور حولهما في خيمة رقيب ١ السرية .

وحانت ساعة الغذاء ، فانتشر الجنود ، كانوا سعيدين لوجود جدول ماء صغير قرب مكان التمركز . بعد الغذاء نظمت الخدمة وجماعات الحراسة والطوارىء وأعطي للبقية اجازة اربع وعشرين ساعة . وبذلك نظمت لأول مرة الاجازات الى مدينة القنيطرة . أو لمن أراد أن يذهب إلى العاصمة ليرى اسرته ، وبعضهم عاد إلى قرية جرابا أو عين سمسم ليقضي اجازته هناك .

كان الجنود سعيدين فرحين . لقد أصبحوا الآن خارج رمي الرشاشات والهاونات وبعيداً عن خط المواجهة المباشرة مع العدو .

وفي اليوم التالي ذهب العريف محمد إلى مدينة القنيطرة لأول مرة منذ وصوله إلى الجبهة وهناك التقى بعض رفاقه من الرقباء وكذلك التقى ضابطا من رفاقه في الحزب .

لقد تحدثوا ساعات وساعات عن الأوضاع السياسية والعسكرية والثورات العربية وأوضاع الحزب . فلم يلحظ العريف محمد أن رفاقه الضباط كانوا أفهم منه . بل كان يبزهم في شتى الأحاديث . ولقد كان مع بعضهم في المدرسة وكان أنشط منهم وأفضل منهم في الدراسة . لكن ذهابه معلماً على أساس الشهادة المتوسطة جعلته في رتبة عريف ، بينما الآخرون حائزون على الثانوية

ومتحرجون من الكلية الحربية .

لقد هاله الفرق الشاسع بين رتبة ضابط وبين رتبة عريف . رغم أنهم من حزب واحد وبشهادة واحدة . ولقد اقترح احد الضباط عندما أراد الرفاق أن يخرجوا في نزهة في شوارع المدينة ، أن لا يسيروا معه حتى لا يتعرضوا لنقد قادتهم ولا يخالفوا الأوامر العسكرية القاضية بأن لا يرافق الضباط من هم أدنى منهم رتبة .

وفهم العريف محمد اقتراح صديقه الضابط ، لعلمه بالقوانين العسكرية فلم يحرجه . فاختصر الحديث معه وودعه . لكنه قبل أن يغادره ، قال له :

ـ ربما نلتقي ذات يوم في وضع متماثل .

وفي المساء ذهب إلى بيت الرقيب سعود كان من الدورة العاملة في مدارس الرتباء وقد تزوج بعد تخرجه واستأجر غرفة واحدة من بيت . وطلب منه العريف محمد أن يرافقه إلى السينما الوحيدة في المدينة . لها مقاعد خشبية وتعمل منذ العاشرة صباحاً للمجندين المجازين اجازات نهارية في مختلف ساعات النهار وفي السابعة مساء كانت تقفل . كانت شاشتها تعرض الأفلام ثلاث مرات نهاراً . وفي ذلك المساء عرض فيلم عن هرقل كيف يهدم المدن ويخلع المباني ويهرب اعداؤه من أمامه . وكان كل ذلك من أجل حبيبة ينقذها ليبني لها قصراً .

كان الجنود يصفقون لكل حركة بطولية يقوم بها . وعندما أخذ النمر من ذيله وهزه في الهواء ، ضجت الصالة بالتصفيق والصفير . وحمل معه العريف محمد كل هذه الانطباعات الحلوة وهو يفكر بأن الناس والجنود بحاجة ماسة إلى القوة الآن أكثر من أي وقت مضى . ليس من أجل العشيقات والحبيبات إنما من أجل تحرير الوطن .

تلك الليلة نام العريف محمد في بيت الرقيب سعود لأنه لا يوجد في المدينة فندق . وفي الغرفة الصغيرة تعرف على زوجة صديقه ، ووالدها ورجل دين من قرية سعود . كان يبدو عليه الاحترام والمهابة . كما كان على جانب كبير من الذكاء والمعرفة . وفي السهرة وصل صديق مشترك يدعى كامل . كما حضر

عريف من القطاع الجنوبي لقرية الرقيب سعود . وغصت الحجرة بجيران آخرين .

ودار حديث السهرة حول الفضيلة والدين . لكن العريف محمد آثر أن لا يخوض في الموضوع لأنه لم يكن يحب الشيوخ ولم يكن يثق بهم . لكن هذا الشيخ أثاره وشد انتباهه بمعرفته وصفاء حديثه . لا بل اكتشف مدى اطلاعه الواسع بالفلسفات اليونانية منذ افلاطون وارسطو ، والبوذية والابراهيمة وغيرها . وكان يحفظ لكل حجة مثالاً ـ لكن الرقيب سعود كان يخالفه بعض النقاط ، فتثار مناقشة حامية الوطيس .

ولقد طرح العريف محمد ، فكرة أن هذا النقاش من غير نفع ، المهم التحدث عن أمور مهمة لها علاقة مباشرة بحياة الناس . وقال :

ـ ان البشرية عاشت آلاف السنين دون أديان قبل ظهورها . لكنها لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً بلا خبز . عندئذ حرف الرقيب سعود الحديث إلى مجرى آخر ، وأخذ يتحدث عن الاضطرابات والمظاهرات في العاصمة وكذلك عن الشائعات التي تدور حول الأسلحة الفاسدة في الجيش وقال:

ـ الدنيا على كف عفريت في العاصمة . الخلافات بين الأحزاب على أشدها . ولا أحد من القادة التقليديين يراعي مصلحة البلد .

وعندما أخذ يتحدث عن خلافات الضباط القادة ، حول صوته إلى ما يشبه الهمس . وأخذ يرشف الشاي . وغمز العريف محمد اشارة الى انهما عندما يصبحان منفردين سيكون الحديث حراً وسيعلمه بما يجري في هذا المجال .

بعد منتصف الليل ، تمشى الصديقان في شوارع المدينة . وهو الأمر الذي أشار إليه الرقيب سعود ليتحدثا بحرية ، ولينظما مبيت الضيوف في حجرة واحدة .

كان الشارع خالياً إلا من بعض دوريات الشرطة العسكرية وقد بدا عليها النعاس . وذلك لمنع المخالفات والحفاظ على أمن المواطنين من مشاكل الجنود .

وقرب نادي الضباط . كان هناك بعض السكارى بصحبة نساء متبرجات بدا أنهن زوجاتهم . وكانت تسمع بين حين وآخر بعض الشتائم والصيحات

حول باب دار البغاء القريب من المنطقة . كان حشد كبير من الجنود يتجمع هناك فعلق الرقيب كامل قائلاً :

ـ اتدري بأن ساكنات هذا المكان وأمثالهن ، يحللن أكبر مشكلة في العاصمة ؟ بينهن فرنسيات وانكليزيات ويهوديات . وقد يكون أكثرهن يعمل لصالح الجاسوسية . لأنهن يستطعن أن يحصلن على كل أسرار الضباط والعساكر . وقسم منهن يذهب إلى أماكن سكن الضباط سراً .

وقال العريف محمد :

ـ ان لهذا الأمر خطورة أكبر من قصة الأخلاق . ويجب أن يحسم بأسرع وقت .

وجاءت على الأثر دورية شرطة . وقادت بعض المجندين من أمام دار البغاء وساقتهم إلى السجن . فضحك الرقيب سعود وقال :

ـ في الغد يطلقون سراحهم ، بالرشوة . فالرشوة منتشرة في كل مكان وفي العاصمة خصوصاً . ورد العريف محمد :

ـ وماذا يفعل الحزب هناك إذاً ؟

وأجاب الرقيب :

ـ حزب . . حزب . . وماذا يستطيع أن يفعل وليس له في الجيش قوة كبيرة .

وعندما عادا إلى الغرفة وجدا الشيخ قد رتبها فقال العريف محمد :

ـ إذا الفضيلة والرذيلة في كفتي ميزان أيها الشيخ الجليل !!!! أرى عندما تسود الفضيلة وترجع الرذيلة يصلح المجتمع . وعندما تسود الرذيلة تحدث الكوارث .

فصادق الشيخ معقباً :

ـ كل شيء بارادة الله .

وتابع العريف :

ـ واذا كان هناك حزب منظم ومؤمن بالوطن وقدرة الشعب ، ألا يحقق الفضيلة أكثر .

وقال الشيخ متململاً :

ـ ربما لكن عليكم الآن أن تناموا ناموا الآن . ومد الرقيب سعود لحافاً على الأرض وأبعد الطباخ والطناجر ونام خمسة أشخاص في غرفة واحدة وقال محمد قبل أن يغفو :

ـ هكذا كان ينام الحصادون في قرى الاقطاع . وتابع في سره . ومع ذلك فإن النوم هنا أفضل من النوم في الخيمة الفردية بكثير .

كان الرقيب سعود يشخر أثناء نومه وكذلك الشيخ فحاول العريف محمد ايقاظهما أكثر من مرة دون فائدة . كانا يعاودان الشخير مما دفع بالعريف محمد أن يقضي بقية الليل متيقظاً وقال في سره : الله يساعد المرأة التي ستتزوج سعودا هذا . في الصباح حاول كامل أن يصنع الفطور لكن الضيوف لم يقبلوا واكتفوا بالشاي ، ثم ذهبوا إلى أعمالهم .

ذهب العريف محمد والرقيب كامل الى كراج المدينة حيث سافر الرقيب إلى العاصمة ، وجلس العريف في المقهى ينظر إلى حركة الناس في الساحة . واشترى جريدة البعث وجلس يقرؤها ويشرب الشاي .

كانت عدداً قديماً مضى عليه أكثر من أسبوع . أخذها من عند بائع الفلافل . وعندما انتهى من تصفحها أخذ يراقب حركة السوق من جديد . كان الكراج الوحيد ، فيه سيارات داهبة واخرى قادمة من كل الجهات ، وكان العمال يصرخون ومعهم أطفال يعلنون في الكراج عن الأماكن المتهيئة إليها السيارات :

ـ «درعا ، فيق . . ازرع . . السويداء . . الشام . . الخ .

كان العريف يردد أسماء المدن التي يصرخ بها العمال ، وكان يعرف أن أغلب ركاب السيارات من الجنود ، فتأمل في خياله فكرة قدوم الشبان من كل انحاء الوطن ليدافعوا عن حدوده .

وفي مكان بارز من الساحة ، وضع صاحب المكتبة عدة صور لممثلات ونساء عاريات تجمع حولها الجنود ليتفرجوا . وتلك هي المجلات التي كان يشتريها الجنود بحماسة .

وفي زاوية اخرى توقفت امرأتان متعطرتان وضعتا الكثير من المساحيق على وجهيهما . وارتديتا لباساً فاضحاً . وعندما أخذ الجنود يحتشدون حولهما ، جاءت دورية من الشرطة العسكرية واركبتهما أول سيارة إلى العاصمة . فضحك العريف في سره ضحكة شفقة على هاتين المرأتين وعلى الجنود وعلى نفسه أيضاً . أخيراً وصلت سيارات العاصمة حاملة معها الجرائد الجديدة . فاشترى نسخة اخرى من البعث ، واشترى مجلة وكتاباً لتعليم كتابة الرسائل ، وبعض الأوراق البيضاء ليكتب رسالة لأسرته وليساعد الجنود الأميين في السرية في كتابة رسائلهم إلى ذويهم . وذلك عندما تذكر قصة المجند زيدان إذ ما عليه إلا أن يملأ بعض الفراغات التي يشير إليها الكتاب .

وهو ينتظر شاهد رقيب ١ السرية يدخل المقهى وبرفقته «أبو خليل» .

لقد رحب به الرقيب ١ . وطلب شاياً لثلاثة أشخاص . كان يريد توطيد العلاقة معه منذ وصوله إلى السرية ولقد مضى الآن على وجوده فيها أكثر من خمسة عشر يوماً وظلا حتى هذا الوقت على طرفي نقيض . كان يحس بخبثه . ولم يكن يأمن وجهه الذي يبدو عليه المكر . وكان يريد دائماً أن يوهمه بأنه القائد الفعلي للسرية لكن العريف محمد لم يكن يهتم بكل أقواله .

جلسوا على طاولة وأخذ محمد يسأل أبا خليل عن أهل قرية جرابا وقال له أبو خليل إذا كان يريد شيئاً من العاصمة لأنه ذاهب إليها مع الرقيب وقد يعود مساء .

كانت الباصات تسير في كل اتجاه في ضجيج مثيرة وراءها الدخان . غادره أبو خليل والرقيب ١ بينما جاءت إليه امرأة شابة سألته عن وجهته ، فأجابها بأنه ذاهب إلى قرية العليقة . فضحكت الشابة وقالت له :

ـ اذن نحن نسير في اتجاه واحد ؟!

وعرّفته بنفسها على أنها من قرية العليقة ودعته لزيارة أهلها .

وقد فهم على الطريق ، أنها أرملة لها طفلة وولد ، وقد تركها رجلها منذ سنوات ولم يعد وكانت في المدينة تبيع فراخ الدجاج التي تربيها في القرية وبعض البيض الذي تجمعه منها .

كان اسمها عيوش . وعندما هبطنا من السيارة لاحت له بيدها مبتسمة .

كان الجو في عصر ذلك اليوم منعشاً ولطيفاً . وكانت السحب البيضاء تغطي جبال الجليل وجبل الشيخ .

بدأ التدريب المستمر للسرية وفق البرنامج بهمة ونشاط . الفرد في الهجوم ، الفرد في الدفاع ، ثم الزمرة في موقع الحضيرة ، والحضيرة في الدفاع والهجوم ثم الفصيلة والسرية .

خلال الأيام الثلاثة الماضية التحق بالسرية خمسة عشر مجنداً جديداً أغلبهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، بينهم عسكري أرمني برتبة عريف ، واثنان من أكراد الجزيرة ، وهؤلاء لا يعرفون اللغة العربية إطلاقاً . أما الباقي فكانوا عرباً ، واحد منهم فقط يعرف القراءة والكتابة .

اعتبر المرشح أحمد رفد السرية بخمسة عشر مجنداً دعماً وتكملة للملاكات فيها . وكان برنامج التدريب صعباً للغاية . وفي عصر ذلك اليوم قبل المناوبة كان على جميع أفراد السرية أن يقوموا بدرس رياضة ، وحرصاً على الأمن وزعت الفصائل في عدة أماكن على أن يكون لكل فصيلة رشاش جاهز للمفاجآت .

المباريات الرياضية بين الفصائل في الجري وشد الحبل ، هي مثار الكثير من المشاكل اليومية ، وقد جرت المباراة بين الفصيلة الثانية والفصيلة الثالثة بحضور قادة الفصائل وقائد السرية المرشح أحمد رافقتها بعض المشاحنات والشتائم . تطورت فيما بعد وأدت إلى أن وجه عريف من الفصيلة الثالثة احدى الشتائم للعريف محمد من الفصيلة الثانية . وقد كان وراء ذلك رقيب ١ السرية . لكن العريف محمد لم يسكت على هذه الاهانة التي وجهت له ، إنما سار بكل هدوء إلى العريف الذي شتمه وصفعه بكل قوة على وجهه ، ثم رماه أرضاً ، وكاد الأمر أن يؤدي بالعريف محمد إلى عقوبة كبيرة ، لكن المرشح احمد طوق الحادث بسرعة ولم يرغب برفع تقرير عنه إلى الأعلى حتى يثبت قدرته على قيادة السرية . كما أن الرقيب أول لم يستطع أن يعاقب العريف محمد رغم تدخله من أجل فرض عقوبة وفشل بذلك . وانتشر بين أفراد السرية أن المرشح أحمد مع العريف محمد كونهما كانا زميلين في التعليم ، ولكن الظروف شاءت أن

احدهما صار عريفاً والآخر مرشحاً وخدمت هذه الحادثة العريف محمد كثيراً حيث أصبح أغلب المجندين يكنون له الاحترام من جهة ، ويخافون منه من جهة ثانية . وكثيراً ما تحدث مشادة من هذا النوع بين الأفراد تسوى في حينها .

الاستيقاظ في السادسة صباحاً وبعد درس الرياضة يكون الافطار في السرية ثم تبد أ الدروس القتالية حتى الساعة الثانية ، فالغداء ، ثم الرياضة بعد الظهر ، والمناوبة ، والجنود الباقون في السرية استراحة وقد يذهبون الى القرى المجاورة حتى وقت النوم أو التفقد في العاشرة ، وقرية العليقة تبعد مئات الأمتار عن الموقع وهي أكبر من قرية جرابا ، كما أنها أكبر من قرية عين سمسم ، وكون وجود موقع دائم فيها وهو موقع النسق الثاني للفوج ، فأهلها لهم علاقات شتى مع العساكر المتواجدين في الجبهة . فيومياً هناك مشكلة في القرية . ولذلك عززت القيادة الوضع بدوريات قتالية من قيادة السرية بشكل دائم بعد الظهر وليلاً تذهب إلى القرية وتقف أمام دكنجي القرية واسمه جمعة . كان هذا بائعاً جشعاً ، يضاعف الأسعار من عنده ، وخاصة فيما يتعلق بالحلويات وزجاجات الروائح الطيبة والصابون المطيب الخاص بالهدايا . فهو صديق الرقيب أول السرية ، وكان يشتري الحليب من الفلاحين بأسعار بخسة ويبيعه الى المجندين بأسعار عالية ، ويرسل هدايا إلى رقيب اول السرية والضباط الآخرين اسبوعياً وهو رابح بذلك . وشأن كل قرية فيها شيخ ومختار ، فالمختار له أهميته لأنه يعر ف رئيس أركان الفوج والشيخ عبد التواب أيضاً له أهمية خاصة .

المجندون أصبحوا يرتادون القرية عند الغروب ويعودون قبل التفقد . كما أن المتزوجين اصبحوا يحصلون على اجازات يقضونها مع زوجاتهم اللواتي يسكن في القرية أو القرى المجاورة أو في مدينة القنيطرة .

ذات يوم بدأ التفتيش في السرية ليلاً فاجتمعت السرية ونودي على الرقيب خمسان فأجاب عنه العريف محمد . ولم يكشف أمره ، لكن رقيب أول السرية شاهده في قرية جرابا ليلاً ، ولم يستطع أن يكلمه لأن الأخير ايضاًكان مثله دون اجازة . وفي اليوم التالي لم يأت رقيب أول السرية على ذكر هذه

الحادثة ولكن الرقيب خمسان شكر العريف محمد على ذلك لأنه نجاه من عقوبة . وحدثه عن مكان وجوده وقد شاهد هناك الجندي نويصر ، ولكن الرقيب أول لازال يضايقه ، ويحرض أبا خليل ضده ، وكذلك يهدد أبا خلف في القرية . لكن الملازم ياسر يساعده حيث وضعه حاجباً عنده ، وبرغم كل ذلك فغزالة متعلقة به ، والخلاف على أشده بين الفلاحين في القرية .

أثناء الاجتماع تحدث مع المرشح أحمد عن مشروع لمكافحة الأمية ، وقد لاقى هذا المشروع استحساناً من قبل المجندين وكلّف من كل سرية رقيب معلم ، ولأن العريف محمداً كان معلماً فقد كلف بتعليم المجندين الأميين وبدأ فلك ولكن يبدو أن هذا المشروع لم يلق أذناً صاغية في قيادة الفوج ، ففشل وصرف النظر عنه بعد أيام . لقد حزن العريف محمد لفشل هذا المشروع ، واستبداله بدرس رياضة ، وقد ضحك رئيس اركان الفوج على الذين اقترحوا هذا المشروع ، وقال هذه أفكار حزبية حتى يتسنى لهؤلاء ادخال أفكار الحزب إلى رؤوس المجندين . وقد زار الملازم ياسر السرية في يوم من أواخر ايلول ، فجمعت السرية وقدمت له وسلم على المرشح وحيا ضباط الصف والمجندين وتجول في موقع السرية يرافقه المرشح أحمد ، وسرت اشاعة أن الملازم ياسر سيعود إلى السرية ، ولكن ذلك كان مجرد اشاعة فلم تعط أية أهمية لتلك الزيارة ، وفسرها الخبثاء في السرية من الرقباء أنها تأتي ضمن خطة للقاء امرأة من قرية العليقة .

ورقيب من الفصيلة الثالثة أشاع أن الملازم ياسر يعشق فتاة في القرية من عائلة محيسن ، وان بنات محيسن جميلات . وأنه يزور القرية ليلاً خلسة مع رقيب من الفصيلة ، لكن المساعد ١ حسين نفى هذه الاشاعات باحاديث جانبية مع امار الحضائر ، ولم يرغب بسماع أية اشاعات . ونبه على وجوب الحذر من العدو . الذي يراقب عصر كل يوم بواسطة طائرة مرتفعة تصور الجبهة بكاملها .

كانت مواشي القرية تقترب من الموقع احياناً ، وتأتي الصبايا لتأخذها ، الأمر الذي يجد فيه المجندون فرصة لملاحقتهن ومعاكستهن .

وكانت تسمع بين حين وآخر طلقات رشاشات متقطعة ليلاً ، وانفجارات مدوية ، أو رمي مدفعية على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا ، ويضحك المجندون قائلين : نحن الآن بعيدون عن الرشاشات ولا تصل إلينا لكن المدفعية الثقيلة قد تصل إلى العليقة .

وهكـذا تمر الأيام والعمل رتيب . وقبل نهاية الشهر جرى تبديل في قيادة السرية حيث وصل إلى قيادة الفوج الملازم أشرف منقولاً من مدارس الرتباء ، وعين قائداً للسرية الثانية وبذلك عاد المرشح أحمد إلى قيادة الفصيلة الأولى ضمن السرية ، وإن كان في داخل نفسه لم يرغب بتعيين قائد سرية ، ولكن هذا ما حصل بالفعل واعتبر هذا العمل داخل السرية عملاً طبيعياً .

وقد حزن العريف محمد لأن المرشح أحمد لم يبق قائداً للسرية ولو بالوكالة . كما أنه فرح في نفس الوقت لأن الملازم أشرف كان مدربه في مدارس الرتباء وهو يعرفه جيداً .

« ١١ »

كان الملازم أشرف من عائلة برجوازية صغيرة والده كان ضابطاً كبيراً في الشرطة ، وكان أعرج قليلاً لأنه أصيب بطلقة في احدى المشاغبات من مجهول ولكنها لم تكن لتؤثر عليه . والملازم اشرف مدلّلٌ في بيته . أمه تتكلم معه كل مساء كان يأخذ الخط دون تردد ، عندما يصرخ عامل الهاتف سيدي : الوالدة على التلفون . . ومع ذلك كان رجلاً شجاعاً وإن كانت التجارب لم تصقله بعد . إضافة إلى أنه كان متحرراً رغم أنه يكره الأحزاب كثيراً وينبه دائماً إياكم والحزبية في الجيش ، وكان على وفاق كبير مع قادة الفصائل وخاصة مع المرشح أحمد .

عندما جمع السرية لأول مرة قدم له المرشح أحمد السرية قائلاً :

ـ السرية جاهزة سيدي الملازم . وبدأ يمر أمام كل فصيلة . عندما وقع بصره على العريف محمد ابتسم له وهز برأسه وكانت هزته تلك لافتة لانتباه عناصر السرية وعيونهم التي تراقب حركات القائد الجديد ، كما أنها لم تلق الارتياح لدى رقيب أول السرية ، ولا العريف زيد أيضاً ، ولم يفهم المساعد حسين ذلك ، ولكن بعد أن سار الملازم باتجاه الخيمة وأعطى المرشح أمراً بالاستراحة قال العريف محمد :

ـ كان الملازم أشرف مدرباً لي في مدارس الرتباء .

والتف حوله عدد من ضباط الصف يرغبون بمزيد من المعلومات عنه وعن

طباعه ، فأكد العريف محمد انه رجل طيب وشجاع . وان كانت تنقصه الحكمة . لانه مغرور برتبته وعائلته وأبيه . وفي قليل من الزمن اتضح انه رجل عنيف عامل جميع أفراد السرية بقسوة ولكن كان مهذباً لا ينطق بكلمات نابية مع المجندين أو ضباط الصف .

بدأ المطر في أواخر ايلول وهطلت مطرة قوية أغرقت الأرض وجعلت السير خارج الطرق صعباً ، ومع ذلك استمر التدريب في الأرض الموحلة ، ووزعت على السرية المشمعات حيث تبدل الطقس تبدلاً مفاجئاً ، وانخفضت درجة الحرارة . وصار الضباب يغطي السفح بأكمله وخاصة الوديان صباحاً ، وأحياناً يهبط الضباب عند الغروب . وبدأ شهر تشرين ماطراً ، والتدريب صعب في أيام المطر فاقتصر على الأسلحة . وأعيدت ثانية المسدسات الرشاشة الايطالية ، حيث تم اصلاحها . وكذلك زودت السرية بقنابل دفاعية جديدة . وشدد الملازم على تنظيف الأسلحة وتنظيف السرية ، وغسل المجندين . وساعد بذلك جدول المياه الذي يمر داخل السرية والذي ينبع من عند مقام ديني على بعد مئات الأمتار جانب قرية العليقة وهو مقام الخضر أبو العباس . كان مكوناً من مجموعة من الحجارة على هيئة قبر كبير لف ببعض الخرق الخضراء . وإلى جانبه مكان يشعل فيه البخور ، وأشجار كبيرة ترتاح في ظلها السرية بعد كل درس رياضة . كما كانت الحيوانات ترتاد المكان للشرب أو القيلولة ظهراً وخاصة المواشي من الأبقار والأغنام وتنثر في ساحتها وحول هذا المقام الروث بكثافة ، وحول هذا المقام مجموعة من الصخور البازلتية صالحة ليجلس عليها المجندون . وكثيراً ما يختلط الرعاة بالمواشي والراعيات والجنود هناك .

استمر هذا العمل بشكل (روتيني) على نفس الوتيرة ، وكلما تقدم الزمن تزداد الأمطار وتنخفض درجة الحرارة ، ومع ذلك تبقى الحرارة عالية نسبياً إذا قيست بقمة هضبة الجولان .

استمر عمل قادة السرايا وسلوكهم أيضاً على نفس الوتيرة يتعشون يومياً في نادي ضباط الفوج في الكمرك ثم يعودون إلى سراياهم عند الساعة الحادية عشرة ، وكثيراً ماكانوا يسهرون حتى الصباح حيث انتشر بينهم لعب الورق ،

وتأتي كثيراً من بنات الهوى والمطربات والراقصات من العاصمة إلى نادي الضباط للغناء فيسهر الضباط معهن . وكانت تروى عنهن الحكايات الكثيرة بين الجنود همساً .

وفي الليل كانت تسمع أصوات الانفجارات على طول خط الجبهة وكذلك أصوات الرشاشات الثقيلة ، والقنابل المضيئة من الهاون بين حين وآخر . وكذلك الكشافات المعادية التي كانت تمسح القطاعات من غربي النهر . ولقد أصبح هذا الجو مألوفاً فلم يعد يأبه به أحد . وكثرت المواشي التي تقتل يومياً بفعل الألغام أو قذائف المدفعية . وعلى أثر ذلك كثرت الذئاب والضباع في المنطقة وخاصة في المناطق المشجرة والبازلتية . كانت تسمع ليلاً أصوات الذئاب ، وكذلك الثعالب ، وضجيج المعارك بين الذئاب والضباع حول حيوان نفق حتى لو كان خنزيراً برياً فجره لغم . وأصبح الرعاة لا يذهبون افرادياً وكذلك المجندون إذ يجب أن يكون ألتحرك على شكل جماعات . ورويت قصص كثيرة عن الذئاب، وكذلك قصص عن الضباع التي تسكن في هذه الهضبات . كما يوجد في وادي السمك المعقد بعض الغزلان البرية .

دخل شهر تشرين أول من بدايته ماطراً ، ولكنه مع ذلك كان ما يزال دافئاً وخاصة في النهار . كان يتردد بين الحين والآخر الجندي نويصر على السرية . وصل آخر الشهر لقبض راتبه ، فاستقبله رقيب أول السرية وبادره بلؤم :

ـ ماذا تعمل يا نويصر في قرية جرابا ـ كذا . . مع البنات ؟!

فجأجاب نويصر :

ـ أنا لاأفعل ذلك بل أنت من يسكر في بيت أم خليل . يا حضرة الرقيب أول .

ورد عليه الرقيب بأنه وقح وقليل الانضباط .

وأردف الرقيب اول : بسيطة . وعندئذ تدخل المساعد أول حسين حاسماً الموقف بأن قال :

ـ خـذ راتبك يا نويصر وانصرف ، ومع ذلك لم يأبه لكلام الرقيب أول

فأخذ راتبه وذهب يشرب الشاي ، ومر على مكتب المرشح احمد الذي يجد فيه نصيراً له ، وكذلك بالعريف محمد .

وحاول العريف زيد أن يتهكم عليه ، ولكن الرقيب خمسان أدخله إلى خيمته وأخذ يحدثه حديثاً ودياً وهم يشربون الشاي أثناء دفع الراتب للجنود .

وصلت في بداية شهر تشرين والدة الملازم أشرف ، ومعها فتاة جميلة وقد ألقت نظرة على الخيام والمجندين . بدا أنها سيدة محترمة ، بينما الفتاة دخلت الى خيمة الملازم اشرف ، وتردد أنها اخته وآخرون قالوا : لا بل خطيبته . لكن السيدة هي أمه بالتأكيد . وعلى كل حال فقائد السرية محط أنظار السرية في كل حركة يقوم بها .

ذهبوا جميعاً في سيارة خاصة ، ذهبوا الى نادي الضباط ، ولكن بعض المجندين المتزوجين حاول استغلال وجودها فأعطوها رسائل مكتوبة لحل مشاكلهم والأغلب من أجل اجازات طويلة لزيارة زوجاتهم وخاصة في المناطق البعيدة . ولقد نجحوا في ذلك فحصلوا على اجازات طويلة بعد مغادرتها السرية .

كانت العاصمة مثل البركان ، مظاهرات ضد مشروع ايزنهاور والأحلاف ، مظاهرات لدعم الثورة في مصر ، مظاهرات ومناقشات حامية في البرلمان من أجل تطوير القوات المسلحة وتطوير الأسلحة . ومحاسبة الذين اتوا بالأسلحة الفاسدة . كل هذه الأفكار دائرة وسط أفراد الشعب المتعطش للحرية ، والذي صدم بعد الاستقلال مباشرة بمشكلة فلسطين واتفاقيات متلاحقة وتآمر مستمر على استقلال الوطن .

اجتازت السرية الأسبوع الأول من شهر تشرين ، وقد هدأت الجبهة على طولها إلا من قليل من الانفجارات التي تسببها المواشي أو الخنازير البرية في حقول الألغام بين الطرفين .

وتوقفت أيضاً السقاية في سهل الحولة ومنطقة بانياس فارتفعت مياه النهر ، عالياً ، ونشط الرعاة في هذا الهدوء في منطقة وقف اطلاق النار واصبحوا يرعون في مناطق محرمة لتوفر الرعي فيها . وفي هذه الفترة الهادئة كان

العدو يرصد حركة قادة السرايا ، ونشطت الجاسوسية كثيراً في منطقة الجبهة . وتبدل الطقس وهطلت الأمطار ليلاً يومياً تقريباً .

وكان هناك اسبوع الجزائر . فتحدث العريف محمد عن ثورة الجزائر وتبرع للثورة براتب أول شهر عندما يترفع الى رتبة رقيب مجند .

كانت الشمس باهتة عصر ذلك اليوم تظهر وتختفي بين الغيوم الماطرة التي تغطي جبال الجليل . والسحب الداكنة التي تجتاح الهضبة صاعدة والمطر ينهمر غزيراً عند الغروب . وفي هذا الجو العاصف ، زحفت العتمة على الهضبة واختفى ضوء القمر نهائياً خلف السحب . ذهب الضباط الى النادي في الكمرك كالعادة . كانت غربان تنعق عند الغروب متجهة الى شجيرات الخضر أبو العباس لتنام عليها ، صوت ذئاب تعوي من جهة الغرب ، ثم ساد سكون شامل ما عدا صوت المطر الذي يقرع على الخيمة الفردية التي يأوي إليها العريف محمد مع الرقيب خمسان كان العريف محمد يقرأ جريدة البعث بعد أن دار بينهما حديث طويل عن ثورة الجزائر . وفجأة دق بوق الانذار وصاح المساعد أول حسين :

ـ غارة . . غارة . هيا إلى السلاح . . غارة .

لقد استعاد العريف محمد بذاكرته هذه الكلمة قبل عشر سنوات في قريته عندما صاح العسس غارة ذئاب .

قبل عشر سنوات وفي يوم من أيام الربيع . في تلك الليلة . صاح العسس : الذئاب . . الذئاب . . غارة ذئاب . . غارة ذئاب .

كان صراخاً مقلوباً فقام محمد من مكانه مرعوباً خائفاً . كان من عادة الذئاب أن تهاجم قطعان الغنم في الليل بمجموعات قليلة لا تتعدى اثنين أو ثلاثة . وكان راعي القطيع وكلابه يتكفلون بصدها ومواجهتها دون الحاجة إلى الاستغاثة وطلب المعونة . وكان على الأغلب يفلح بذلك دون أن يثير أية جلبة أو ضجة ، لأنه كان أمراً يتكرر كل يوم وقد اعتاد عليه الرعاة والفلاحون . لكن فيما يبدو أن غارة الذئاب هذه ، كانت أقوى من سابقاتها ، وان عدد الذئاب كان كبيراً لاشك . وبالفعل فقد كانت الأمور تجري هكذا . فلم يعد

يسمع سوى صراخ الرعيان والفلاحين من كل جانب . ورجال القرية يتراكضون في كل صوب وهم يصرخون :

- عودي . . عودي . .

كانوا يؤلبون كلابهم لتواجه الذئاب وتطردها . وعلى حين غرة دوت في الفضاء أصوات طلقات نارية جاءت من بندقية العسس ، ثم اطلاق نار من عدة اتجاهات من قبل الرعاة . وسرعان ما لحقته كلاب القرية . متتبعة مصادر الصوت ، بينما انقسم الفلاحون إلى مجموعات انتشرت باتجاه المراعي التي تفرقت في الحقول ، وبقي قسم منهم حول القرية كطوق للدفاع عنها فيما إذا هاجمت الذئاب البيوت .

كان صراخ الفلاحين يأتي من كل ناحية لاخافة الذئاب . فبعضهم يضربون الحجارة على بعضها ، وآخرون يقرعون على التنك بحجارة أو عصي . العسس يرمح على فرسه في كل مكان . وهو يطلق العيارات النارية في الفضاء لأنه لم يكن يرى الذئاب ولم يستطع أن يفرقها عن الكلاب ، التي تراكضت وتفرقت في جميع الاتجاهات مذعورة ، والكلاب أضاعت أعداءها في ذلك الضجيج وتلك البلبلة . حتى أن الأطفال شاركوا في اثارة الجلبة ، وساهموا في تجميع الاغنام الهاربة ورص صفوفها لتسهيل حمايتها من الذئاب . لقد انتشر الهرج والمرج في القرية وحولها ، مما زاد حركة المواشي المذعورة ، وحتى الخيول والبغال المربوطة جفلت وخرجت من دور أصحابها ، وفرت الأبقار هاربة فلحقها أصحابها وأعادوها الى الدور ومكثوا إلى جوارها ، فهي الثروة الوحيدة التي يملكونها وخسارتها تعني بالنسبة لهم مصيبة وفجيعة . نادته أمه التي وقفت عند عتبة باب الدار وبيدها عصا وقال له :

- هيا ساعدني يا بني بادخال النعجات . وكانت تلك النعجات هي الطلائع الأولى التي عادت إلى القرية . ولم تكن الاسرة تملك اغناماً بينها . لكن الأم ، مثلها مثل كل القرويين الطيبين اعتبرت أن المصيبة هي مصيبة الجميع وأن وقوف القرويين إلى جوار بعضهم في وقت الشدائد أمر واجب . ولذلك فقد نهرت ابنها مرة أخرى وصرخت :

ـ نقدم يا ولدي . عليك أن تفعل شيئاً .

وفجأة صرخت صرخة عالية :

ـ مر ذئب من هنا . اضربه يابني أسرع .

كان محمد يحمل حجراً بيد وعصا بالأخرى . وبكل ما أوتي من قوة قذف الحجر . ولكم كانت دهشته شديدة حين أصابت الحجر الذئب في رأسه فارتمى يتضور ألماً . تقدم نحوه وهو يعوي هارباً ، وتعاظمت دهشته إلى أقصى حد حين تبدى له وهو يتقدم منه بخوف ، انه كان كلب الجيران وليس ذئباً . . وفيما بعد قالت له أمه إنها من شدة رعبها وشدة الظلام والجلبة لم تستطع أن تميز بين الذئب والكلب .

وطبعاً لم يكن ذلك الكلب هو الضحية الوحيدة في تلك الليلة ، فبعد أن انتهت الغارة التي شنتها الذئاب وظهرت نجمة الصبح ، وامتد ضياء الفجر ، خرج القرويون يبحثون عن خسائرهم . كانت قد تهشمت ثلاث خراف ، وضربت أربع نعاج في أعناقها وأضلاعها ، كما افترست ثلاثة حملان صغيرة أخرى . حتى أن كلاب القرية لم تسلم من الغارة . فقد جرح كلب الجيران بضربته بالحجر . كما تهشم كلب حمد ونفق أثناء محاولته التصدي للذئاب ، بينما لم يشاهد أي ذئب مقتول إلا في اليوم التالي حينما وجدت جثة ذئب فوق سكة الحديد شمالي القرية .

وبعد أن جمع الفلاحون أشلاء خرافهم وجمعوا قطعانهم ، عادوا الى القرية ينظمونها ويهدئون من حركتها . وهم يتذكرون ماحدث خلال الساعة العصيبة المنصرفة .

كانت أحاديث الفلاحين تدور حول العراك الرهيب الذي نشب بين الذئاب والكلاب ، وحول طرق صيد الذئاب ورد غاراتها في المرات القادمة . فتلك كما رووا كانت أول حادثة من نوعها تتعرض لها القرية ، وفسروا وحشية الذئاب وجرأتها في اقتحام القطعان وهي الى جوار القرية بهذه الاعداد الكثيرة ، بأنها كانت جائعة إلى حد ، يمكن أن تخاطر بحياتها من أجل الطعام . وتحدثوا عن الخراف التي أصابها الخوف والهلع ولم يكن لديها من وسيلة للدفاع عن

نفسها إلا رص صفوفها حيناً وهروبها العفوي حيناً آخر .

لقد تحدثوا بسخرية واضحة عن حركة العسس وتجواله المرتبك الذي لم تكن له جدوى تذكر . كما تحدثوا عن جرأة كلابهم وكفاحها ومصارعتها للذئاب وفاء لأصحابها ، إلى درجة أن بعضها ضحى بحياته من أجل سلامة القطعان . حتى أن كلاب الغجر الذين يعيشون في مضاربهم على مقربة من القرية حين اشتمت رائحة الذئاب ، وقفت الى جانب كلاب القرية وساهمت بمناوشتها ومطاردتها .

كانت الأحاديث تدور بجدية واهتمام حيناً ، وحيناً آخر تأخذ طابع السخرية والتهكم ، مما كان يثير بين الفينة والفينة موجة من الضحك البريء بين تجمعات الفلاحين الذين جلسوا فوق الدكك وأمام البيوت . ولم يعكر صفو تلك الأحاديث شيء آخر في تلك اللحظات ، إلا صراخ انبثق من دار عيوش التي خرجت من بيتها وهي تصرخ :

ـ الدجاج . الدجاج . لقد أكلت الثعالب دجاجاتنا .

وهرعت الفلاحات كل إلى قنها متوجسة . ثم ساد هرج ومرج جديدان ، عرف محمد سره للتو ، وهو أن أكثر الاقنان كانت قد اقتحمت من قبل الثعالب في غمرة غارة الذئاب ، ولم يسلم قن واحد من خسارة دجاجة أو دجاجتين . وكانت دماؤها تبدأ من أرض القن ثم تختفي على بعد خطوات منه .

في تلك الأثناء كان محمد مرهقاً لأنه لم ينم ، وركض مثله مثل غيره لمواجهة الذئاب ، إلا أنه ما يزال حتى هذه اللحظة وقد مر على تلك الليلة أكثر من خمسة عشر عاماً حائراً في أنه أثناء نومه ذاك لم ير في حلمه ذئاباً وهي تفترس الأغنام . إنما رأى الثعالب وهي تتسلل إلى الأقنان فتقبض على الدجاج من أعناقه وتنسل بها لتلتهمها في جدار القرية .

قال محمد في نفسه وهو يتذكر تلك الغارة :

ـ «آه إذن أغار العدو على القطاع الأوسط من الجبهة» الأخبار متلاحقة ـ خلال دقائق كانت السرية جاهزة للتحرك . وأعطى الأمر بلبس الخفافات لأن للأحذية أصواتاً . هكذا أمر المساعد أول حسين . ولكن أين قائد السرية ؟

سأل ولم يجب أحد . وأردف المرشح أحمد : هيا . وبدأ تحرك الفصيلة الثانية سيراً على الأقدام بل جرياً في الظلمة والجو الماطر . الفصيلة الثانية متأهبة لمطاردة العدو على محور طريق ، الكمرك والموقع جـ ١١ هذه أول مهمة تتلقاها السرية .

كان المساعد أول حسين يصرخ بأعلى صوته ـ يالله ياناس ـ يالله ياجماعة العدو . العدو . غارة . هيا أسرعوا ـ بوق الانذار يتوالى دقه لا يتوقف . استيقظت قرية العليقة كلها . خاف أهلها من قذائف المدفعية ، المدفعية تدوي قذائفها على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا ، والرشاشات الثقيلة وقذائف الهاون تتبادل القصف المستمر ، الرشاشات تسمع بدون توقف من كلا الطرفين .

«ياالهي غارة حقيقية وجنود السرية الأولى مساكين لم يمض عليهم في الجبهة أكثر من شهرين وتعرضوا لهذه الغارة الغادرة» .

تفقد المساعد ١ حسين الفصيلة الثانية بسرعة هائلة ، أهم شيء السلاح والذخيرة ، والقنابل اليدوية ، كان يصرخ بالجنود لا تنسوا قنابلكم الهجومية والدفاعية ، والوحدة النارية يجب أن تكون كاملة . عندما اقترب منه العريف محمد وألقى عليه ضوء من مصباحه اليدوي ، كان وجهه متجهماً والمطر أغرقه بكامله . لم يكن يرتدي مشمعاً يقيه المطر . خفض صوته قائلاً : عريف محمد ، غارة على الطريق ، لا تقل لأحد ، لا أحد يعرف الحقيقة من قتل ومن أسر من السرية الأولى . هيا أسرع حضّر جماعتك بسرعة . المهمة للفصيلة الثانية بمطاردة العدو . عندئذ وصل الرقيب خمسان وكذلك الرقيب وهدان . وصاح هيا إلى الطريق العام إلى الكمرك وهناك ننتظر الأوامر الجديدة . ثم مضى . كان نشيطاً ، يتحدث بالشركسية لنفسه كما لو أنه كان يكيل الشتائم ولا أحد يعر ف ما يتحدث به «كان شجاعاً اختبرته التجارب ، كان ذلك حول الساعة الثانية عشرةليلاً أو الواحدة تقريباً من صباح ٢٢/١٠/١٩٥٥ عندما دق بوق الانذار ، وتحركت الفصيلة بعد عشر دقائق على صوت هذا البوق اللعين .

في الطريق المعبّدة باتجاه الكمرك المطر ينهمر غزيراً مرت سيارة دودج

يركبها ضابط ، يبدو أنه كان يسهر مع الضباط وهو من وحدة أخرى في مدينة القنيطرة وكاد مرور السيارة في الظلمة يؤدي إلى كارثة فقد كاد الرقيب خمسان أن يطلق عليها النار لأنه يسير على ضوء حربي وبدون مقدمات . لكن في اللحظة الأخيرة أدرك الرقيب أن الضابط من قيادة الجبهة وكان يسهر عند رفاقه . لكن الرقيب خمسان شتم السائق وأراد السائق أن يرد عليه لكن الموقف ، جعل الضابط يصرخ بسائقه قائلاً :

ـ امض ؟

وصلوا الكمرك واستغرق الطريق أكثر من ساعة مسير في الليل . وعندما اقتربوا من الكمرك استوقفتهم الحراسة المشددة حول قيادة الفوج . وتقدم المساعد أول حسين من الخفير . كانت الفصيلة واقفة على يسار الطريق وقد ابتعدت الجماعات من بعضها قليلاً خوفاً من قذيفة مدفعية . استغرق التعارف عدة ثوان لكن المساعد أو ل حسين ذهب مع مساعد آخر من حراسة الفوج واستقبله رئيس أركان الفوج النقيب ، الذي بادره هيا بسرعة لمقاومة العدو . على يسار طريق الكمرك ومن هناك باتجاه المخاضة شمال جـ ١١ .

ثم تابع : اننا لا نعرف شيئاً عن القوة المهاجمة ، لكن يبدو أن العدو دفع بقوة كبيرة في عدة أماكن على طول الطريق حتى قرية علمين جرابا . فصيلتكم في الأمام وستتبعكم لاحقاً بقية الفصائل من سريتكم .

عاد المساعد أول حسين وأعطى الأمر إلى أمار الحضائر لتأخذ الفصيلة الأرض على يسار الطريق . كانت الأحجار البازلتية تعيق التحرك وشجيرات برية كثيرة وكان لا بد من استطلاع الأرض في كل خطوة تخطوها السرية بالاضافة الى أن الأمر الذي أعطاه المساعد أول حسين حول العدو كان غير واضح اكتفى بالقول بمطاردة العدو باتجاه جـ ١١ على يسار الطريق ، حضيرة ثانية إلى الأمام ، حضيرة ثالثة على اليسار وفي الخلف حضيرة أولى ، الجولة كمروحة ، العدو في كل مكان . كلمة العدو في كل مكان قالها المساعد أول حسين . وهو غير واثق من المهمة التي سينفذها . لأن رئيس أركان الفوج أعطاه مهمة غير واضحة أيضاً . طاردوا العدو حتى جـ ١١ كلمة العدو غير معروفة ،

كلمات عائمة لكن المساعد أول حسين كان شجاعاً . اختبرته التجارب في الحرب العالمية الثانية . كان مع فيشي ثم مع ديغول ثم مع فيشي ، ثم ضد الاثنين والتحق بالجيش الوطني . ولكن أين العدو ، بالاضافة الى انه لا يملك إلا الرشاش الايطالي الغير واثق منه . كما أنه غير واثق من القنابل اليدوية التي مع الفصيلة وماذا يعمل ؟ الأمر هو الأمر .

سأل قائد السرية الملازم أشرف ، قيل له إنه ذهب مع جماعة لمطاردة العدو ، وهو قبلكم . اطلاق النار مسموع على طول الجبهة ، كما يسمع اطلاق النار من قبل رشاشات غربي جرابا عند مخفر تل احمر . وبين حين وآخر كان يسمع قصف للهاون مستمر كيفيا من جهة العدو ومن مواقع الانفجارات التي تدوي في الليل الماطر .

تابع المساعد أول حسين المهمة، لأن الأمر هو الأمر ، وقاد العريف محمد حضيرته في المقدمة ونشر الجوالة أمام الحضيرة . لا يمكن الزحف ليلاً في هذه الأرض بسبب الصخور والسلاسل وأشجار السنديان الصغيرة والوحول . بسبب المطر الذي أغرق الأرض .

كانت كل حركة تسمع من قبل الجوالة تدفعهم إلى الانبطاح على الأرض وعلى آمر الحضيرة العريف محمد أن يتأكد بنفسه ، وأكثر من مرة هرب خنزير بري ، أو ضبع من أمام الجوالة . يمنع اطلاق النار إلا بأمر العريف أو في حالة الدفاع عن النفس . ان أعصاب الجنود مشدودة ومتوترة ورغم كل هذا كانوا متحمسين للحاق بالعدو ، ولكن المسافة كبيرة ومطاردة عدو غير معلوم وفي ليلة ممطرة وأرض موحلة وأسلحة غير موثوق بها وأخرى لا تعمل ، عملية معقدة جداً .

أخذت المسافة أكثر من ساعتين في هذه الأرض الموحلة حتى جنوب شرق قرية علمين ، ثم اجتازت السرية الطريق عرضا باتجاه جـ ١١ واستمر المسير حتى طلوع الفجر . احمر الأفق من الشرق، لم تظهر نجمة الصبح حيث حجبتها الغيوم الداكنة الماطرة . واصبح من السهل على أفراد السرية أن يشاهدوا بعضهم بعضاً على بعد أمتار ، وازدادت سرعة الفصيلة ، لكن الكشافات التي

كانت تمسح المنطقة من الساعة الثانية ليلاً حتى الساعة الرابعة كانت تدفع بالسرية الى الحذر . وهناك كان كشاف مركز على المخاضة شمال جـ ١١ ، توقف نهائياً عندما احمر الأفق وبقي كشاف واحد يراقب المخاضة بين حين وآخر ، كما أن قذائف الهاون لم تنقطع ، وكذلك القذائف المضيئة ، عندما كانت القذيفة المضيئة تشق الظلام كان الجنود ينبطحون على الأرض .

كان الجنود مبللين بالماء حتى ثيابهم الداخلية كانت قد تشربت بالماء ويمكن عصرها ، ولكن الوقت قصير يجب أن تصل السرية الى المخاضة . وكان المساعد أول حسين لا يريد التحرك عشوائياً حتى لا تقع الفصيلة في كمين معاد وبعد كل مئة متر تخطوها السرية كان الجوالة يتوقفون وتلحق بهم بقية الحضائر وهكذا مضى الوقت .

يبدو أن العدو اجتاز المخاضة قبل هذا الوقت ، لكن السرية تابعت سيرها واصبحت الحركة أيسر ، وخاصة عندما انجلت العتمة تقريباً واصبحت الخنادق مرئية . وسارت فيها السرية ، ولكن يجب الحذر قد يكون العدو قد ترك بعض الألغام في الخنادق المهجورة .

وها قد طلع الفجر لكن الغيوم الداكنة والماطرة تغطي كل الأرض ، واصبحت الرؤية صعبة . وكان المخفر خالياً من الجنود فلم يكن متوقعاً في مثل هذه الليلة الماطرة أن يغامر العدو بأي عمل عسكري ولذلك دمّر الرشاش بفعل قذائف مدفعية تسديد مباشر من قبل العدو . اللاسلكي الذي يحمله قائد الفصيلة لم يشتغل بسبب المياه التي اصابت بطاريته أو بسبب انتهاء مدتها حيث لم يستخدم منذ شهر أي منذ وصول السرية الى قرية العليقة .

توقفت الفصيلة في الخنادق منتشرة . كانت الحضيرة الثانية في الامام كما نصت تعليمات القتال التي اصدرها المساعد أول حسين . لقد حزن المساعد أول حسين وحاول كثيراً التكلم من جهاز اللاسلكي دون فائدة .

ومن بعيد ظهر جندي من الخلف فاشرأبت العيون باتجاهه ، وتحفز الرماة تحسباً فقد يكون عدواً ، ولكن الجندي كان يصرخ بشكل فوضوي ويشير بيده عودوا الى علمين ، وصل الى عند المساعد وعرف انه عريف من الفصيلة الأولى

أرسل حتى يعطي الأمر بالعودة ، وقال لقد توقفت السرية في قرية علمين . وبدأ تراجع الفصيلة بخطوات اسرع بسبب الرؤية ، فالغيوم المنخفضة حجبت الرؤية على بعد أمتار ولقد حاول العدو ان يستفيد من هذا الطقس مثلما يستفيد منه الصديق . وقد توقفت قذائف الهاون نهائياً ، وكذلك الرشاشات ، وصلت الفصيلة إلى علمين بجانب التل ، وساد صمت ثقيل على طول خط الجبهة ولم يعد يسمع إلا صوت غربان تحوم فوق شجيرات السنديان . واصوات ذئاب من بعيد ، كان المطر غزيراً ، سيارتان احداهما محروقة ، والثانية جانحة الى جانب الطريق ، كان الدخان يتصاعد منها . والمطر يغسلهما ، كانت السيارتان محروستين من قبل الفصيلة الأولى ومساعد أول من قبل قيادة الفوج مع جماعة مجندين .

كان المرشح أحمد متجهماً ، وعيناه حمراوان وقد اغرورقتا بالدموع ، سأل المساعد أول حسين عن قائد السرية ، ولكن المرشح احمد لم يجبه ، وأردف المرشح قائد الفصيلة الثالثة : ماذا نعمل الآن ؟ـ لقد قتل ، قتل ، قتل . قال العريف محمد : من الذي قتل ؟

ورد المرشح أحمد : نعم قتل قائد السرية الثانية الملازم أشرف ، وأسر الملازم ياسر قائد السرية الأولى ، انها مجزرة ماذا نعمل ؟ القنابل اليدوية التي مع السرية فاسدة ، وجهاز اللاسلكي معطل لا يعمل ، والجنود مبللون بالمطر شبه حفاة خلعوا من أرجلهم أحذيتهم لكثرة الأمطار والوحل الذي علق بها .

كان منظراً مأساوياً ، عشرات الطلقات ثقبت جسد الملازم أشرف وهو لا يزال يقبض على مسدسه وقد هوى على الأرض لم يكن داخل السيارة كان واقفاً على رفرافها ، عريف آخر أصيب . كان معه المسدس الرشاش الايطالي الذي لا يعمل . وجندي آخر أصيب وسقط ميتاً ، ثلاثة قتلوا واشتعلت النار بالسيارة ولكن لكثرةالأمطار كانت تعس عساً اثناءاشتعالها وكذلك السيارةالأخرى التي أسر منها الملازم ياسر وفر السائق وقتل المرافق بجانب هذا التل الذي سمي بتل أشرف فيما بعد . كيف حصل ذلك ؟ قيادة الفوج اخبرت قيادة الجبهة ليلاً ، وفي الصباح كانت عربة للبوليس الدولي فيها مراقبون دوليون كانوا واقفين

ينظرون الى المجزرة .

قال العريف محمد : هناك في الداخل خونة يرسلون اسلحة فاسدة ويقولون حرروا فلسطين . وصرخ به المرشح احمد قائلاً : محمد ولا كلمة .

كان كل شيء محزناً ، جنود نازفون ، اسلحة فاسدة ، أمتعة مهترئة ، حتى الطعام لم يكن بحال أفضل . أتوا بشراشف بيضاء ونشروها على جثث القتلى ، وراح البوليس الدولي - هذه المهزلة المتكررة - يكتبون تقاريرهم . وسمع صوت قصف جديد واخذت السرية مواقعها بقرب التل ، على يسار الطريق . ووزع المرشح احمد المهام على السرية . ثم ذهب افراد البوليس الدولي وحملوا الجثث في عربة اسعاف متجهين الى العاصمة .

لم يتوقف المطر طوال ذلك اليوم وان خف قليلا عند الظهر ، ثم ازداد مساء ، لم تخرج مواشي القرى للرعي بسبب الأمطار ، كما ان الفلاحين لاذوا في بيوتهم منتظرين ماذا حدث بعد هذه الليلة المشؤومة . كان قائد الفوج في اجازة . عاد صباحاً ، دون أن يعرف شيئاً عما يدور في الأركان ، كان كل شيء غامضاً . طلاب الجامعة في العاصمة مضربون ضد مشروع ايزنهاور . الغربان تحوم فوق شجيرات الخضر أبو العباس ، بعض الأغنام في جدار القرى تأكل من الشجيرات الصغيرة .

شيع في العاصمة جثمان الملازم أشرف ، سار في جنازته الالاف ، ودفن في مقبرة الشهداء في الدحداح والناس يقدمون التعازي لأهله يذهبون ويجيئون . ربما شارك في التعزية أولئك السماسرة والوسطاء ، الذين اشتروا الأسلحة الفاسدة .

كان الملازم أشرف يطارد العدو . يصرخ تعيش فلسطين . فلسطين عربية . كان يحمل مسدساً رشاشاً لا يعرف أنه فاسد ، أطلق منه ثلاث طلقات ثم توقف ، قتل وهو يصرخ فلسطين عربية . مات نتيجة لوفائه تجاه صديقه الملازم ياسر ، مندفعاً بحماسة مطارداً العدو خلفه ، مات وهو يصرخ طاردوا العدو . الوسطاء ذهبوا إلى أهله يعزون ، يتحدثون عن مناقبه ، يتحدثون عن فلسطين وعودة النازحين . ويخرجون الى مكاتبهم مع مسؤوليهم يتحاسبون عن

ارباحهم التي جنوها من الأسلحة الفاسدة . كان كل شيء غامضاً ، رهيباً ، كل شيء ينطوي على لعبة خطرة . هذا ما يسببه الوسطاء والسماسرة بحق الشعب ، وكل ذلك كان منشوراً بجرائد العاصمة في غد اليوم الثاني .

مسكينة والدته ، كانت سيدة محترمة وكذلك والده ، رآهما العريف محمد من بعيد مرة وابتسما له قبل أيام ، لم يعرف كيف يواسي والدته ولكن لابد من تقديم زهرة لقبره . كانت المأساة ترتسم في ذاكرته ، ويردد لابد من الانتصار ولكنه عريف ماذا بوسعه أن يفعل ، واستمر الصمت الثقيل يلف الجولان وتقطعه بين حين وآخر قذائف المدفعية . التي تجفل منها أسراب الحمام من قرى جرابا وعين شمس والعليقة . كما تجفل منها الحيوانات المفترسة في الهضبة الجميلة . ويستمر المطر .

* * *

((١٢))

صحى ذلك اليوم كان المطر لا يزال يهطل بغزارة ، والأرض موحلة ، وثياب الجنود وحتى سراويلهم كانت مبللة بالماء وبالامكان عصرها لكثرة ما أصابها . طوال الليلة الماضية لم يرقدوا ولا لحظة واحدة . أعصابهم مشدودة ، وحتى ذلك الوقت لم يعرفوا إلا أنهم يطاردون العدو ، شبه حفاة بأسلحة فاسدة يملكون شيئاً واحداً يدفعهم لذلك هو ايمانهم بالوطن والدفاع عنه .

كان المنظر لا يفارق مخيلاتهم ، سيارة محروقة ، سيارة مجنحة ، قتلى ، جنود السرية منتشرون إلى جانب التل ، الفصيلة الأولى والثالثة قد اخذتا مواقعهما في خربة علمين . وهي قرية صغيرة يوجد فيها عدد قليل من عائلات البدو والرعاة يزرعون في هذا السهل الصغير شرقي جـ ١١ بعض مقاطع من الذرة البيضاء . وتكثر فيها الخنازير التي تقتات من هذه المادة أحياناً .

كان المرشح أحمد يصدر الأوامر وقد بدا على وجهه حزن عميق ، واحمرت عيناه ، ومع ذلك كانت السرية بلباس الميدان الكامل ، تحمل اسلحتها الغير واثقة منها ماعدا الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ الذي ينظرون اليه بأنه أفضل سلاح ، ولحقت بالسرية عصر ذلك اليوم جماعة هاون دعماً لها .

كان العريف محمد ينظر إلى هذا المشهد المؤلم ويقف بجانب المساعد أول حسين الذي كان يكلم نفسه بالشركسية ويلوح بيده أسفاً على الملازم أشرف قائد السرية . ويردف : لا حول ولا قوة إلا بالله . مجندون مع العريف محمد طلبوا

أن يقوموا بغارة ليلية على تل أسود ولكنه صرخ فيهم قائلاً : هناك قيادة تخطط وتصدر الأوامر .

ورد العريف محمد بصوت منخفض : قيادة ؟ قيادة ؟ وخفض صوته قائلاً : لو كان هناك قيادة لما أغاروا علينا في هذه الليلة ، أسروا قائد السرية الأولى ، وقتلوا قائد السرية الثانية ويقول المرشح هناك قيادة تعطي الأوامر .

وأردف آخر : يجب أن ننتقم للملازم .

ورد عليه آخر : يجب أن ننتقم ماذا تعمل قيادة الجبهة ؟

وقال آخر : يلعبون بالقمار مع المومسات من يدري ؟ هات سيجارة دخنوا . آه .

العريف محمد آمر الحضيرة لا يدخن ، اكثر افراد السرية تأثراً ، كان الملازم أشرف يحترمه ولذلك فقد كان متحمساً للقيام بغارة فورية كرد على هذه الغارة .

انتفض العريف محمد قائلاً : ماذا يعمل النقيب رئيس أركان الفوج ؟ أتى وعاد ، يبدو أنه أعطى الأوامر ، لننتظر لقد سحبوا السيارات بعد أن وصل فصيل من الهندسة وفتش الأرض عن الألغام وكشف عن السيارتين وسحبوهما .

وهذا كل شيء إلا المطر ، وأصوات بعض الغربان التي كانت تحوم بين حين وآخر فوق شجيرات السنديان في تلك الخربة .

كان منظراً حزيناً للسرية كل افرادها كانوا مستعدين للقيام بغارة ، ولو قتلوا جميعاً ، كان يحمسهم العريف محمد ، علينا أن نرد الغارة ، علينا أن نثأر للوطن لكرامتنا ، قتلوا قائد السرية وها نحن نتفرج ، ولكن يبدو أن الأوامر الحازمة صدرت من قيادة الفوج بتمركز السرية في تلك النقطة واخذ موقع دفاعي وتنظيم دوريات وكمائن من جـ ١١ الى جـ ١٨ . وفي هذا الجو العاصف حددت مواقع الفصائل ونظمت الكمائن والدوريات ، وحراسة النقطة الدفاعية عند قرية علمين .

لم يتوقف المطر ، ولم يصل أي طعام للجنود حتى ولا الشاي ، رقيب أول السرية ذهب مع القتلى الى قيادة الجبهة . كما أن المراسلين الذين يأتون بالطعام

من قيادة الفوج لم يأتوا أيضاً . الأحذية لازالت في قرية العليقة وكذلك الخيام ، نظم المرشح احمد الذي يقود السرية الان مفرزة من كل فصيلة ارسلت لخلع الخيام واحضارها . وطلبت سيارة من الفوج لنقل عتاد السرية الى قرية علمين فذهبوا وغادروا عند الغروب .

ورغم هذه الفوضى فقد كان افراد السرية صابرين على أمل واحد ، وهو الانتقام من العدو .

الغيوم الداكنة التي تمر موجات موجات من المطر تلقي بالنفس الكآبة ، وبين حين وآخر تلقي قذائف من هاون متوسط تنفجر على بعد مئات من الأمتار جنوب غرب السرية . والجنود يحسنون من وضع الخنادق المحفورة سابقاً والتي امتلأت بروث مواشي القرية التي تسير فيها .

اختبأت الأفاعي والعقارب من غزارة الأمطار التي هطلت طوال الليل والنهار ، حتى مواشي الرعاة لم تبتعد كثيراً عن دور اصحابها .

كان العريف محمد يتحدث مع الرقيب خمسان عن مأساة اليوم وماذا بوسعهم أن يعملوا ؟ لكن الرقيب خمسان قال هناك قيادة وضباط ونحن ننفذ الأوامر وبالاضافة الى هذه المأساة سوف نعاقب بتهمة مخالفة الأوامر العسكرية ، نحن نعمل دفاعاً عن الوطن وفق الأوامر التي تصدر الينا . ويبدو أن الرقيب خمسان وقد أمضى ست سنوات في هذه السرية مر أمامه شريط كبير من الذكريات فكان حماسه أقل من العريف محمد ، وقطع الرقيب خمسان الحديث قائلاً :

ـ ها قد عدنا ثانية قرب قرية جرابا وتنهد بعمق . لا نعرف اليوم ماذا حل بالجندي نويصر هل كان مع الملازم ياسر أم لا ؟ حتى الآن لا نعرف كيف دارت تلك المعركة الصغيرة ، ولكن يجب أن أعرف ماهو مصير الجندي نويصر . مسكينة غزالة . اذا أسر أو قتل ذلك الجندي قد تنتحر ؟ .

كان رقيب أول السرية يبكي عندما عاد مساء من القنيطرة ، ولكنه انقلب إلى أفعى عندما ذكر اسم نويصر أمامه . كان المطر يبلله ويتساقط من لحيته قطرات .

لازالت شعور المجندين في السرية قصيرة بعد حلاقتها في قرية عين شمس ، اثناء المعالجة . هناك مجندون جدد لم يطلقوا النار بعد ولم يتعلموا الرمي زجوا مباشرة في الدوريات والكمائن ، انهم خائفون ، يقرأ في عيونهم الخوف . يطمئنهم الجنود القدامى الذين اعتادوا على مثل هذا العمل ، عيونهم محمرة غائرة ، عندما تنفجر قنبلة الهاون المعادية ، يحاولون غرز أنفسهم في الخنادق كما انهم لم يستعملوا بعد البنادق التي كانت مشكلة بالنسبة اليهم ، وأثار هذا الموضوع العريف محمد مع المرشح احمد ، الذي أمر باخراج المجندين الجدد من الكمائن والدوريات بل وحسم هذا الموضوع بأن أعادهم إلى قرية العليقة ليجروا تدريباتهم على الرماية في اليوم الثاني ، كانوا فرحين في قرارة نفوسهم ، وإن كان منهم من يرغب بالبقاء قائلاً : نتعلم هنا .

قال المساعد أول حسين : لم نكد نخرج من منطقة جـ ١١ حتى عدنا إليها ثانية ، فموقع قرية جرابا افضل لنا ، في هذا الموقع يشاهدنا العدو بالعين المجردة ، ولا يمكن أن نعيش في الخنادق . كان يتكلم ونقاط من المطر تدلف من كمه عندما يتحرك ومن لحيته، كما أن وجهه ينم عن صرامة في الأمر ، وان كانت لغته مكسرة غير مفهومة .

لقد اسود الأفق من الشرق . ولجأت مواشي القرية الى دور اصحابها ، ثمة بعض الكلاب كانت مع الجنود تنتظر الغداء ولكن الطعام لم يأت . بعض الغربان تتجه إلى وادي السمك ، وشجيرات السنديان . ووزعت المهمات على الفصائل ، كان على الحضيرة الثانية بأمرة العريف محمد أن تشكل دورية الى ج١٨ ، ثم تشكل هناك كميناً حتى نهاية الليل ثم تشكل دورية بالعودة ، ولكن العشاء لم يأت وبعض الجنود طوال ذلك اليوم بلا طعام .

قال المساعد أول حسين : اعتبروا يوماً من شهر رمضان ، يوم صوم .

ورد عليه جندي أرمني : لكن المسيحيين لا يصومون يا سيدي .

وهز المساعد حسين برأسه قائلاً : سيكون لهم الثواب والأجر . صرخ : عريف محمد جاهز ؟

وأجاب العريف محمد : نعم الحضيرة جاهزة .

ج١٨ معروف لدى السرية فهو من قطاع السرية الأولى التي قلص عرض مهمتها ، ودخلت معها السرية الثانية . ثمانية جنود خمسة منهم اميون ، ترك من الحضيرة اثنان من المجندين الأغرار ، حاولا أن يذهبا في هذه المهمة ولكن المساعد حسين منعهما إلى أن يتدربا ويتعلما الرماية .

المسافة ليست بعيدة وإن كانت الحضيرة متعبة ، لم تنم بعد منذ الليلة الماضية ، أغلبهم حفاة ، لم تصل بعد أحذيتهم ، وخفافاتهم لا تصلح للعمل في هذه الأرض الموحلة ، حوالي ستمائة متر كان على الفصيلة أن تجتازها سيراً على الأقدام في هذا الخندق . ماذا عمل العدو في هذه الخنادق ، هل زرع الألغام لا احد يدري ؟ كل ما هنالك كانت تسير فيها بعض المواشي . وقال العريف محمد لو كان فيها ألغام لانفجرت ، هيا يا شباب بسرعة إلى موقع الكمين .

ذهب جندي واستطلع الموقع . وبعد أن دقق النظر صرخ : لا يوجد أحد . وصلت الحضيرة وأخذ الافراد مواقعهم . كانت صورة الملازم اشرف لا تفارق مخيلة العريف محمد ، البارحة مثل هذا الوقت كان يعطي الأوامر ويوزع المهمات نشيطا متحمسا . وبلحظة ، لحظة غدر انتهى . استشهد بسرعة وفاء لرفيقه ، أخذه الحماس لمطاردة العدو باسلحة فاسدة . لا حول ولا قوة إلا بالله .

العريف زيد كان يعلم الرمي على الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ في الأسفل ، بجانب النهر ، وعلى أمتار قليلة تجري المياه . أتت زخة من رشاش بعيد على البناء ، ولكن موقع الرشاش الذي اطلقت منه النيران كان بعيدا جدا لم يستطع أحد أن يحدد المسافة في هذا الطقس الرديء .

أحد المجندين كان حزينا جدا ومتألما ، وكان يتحدث همسا مع العريف محمد لعله يأخذ اذنا بعبور النهر وحرق المخفر المقابل . ولم يكن حماس العريف محمد اقل من حماسه ، ولكنه تردد في البداية ، قد يكون هناك كمين في المخفر المعادي ولكن حماس المجند قطع عليه تفكيره قائلا : اذا لم اجد شيئا ماذا أعمل . ورد العريف محمد : ضع في ذلك المخفر قنبلة يدوية بدون أن تفجرها

حتى يعرف أولئك الأوغاد أنه بمقدورنا الوصول إليهم .

كانت ترمي بين حين وآخر زخات من رشاشات على غير هدى وأحياناً يدوي انفجار قنبلة من هاون غير مركزة ، وكانت الكشافات تحاول جاهدة اختراق تلك الغيوم الداكنة الماطرة المنخفضة عبثا فلم تفلح ورغم كل هذا كان يسمع بين حين وآخر عواء بعض الذئاب . كانت ذئابا حقيقية تعوي وتتجمع لتهاجم بعض المواشي التي لم تعد إلى دور أصحابها في هذه الليلة السوداء .

لقد عبر المجندون تردد النهر، عبروه دون خوف . بسرعة لم يكن العريف محمد يتصورها . واعترض العريف زيد على ذلك ولكن الرجل عبر ولم يعد يسمع عنه شيئاً وغاب عن الأنظار وأعطى العريف محمد أمراً بعدم الرمي باتجاه براكة العدو ، المسافة كانت بعرض النهر فقط .

لقد عاد الجندي بعد عدة دقائق لم يجد أحداً في البراكة كانت خالية تماماً تستعمل نهاراً فقط . لقد ترك قنبلة يدوية فيها دون أن يفجرها تركهاوعاد . وجرى نقاش هامس حول هذا العمل .

تذكر العريف قبل شهر كيف كان الكمين قرب ج١١ والدورية ، وبيت «أبو خلف» في قرية جرابا ، تذكر الجندي نويصر ، وأبو خلف وغزالة ، وساد صمت طويل ، لم يسمع فيه إلا صوت الرياح وحفيف الأشجار على ضفتي النهر وصوت المطر يقرع الأرض أحياناً بقوة وأحياناً بهدوء .

كانت بومة تنعق شرقاً قرب قرية علمين . والسرية تتمركز هناك ، الجنود ملتصقون بعضهم ببعض بشكل دائري ، ومن الصعب اكتشاف موقعهم هذا . ومع ذلك كانت تدور بينهم احاديث هامسة . العريف زيد كان رغم كل هذه الصعوبات يتمنى لو أن الكمين في ج١١ قرب قرية جرابا . وتذكر العريف محمد تلك العجوز التي تنتظر وتنظر إلى الأفق البعيد ، متى يعود ابنها من غرب النهر ؟ تذكر الشيخ عبد الجليل وهو ينظر إلى الجليل الأعلى متى يعود إلى قريته ، كل هذه الصور مرت بذاكرته ولكن الأمور الآن مختلفة قائد السرية قتل ، وقائد سرية آخر أسر ومجندون آخرون قتلوا ، ماذا بوسع السرية أن تعمل . المرشح احمد عاد ثانية ليقود السرية ولكن هذه المرة قيادة الفوج لا تترك

السرية بدون قائد أصيل . جنود الحضيرة جميعهم جياع ، لم يأكلوا منذ أربع وعشرين ساعة ولم يشربوا شايا رغم رداءة الطقس ، ثيابهم مبللة . قسم منهم رغم الطقس المعتدل أخذوا يرتجفون من البرد لأن ثيابهم مبللة واصبحت تنقل لهم البرد بدل الدفء . واحذيتهم خفافات مملوءة بالماء ، قسم منهم خلعها ووضعها في مزودته وبقي حافياً حتى تكون حركته أسرع . حامل الرشيش يغطيه بغلافه حتى لا تدخل المياه إلى السبطانة وتسبب بعض المشاكل اثناء الرمي . المسدس الرشاش الايطالي غير موثوق به اطلاقا وكذلك القنابل اليدوية الدفاعية والهجومية .

ومع الجوع والبرد اصبحت الحضيرة بحالة يرثى لها ، لكن الايمان كان يشحذ هممهم على اختلاف جنسياتهم القومية ، كان هناك مجند شركسي وآخر كردي وثالث أرمني ، والباقون عرباً ولكنهم جميعاً سوريون يؤمنون بهذا الوطن والدفاع عنه ضد أولئك الذئاب كما يسمونهم .

يمر الوقت ثقيلاً ، والمطر يهطل برتابة . ويقطع هذا الصمت بين حين وآخر انفجار قذيفة هاون ، أو انفجار قذيفة تضيء السماء . ثم تختفي ، وبعدها يطبق ظلام دامس اختفت فيه كل معالم السماء من النجوم .

همس العريف زيد باذن العريف محمد قائلاً : يمكن ان يكون الجندي نويصر في مثل هذا اليوم في دار غزالة ؟

ورد عليه العريف محمد همسا وبحدة : هذا وقته يارجل . أين نحن الان وبأي موقف ولماذا خطر على بالك هذا ؟ لا أريد أن أسمع قصصا اضافية الان ، انصتوا فقط ، لتكن اذان الجميع مرهفة كل في اتجاه .

كان نباح الكلاب يسمع بين حين وآخر وان كانت اصواتها بعيدة ، انها عند موقع السرية في قرية علمين ، وبدأ الضياء يشق الظلمة من الشرق . كم من الافكار كانت تدور في رأس العريف محمد ، الحزب ، حزب البعث ماذا يعمل الان في العاصمة عندما يعرف الحقيقة ؟ كثير من الضباط البعثيين في الجبهة قد ينقلون ماحصل . ماذا يعمل الحزب لو كانت بيده القيادة؟ لابد أنه يحاسب الذين اشتروا هذه الأسلحة الفاسدة ماذا يعمل ، لو نجح في الشهادة

الثانوية لكان الان مرشحا بل ضابطا في الجيش له القرار ، حظه سيء لم يحالفه الحظ في حياته السابقة ، رفاقه الان في الكلية الحربية وهو عريف ، عليه أن يدرس ، يدرس ليلا ونهارا ولو في اي مكان عليه أن يحصل على الشهادة الثانوية ، سيدرس التاريخ في الجامعة . كان يقول لنفسه سأدرس التاريخ انه الافضل، سأكون مدرسا في الثانوية ، المعلم هو الأساس في تربية الأجيال .

الثورة الجزائرية يتابعها باهتمام، كان يستمع لراديو قائد السرية الملازم اشرف ويتسقط اخبار ثورة الجزائر . ان قيادة الحزب تكتب عنها الكثير في جريدة البعث . لكزه العريف زيد قائلا : متى الانسحاب . قتلنا الجوع والبرد .

أعطى العريف محمد أمرا بانسحاب الكمين . انسحب الجوالة . ثم الرملة . يمكن لمن يكتشفهم من العدو أن يقتل الحضيرة بقنبلة واحدة لقربهم من بعض ، ومع ذلك انسحبوا داخل الخندق بهدوء كما وصلوا اليه . بدأ الضياء اقوى عندما وصلوا مقر السرية وأعطوا اشارة العودة . استقبلهم المساعد أول حسين . كان لا يزال بلباس الميدان . خف المطر قليلا بل اصبح رذاذا ، اجرى التفقد على الحضيرة ، كل شيء كامل عدا عن قنبلة دفاعية ، ولم يعلق المساعد حسين على ذلك . لجأ الجنود الى جدار من السلاسل يقيهم البرد واشعلوا نارا تحلقوا حولها ، بينما بقي العريف محمد مع قائد الفصيل . لقد انسحب الظلام ، وبدأت ملامح الوجوه تبدو واضحة . كان وجه المساعد حسين لا ينم عن رضى وهو يقول : لقد وصل قائد سرية جديد وهو برتبة نقيب أعرفه قليلا اختصاصه مدرعات لماذا ارسلوه لقيادة هذه السرية وهي مشاة لا أعرف ، ياساتر يارب الطف بعبادك . حتى الان لم يصل أي تموين كيف يقاتل هؤلاء الجنود الجياع العراة . نحن نرتجف من البرد لا حول ولا قوة إلا بالله . لابد من الصبر الوطن أكبر من كل شيء . وقال العريف محمد : لابد سيأتي التموين صباحاً .

رن الهاتف الميداني في خيمة قائد السرية المنصوبة بجانب سلسال من الحجر ، كان يتحدث بالهاتف مع من ؟ لا أحد يدري ؟ كان يسمع وهو يكيل الشتائم بكلمات وتعابير لا تعرفها قواميس المومسات في دور البغاء . . وارهف

العريف محمد مع المساعد حسين السمع ، ماذا يقول النقيب قائد السرية على الهاتف ؟ كان يتحدث بأعلى صوته لأن الهاتف سيء وخاصة اثناء المطر : هيك وهيك من أمه . . يمكن كان نائما خلف . . هاالشرموطة . . هم كلاب ، نائمون ، الطقس عندي كله خراء . أنا بحالة سيئة ، انه اسوأ من واحد طردته الشراميط من الكرخانة (دار البغاء) شو بتريد أكثر من هيك ؟ ويبدو المتحدث من رتبته ولذلك كان يتحدث معه بدون كلفة . قائد سرية مشاة في الفوج السابع (خليه يحط مدفع الدبابة بأمه) . لم أنم بعد . لم أشاهد الجنود ، مافي أكل ولا شاي ولا . . الخ . (بلغه كلام النقيب بكري ، مثل ماقلته لك) مع السلامة . وخبط سماعة الهاتف على التلفون بطرقة سمعت خارج الخيمة . كان عنده المرشح احمد يطلب اليه جمع السرية وتقديمها له .

كان المساعد حسين يصغي متشائماً ، ألا يكفي الحالة التي نحن بها ، هذا كلام نقيب قائد سرية ، أغلب الجنود كان يستمع للمكالمة .

وخرج المرشح احمد من الخيمة وصاح بأعلى صوته : اجتماع ماعدا المناوبة . واصطفت السرية . خف المطر واشتد الضباب في الصباح . أغلب الجنود حفاة يعلقون بنادقهم على اكتافهم . صاح المرشح احمد : انتبه استارح ، استا . . . عد . وقدم الصف للنقيب قائلا : السرية جاهزة سيدي .

كان النقيب بكري رجلا أشقر يميل الى القصر وان كان جسمه ممتلئا . يرتدي جزمة مطرية قد قلب القسم العلوي منها فوق بدلة عمل ووضع كتافيتين قماشيتين عليها ، وكان يرتدي سيدارة شتوية عليها ايضا ثلاث نجوم نحاسية صغيرة وهي رتبة نقيب ، وبيده عصا صغيرة ويتدلى من نطاقه مسدس حربي ، وهذا لباس الميدان اذا اضيفت الخوذة اليه .

عندما حياه المرشح وقف ورد التحية وحيا السرية وسار أمام الفصائل يستعرض تلك الأشكال التي غارت عيونها وترتجف اجسادها من البرد . كان يهز برأسه عندما يقدم قائد الفصيلة فصيلته وكل امر حضيرة يقدم اسمه . وعندما وصل إلى المساعد حسين حياه قائلاً: المساعد أول حسين قائد الفصيلة الثانية ولحق به الرقيب خمسان قائلاً : آمر الحضيرة الأولى سيدي ،

ولحق بهما العريف محمد آمر الحضيرة الثانية . ونظر في الحضيرة هناك عريف آخر ، فسأله : هل أنت عريف مجند أم تلميذ رقيب .

وأجاب العريف محمد : تلميذ رقيب من الدورة الثانية سيدي النقيب .

وهز برأسه قائلاً : حسناً عندنا مثقفون ، ماذا كنت تعمل معلم مدرسة سيدي .

حسناً اذن علم هؤلاء الحمير الأميين في السرية .

هزت كلمة حمير العريف محمد لأنه يسمعها لأول مرة من ضابط ، لم يقل الملازم أشرف كلمة نابية كهذه . كان واقفاً باستعداد وأردف الرقيب وهدان آمر الحضيرة الثالثة . . الخ .

عاد النقيب ثانية وقال : الواجب هو الواجب والوطن للجميع علينا أن ندافع عنه بما يتوفر لدينا من أسلحة ، أنا أعلم رداءة قسم منها مثل المسدس الرشاش الايطالي ! لعنة الله على ايطاليا ارسلت الينا هذا السلاح الفاسد ولكن الحق ليس عليها الحق على الشراميط من التجار الذين اشتروا مثل هذه الأسلحة .

كان يتحدث بعصبية فقال : نظم الحراسة مرشح احمد واستراحة للباقي حتى الساعة التاسعة . ثم سار باتجاه خيمته . وصاح المرشح احمد استارح ، استاعد والتفت فلم يجد النقيب كان قد دخل خيمته دون أن يرد التحية ، كم خجل المرشح أحمد من نفسه فتابع قائلاً : قادة الفصائل نظموا الحراسة ، واستراحة حتى الساعة التاسعة .

كان الجنود ينتظرون هذه الكلمة ، لأنهم كانوا مرهقين ، جياعاً يهزهم البرد من أعماقهم ، ثيابهم مبللة . أسرعوا باتجاه الرعاة أقل من مئة متر كانت بيوت الرعاة ، لم تخرج المواشي من زرائبها بعد في هذا الطقس السيء . ذهبوا جماعات وفرادى حتى الرقباء والعرفاء ، اكثر من ثلثي السرية أصبح عند الرعاة ، هناك نار مشتعلة في البيوت .

رحب بهم الرجال والنساء ، الشباب قليلون عندهم ، اشعلوا النار جهزوا الشاي بسرعة ، بدؤوا بالخبز على الصاج ، وكذلك تسخين الحليب ،

سمح للجنود بحلب الماعز ، كان المجندون يحلبون بكاراتهم ، والكار يستوعب نصف لتر من الحليب ، مع الخبز الساخن . خلعوا ثيابهم الخارجية ونشفوها على النار ، شربوا شاياً ساخناً .

قالت عجوز : أنتم حماتنا ، كم رغبنا أن تكو ن قوة بجانبنا ، كأن الذي حصل البارحة لم يحصل اطلاقا، لا أحد من الحكومة يرد على الرعيان .

كلوا خبزاً ساخناً وحليباً طرياً وشاياً . نشفوا ثيابكم .

ورد الجنود : المهم أن نتابع حتى نستعيد الأرض ، أرضنا نعود إليها ولنا كرامة . كانت حوامات المياه كثيرة والأرض موحلة تغطيها طبقة من روث المواشي ، لم تخف الكلاب من المجندين ، نبحت في البداية وتوقفت فهمت أنهم أصدقاء لكن طيور الحمام البري في تلك الخربة هربت باتجاه وادي السمك ، لم تجفل المواشي لأنها اعتادت على منظر الجنود المألوف لديها يومياً في ذلك السهل كان العريف محمد ينشف بدلة عمله . وقد خلع خفافته أيضاً ، عصر جرابه من الماء ووقف قرب النار .

الجميع قرب النار ينشفون ثيابهم ويأكلون خبزاً ساخناً . النساء منهمكات بتقديم الخبز والشاي والحليب والرجال مهتمون باستمرار الوقود للنار .

قال رجل : المهم أن لا نخاف صحيح أن عدونا خبيث درّبه الانكليز في هذا القطاع ، لكن المهم أن لا يكرروا الغارة ثانية ، هكذا كان الراعي يتحدث وكأنه تلقى تعليماً في الجامعة . ويتابع : الحياة صعبة ، نحن صحيح رعاة لكن لكثرة ما أصابنا من العدو تعلمنا الكثير .

أخذ بعض المجندين إلى رفاقهم المناوبين أيضاً الحليب والخبز والشاي .

قال أحدهم إن هذا الخبز وهذا الطعام أفضل من أي طعام ذقته في حياتي .

ارتاحت السرية وألف الرعاة الجنود وكأنهم من السرية ، الجميع في الدفاع عن الوطن .

قال أحدهم ، لقد شجعت نظرات الصبايا الجنود ، واقتربت الساعة التاسعة ودق بوق الاجتماع ، تذكر الرقيب خمسان وهو يشرب الحليب ،

الجندي نويصر ، وقال لو كان معنا ، مسكين أسر قائد سريته ، الآن أصبحنا قريبين من قرية جرابا ممكن أن نعرف أخباره وأخبار غزالة «وأبو خليل» .

لم يعجب هذا الكلام العريف زيد الذي أبدى تحفظاً حول ذلك قائلاً : (الأمور مرهونة بأوقاتها) . سمع بوق الانذار ، أسرع الجنود وهم يمضغون خبزهم مسرعين ، أخذوا خبزاً معهم وضعوه في مزاودهم نسي أحدهم بندقيته في بيت الرعاة مسرعاً ليعيدها ، وهو يقول لعنة الله على الشيطان حتى سلاحنا نسيناه عوقب على ذلك بالسجن لأيام معدودات ، لم يكن هناك سجن ، بل كان السجن عبارة عن حفرة في العراء ، مملوءة بالمياه من كثرة الأمطار ، غط جسمه فيها بأمر من قائد السرية ، ضحك عليه رفاقه ثم أشفقوا عليه .

في الساعة التاسعة والربع أثناء اجتماع السرية وصلت سيارة الدودج وفيها رقيب أول السرية ، وكان قد وصل قبله بدقائق بغلان يحملان التموين اليومي ، فطور الأمس والغداء والعشاء وفطور اليوم حملوه دفعة واحدة إلى السرية . قال أحدهم لقد أكلنا ، ولكن رقيب أول السرية قال هذا الأكل حقكم ويمكن أن ترموه ، كان طبخاً بارداً ، ولكن ضابط التموين في الفوج قال هذا حق ، وهذا هو الأمر الروتيني اليومي فكل يأخذ حقه . هكذا قال الرقيب أول بأعلى صوته مسمعاً الجنود . أخذوا الخبز والنواشف والسكر والشاي وما بقي ارسل إلى مواشي الرماة . أعطى أمراً بذلك قائد السرية . وشتم ضابط التموين بالفوج قائلاً :

«ابن القحبة طبخ بايت مين بدّو يأكله» .

لقد أعاد قائد السرية تنظيم دفاع السرية ثانية، ورتب الفصائل في الدفاع ، ونظم الكمائن والدوريات . وعقب على ذلك قائلاً : الاجازات ممنوعة حالياً . وحدد مكان وقوف العربة ومقطورة المياه ، وكذلك مكان وقوف البغال وأماكن توزيع الطعام . كل هذا أشرف عليه بنفسه . كان حازماً رغم شكله الذي لا ينم عن ذلك . كما حدد مكان خيمته ، ولم يعر انتباهاً في البداية للسكان المحليين ولكنه أعطى أمراً بتقليص الاتصال معهم إلى الحد الأدنى من قبل الجنود .

لقد توقف المطر وبدت الغيوم تنقشع ، واقتربت الساعة من الحادية عشرة تقريباً ، ووزع الطعام ليوم كامل ، كانت هناك رشات متقطعة على غير هدى ، وبعض الانفجارات واثناء توقف المطر وانقشاع الغيوم ، بدأ الرعاة باخراج مواشيهم ، وفي هذا الوقت كان ضابط الاشارة قد جهز راديو قائد السرية على البطارية المائعة ، وارتفع صوت الراديو عالياً ، كان يغني أغاني وطنية ، ثم بدأت نشرة الأخبار وكان الخبر الأول عن الجبهة ، كان المذيع يزعق ، إن الملوك والرؤساء والأمراء والشيوخ متضامنون مع سورية ، واستنكروا في هيئة الأمم هذا العدوان الآثم ، واختلط صوت المذيع ، بأصوات البقر والغنم والمواشي ونباح الكلابَ ، وصوت وقع أقدام الجنود في روث الحيوانات المختلط بالتراب ، والأرض الموحلة وشتائم قائد السرية ، كل هذه الأمور اختلط بعضها ببعض مع رشقات متواصلة بين حين وآخر من رشاش ثقيل معاد ، ولم يعد يفهم شيء .

كان العريف محمد يحب الأخبار كثيراً يريد أن يعرف ماذا يدور في العاصمة وقد فهم أن المظاهرات تعم شوارع العاصمة استنكاراً لهذا العدوان .

قال الرقيب خمسان للعريف محمد : لنجهز الان مواقع الفصيلة ، لنرتب الخيام الصغيرة في الخندق ، قد يسقط المطر ليلاً إن أمطار الجولان غزيرة وتكاد تكون مستمرة هيا .

كان الجنود منهمكين بنصب الخيام وتنظيم الأرض حولها حتى لا تدخلها المياه ، وكذلك حتى إذا وقعت قذيفة فلا يصابون بأذى ، الخيام مطابقة للخنادق ولموقع الرمي والدفاع .

عادت السيارة بسرعة إلى قرية العليقة ونظمت لنقل عتاد الفصيلة وبقية ذخيرتها ولم يسمح بأي إجازة ومنعت الاجازات إلى إشعار آخر .

كان رقيب أول السرية منهمكاً بإعداد الغداء لقائد السرية ، وقد وصلت برقية تقضي بعدم مغادرة الضباط لمواقع السرايا ليلاً ويجب أن يكون قائد السرية وقادة الفصائل على رأس عملهم وفي مواقعهم ، يقودون أي عمل مباشر ، حتى لا تتكرر حادثة أسر قائد سرية واستشهاد الاخر .

رغم توقف المطر لا يزال الطقس غائماً والشمس محتجبة وراء الغيوم ، في ذلك الوقت لا ترغب أن تكون شاهدة على مآسي الانسان ، بل ومآسي العرب جميعاً ، لم ترغب بالظهور حتى لا تشع على ذلك المذياع الذي يزعق كلاماً عن ملوك ورؤساء بدون فائدة ، مجرد كلام فارغ يذهب أدراج الرياح ، كما هي أصوات الأبقار ، والماعز والمواشي ليس لها قيمة ، كما هو نباح الكلاب الكسالى . ويستمر نباح ذلك المذياع بدون توقف أمام خيمة قائد السرية ، حتى قائد السرية لم يستمع إليه كان منهمكاً في تنظيم الدفاع . ومراقبة قادة الفصائل . السرية بكاملها تعمل في الحفر لتحسين الخنادق . تحسين مواقع الخيام . اضافة الى المرصد الذي اقيم في اعلى التل المجاور للموقع بجانب الطريق الوحيد الواصل بين القنيطرة وبحيرة طبريا . كانت امرأة عجوز تجر بقرة حلوب باتجاه الشمال . وقد ارتدت جلدا من فرو الأغنام لبسته مقلوبا ، كانت تنظر الى السرية وتلوح برأسها . حفرت السنون والالام وجهها . كانت تتنهد بصمت مشفقة على الجنود تنظر إلى الجليل الأعلى إلى فلسطين يبدو أنها فقدت كثيراً من أقربائها هناك . مضت وهي تقول للعريف محمد ، يا بني قال المثل (النار لا تطفيها إلا النار) (والشر إذا وقع من الأشرار لا يقابل بالاحسان بل يقضي على الشر بشر أشد) تنهدت ورفعت وجهها الى السماء تحاربون اسرائيل بالدعاء إلى الله ، حتى الله قال جاهدوا وقاتلوا حتى تعود الأرض . وندعو الله أن يهدينا الطريق . قالت ذلك ثم جرّت بقرتها باتجاه نبع الماء وأردفت : كل ما نملك نقدمه لكم ونتمنى من الله أن يوفقكم وينصركم .

كان كلام العجوز أقوى بألف مرة من كلام أولئك الذين يملؤون الراديو صراخاً وشعارات . قال أحد المجندين مشدداً على الكلمات : والله . . والله . . كلام هذه الختيارة هو الصحيح ، يا جماعة الحق كل الناس يعرفونه ، ولكن القليلين هم الذين يقولونه .

ورد آخر : الصبر يا رجل الصبر . انظر قائد السرية يراقب تجهيز الحفر والخنادق . هيا لسانه سليط لا يعرف ان ينطق إلا الرذالات .

قطع النهار نصفه وكان كل شيء على ما يرام . نظمت الدوريات

والكمائن منذ النهار وجرى استطلاع الطرق بالمناظير ، وقادة الجماعات دققوا مهماتهم وتناولوا طعام الغداء . ثم استراحوا استعداداً للعمل ليلاً . كان الرقيب خمسان والعريف محمد يشربان الشاي ويستعيدان ذكرى شهر مضى .

قال الرقيب خمسان اقتربنا ثانية من قرية جرابا . ماذا يعمل الجندي نويصر الآن ؟ قطعاً ظروفه صعبة ، قائد سريته أسير ، من حل محله يا ترى ؟ بعد أيام نعرف ماذا حصل هناك .

وقال العريف محمد : لقد خسرت سريتنا قائدها أيضاً وماذا بوسعنا أن نعمل ؟ كان رجلاً طيباً ، حل محلة النقيب يمكن أن يكون رجلاً وإن كان لسانه سليطاً لا نعرف عنه شيئاً . هذا أول يوم له بيننا ، ولكن المكتوب يقرأ من عنوانه . لم أستطع يا رقيب خمسان أن أتصور رجلا يشتم والدتي ، وأخشى أن يشتمني ماذا سأفعل ؟ أتمنى أن لا أسمع ذلك ، وعلى كل حال رقيب أول السرية سوف يكوّن له حظوة عنده ، وكما شاهدت هذا الرقيب أول خبيث . يبدو أن قائد السرية يحب النساء كثيراً ، فانظاره عندما يخرج من الخيمة تتجه إلى الراعيات قبل السرية ، ويقال انه سكّير يشرب العرق ليلاً ونهاراً حتى أثناء الدوام ، على كل حال اليوم أنا دورية ، وأنت كمين والرقيب وهدان سيبقى في قيادة السرية مع قائد الفصيلة .

دخل العريف زيد الخيمة ، وتدخل بالحديث قائلاً : قد تثار مشكلة الكمين البارحة ولم يصدق الرقيب أول السرية قصة القنبلة . فحدثه العريف محمد بالتفصيل عما حدث .

قال خمسان : قد يحاسبونك .

ونظر العريف محمد إلى العريف زيد قائلاً : كم أنت حقير !!!! وصمت الأخير دون أن يتفوه بكلمة .

دق بوق الانذار عند العصر على أثر قذائف من هاون معاد ، انفجرت قرب السرية ، واحتل الجنود الخنادق وكانت الخيام ملاصقة للخنادق ، كل في مكانه تقريباً . وبدأ قائد السرية يراقب بالمنظار ، ولكن الغيوم كان تحجب النظر إلى حد كبير ، وعصر ذلك اليوم والسرية على هذه الحالة ، وصلت سيارتان

إحداهما جيب صغيرة والثانية دودج كندي فيها أقل من جماعة ، وعندما اتجهت السيارة الصغيرة باتجاه السرية انغرزت عجلاتها في الوحل ، ودق بوق الانذار ثانية . أما السيارة الثانية التي تقل الجنود فقد توقفت وانتشر الجنود مع رشيش ٢٤ ـ ٢٩ .

كان في سيارة الجيب الأولى قائد الفوج الرائد سليمان فهم ذلك من اهتمام قائد السرية الذي صاح بأعلى صوته : سرية استا . . . عد . وكرر ثانية وأسرع والوحل يتطاير من جزمته باتجاه السيارة ، التي ترجل منها ضابط طويل القامة . شعره أسود مجعد ، وعيناه واسعتان ويضع تاجاً نحاسياً على بدلة العمل . إذن هو رائد ويرتدي جزمة مطرية . أبيض اللون لم يحلق شاربيه فتركهما متدليين فوق فمه ، وعلى خصره مسدس حربي .

ورد التحية على النقيب وسار مباشرة إلى الخنادق . وتأكد من وضع الجنود داخل الخنادق ووقف عند الحضيرة الثانية ، حيث وقف خلف الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ وسأل العريف محمد : أنت آمر الحضيرة ؟ أجاب العريف محمد : نعم سيدي .

قال الرائد : اشرح لي كيف ترمي على العدو ليلاً ؟

وشرح العريف محمد الرمي على الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ليلاً . فهز الرائد برأسه . كان عندما ينظر تشع عيناه حدة ورجولة هكذا بدا للعريف محمد وفهم أن قائد الفوج سليمان مر على كل الخنادق . يرافقه قائد السرية وكان الأخير قصيراً لكنهما في عمرين متقاربين ، كان قائد السرية يتحدث عن العدو ، ويكيل الشتائم إليه . ثم أعطى أمراً باجتماع قادة الفصائل وأمار الحضائر .

كان رقيب أول السرية قد حضر الشاي بسرعة . وعندما تم الاجتماع في الجانب الشرقي لجدار بيت متهدم نصبت الخيمة هناك حتى لا يشاهدها العدو ، كان الرائد سليمان قائد الفوج والنقيب بكري يشربان الشاي في خيمة قائد السرية .

أسرع المرشحان والمساعد وأمار الحضائر ، حتى آمر الهاون ٦٠ حضر ، كان العدد أكثر من خمسة عشر شخصاً متجمعين في جانب الجدار ومعهم

أسلحتهم .

أعطى قائد السرية أمراً بالاستعداد وقدم الجميع لقائد الفوج . نظر الأخير إلى الجنود وتفحصهم واحداً واحداً ، كان يحمل بيده عصا طويلة يدق بها الأرض بين حين وآخر ، القسم الأكبر لم يحلق ذقنه لليوم الثالث فظهرت وجوههم وقد علاها الارهاق والتعب . كانوا يقفون باستعداد ، وكان أحد الرقباء من الفصيلة الثالثة التي لم تصل تجهيزاتها بعد قد فقد خفافته وظل حافياً ، واللباس ما يزال رطباً ، ملطخاً بالوحل . وكذلك لباس قادة الفصائل لم يكن أفضل إلا بقليل من أمار الحضائر .

تحدث قائد الفوج عن العدو ، بانه عدو ماكر مثل الفاشست يجب أن لا نطمئن له . وعلينا الاستعداد الدائم للدفاع عن الوطن هذا واجبنا جميعاً حتى لا تتكرر حادثة الأمس يجب أن نكون يقظين ليلاً ونهاراً . وان كان تحصينكم للأرض غير كاف فيجب متابعة التحصين أيضاً . كان يدق على الأرض بعصاه بسرعة عندما قال ذلك ، كما أنه أشار بعصاه إلى الرقيب الحافي وقال لماذا أنتم حفاة ، هل هذا معقول ؟ ووجه الحديث إلى رقيب أول السرية الذي تلعثم ثم قال : ستأتي الأحذية كلها مساء يا سيدي ، وسوف نكون عند حسن ظنكم بنا .

هز برأسه ثانية وقال بصوت عال هل هناك سؤال ؟ كان العريف محمد يأمل من قادة الفصائل أن يطرحوا مشكلة المسدسات الرشاشة الفاسدة ولكن لهجة السؤال من قبل قائد الفوج ارهبتهم وجعلت الجميع يحدقون النظر وينقلونه بينه وبين قائد السرية .

عندئذ قال : إذا لم يكن هناك أي سؤال أتمنى أن تكونوا عند حسن ظن القيادة والوطن بكم . قالها ونظر إلى قائد السرية الذي كاد يعطي الأمر بالاستعداد وأداء التحية . لكن العريف محمد رفع يده قائلاً : هناك سؤال يا سيدي . لقد تردد العريف محمد قبل أن يرفع يده ليسأل ، وكم تمنى لو أن أحداً غيره يسأل ولكن الجميع صمتوا ، وكان لابد أن يسأل ، فرفع يده قائلاً :

ـ العريف مجند محمد آمر الحضيرة الثانية من الفصيلة الثانية سيدي

الرائد . نحن عند حسن ظنكم ياسيدي ، ولكن المسدسات الايطالية الرشاشة وهي سلاحنا فاسدة لا تطلق يا سيدي ، ونحن أمار الحضائ ر الذين يحملون هذا السلاح غير واثقين به ، فكيف تريدون أن نقاتل العدو بسلاح فاسد . وهذا مسدسي كدليل . وخلع مسدسه من كتفه وقدمه لقائد الفوج .

نظر قائد الفوج في وجه العريف محمد وقطب حاجبيه وكأنه تلقى ضربة على رأسه ، ثم قال : مسدسات فاسدة لا تطلق ؟! ونظر إلى قائد السرية . وقال قائد الفوج لنجربها . وتدخل رقيب أول السرية قائلاً :

ـ يا سيدي لقد أرسلناها إلى الاصلاح فصلحوها وأعادوها ثانية ولكن هذا العريف يطلق دائماً بمسدسه ولم ينظفه جيداً ، ولكن الرقيب خمسان أكد على فساد هذه المسدسات .

لم يعر قائد الفوج كلام رقيب أول السرية اهتماماً بل قال لنجربها واحداً واحداً ، وفي زاوية من الأر ض مربعة وخالية . أخذ قائد الفوج يطلق من مسدس رشاش ، ومن أصل اثني عشر مسدساً رشاشاً أطلق ثلاثة منها فقط . لقد اسود وجه قائد الفوج ! ، والتفت إلى العريف محمد قائلاً : معك حق . ثم أردف : اجمعوها وأرسلوها غداً . ولكن حتى لا تبقوا بدون سلاح . وقاطعه المساعد أول حسين قائلاً : يا سيدي يوجد بنادق ٤٩ للمجندين الجدد يمكن أن يحملها أمار الحضائر .

وأجاب الرائد موافقاً على ذلك ، كان وجهه متألماً لقد قذف بآخر مسدس تعطل بيده بالهواء قائلاً : قيادة حقيرة هناك جواسيس كثيرون ، ولكن علينا أن نناضل ضد العدو هذا لن يثنينا عن عُزمنا . خلال هذا الوقت كان بعض الجنود مع سائق السيارة قد اخرجوا السيارة من الغرق ووضعوها على الطريق المعبد ، كان الرائد صامتاً يلوح برأسه وهو يسمع لقائد السرية ، وعندما اقترب من سيارته ، صاح قائد السرية بأعلى صوته : انتبه . . استا . . عد وحيا الرائد الذي انطلقت سيارته باتجاه السرية الأولى قبل الغروب .

التفت الرقيب أول إلى العريف محمد قائلاً : سودت وجهنا أمام قائد الفوج «بسيطة» كل شيء له ثمن . . وأسرع باتجاه قائد السرية .

كانت الكلاب تنبح بكسل وتحرك اذنابها يمنة ويسرة ، وغربان هربت من صوت محرك السيارة باتجاه قمة التل ، وراحت مواشي القرية تعود إلى حظائرها ، وتعالت أصوات البقر والغنم والبشر وصوت الراديو الذي لا يزال ينعق بشكل مستمر دون أن يلتفت أو يستمع إليه أحد .

وعمت الغيوم السوداء قمة الجليل ، غيوم ماطرة ، واستعدت الدوريات والكمائ ن لتنفيذ مهماتها ، وبدأت الظلمة تزحف من الشرق تطرد الضياء رويداً رويداً .

قال العريف محمد للرقيب خمسان وقد انفردا :

ـ الناس يحبون السلام في هذه الأرض ، ولكن ماذا يعملون ؟ عليهم أن يدافعوا عن وجودهم ، موت أو حياة . النازية لا ترحم طفلاً ولا شيخاً وعلينا أن نكافح حتى يعم السلام والعدل . . قالها متألماً وهو ينظر في وجه الرقيب خمسان ثم أخذ يقرأ كتاباً عن النازية والحرب العالمية الثانية ، كان يتسلى بكتب التاريخ عندما يكون لديه وقت فراغ . بينما راح الأخير يكيل الشتائم للحياة الصعبة ويجهز الشاي في ذلك الغروب قبل أن يخرجوا لتنفيذ المهمات .

قال العريف محمد : ولكن الحياة جميلة يا رقيب خمسان رغم كل ما قلته وعلينا أن نعمل هذا هو واجبنا . نتفاءل ونعمل ونأمل . .

توقف المطر ليلاً ، ولف الضباب المنطقة بكاملها ، وخرجت الدوريات وفق المهمات الموكولة لها . كما خرجت الكمائن إلى مواقعها ، وبقيت في سرية الحراسة في موقع كل فصيلة وحضيرة .

بين حين وآخر كان يلمع في السماء انفجار قنبلة مضيئة ولم يكن لها أي أثر على الأرض حتى اقلع العدو عن اطلاقها بعد وقت . كما لم يكن هناك أية قيمة للكشافات في هذا الضباب . لكن الرمي المعلم بقي بين حي وآخر على اتجاه المخاضات على النهر وعلى ج١٨ وج١١ من قبل الهاون والرشاشات الثقيلة . كان بين لحظة وأخرى يقطع السكون صوت ذئب بردان ، أو نباح كلب كسول يقعي عند جدار صاحبه ، ينبح دون هدف ودون أن يعرف لماذا فقط ليقنع اصحابه بانه موجود .

تعليمات الاستنفار شديدة حتى بالنسبة للضابط . ممنوع مغادرة السرايا بعد الغروب ، ويرسل لهم نادي ضباط الفوج الطعام إلى مواقعهم ظهر كل يوم .

ان وضع السرية مساء ذلك اليوم كان أفضل من ذي قبل فقد رفعت من معنوياتهم زيارة قائد الفوج ، وخاصة سحب الأسلحة الفاسدة منها ووعده باعادة النظر بالذخيرة والقنابل اليدوية . وقبل الجنود كلماته لأنه كان واقعياً لم يعد أحد بالمن والسلوى وكان يقول هذا واقعنا وقدرنا وعلينا أن ندافع عن الوطن ، بجنود أميين واسلحة شبه فاسدة . وفهمت كلماته . وقد شرحها قادة الفصائل بعد أن غادر السريّة .

لم يكن هناك جديد ، وشخر صوت طباخ الكاز في احدى الخيام كان أصحابه يغلون شايا . قائد السرية قام مع قادة الفصائل بتفقد مواقع السرية والمناوبة المشددة وخاصة الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ والرمي المعلم ليلا ، كما راقب وضع الهاون ٦٠ وذخيرته والمناوبة عليه .

مروا بالعريف محمد الذي كان يجلس بجانب رامي الرشيش . لم يتحدث قائد السرية كثيرا بل كان مروره تفقديا ولرفع الروح المعنوية للجنود .

في البعيد ارتفع لهب تنور عند الرعاة يخبزون عليه ليلا . كان وهجه ، يشق الظلمة وبعض الجنود الذين في الاستراحة قد ذهبوا عند الرعاة ليسهروا هناك ويشربوا شايا أو حليبا ، وكونهم أميين فمثلهم مثل الرعاة ، ويبدو أن المجندين من الريف يألفون هذه الحياة ويحبونها .

كان العريف محمد ينظر إلى وهج التنور الذي يبعد أقل من مئة متر عن موقعه ويتذكر قريته ، وأهله يتذكر الحصادين الذين يتجمعون ليلاً عند نار التنور ويأكلون الخبز الساخن مع اللبن المشنون . تصور العريف محمد أن وضع الجنود ليس أفضل بكثير من أوضاع الحصادين إلا بالمهمة القتالية الملقاة على عاتقهم لأن أغلبهم حصادون قبل أن يلتحقوا بالخدمة الالزامية بل كثير من الحصادين يجيد القراءة والكتابة اكثر من جنود السرية . كثيراً ما فكر العريف محمد بهذه الحياة المعقدة . كان يقرأ جريدة يضعها تحت رأسه وكتاباً عن النازية . ولديه في

هذه الخيمة الصغيرة أكثر من خمسين شمعة يقرأ عليها ليلاً ، وحقيبة مملوءة بالكتب ، كتب لدراسة الشهادة الثانوية وعدة كتب للمطالعة .

كان ضوء الشمعة يدور ويرتجف عند أدنى حركة في الخيمة الفردية الصغيرة داخل الخندق والتي كانت أقرب إلى الجحر منها إلى خيمة سكن .

كثيراً ما تبدو أعمال النازية مثل أعمال اسرائيل ، بقتل الفلاحين العزل ومهاجمة قراهم وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، الشباب هرب اغلبهم ممن يستطيع الهروب ، لم يتوقف اذا كان شابا أو شابة لأن الموت ينتظره . هذا ماكان الكتاب يتحدث به عن النازية اثناء الحرب العالمية الثانية في بولونيا وغرب وجنوب الاتحاد السوفييتي والقرى والمدن التي احتلها النازيون في بداية الحرب . كان صبيا عندما كان يشاهد الطيران النازي يحوم فوق قرى حلب وقد احرق بيادر قرية أم حارتين ودمر القرية بدون ذنب . مساكين اهالي ام حارتين ، كم من الغارات النازية تهاجم قريتهم لم يكن لأحد أن يعرف في ذلك الوقت من الفلاحين السبب ، كانوا يتصورون أن الغارة على المخفر الفرنسي القريب من القرية لكن الغارة كانت على السكة الحديد الواصلة بين حلب وحماه ، وتصيب القرية المسكينة المجاورة للسكة الحديدية بأخطاء طياريها .

لقد قال يومها احد الفلاحين غاضباً : ماذا عملنا لهتلر ؟ هل ضاجعنا أمه ؟ كل يوم يغير الطيران على قريتنا !!! كان العريف محمد وهو يقرأ في ذلك الكتاب يتصور المآسي التي حلت بشعوب اوروبا الشرقية وشعوب الاتحاد السوفييتي من قبل النازية والان هاهي اسرائيل النازية الجديدة مدعمة بالامبريالية الامريكية والاستعمار البريطاني والفرنسي وكل قوى الشر في هذا العالم .

ماذا عمل لهم الفلاحون الفقراء في فلسطين حتى قتلوهم ؟ بل انهم ابادوا حتى الاطفال والشيوخ في بعض القرى . لكن ما يشير اليه الكتاب أن كل شيء مباح للنازية فليس هناك حدود للجريمة . كما هي الحال في فلسطين فليس هناك حدود للجريمة من قبل الاسرائيليين ، حتى ان الصهيونية عندما تخالف تعليماتها قد يباد كثير من اليهود بأوامر من الصهيونية نفسها . كما جصل

في حلب والعراق وكثير من بلدان العالم .

اليهود في هذا العالم ، لم يكتشفوا بعد ما يحيق بهم وما تخطط لهم الصهيونية والامبريالية الامريكية كان العريف محمد يقرأ ذلك الكتاب ويتخيل افعال النازية في الحرب العالمية الثانية . وهاهو الان ينزوي داخل هذه الخيمة يشرب شايا ويقرأ على ضوء شمعة تنوس شعلتها يمنة ويسرة ، ورغم الاحزان التي تعتصره على قائد سريته الملازم أشرف ، كان يتابع القراءة باهتمام .

لم يصل بريد السرية منذ أربعة أيام . ولم تصل رسائل الجنود . دخل أحد الجنود من المنطقة الشرقية خيمة العريف محمد وطلب منه كتابة رسالة إلى زوجته ، ماذا تعمل زوجته وأولاده ، والده يرعى الغنم وقد يزرع له الأرض ، يتمنى ان لا ينسوا حصته من الزراعة وان يعتنوا بزوجته ، والدته لا تحب زوجته كما يرغب ولكن ماذا بوسعه أن يفعل ؟ بقي له ستة أشهر ويسرح من الخدمة ، إذا لم تزرع الأرض يموت الأولاد جوعاً .

كان يتحدث ويرجو العريف محمد أن يكتب إلى والده رسالة يرجوه فيها زراعة أرضه ، وكذلك رعي أغنامه ، والاعتناء بالأولاد . قال المجند كل هذه الكلمات دفعة واحدة . وأعاد إلى ذهن العريف محمد ذكرى نهر الفرات ونهر الخابور ، عندما كان معلماً مع البدو هناك ، مر شريط سريع في ذاكرته عن البدو الرحل ، وكيف كان معلماً في مضاربهم ، تذكر الخيول ، تذكر الذئاب . وراح ذلك المجند يحدثه عن غدر الذئاب وخبث الذئب وكيف يخدع الرعاة احياناً . ألف المجند العريف محمد عندما عرف انه كان معلماً على الفرات مع البدو ، فاستمر الحديث عن الذئاب الجدد الذين وفدوا من كل انحاء الأرض إلى فلسطين ، قال العريف محمد : بسيطة يا رجل ، وكتب له رسالة كما يرغب ، كان يملي عليه وهو يغلي الشاي داخل الخندق .

صاح المساعد أول حسين : محمد فتش الخندق . كان المساعد أول قائد الفصيلة الثانية لا يذهب إلى خيمة قائد السرية مع المرشحين ، فهو اقرب الى صف الضباط منه الى الضباط ، ولذلك بين حين وآخر كان يصيح بأعلى صوته عريف محمد لا أريد أن يتجمع عندك مجندون في الليل ، كل الى مكانه .

قائد السرية لا يريد التجمع في نقطة واحدة ليلا وان كان لدى المجندين استراحة ينامون في خيمهم .

انطلق صوت شبابة من بيوت الرعاة كانت تعزف لحنا فرحا . يبدو أنهم نسوا قائد السرية الملازم أشرف قبل يوم ، انها الحياة ، هل نموت حزنا يا رجل ؟ قالها احد المجندين الذي وقف وذهب باتجاه التنور ، وكان كلب ينبح بمنطقة الرعاة ، يبدو أنه غير واثق من نباحه أو متعب اثناء النهار من تجواله مع المواشي ولكن لابد من الحراسة خوفاً من مفاجأة الذئاب في هذا الليل الذي يخيم الضباب على أرضه حتى حجب القمر والنجوم .

« ١٣ »

بعد الربع الأول من الليل كان كل شيء قد هدأ ، خيم صمت حذر حتى الكلاب صمتت ، لم يسمع عواء لذئب ، لم يكن هناك اصوات لانفجارات معهودة ، كان الضباب ثقيلاً على الصديق والعدو حتى الحدأة لم تصوت في منتصف الليل . فقط كانت تصدر همسات الجنود المناوبين في ذلك الموقع ووقع خطا قادة الفصائل الذين يتفقدون المناوبين . يخرجون من خيمة قائد السرية المنصوبة في جانب جدار بيت متهدم منذ زمن بقصف مدفعي معاد . وقرب تلك الخيمة ايضاً كانت خيمة رقيب أول السرية الذي يشتعل فيها طباخ الكاز بصورة دائمة ، ليعمل عشاء ويحضر الطعام لقائد السرية . وقد أحضر أيضاً العرق، فقائد السرية يشرب الكحول في هذا الجو العاصف سواء في الاستراحة أو في العمل . لقد فهم رقيب أول السرية نفسية قائد السرية فراح يتصرف كما يرغب ، وكذلك راح ينقل اخبار ضباط الصف وأمار الحضائر وكذلك الجنود وفق ما يهوى ، ويدس أحياناً على الذين لا يلقون هوى في نفسه ، أو لا يسايرونه . ومنذ أن كان قائد الفوج في السرية ومشكلة الأسلحة الفاسدة هي حديث الجميع ، لقد دس على العريف محمد وقال لقائد السرية ان وجهه شؤم ومنذ وصوله لم تهدأ السرية ، وحل فيها ما حل وأضاف : ان هذا العريف كان معلماً ، وكما أتصور فهو ينتمي الى حزب البعث العربي الاشتراكي ، وهذا الحزب ممنوع في الجيش ، تأثر قائد السرية بجزء كبير من كلام رقيب أول السرية في ذلك المساء .

لقد بدأ الفجر ، وشق الضياء الظلام . وبدأت الدوريات تعود متلاحقة ، وكذلك الكمائن وقادة الفصائل يستقبلونها ، وبعد أن قدموا التقارير عن مشاهداتهم وسماعهم عن العدو . ظهرت الشمس لتطرد الضباب الكثيف المخيم على المنطقة وبدأ الضباب يتلاشى رويدا رويدا ، وفي ضحى ذلك اليوم سمع من خلال الضباب صوت محرك البوسطة يجعر قادما من اتجاه البطيحة ـ جرابا الى مدينة القنيطرة . كان الطريق قريبا من موقع السرية اقل من مئة متر، وقفت البوسطة مقابل السرية ونزل منها الدكنجي هادي وأبو خليل من قرية جرابا . وأسرع رقيب أول السرية الى هناك حيث وقف مع هادي قليلا وحدثه حول بعض الديون المترتبة على مجندين وضباط صف من السرية ، وأمور اخرى ، حيث قفل راجعا وركب البوسطة ، بينما عاد رقيب أول السرية مع «أبو خليل» .

قال الرقيب خمسان : هذا الرجل لن يفارقنا . وتذكر قرية جرابا وبدا الحزن على وجهه ولم يفصح عن مشاعره لأحد في تلك اللحظة إن قرية جرابا بالنسبة للرقيب خمسان لغزا لا يريد أن يفصح عنه .

كان قائد السرية نائماً لم يستيقظ بعد ، وقبل ظهر ذلك اليوم عندما استيقظ كان الفطور جاهزاً فأدخله رقيب أول السرية ، ثم نادى أبا خليل الذي جلس متأدباً بوجود النقيب . لقد دعا قائد السرية أبا خليل لزيارته وكان النقيب قد سمع من رقيب أول السرية عن بنات لابأس بهن في قرية جرابا . فلم يتردد قائد السرية ، بل صاح بصوت عال : المرشح احمد ابق بجانب الهاتف . أنا ذاهب الى السرية الأولى . وركب سيارة الدودج الوحيدة في السرية ومعه رقيب أول السرية وأبو خليل ، متجهين الى الجنوب باتجاه قرية جرابا . كان الوحل يتطاير من عجلات السيارة التي دفعها عدد من المجندين اثناء اقلاعها .

قال الرقيب خمسان : ان ظروف نويصر ستكون صعبة الان . قائد سريته اسير ، والان ينفرد به رقيب أول السرية مع «أبو خليل» وقد يعود الى السرية من يدري ؟ مسكينة غزالة الان . قد ينفرد بها ابو خليل ويقنع والدها . لا ندري ما يدور في ذهن قائد السرية ولكن يبدو أن الأمور تسير لغير صالح الجندي

نويصر . كانت بدلة خمسان معفرة بالتراب والوحل لكثرة انبطاحه ليلا اثناء الدورية ، قال : يبدو أن الرقيب أول السرية لن يتركنا .

كان العريف محمد يستمع إليه ، عندما قال : المياه تجري الى الوديان وهناك الخصب اكثر يا رجل ، وجرابا في القمة وبجانبها وادي السمك ، لا يستطيع النقيب أن يعمل شيئا ، النقيب يتسلى ويلهو فقط ، إذا وقعت احداهن فلن يوفرها .

مر المرشح احمد على السرية التي كانت في وضع الاستراحة ماعدا المناوبة . وسلم على العريف محمد وشدد بالسلام قائلا : (ليكن الله في عوننا) مشيرا الى قائد السرية الذي كان ثملا ليلا . كان يلوح برأسه . وهو يسير مع فصيله .

وانتشرت مواشي الرعاة حول بيوتهم ، في تلك المقاطع من الأرض التي لم تفلح بعد ، حتى قسم من الماعز وصل الى موقع السرية . ودخل احد كلاب الرعاة خيمة قائد السرية ظانا ان فيها بقايا لحم حيث كاد أحد الجنود أن يطلق عليه النار فمنعه الرقيب خمسان قائلاً :

ـ انه يحرسنا ليلا يا رجل وقد ينبهنا للمخاطر .

عصر ذلك اليوم عاد قائد السرية ورقيب أول السرية وتفقد السرية فور وصوله . وجرى تحضير الدوريات والكمائن والمناوبة الليلية . كان وجه رقيب أول السرية يبدو عليه السرور وكأنه حقق نجاحا فما هو ؟ لكن عند الغروب اثناء اجتماع أمار الحضائر وجه حديثه الى العريف قائلاً : أنا رقيب أول السرية لا أحد يغادرها أو يأتي اليها إلا بمعرفتي ، قالها وهو يشير بكلتا يديه ويجيل النظر في وجه أمار الحضائر ، وأردف : يعود الجندي نويصر الى الحضيرة الثانية بالفصيلة الثانية كما كان ، حتى لا يجرؤ أحد على مخالفتي .

وهز الرقيب خمسان برأسه قائلا : لا حول ولا قوة إلا بالله يا رجل مالك وللجندي نويصر هل أضرك بشيء ؟ ورد الأخير : ليس هذا شأنك اعتن بحضيرتك واهتم بالكمين اليوم افضل من الدفاع عن الجندي نويصر . وتزلف بعضهم له قائلين انت معلمنا بالسرية وأنت أبوها . ولاذ بالصمت العريف

محمد ثم قال بلا مبالاة : تزاد الحضيرة بجندي شجاع مثل نويصر وفي أي مكان خدمة وجرابا غريبة حتى على جندي ، المسير ساعة ونصف ـ قالها بدون أن ينظر الى الرقيب أول ـ لقد تباهى رقيب أول السرية واشعر الجميع أن كلمته منذ الان فصاعدا هي الأولى ومن يخالفها يدفع الثمن غاليا . وأشار بحديثه للعريف محمد لأنه العريف الوحيد الذي يعرقل خططه وأفكاره .

خطا الرقيب خمسان باتجاه باب الخيمة ثم عاد يريد الكلام ثانية ، ثم أقلع عن ذلك وخرج ولحق به العريف محمد ، ثم خرجوا جميعاً . وقد أتى إلى الخيمة عند ذلك الغروب العريف زيد ، لقد ظهر على وجهه السرور من مقابلته مع رقيب أول السرية وسر لأحد الجنود بأنه سيكون آمر الخصيرة مستقبلاً ، كانوا يسيرون في الخنادق كل الى حضيرته . ورجعت المواشي ايضاً إلى حظائرها . الرعاة بجانب جدران الحظائر غير خائفين من أي قصف . وهذا أيضاً ما أثار انتباه العريف محمد لماذا الرعاة لا يخافون من القصف المدفعي أو القصف الجوي ولا من الرشاشات الثقيلة ؟ قال المساعد أول حسين ٠

ـ القنبلة لا تفرق بين الناس حتى ولا بين الحيوانات ، علينا أن ننبههم لذلك حتى لا يقتلوا أثناء القصف ، ولكن العريف أثار هذه المشكلة قبل أن يخرج في الدورية مع قائد السرية مباشرة ، حيث قال : يجب التنبيه على الرعاة بأن القذائف ستصيبهم اذا قصفت السرية سواء من الطيران أو المدفعية ، وقطع هذه الملاحظة رقيب أول السرية قائلا : ما رأيك تعلم قائد السرية واجباته ؟ وصرخ النقيب بأعلى صوته بالرقيب أول السرية كما نهر العريف قائلا : اعتن بحضيرتك فقط ، اذهب من وجهي . عريف يبدي ملاحظات عن الرعاة .

وصاح بالمساعد أول حسين قائلا :

ـ لا أرغب بسماع أي آمر حضيرة وهو يبدي أية ملاحظة . سيطروا على فصائلكم .

وأراد رقيب أول السرية أن يحرض قائد السرية حيث قال : أنا قلت لكم يا سيدي هذا العريف يخلق لنا المتاعب منذ لحظة وصوله . وإذا لم تؤدبه قد يتمادى في كلامه وأفكاره ، من أين يأتي بهذه الأفكار لا أدري ؟

وأردف أنه يقرأ من الشيوعية والحرب العالمية الثانية . (بل انه بعثي) والحزبية ممنوعة في الجيش قال كل هذه الكلمات بصوت مسموع أمام أمار الحضائر. وسمعه العريف محمد الذي لم يسمح له بالكلام ولا بالجواب على كلام رقيب أول السرية .

كانوا وقوفاً قرب خيمة قائد السرية والسماء متلبدة بالغيوم .

كان الرقيب خمسان يلوح برأسه وهو يعبر عن خوفه من قائد السرية قائلاً : (ربي استر)

يا عريف محمد ، نحن أمام العدو الآن وأنت تخرج إلى الدورية يجب أن تكـون أعصابك هادئة . لا ترد على هذا الرقيب الذي يتحكم بالسرية منذ أكثر من سنة .

وصاح المساعد أول حسين : عريف محمد أنت تعرف تعليمات دوريتك وطريق الذهاب والعودة . انس كل شيء المهم أن تكون دوريتك ناجحة ونفذ كل التعليمات بدقة .

خيم الظلام على المنطقة ، وهبط الضباب إلى الأرض . كان العريف محمد يعرف الأرض جيداً ومع ذلك قال لابد من استخدام البوصلة حتى لا نضل في هذا الظلام الدامس .

كانت بومة تنعق في تلك الخرائب قرب الرعاة ، قمة غربان ضلت مبيتها حطت على شجيرات قريبة . طيور الزرازير وصلت مبكرة إلى تلك الأرض كانت اصواتها تسـمع من على تلك الشجيرات غرب قرية علمين . والقذائف المضيئة من الهاون المعادي ليس لها قيمة لكثافة الضباب ، ولكن رمي الرشاشات البعيدة ترعب الدورية وخاصة عندما تعبر الطلقات الخطاطة فوق خط مسيرها . ولذلك لابد أحياناً من استخدام الخنادق المعدة سابقاً . وهكذا مر الليل وعادت الدورية كما كانت ولم يكن هناك شيء جديد .

أفاقت السرية صباحاً وبدأت الحركة ودب النشاط بين أفراد السرية في الضحى . عاد ثانية صوت محرك (البوسطة) وهو يشق الضباب ووقفت كعادتها أمام السرية ونزل منها السائق ، كما نزل جندي يحمل على كتفه كيس البحار ،

لقد اقترب من السرية . وصاح الرقيب خمسان : عريف محمد انظر ، انه الجندي نويصر قادماً إلى السرية ، إنه يحمل كيس البحار . ونهض الرقيب خمسان مسرعاً باتجاه الجندي نويصر ، كما أسرع مجند آخر يعرفه . كان نويصر حزيناً بدت على وجهه الكآبة . وبعد أ ن حيا ، وأنزل كيس البحار عن ظهره . سأله العريف محمد : ماالخبر يانويصر ماذا حدث معك ؟

كان نويصر يرتدي بدلة عمل وكأنه عاد لتوه من دورية لا تزال آثار الوحل عليها . ولا يزال عتاده معه حتى أنه يحمل بندقية ٤٩ ، كانت عيناه حمراوتين وبدا كما لو أنه لم ينم منذ أكثر من يوم ، منذ حادثة أسر قائد سريته .

لقد تحدث قليلاً ، تكاد تخنقه العبرة ، وعبر قائلاً : لا يجوز للرجال أن يبكوا . ماذا عملت ؟ ان قائد السرية النقيب لا يعرفني . لماذا طلب اعادتي ؟ لا أعرف ماذا عملت ؟ كل ما هنالك شاهدت رقيب أول السرية وقال غداً ستسمع ما قلته لك يوماً ما . لم أصنع شيئاً لقد قررت خطبة غزالة في هذا الشهر لولا حادثة أسر قائد السرية . هذا هو حظي السيء .

كان رف من حمام القرية يحوم بعد أن انقشع الضباب قليلاً فوق السرية وعلى ارتفاع منخفض . وأردف ولكن الله كبير أكبر من كل الظالمين . ألا يكفي العدو ؟ يأتي رقيب أول السرية ويقول سوف أقطع رجلك من قرية جرابا .

ولكن العريف محمد قال مهدئاً : اذهب وقدم نفسك إلى رقيب أول السرية معلناً التحاقك لأن قائد السرية لم يستيقظ بعد . انه يسكر في أغلب الأوقات ، لأن الأوامر منعته من مغادرة السرية ليلاً .

ورد نويصر : لقد ابعدني أبو خليل عن قريةجرابا ولكن ماذا يستفيد ؟ سوف أتزوج غزالة مهما يكن سواء هددني قائد السرية أو غيره . ونهض مسرعاً متقلداً بندقيته تاركاً كيس البحار أمام خيمة العريف محمد .

نظر العريف زيد شامتاً ثم قال : لقد عاد الجندي نويصر . ماذا تعمل له الآن ؟ موجهاً كلامه للعريف محمد ـ ثم نظر في زاوية الخيمة الصغيرة . كانت الكتب فوق حقيبة من تنك ورزمة من الجرائد ومجلات إلى جانبها .

تابع العريف زيد : ماذا تعمل بهذه الكتب وهذه الجرائد ؟ ولماذا تقرأ

جريدة البعث ؟ هل يهمك حزب البعث ؟

وابتسم العريف محمد ونظر إليه قائلا : أنت يا عريف زيد لن تعرف لماذا تقاتل العدو إذا لم تقرأ كتباً عن النازية وعن الحرب العالمية الثانية . وكل إنسان لا يعرف عن عدوه شيئاً لا يستطيع أن يقاتله . أنا أنصحك بالقراءة . وجريدة البعث اضافة إلى أنها جريدة اخبارية فيها زاوية تاريخية عن أمتنا وشعبنا . وكذلك عن عدونا الجديد الامبريالية والصهيونية . لماذا أنت موجود الآن في هذا الخندق وتحمل البندقية لندافع عن الوطن ؟ لماذا إذاً لا نعرف عنه كل شيء ؟ الجهل مصيبة ، علينا أن نعلم الجنود الأميين من هو عدوهم . ما معنى الصهيونية ، مامعنى الامبرياليّة ؟ علينا أن نعلمهم معنى كلمة اشتراكية أيضاً . ولماذا الاشتراكية هي نظام عدالة وسعادة عند الشعوب الفقيرة والمتخلفة . وماهي حاجتنا إليها يارجل ؟ أنت عريف في حضيرتي عليك أن تعرف . لقد درست كثيراً من الكتب وها أنذاكما تشاهد اقوم بواجبي وفي لحظات الفراغ أقرأ كل ما يقع بين يدي من الكتب والجرائد والمجلات . وأحضّر لنيل الشهادة الثانوية ماذا يدريك ؟ عندما تكون أنت رقيباً أكون أنا قائداً لسريتك . أساس الحياة العلم والمعرفة يارجل . أنصحك اترك نويصرا وابتعد عن رقيب أول السرية ولا تحشر نفسك بما لا يعنيك أنت عريف متطوع ولك مستقبل أنا أنصحك حتى وانصح رقيب أول السرية بأن يحسن علاقته معي وليس العكس كما يتصور ، لا يعرف معنى الحزب ، يتصور عندما يصرخ بالسرية ويقول هذا العريف بعثي كأنه يكيل لي تهمة إنه مجنون كل أفراد السرية الآن يرغبون بمعرفة معنى البعث . وأنت أيها الأحمق الذي يدس على رفاقه انصحك للمرة الأخيرة أن تحسّن سلوكك معي ومع الجندي نويصر ، وكذلك لا تدس على الرقيب خمسان . أنصحك أخيراً أمام الرقيب خمسان بأن لا تخالفني . وقطع العريف زيد الحديث قائلاً : وماذا تعمل ؟ أنت مجرد عريف . ثم وجه كلامه إلى الرقيب خمسان : انه يلقي علي درساً وكأني صغير في مدرسته ، يا رجل أنا عريف مثلك وإن كنت سابقاً معلما !!! بالجيش رتب وبس . كانت المناقشة حادة .

« ١٤ »

عاد الجندي نويصر إلى الفصيلة الثانية بالحضيرة الثانية . جندي في زمرة الجوالة . وجلس متألماً يشرب الشاي . ثم بدأ ينصب خيمته في المكان المحدد له مع زمرة الجوالة.

قال الرقيب خمسان : مسكين الجندي نويصر .

وأردف العريف زيد : قال يعشق غزالة !!!! غريبة هل يوجد بشر يعشقون ويخلصون ؟ انه الجنون .

ولاح برأسه الرقيب خمسان . كان يتألم من كلمات العريف زيد فقال : انت انسان قليل الوجدان لا تعرف معنى الحب . قد يقتل الانسان من أجل امرأة يا رجل . وقد يسبب الصراع من أجل امرأة حرباً . ألم تقرأ القصص التاريخية عن القبائل العربية قبل الاسلام ؟ أغلب الحروب بين القبائل تسببها امرأة . ولكن أنت جاهل .

وقطع الكلام برشقة من المدفعية قرب موقع السرية حيث دق بوق الانذار ، ونزل الجنود إلى الخنادق وتمترسوا خلف الرشاشات . وطردت الشمس الضباب فسطعت بأشعتها على كل الهضاب وأخذ الجنود يراقبون العدو بالمنظار ومن أين انطلقت تلك الرشقة . بينما هربت الكلاب مطلقة عواء خائفاً ، وارتعب الرعاة حيث ساقوا مواشيهم باتجاه الشرق . وعيونهم مشرئبة من الخوف . بينما لاذ الباقون في حفر أعدوها لمثل هذه الحالة متابعين أعمالهم المنزلية .

واستمر العمل على هذا المنوال اسبوعاً آخر حتى خفضت درجة الاستنفار ، وسمح للمتزوجين وفق نظام الخدمة أن يحصلوا على إجازات لمشاهدة عائلاتهم . كما سمح بعد أيام للمجندين والجنود العازبين باجازات نهارية ليتمكنوا من الاغتسال حيث بدأ يظهر القمل ثانية في السرية رغم تبدل الطقس .

في أول اجازة حصل عليها العريف محمد والجندي نويصر ، رجاه الأخير أن يذهب معه إلى قرية جرابا . لانه خاف أن يذهب بمفرده ، وعمل حسابات كثيرة لقائد السرية النقيب بكري وسوف يعرف رقيب أول السرية ويخبره أبو خليل الذي أصبح كأنه ركن من أركان السرية يأتي أغلب الأيام في البوسطة ويعود نهاراً مع قائد السرية في سيارته وأحياناً تذهب سيارة قائد السرية وتأتي به . وأحياناً يذهب بعض البغالة من فصيل الهاون على بغل ويأتون به .

لم يتردد العريف محمد بقبول طلب الجندي نويصر ، ، بل ذهب معه إلى قرية جرابا وامضيا نهاراً كاملاً هناك . كان نهاراً ممطراً لم يخرج الرعاة الى الرعي ، وكانت الغيوم تلف القرية المعلقة على تلك الهضبة .

وصلا مشياً على الأقدام وتسلقا التل إلى القرية ، لم يتغير شيء في قرية جرابا ، مازالت العجوز تحت الشجرة تجلس في ركنها رغم المطر لفت نفسها بفروة من جلد الخراف وعليها مشمع مهلهل . تنظر إلى الأفق البعيدة إلى الغرب إلى قرى الجليل وصفد تنتظر ولدها . قالت لها المنجمة الغجرية والشيخ عبد القادر انه سيأتي من هذا الاتجاه وهاهي تنتظره ولا تزال تجلس صامتة .

وهناك المجنون لا يزال صوته يعلو في القرية ، يصرخ بشكل يثير حماس الناس : هيا ايها الناس . خالد ينتظركم في اليرموك . ايه يا عبيدة بن الجراح ، أين أنت يا علي ياقالع باب خيبر . هيا انهضوا انظروا الى امتكم قادتها يتسكعون يلحسون أخفاف سادتهم ، يلهثون يتعبون ينامون في مواخير أوربا في دور البغاء . أين انت يا عمر . كان المجنون يرفع صوته كلما شاهد جندياً . كان صوت راديو الدكان يزعق في هذا الصباح وقد انحشر فيه عدد كبير من الرجال حتى لا يصيبهم المطر . وكان الدخان يخرج من طاقته وبابه سوية لكثرة السكائر

المشتعلة . المواشي لم تخرج للرعي فبقيت محبوسة في زرائبها . بدت الحركة في زواريب القرية قليلة كأنه منع فيها التجول ولولا الدخان الذي يتصاعد من البيوت ، لما كان هناك أي دليل على الحياة فيها .

عرج العريف محمد على الدكان وحاول نويصر ان يقنعه بعدم الذهاب إلى هناك وانهما ليسا بحاجة الى شيء ولكن العريف أجاب وهل نحن لصوص ؟ أتينا الى هذه القرية لأننا نعرف فيها أناساً . واتجها الى الدكان فشاهدهما الدكنجي هادي فرحب بهما ، واشتريا صابونا وحلاوة .

كان أبو خليل داخل الدكان فامتقع وجهه ولم يرد السلام مع أن سلامهما كان عاما .

قال الدكنجي هادي الى العريف محمد : هل حصلتم على اجازة أم هربتم لساعات ، وفهم مغزى كلامه . كان يريد من «أبو خليل» أن يبلغه إلى رقيب أول السرية .

ورد عليه العريف محمد : فسرها كما تريد . هربنا أو حصلنا على اجازة المهم أننا سنذهب الى بيت «أبو بخلف» حتى لا تجتهد في السؤال إلى أين نذهب وإلى أي بيت ؟ وضحك وهو يغمز بعينه السليمة قائلاً :

ـ مفهوم ، مفهوم ، إلى أين يذهب الجندي نويصر إلى عند غزالة طبعاً ، أما أنت هل هناك غزالة ثانية ؟

فأجاب العريف محمد قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله يوجد غزالات كثيرات هل عندك جريدة جديدة ؟

فأجابه : انظر في الزاوية لا أرغب بقراءة الجرائد . كلهم يكذبون في هذا العالم ، الراديو يزعق طيلة النهار والليل عن فلسطين وعن اجتماعات ملوك ورؤساء وشيوخ وأمراء ووزراء طاروا ـ حطوا ـ من مكان إلى مكان ايه يا رجل المهم . . ونظر إلى امرأة تقف امام الدكان : ماذا تريدين شاي ؟ (فكرت تريدين جرائد تقرأين فيها عن فلسطين)؟ وضحكت المرأة قائلة : يا حسرتي حتى الأهل لم نستطع أن نشاهدهم ولا نعرف أخبارهم ، دعني ياهادي بهمي

واعطني بربع ليرة شاي ، الأولاد لا يوجد عندهم إلا أخوهم الكبير . والتفتت الى الجندي نويصر قائلة :

ـ دنيا ، حظ غزالة بالسما إذا أخذت نويصر . والتفتت إلى «أبو خليل» ، اذهب انت الى عيالك أفضل لك من جريك وراء الرقباء والضباط ، لا يفيدونك بشيء يا «أبو خليل» حتى ولو ميلت عقالك . قالتها باستهزاء وهي تزم شفتيها ناظرة في وجه «أبو خليل» وأخذ ت الشاي المصروروخرجت وهي تقول : ـ «اسمكم رجال» .

خرج العريف محمد والجندي نويصر الى بيت «أبو خلف» وهناك استقبلتهم ام خلف بترحاب زائد ، خاصة انها وضعت مولودا جديدا هو الثاني عشر حسب تسلسل أعمار أولادها ، كانت تلفه بخرق كيفما اتفق وترضعه قالت : لقد سميته نويصر وقد يكون جنديا في المستقبل من يدري ؟ قد يكون عريفا مثل محمد ،

كان أغلب الأولاد متجمعين حول أمهم وكذلك والدهم ، لأن المواشي لم تخرج للرعي في ذلك اليوم ، فمازالت مزروبة وغزالة التي ظهر جليا على وجهها الفرح ، كانت تتحرك داخلة خارجة تذهب الى زريبة المواشي ثم الى مستودع التبن وأحياناً كانت تغيب لتنظر الى وجهها بالمرآة .

فرحت أم خليل عندما علمت أن الجندي نويصر في بيت أم خلف ، كم هي شامتة بزوجها الذي ينفق خرافه ومواشيه للعساكر قائلة في سرها : لا يأتينا منهم إلا البلاء . ورغم ذلك دخلت إلى بيت أم خلف لتتأكد من وجود نويصر هناك وفوجئت بالعريف محمد وهي لا تعرفه سابقاً . ولكن أم خلف قالت لأولادها افسحوا الطريق لأم خليل .

كانت أم خليل بعمر أم خلف تقريباً ، رحبت أم خلف بها كثيراً وعرفت العريف محمد بانه صديق نويصر ، وردت أم خليل التي تريد أن تتأكد من عزم نويصر على الزواج من غزالة قائلة : ومتى يكون كتاب غزالة على نويصر الله يتمم بالخير .

وفهم العريف محمد ماذا تريد أن تعرف فتدخل قائلاً : قريباً إن شاء الله

يا أم خليل يرقصون أمام دوركم في عرسهما . وصمت ، وبهتت المرأة : عرس من يا رجل ؟ وحبست أنفاسها مذعورة تخيلت عرس «أبو خليل» الذي يحاول أن يقنع أبا خلف باعطائه غزالة وأغلب الذين يأتون عواطفهم مع أبي خليل وهم يشجعونه على الزواج من غزالة ، لقد اصفر وجه المرأة فتقلصت عضلات وجهها الموشومة ، وحتى يخفف عنها العريف محمد تابع : عرس الجندي نويصر على غزالة . قالها قاطعاً أفكارها التي دقت مثل قرع الطبل في أذنها ، فانفرد وجهها خاصة عندما وجه الحديث العريف محمد إلى أبي خلف قائلاً : هذا هو العمل الصحيح «يا أبو خلف» .

ورد الأخير : نتوكل على الله يا حضرة العريف وإن كانت الحياة قسمة ونصيب وكذلك الزواج . ثم راح يسكب الشاي مرحباً بأم خليل ، لقد انطلق لسان أم خليل مديحاً بأبي خلف . قالت : نحن جيران وسوف ارقص في عرس غزالة . ودخلت غزالة ولم تأخذ أذناً بل بادرتها بالقول : مبروك ياغزالة عرسك مع نويصر قريب جداً هكذا قال أبو ك والعريف محمد ، وضحك العريف محمد .

لكن أم خليل التي انفرد وجهها وراحت تضحك من أعماقها قالت موجهة الحديث الى العريف محمد :

ـ لقد وقع أبو خليل في غرام غزالة التي تكن له كرهاً شديداً ، ان شاء الله تشوف الخير مع نويصر ، وإذا رغبت أنت أن تكون صهري أو صهر أم خلف فهذا أحلى علي القلب من العسل . فشكرها العريف محمد .

كان الطعام قد وضع ودخل نويصر البيت تبدو على وجهه علائم الفرح . هنأته ام خليل وكأن كل شيء انتهى . ولاح برأسه أبو خلف قائلا : لا حول ولاقوة إلا بالله ، قسما بالله ياأم خليل لن يأخذ، أبو خليل بنتا من عندي ، لا غزالة ولا غيرها ، اطمئني أرجو أن تهدئي ويكفي مشاكل ، نحن جيران .

وردت أم خلف : صحيح نحن جيران والله أوصى بالجار قبل الدار .

وقالت أم خليل : وأنا أيضاً يا أم خلف سأعمل جهدي لتحسين العلاقات بيننا . وراحت تضرب براحة كفها على ظهر نويصر قائلة : «مبروك»

ونهضت مودعة بينما كان العريف محمد والجندي نويصر يتناولان الغداء الذي أعدته (جدة) غزالة بسرعة ، من البيض ومشتقات اللبن .

كانت أصوات الماعز ، ونباح الكلاب الكسالى في حظائرها يختلط بقرع حبات المطر التي تضرب الأحجار البازلتية . اقتربت الساعة من الواحدة وعلى العريف محمد والجندي نويصر أن يغادرا البيت ، كان كل شيء واضحاً أمام العائلة مع الجندي نويصر ، ودع إلى الباب وودعته غزالة حتى دكان هادي حيث شاهدها من هناك عدة رجال ونساء قالت إحداهن بصوت مسموع : (فقع شرش الحياء) من هذا الجيل ألا يكفي أن تودعه في دار أمها ؟

غادر أبو خليل قبل ساعة القرية على بغلته باتجاه قرية علمين الى قيادة السرية ، وأخذ العريف محمد يفكر بماذا سوف يعمل رقيب أول السرية عندما يسمع سيثير قائد السرية ضده ، وماذا سيعمل الأخير بنا ، من يدري ؟ لكل ساعة ملائكة . كما قال المثل . لم يطرقا الطريق الرئيسي بل سلكا طريقا ترابيا .

كان صوت مجنون القرية يعيد الكرة ثانية ، يا رسول الله امتك ممزقة مشتتة ، يقودها قوادون ، مستهترون ، يلعبون يقامرون يسكرون يلحسون أحذية البغايا يتعبون ينامون في دور البغاء عند اعدائك . ويغيب الصوت وهما يبتعدان عن قرية جرابا باتجاه موقع السرية . وتلف الغيوم القرية وتحجبها عن انظارهما . عندما التفت الجندي نويصر إلى الوراء شاهد غزالة واقفة على قمة الصخرة البازلتية عند الشجرة التي تجلس عليها العجوز تنظر في الأفق .

وصلا السرية قبل الغروب بقليل وأعد جنود الحضيرة الثانية للدورية الليلية . العريف زيد إجازة ، وكذلك جندي متزوج هو رامي الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ، ومجند آخر متزوج ، حصلت الحضيرة على ثلاث اجازات طويلة لمدة ثلاثة أيام والباقي كانوا جاهزين وكان على الجندي نويصر أن يحل محل رامي الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ويقود زمرة الرماة «ليست مشكلة» قال في نفسه .

لكن الرقيب خمسان الذي كان يتفقد حضيرته ويحضرها للكمين ، قال للعريف محمد : يبدو أن أبو خليل سيتعشى عند رقيب أول السرية لقد وصل منذ ساعة وربط بغلته عند الرعاة ، لكن قائد السرية لازال في قيادة الفوج لم يعد

بعد . وأردف قائلاً : سوف يشتكي عليك هكذا فهمت منذ قليل وقد دعاني رقيب أول السرية وشربت شاياً هناك وانتظر يراقب رد الفعل لدى العريف محمد .

ورد العريف محمد قائلاً :

ـ هل تعرف يا حضرة الرقيب أنها مشكلة . ولكن ليس مع رقيب أول السرية وإنما ستكون مع قائد السرية لا تعرف ماذا يقول له أبو خليل ورقيب أول السرية ، عن ذهابنا الى قرية جرابا ؟ قد يتهمانني اتهامات كثيرة ، ولكن ليس مهماً ، المهم أن لا نشتم بامهاتنا وأهلنا . العقوبة ليست مشكلة وخاصة أنا مجند ولست متطوعاً . لكن كيف نتقي شر قائد السرية إذا كان مخموراً ، فقد يتكلم ويشتم دون رادع ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله يجب أن نخرج إلى الدورية قبل أن يعود قائد السرية ، وغداً يفرجها الله . لكن العقوبة ستحل بالجندي نويصر ولا أستطيع أن أمنعها عنه ، وقد يحرم من الاجازات شهراً كاملاً ، وقد يحرم من الذهاب إلى قرية جرابا نهائياً ، انها مشكلة ولكن يا رقيب خمسان يجب أن تساعدنا وسوف يساعدنا المرشح أحمد .

أصاب الجندي نويصر الرعب وارتبك حتى في حديثه وخاصة عندما علم أن أبا خليل عند رقيب أول السرية، ماذا سيعمل ؟ لقد استسلم للقدر واستعد للعقوبة ، ولكن ماهو نوع العقوبة ؟ إنه يتحمل كل شيء ، ولكن إذا منع من الذهاب إلى قرية جرابا فهذا لا يمكن أن يحتمله ، كان يفكر دائماً بنقله من السرية ولكن إلى أين ؟ وخاصة أن قائد السرية أصبح يذهب إلى القرية وهو لا يعرف النقيب قائد السرية الأولى . عزز الفوج بقادة سرايا برتبة نقيب بدلاً من ملازمين . وينظر الى العريف محمد مستنجداً ، ولكن الأخير يأمل أيضاً أن ينجده المرشح أحمد ، ان قائد السرية عندما ينفجر غضبه لا يعرف إلا الكلام البذيء ، كأنه تربى أسوأ تربية في زقاق سيء .

عندما ذهبا الى القرية لم يفكرا بالنتائج ، كما هو الحال ، لقد ندم العريف محمد على الذهاب الى القرية وكان يمكن أن يتلافى المشكلة ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنها ستكون مع قائد السرية وليس مع رقيب أول السرية ، وليس مع

المرشح احمد ، المشكلة مع النقيب بكري الذي حفظ قاموس البذاءة. كل ما يرجوه العريف محمد أن يتأخر قائد السرية حتى يأتي الليل ويخرج في الدورية . والليل طويل في تشرين الثاني ، انهم في الثلث الأول من شهر تشرين الثاني وقد مضى حوالي نصف شهر على استشهاد الملازم أشرف . الأمور الان عادية وعجلة الحياة ساقت الناس امامها حتى ليكاد الانسان ينسى نفسه لكثرة مشاغله وهمومه .

الى الأمام العدو . وقذائف مدفعية الازعاج اليومي والأمطار . أن أمطار الجولان غزيرة ومتواصلة والأرض موحلة ، حتى الخناد ق تسيل فيها المياه ويضطر الجنود أن يخوضوا فيها رغم رداءة الأحذية وتفاهة اللباس . وهذا الطقس السيء الماطر ، والغيوم التي هبطت من أعلى الجليل وجبل صفد ، والظلمة التي بدت تزحف من الشرق ، لا يزال أبو خليل عند رقيب أول السرية ، ولا يزال قائد السرية في قيادة الفوج .

كانت السرية منهمكة بتحضير الدوريات والكمائن وتدقيق طرق الدورية عند نقاط التلاقي ، البوصلة في هذا الطقس أساسية حتى لا تضل الدورية . بمجرد أن يعرف قائد الدورية أو الكمين الاتجاه يستطيع أن يعود الى السرية ورقعة الأرض غير كبيرة فهي لا تتعدى جبهة أربعة كيلو مترات وعمق كيلو متر واحد ، النهر هو الحد مع العدو وهو حاجز . تعود الدورية على ضفته بمساعدة نبا ح الكلاب مع ذلك تدقق الطرق مع قادة الفصائل . وكثيراً ماكان يخرج قادة الفصائل مع الدوريات أو الكمائن حتى يطبقوا التعليمات النظرية ويراقبوا الجنود وأمار الحضائر وقدرتهم على تقدير الموقف والمراقبة ، العمل في خط النار مع العدو غير التدريب فالقذائف التي تطلق في الليل ، هي قذائف حقيقية فإذا ما أصابت كميناً أو دورية كانت تقتل عدداً منهم .

كان الجنود وأمار الحضائر يراقبون مدى شجاعة قادة الفصائل من الضباط الجدد والمرشحين ، فالمساعد حسين رجل مجرب لديه خبرات كثيرة خاض أكثر من حرب ورغم كل هذا كان احياناً يخرج ليتأكد من تنفيذ المهمات الموكولة إلى أمار الحضائر .

لقد استعدت الدوريات وأعطيت التعليمات لها فاجتازت المئة متر الأولى عندما كانت سيارة قائد السرية تشخر وقد غاصت في الوحل في موقع السرية على ضوء النور الحربي وتنفس العريف محمد الصعداء ، كان عليه أن يتأكد من كل خطوة يخطوها . يسمع ويراقب ، يدقق السمع والمراقبة . تصل إليه فقط أصوات قرع المطر على الأحجار البازلتية أو على سطح المياه الراكدة في الخنادق والتي تخوض فيها الدورية احياناً .

كانت بعض الثعالب تعوي من الجوع أو المطر الذي أصابها، أصوات جماعية وأحياناً فردية . ترد عليها الكلاب غير متحمسة . ومن الجهة المقابلة كان العدو يطلق بين حين وآخر قنبلة مضيئة باتجاه المخاضة قرب مخفر ج١١ ، عندما كانت الدورية تتوقف وتتصنت . والعريف محمد يشرد بأفكاره ماذا سيعمل بي قائد السرية في الصباح ، قد يشاهدنا ونحن عائدون متعبون مبللون بالمياه من المطر وثيابنا ملطخة بالوحل . والانسان يغوص في المياه الى ركبته وأحياناً ينبطح حتى يتنصت ويرهف السمع ، هل هناك اصوات كائنات حية ؟ من يدري ؟ في هذا الليل الماطر المظلم ، التي اختفت فيه كل معالم الاتجاهات . ولولا نباح الكلاب في بعض المواقع لخال الجميع أنهم يتحركون في عالم مسحور . فإذا نبح كلب على يسار الدورية ، يكون هناك موقع تل مشنوق ، وإذا نبح كلب على يمين الدورية يكون من قرية علمين ، اما الثعالب فليس لها مكان محدد ، حتى ولا نعيق البوم . والبوصلة يجب أن لا يصيبها المطر فقد تتوقف يجب المحافظة عليها لضبط الاتجاه في الليل الحالك .

ما يشغل العريف محمد هو ماذا سيحل به صباحاً عندما يعود إلى موقع السرية ؟ كان يفكر إذا شتم أبي يمكن أن أتحمله، ولكنه إذا شتم والدتي فهذا أمر لن أسكت عليه .

استعرض حياته مرة أخرى ، ولكم فعل ذلك . رغم صغر سنه فقد فرض احترامه على عشائر البدو . وقبل ذلك كان طالباً في حماه ، كثيراً ماكلفه الحزب اثناء المظاهرات والاضطرابات باغلاق السوق في مقلاعه كانت الشرطة تخاف من حجارة المقاليع ، قد تأتي الواحدة على حياة أي شخص تصيبه ، لم

يسمح لأحد أن يشتم والدته في يوم ما سابقاً . ولكن النقيب بكري لا يعرف إلا شتائم الامهات والأخوات ، الجندي نويصر ، مسكين نويصر ، كل ما تحدثنا به في قرية جرابا قد يذهب هباء ؟ ماذا يفعل قائد السرية ؟ قطعاً رقيب أول السرية وأبو خليل سيسهران عنده ، قد لا يعاقب الجندي نويصر ويعتبرني مسؤولا عنه ، فأنا آمر حضيرته وقد ذهبت الى قرية جرابا ، قد لا يريد أحداً من جنود السرية أن يذهب الى قرية جرابا حتى لا يعرفوا ماذا يعمل هو هناك ؟!!!!

آه ـ الان نفكر في هذه الخدمة السيئة ـ آه لو نجحت في الشهادة الثانوية لكنت ضابطا الان قائد فصيلة أو قائد سرية ، ولكن الفقر ، لعنة الله على الفقر هذا هو الواقع فأناتلميذ رقيب مجند ، رقيب أول السرية يصرخ بي أحياناً ، ايه . . لابد من الدراسة حتى احصل على الشهادة الثانوية . ولكن غدا كيف علي أن أتصرف حتى يكون تصرفي عقلانيا ، قائد الفوج يعرف أهلي جيدا ، وهو صديق عمي وقد أوصاه بي ، ولكن أين قائد الفوج الرائد سليمان . ماذا يقول له قائد السرية انه نقيب قد يلفق ضدي تهمة؟ولكن يجب ان ادافع عن كرامتي ولو كان قائد سرية ، المهم أن لا أكون جباناً أمامه .

تذكر حزب البعث العربي الاشتراكي ، انه عضو فيه ـ كم سمع من محاضرات عن الحرية وكرامة الانسان ، عن فلسطين والدفاع عن الوطن . انه الان على بعد مئات من الأمتار عن العدو ، لا يفصله عنه إلا النهر الصغير قليل العرض ، كيف يقاتل العدو ، وهو خائف في اعماقه من قائد السرية ؟ من لسانه السليط ليس من يده قطعاً هو أقوى جسمياً من قائد السرية .

اقتربت الساعة من الواحدة وحانت ساعة العودة ، ورغم أن المسافة كانت قصيرة كان مرهقاً من المطر ومن المياه التي خاضوا فيها ، والوحل الذي علق بثيابهم المبللة . كان العريف محمد يرتجف من البرد بعد الساعة الواحدة وقد قفلت الدورية عائدة . ماذا يقول لقائد السرية عن قرية جرابا ؟ لماذا ذهب الى هناك وهو يعرف في اعماقه انه خالف رغبةقائد السريةالذي اعطى تعليمات لمنع زيارة قرية جرابا والقرى المجاورة ، ممنوع الاحتكاك بالفلاحين والرعاة ، هذه تعليمات عامة قالها لامار الحضائر وقالها في اجتماع عام للسرية، وقالها لقادة

الفصائل . ماذا يقصد بذلك ؟ هل حقيقة يقصد السرية المطلقة للتحركات ونظام الكمائن والدوريات . المتطوعون في الحرس الوطني من فلاحي المنطقة ورعاتها يعرفون كل شيء ، واستطلاع العدو نشيط ، عندما تتوقف الغيوم وتظهر الشمس يظهر الطيران المعادي ، وطائرة الاستطلاع المعادية (ويلقبها الجنود بام كامل لقلة سرعتها) وهي تصور المنطقة ، وتعود في الاسبوع مرة ، الجنود يشاهدونها مرتين وقد يطلقون عليهانيران الرشاشات المضادة للطائرات ولكن المسافة أكبر من مداها . وكل عتاد العدو المتطور لا يرهب الجنود لانهم مؤمنون بقتال العدو ينطلقون من الحق الذي يجب ان يحصلوا عليه وهو الأرض «يجب ان نخلصها وندافع عن الوطن» .

لكن قائد السرية لم يقصد بذلك الجنود المتزوجين الذين يسكنون في القرى وعائلاتهم منتشرة في قرى الجولان والمنطقة كلها عسكرية ، صحيح قال ذلك ولكنه بالفعل لا يريد أن يذهب الجنود الى الأماكن التي يذهب هو اليها ، حتى المرشح احمد لا يجرؤ أن يذهب الى قرية جرابا . كانت حجته انها بعيدة . والعذر الأقوى كما يقول (ابتعد عن الشر وغن له) قائد السرية يذهب الى قرية جرابا وقد أعطى تعليمات بمنع الذهاب اليها وعندما يسكر يشتم أي شخص امام الجنود ، بعض المجندين والجنود يذهبون خلسة ، ولكن الان ذهبنا دون خوف ، آه لماذا الخوف ؟ الجندي نويصر قرر الزواج من تلك الفتاة في القرية ولكن انا العريف محمد لماذا ذهبت ؟ قد يسألني ، ورغم البرد والتعب والهواجس التي اجتاحته من بداية الدورية حتى الان في الطريق جعلته مرهقا ، ثيابه تحمل اكثر من وزنها ماء بمرتين على الاقل ، ولكنه ما يلبث ان يعود ليفكر قبل ان اكون عريفاً كنت شجاعاً ونشيطاً في الحزب ، لا يخيفني كل ضباط الشرطة ولا المخابرات ولا المباحث التي كانت تلاحق الحزبيين ، والان بعد تدريب دام سنة أو أكثر ، ووقت ليس بقليل أمام نيران العدو شبه اليومية . لماذا الخوف ؟

كان العريف محمد يشجع نفسه لا يريد ان يظهر امام الحضيرة انه خائف من قائد السرية . جنود السرية اغلبهم علموا بذهابه ، وهو ينشر بين حين وآخر بينهم افكار الحزب ومبادئه ، ويحرضهم على الاقطاعيين في قراهم ، يحرضهم

على المرابين من اصحاب الخانات في المدن . يشرح لهم بصورة مبسطة افكار الحزب ، هو الذي اقنع البدو بأفكاره عندما كان معلماً معهم رغم صغر سنه ، والآن هو قدوة لحضيرته بل وتنظر إليه الفصيلة كلها على أنه بمستوى المرشحين ، بل افضلهم ، لا يخاف العدو وينفذ تعليمات القيادة بدقة . ولكن قائد السرية بكلماته البذيئة قد يفقده كل ما عمله في هذه السرية . لماذا يكره النقيب حزب البعث رغم انه فقير وأهله كما يقولون فقراء ؟

اقترب من موقع السرية كانت الساعة الرابعة ، وبدأ أول خيط من الفجر يشق الظلمة شقا بطيئا رغم هطول المطر الهادىء والمتواصل فقد نفذت الدورية مهمتها بدقة ، والافراد يرتجفون من البرد خاضوا في الخنادق ، سراويلهم مبللة بالمياه ، كل قطرة تسقط عليهم تصل الى اجسادهم ، لم يتركهم العدو يفكرون بوضعهم بين حين وآخر كانت قذيفة مضيئة معادية تطلق فوقهم ، وعليهم ان ينبطحوا في الحفر . وكذلك الرشاشات الثقيلة تحصد الأرض احياناً ترافقها الكشافات . مهمة العدو ازعاج الجنود واخافتهم ليلاً ونهاراً .

عندما اقتربت الدورية من موقع السرية اعطيت اشارة الدورية والعودة ودخل الجنود موقع السرية . أول شخص استقبل الدورية كان قائد الفصيلة المساعد أول حسين ، الذي بادر العريف محمد قبل أن يستمع لتقريره قائلاً : اذهب الى قائدالسرية انه في الخيمة لم ينم بعد عنده المرشحون ، كما انه لم يخرج من الخيمة اليوم ماذا قال له رقيب أول السرية لا أدري ؟ وعنده أبو خليل أيضاً . لا أدري هل ينام هنا أم يذهب في الليل ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله (وتابع بالشركسية) (فهم العريف محمد أن المساعد حسين تلقى اهانة من قائد السرية حيث بدرت منه كلمة تشي بذلك) وهل أراقب المجندين في الاجازة أين يذهبون ؟ ومع ذلك كا ن هادئا ، بل ذهب مع العريف محمد الى خيمته . كان الوقت قصيرا لا تزال العتمة مخيمة فوق المنطقة ، ولم تظهر نجمة الصبح الجميلة ، حجبتها الغيوم الماطرة ، كان العريف محمد قلقاً جداً بل ومضطرباً وخائفاً بماذا يجيب قائد السرية إذا أهانه أو إذا ضربه . تذكر تاريخه في الحزب ، تذكر كلمات الاقطاعي وهو صغير ، وصاحب الخان ، والوكيل وكل

حواشي الاقطاعي ، ولكنه اليوم عريف مجند بالأمس كان معلماً وحزبياً لا يرهبه شيء في سبيل القضية المقدسة التي يؤمن بها وهاهو اليوم طوال الليل يسهر للدفاع عن هذه القضية وماذا سيكون مصيره بعد دقائق ـ لا ـ لا ـ لن يسمح لقائد السرية أن يهينه مهما كانت الظروف لأنه إذا لم يدافع عن كرامته لن يدافع عن وطنه ، لقد علمته والدته الحياة موقف والعمر يمضي فدائماً يجب أن تكون في موقف مشرف هكذا كانت تعلمه والدته بلهجة الفلاحة البسيطة الأمية التي كانت تكره الجنود الفرنسيين وتحرض الفلاحين ضدهم ، واليوم الاستقلال ، لماذا يتحدث النقيب مع الجنود بهذه اللهجة ؟ يبدو أنه لم يمنعه أحد في يوم ما . مسكين الجندي نويصر وانه يتألم واقفاً في باب خيمته ينتظر ماذا ينوي قائد السرية الان ان يعمل مع العريف محمد لم يطلب سواه ، لا يزال الرقيب خمسان في الكمين لم يعد بعد .

رقيب أول السرية في خيمته لا يريد أن يحضر هذه المقابلة . كان متأكداً أن قائد السرية سوف ينزل أشد العقوبات بالعريف محمد ، وهذا ماكان يتمناه حتى تكون هذه العقوبة عبرة لغيره في السرية . المرشح احمد عند قائد السرية وكذلك قائد الفصيلة الثالثة المرشح جهاد ، المرشح جهاد كان مسلوب الارادة ، لقد حصل على شهادة بكالوريا وذهب الى كلية الاحتياط فاصبح مرشحا ، كان غير قادر على أن يسيطر على حضيرة واحدةبعكس المرشح احمد الذي كان قد فرض وجوده في السرية ، وكان يأمل ان يقود السرية يوما ما وكان غير راض عن سلوك قائد السرية وهو يعرف النظام جيدا .

كان المطر خفيفا جدا في الصباح ، وكان منظر العريف محمد مشوشاً غير مريح ، لقد خاض في المياه اكثر من مرة خلال ثماني ساعات متواصلة ولم يكن هناك مرآة حتى ينظر فيها إلى نفسه. تقلد بندقية ٤٩ نصف اتوماتيك لان الرشيش الايطالي الفاسد كان قد سحب قبل عدة أيام . كان كلب الرعاة ينبح من داخل زريبة المواشي .

قال المساعد أول حسين : ان قائد السرية شرب في هذا الليل كثيراً وكما اعتقد ان السكر قد أخذ منه مأخذاً قد يكون نائماً وقد يكون مسروراً ويشاهدك

بعد عودتك من الدورية فيصفح عنك .

ورد العريف محمد : اذن هو يعتقد أنني اقترفت ذنبا حتى يصفح عني .

تذكر العريف محمد لشوان قائد الفوج الرائد سليمان ولكن اين قائد الفوج الان ؟ قد يكون جيداً وقد يكون غير ذلك وعلى كل حال كما قال المثل (بين حانا ومانا تكون تنتفت لحانا) .

لقد دخل المساعد أول حسين أولاً إلى الخيمة الكبيرة المعدة لقائد السرية وطلب اذناً بادخال العريف محمد .

دخل بعد ذلك العريف محمد وقدم اسمه : العريف محمد آمر الحضيرة الثانية من الفصيلة الثانية من السرية الثانية من الفوج السابق رقم (٧٧٧٧٧) سيدي النقيب .

كانت أمامه طاولة صغيرة مملوءة طعاماً وزجاجة عرق فارغة شربها في الليل ، وقد بدا أن النقيب لم ينم بعد فقد احمرت عيناه وظهر عليهما التعب . كان يجلس على يمينه المرشح احمد بينما كان المرشح جهاد أمامه . كان قد خلع حذاءه العسكري رغم أنه يرتدي بدلة العمل . بدا مخموراً لأن الكلمات كانت تتقافز من فمه دون ثقة ودون وعي . لقد رفع رأسه ونظر الى العريف محمد الذي يقف باستعداد بجانب المساعد أول حسين .

قال قائد السرية موجهاً كلماته إلى العريف محمد : لماذا أنت ممروغ بالوحل مثل كلب الراعي ؟ وتابع لا بل أنت كلب حقيقي .

لم يجب العريف محمد على كلام قائد السرية ، وبقي واقفاً باستعداد وقد تسمر المساعد أول حسين في مكانه . كان العريف محمد يرجو في قلبه أن ينقذ المرشح أحمد الموقف ولكنه بقي في مكانه ولم يتدخل في الحديث . المرشح جهاد هب واقفاً في مكانه وحاول التدخل . ولكن قائد السرية صرخ بالعريف محمد شاتماً أمه (ابن كذا . . .) هذه الكلمة التي لم يسمعها في عمره ، إلا أثناء العراك مع الشرطة في المظاهرات عندما كانوا يشتمون الطلاب جماعياً . كانوا يصرخون بهم ياأولاد . . . كذا ، أما الان فالكلمة وجهت إليه مباشرة وهاهو يحمل بندقيته يدافع بها عن شرف الوطن والأمة .

عندما لفظ النقيب هذه الكلمة نسي العريف محمد انه عريف ونسي الرتب العسكرية وقائد السرية ، ورد بكلمة اقسى من كلمة قائد السرية وضرب الطاولة بقدم رجله حيث انقلبت الزجاجة والكاسات التي كانت فوق الطاولة على الأرض وتكسرت . وقال موجهاً حديثه إلى النقيب : ان جزمة والدتي تشرف لحية والدك أنت رجل حقير ، وحقير جداً ، وقلب البندقية من كتفه وهب المرشح أحمد لامساكه .

لقد جمد النقيب بكري في مكانه مذهولاً . لأول وهلة لم يجب على كلمات العريف ، لم يتصور طوال خدمته أن تكال له اهانة بمثل هذه الحدة وخاصة من عريف . وأراد أن يقف ولكنه لم يستطع فقد ترنح وأمسك به المرشح جهاد ، بينما كان العريف محمد يتابع توجيه الشتائم له .

اخرجوا العريف محمد من الخيمة مع المساعد وعاد الى خيمته . لقد نسي العريف محمد كل القوانين الصارمة ونسي نفسه تذكر فقط كلمة والدته : الذي لا يدافع عن كرامته لا يدافع عن وطنه . لقد رد بعنف وبصوت عال بل كان صوته صراخاً سمعته كل السرية ، أمار الحضائر كانوا واقفين . رقيب أول السرية خاف بدوره فلم يخرج من خيمته .

كانت لحظات متوترة قاسية لفّت الجميع بالوجوم . وتخيل الجميع أن هذه الحادثة سوف تؤدي بالعريف محمد إلى الاعدام ؟

خرج المرشح احمد وطلب من المساعد أول حسين أن يجرّد العريف محمد من سلاحه .

كان قائد السرية قد اخبر قائد الفوج ان عريفا تمرد في السرية ، ماهو قراركم ؟ وكون قائد السرية كان مخمورا فلم يستطع أن يشرح تفصيلات الحادثة ولم يتصرف كقائد عسكري ، فأجابه قائد الفوج ارسله لي . وخاصة بعد أن عرف أن العريف المتمرد هو العريف محمد .

قال المساعد أول حسين الذي يطبق القوانين العسكرية بحذافيرها : علينا أن نربطه حتى لا يهرب ، رغم أنه كان متألماً جداً .

واردف العريف محمد : اطمئن لن أهرب اطلاقا ، لم اهرب في يوم ما

مهما كانت الظروف قاسية ولن أهرب .

وأردف صائحا : وهذا الكلب الحقير رقيب اول السرية سوف اضع جزمتي على رقبته .

وانطلقت السيارة بالعريف محمد باتجاه قيادة الفوج وفيها اثنان من الجنود والمساعد أول حسين قائد فصيلته وكذلك المرشح احمد . وأصر المساعد أول حسين على شد وثاقه بحبل كان معه قائلا : انها القوانين حتى لا يعاقبنا قائد الفوج .

حزن العريف محمد لتصرف المساعد أول حسين ولم يمنعه المرشح احمد ، بل بقي صامتا .

تذكر العريف محمد اساتذته في حزب البعث العربي الاشتراكي ، احرار العالم يناضلون ضد الامبريالية والفاشية ، يموتون ، يصدمون يسجنون ، يبقون في ضمائر الشعوب . هذه الكلمات كان قد سمعها عشرات المرات من المحاضرات التي كانت تلقى عليهم في مكاتب الحزب .

وأما الآن فالأمور مختلفة جداً . فهو مجرد عريف مجند اتهم بالتمرد على خط النار بمواجهة العدو ، قد يعدم ، لا يعرف ماذا يتصرف به قائد الفوج ، ولكن المسافة قريبة ، دقائق وتكون السيارة في قيادة الفوج . لا تزال العتمة مخيمة على تلك البطاح ، انفجارات القنابل في القطاع الشمالي مسموعة بوضوح ، وبعض القذائف المضيئة التي خف ضوؤها بفعل الغيوم . وقد اشتد المطر واصبح اكثر غزارة .

« ١٥ »

على هذه الطريق وفي هذا المكان ومنذ أيام قتل العدو الملازم أشرف قائد السرية ، وأسر الملازم ياسر قائد السرية الأولى ، قتل جنود ومجندون لم يذكر الراديو اسماؤهم . ارسلت جثثهم في صناديق مغلقة الى ذويهم في الريف «مساكين نحن» أين محاضرات الحزب ؟ بالأمس قرأ في جريدة البعث عن ثورة الجزائر ، كم أثاروا حماسته أن يذهب ويلتحق بثورةالجزائر ولكنهم لم يقبلوا إلا الأطباء ، النضال هنا بمواجهة العدو . في أرض انتهكتها الغزوات وقد فرض عليهم أن يدافعوا عنها بدون اسلحة ، أو بسلاح فاسد .

طار بعض الغربان عن شجيرات قرب قيادة الفوج ، محرك السيارة يشخر وهي صاعدة . السائق غير راض هو يقود السيارة وقد اصابه الرعب عندما مر من المكان الذي استشهد فيه الملازم أشرف ثم تحدث وهو يشتم ساعة النحس ويلعن الشيطان ، ومع ذلك كانت السيارة تجتاز حومات المياه على الطريق . وبجانبه جلس المرشح احمد بمفرده وخلفه على المقعد الخشبي جلس المساعد أول حسين وجنديان مسلحان من الفصيلة الأولى .

وقفت السيارة عند مدخل الفوج ، ونزل المرشح احمد ، وأعطى كلمة السر ثم دخلت المجموعة تحيط بالعريف محمد .

ليست المرة الأولى التي يزور فيها العريف محمد قيادة الفوج . فقد زارها مرتين سابقاً ، عندما عين أول مرة بالفوج استقبله المساعد أول مخلوف رئيس

ديوان الفوج ، في الخامسة والاربعين من العمر وقد غزا الشيب شعره فأصبح بياضه اكثر من سواده . وكان وجهه أبيض يميل الى الشقرة وعيناه زرقاوان ، كان المساعد أول مخلوف في لباس الميدان حتى انه ارتدى خوذته ، معه اثنان من الجنود المسلحين جاهزان لاستلام العريف المتمرد . لم يعرف بعد من هو هذا العريف ، كان المساعد أول مخلوف يهتم بتاريخه فقد خدم في الجيش الفرنسي اكثر من خمسة عشر عاماً وهاهو قد امضى عشر سنوات تقريباً بعد الاستقلال . يتحدث عن بطولته يوم الاستقلال ، وكان قائد الفوج يوم الاستقلال برتبة ملازم ، عندما تمردوا على القيادة الفرنسية في ثكنة اللاذقية مع الجنود السوريين . تضامنوا مع الملازم وبعض الضباط واعتقلوا قيادة الحامية من الفرنسيين وتوصلوا الى اتفاق ان يتسلموا الثكنة وينسحب منها الفرنسيون أما السوريون فقد استلموهم جميعاً .

كان يفتخر عندما يعرض تاريخه وقد عرضه أول مرة حينما وصل فيها العريف محمد الى قيادة الفوج . حيث شرب الشاي في ديوان الفوج واستمع الى المساعد أول مخلوف عن يوم الاستقلال . وكان قائد الجبهة الحالي العقيد في رتبة نقيب . ويبدوأنه كان في الوسط بين الفرنسيين والسوريين ، ولكن المساعد أول كان يفتخر انه والملازم سليمان الذي استلم الثكنة ووقع على الأضابير وهو يتابع افتخاره ، انه استلم ثلاثين حصاناً وعشرين بغلاً ، وستة نقباء واربع ملازمين أولين ومن بينهم قائد الجبهة الحالي . ثم العتاد والأسلحة أيضاً ، ثم يعود ويلوح برأسه قائلاً : اصبحوا الان قادة كبار يتحكمون بنا . هذه هي الحياة ، اقتربت من التقاعد . بسيطة ، ووقع المهمة التي امامه ، لا يزال يعيش على هذه الذكرى وكأنها جزء من حياته . ويشدد المساعد أول مخلوف انه استلم البغال مع النقباء ، انه بذلك يسيء الى قائد الجبهة ، ومن مجرى حديثه كان يتضح أن عواطفه ضد قيادة الجبهة وهو متضامن مع قائد الفوج ، لأن له تاريخا مشتركا معه تاريخا مشرفا يتحدث عنه باستمرار ، يريد أن يعرف كل مجند وكل جندي وكل ضابط هذه الواقعة ونظر الى العريف محمد الموثق من يديه ووجه سؤاله : هذا أنت !؟ لماذا عملت هكذا ؟ أعلم أنك شجاع ومتعلم وترتكب

مثل هذه الحماقة ! ووجه الحديث للمرشح بعد أن تبادلا التحية . ثم سلم مصافحة على المساعد أول حسين قائلا بالفرنسية كلاما لم يفهم منه أحد شيئاً .

وأجابه المساعد أول حسين بالفرنسية أيضاً .

المهم أنت هكذا على خير ! بسيطة قائد الفوج لم ينم بعد ، سوف أخبره ، ودخل مسرعاً باتجاه غرفة قائد الفوج .

كان مجمع قيادة الفوج يتألف من ثلاثة مبان اثنان صغيران وواحد كبير وقد بنيت في عهد فرنسا ، وسميت بالكمرك لان قوات الكمرك كانت تقيم فيها ، وهو مقسوم الى قسمين الكمرك الغربي والكمرك الشرقي ، ويفصل بينهما جسر بنات يعقوب على النهر ، والكمرك الغربي محتل من قبل العدو . سابقاً كان محتلاً من قبل الانكليز، وأحد الأبنيه هو نـاد لضبـاط الفوج ، والثاني الصغير لسكن رئيس أركان الفوج ، أما البناء الكبير ففيه قيادة الفوج ، وفي الصالون مكتب قائد الفوج وإلى جانبه غرفة لنومه ثم مكتب الديوان . والطابق الثاني لعائلة قائد الفوج وقد غطي تقريبا بشجر الكينا المزروع بغير انتظام .

تسلم الجنديان العريف محمد المقيد ، وانتظر المرشح احمد والمساعد أول حسين لحظات عند باب الصالون ، كان المساعد يتحدث لنفسه بالشركسية وكان عابسا حزينا متضايقاً ، خرج المساعد أول مخلوف وأمر بدخول المرشح احمد وانتظار الاخرين ، ولم يبد المساعد أول مخلوف ما يدل على شيء وراح يتحدث مع المساعد أول حسين بالفرنسية التي يتقنانها جيداً . كان الحديث حول العريف محمد وكيف جرت الحادثة . وقد فهم العريف محمد ان المساعد أول حسين كان يتحدث لصالحه ، ولكنه لم يفهم من الحديث إلا كلمة (كابورال) أي عريف بالفرنسية .

كان صوت قائد الفوج يسمع من خلف الباب المغلق ماذا كان يتحدث ومع من هذا غير معروف ؟ والباب يحرسه خفير مستعد لأي طارىء .

بعد حوالي خمس عشرة دقيقة خرج المرشح ودخل ثانية المساعد أول مخلوف ثم خرج وادخل المساعد أول حسين لمدة أقل من عشر دقائق بعد ذلك خرج ودخل المساعد أول مخلوف ، ثم دخل الجميع .

كان قائد الفوج يرتدي لباس الميدان بما فيه الحذاء ، ويرتدي بدلة عمل انيقة جداً وقد خلع سيدارته عن رأسه ، كان يسير في أرض الغرفة ذهاباً وإياباً ، وعندما دخلوا وقف ونظر اليهم ثم أمر المساعد بحل وثاق العريف محمد وأشار إلى المساعد أول مخلوف الذي أسرع وفك الحبل المقيد به العريف محمد ، وتابع خطواته وهو يدخن سيكارة من مشرب طويل . كا ن يقيس الغرفة بحركة سريعة منفعلة ، التفت الى المرشح قائلا: قائد سرية سكران كيف يقود السرية لو كان هناك قتال ، وفي هذا المطر ماذا يريد أن يكون الجندي خارج من (حمام الملك)؟ (حمام في دمشق) طبعاً بدلات الجنود في مثل هذه الحالة وهذا الطقس تكون ملطخة بالوحل ومبللة بالمطر ، ولكن يبدو أنه لم يخرج من خيمته هذه الليلة . وانهال بشتائم على القيادة العليا التي أرسلته وهو ضابط مدرعات ، قائلاً : ارادوا ان يعاقبوه فارسلوه الى الحد الأمامي كل يوم يخلق مشكلة ، بكلامه البذيء . هل أعراض الناس ملك له ! ـ عند كل جملة كان يتوقف ويوجه نظرة الى المرشح ـ لو أطلق هذا العريف النار عليه ماذا كان سيعمل لا شيء ! ماذا تعمل القيادة ؟ نعدم العريف ؟ هل يصلح هذا لقيادة السرية في الخندق الأول بمواجهة العدو ؟ القائد على الخندق الأول يجب أن يشارك الجنود في كل شيء في طعامهم ، في دورياتهم وكمائنهم . يسهر على راحة السرية ، بينما يسهر طوال الليل وهو يسكر ، ثم يشتم قادة الدوريات ، بدل ان يكافئهم !!!!

كان شعر قائد الفوج أسود فاحماً ويتدلى من وسطه مسدس حربي ، ويلمع على كتفه نسر نحاسي على بدلة العمل . وتحت بدلة العمل كان يرتدي كنزة عسكرية قد غطت صدره ورقبته . كانت أرض المكتب نظيفة إلى حد ما لولا احذية الجنود الملطخة بالوحل . وشكل العريف محمد كان يرثى له كان ملطخاً بالوحل بلله المطر ولولا انه كان يخشى ان يعتبر ارتجافه خوفاً ، لسمح لنفسه بالارتجاف من البرد وهكذا تمالك نفسه ، وتابع الرائد قائلاً : بكلمة واحدة قائد سرية فاشل ، اسمع مساعد مخلوف ـ قالها بلهجة الأمر ـ ضعه في فصيل احتياط قائد الفوج واشار بيده للعريف محمد . وخرج الجميع من عنده ،

لم يتكلم احد بكلمة واحدة ، خرجوا وركبوا السيارة التي كانت تنتظرهم ، ولكن العريف قال للمساعد أول حسين سلّم على الحضيرة ، لا تنسى العريف زيد وغد ، لم يجب الأخير بل قال الحمد لله ساعة شيطان انتهت على خير وراح يتكلم بالشركسية مع نفسه ، واتجهت السيارة باتجاه السرية الثانية . وكان بجانب السائق المرشح احمد الذي لوح بيده للعريف محمد مودعاً .

فكر العريف محمد بموقف قائد السرية النقيب بكري ، خاصة وقد زال خوفه ، انه الآن يشرب الشاي مع المساعد أول مخلوف الذي راح يقص عليه بطولته في ثكنة اللاذقية مع الفرنسيين وهاهو يسمعها للمرة الثانية ، ورغم ذلك كان يشرد بأفكاره عند النقيب بكري ، كيف يفكر عندما يصحو من سكره ، ماذا يقول للمرشح ؟ ألم يندم على كلامه وتصرفه معي ؟ لا أعتقد أنه ضابط ولكن قائد الفوج تصرف بحكمة ، لا يريد أن يسمع أحد بأن عريفاً تمرد في فوجه سواء بقيادة الجبهة أو في السرايا ، انه بمواجهة العدو ماذا يعمل مع قائد السرية هذا مالن يعرفه احد حتى المساعد مخلوف لا يعرف ماذا يدور بينه وبين ضباطه قادة السرايا . وعلى كل حال يبدو أن قائد الفوج لا يريد أن يعطي أي اهتمام لهذه الحادثة وأشعر الجميع أنها عابرة ويمنع التداول فيها .

كان قائداً حازماً ولم تكن قيادة الجبهة على وفاق معه ايضاً ومع ذلك فهو قائد فوج في خط المواجهة مع العدو .

وقد عززالفوج بسرية مدفعية ضد الدبابات ، وسرية هاون متوسط ، وتوجد سرية هندسة ، ومواقع وفق درجة الاحتمالات المتوقعة من قبل العدو .

صعد قائد الفوج الى بيته ، وعم الضياء الكون رغم أن الغيوم قد حجبت الشمس ، وفي مكتب المساعد أول مخلوف جانب المدفأة بدأ العريف محمد ينشف ثيابه المبلولة ويشرب الشاي الساخن ، كان صوت المدفأة يقرقر أيضاً ، فالغرفة دافئة جداً ، ورغم ذلك فالمساعد مخلوف بعد أن اطمأن بأن قائد الفوج لن يعاقب العريف محمد قرّبه اليه أكثر وراح يحدثه عن تاريخه في تلك الثكنة ، وان حظه قليل في هذا الجيش كان يجب أن يكون ضابطا .

كان يتحدث وقد احضر قليلاً من الزيتون والجبنة وبدأا يتناولان الافطار ، والغرفة لابأس بها في البناء العام . وكان الرقباء يأتون ويذهبون . يتلقون تعليمات كثيرة وواضحة لهم طلبات منها ما يلبى ومنها ما يرفض . وكان المساعد رجلا طيبا . كان يحب الصيد . الزرازيز تنام على شجر الكينا باعداد كبيرة ، وقد اصطاد المئات منها ، جهز قسما منها وشواه على تلك المدفأة .

فصيلة الاحتياط تنام خلف البناء في ثلاث خيام جماعية كل خيمة اعدت لتستوعب حضيرة .

دخل مراسل من السرية الثالثة وأعلمه عن ابقار تجتا ز النهر من الغرب يومياً وتساءل : ماذا يعملون بها ؟ وأعطى قرارا بفرز أحد الرعاة ، وما أكثر المجندين الرعاة في هذا الفوج .

وقال : حتى رعاية البقر تحتاج الى قرار من قائد الفوج !!!؟!!!

« ١٦ »

ضحى ذلك اليوم وصل الى قيادة الفوج الرقيب خمسان ليعرف ماذا حل بالعريف محمد ، وكم كان مسروراً عندما علم بأنه لم يعاقب ، لان رقيب أول السرية اشاع بالسرية بأنه قد يعدم هذه هي قوانين الجبهة وقد تمرد العريف وسوف يحال الى المحكمة الميدانية و. . و. . الخ كم كان جنود السرية يصغون الى أخبار العريف محمد بحزن وخوف . وازدادت مخاوفهم عندما عاد المرشح احمد والمساعد أول حسين وحدهما دون العريف محمد الذي لم يعرف ماحل به .

كان الجندي نويصر يبكي صديقه ، وقد ألم به حزن عميق معتقداً بأنه كان هو السبب وأصل المشكلة لكن العريف زيد كان مسروراً فقد تسلم آمرحضيرة بدلاً من العريف محمد .

في نهاية الشهر سيجري ترفيع العريف محمد الى رتبة رقيب مجند اذا لم يعاقب فحتى الان لم تسجل في سجله أية عقوبة .

كانت سيارة التموين تأتي وتذهب الى مدينة القنيطرة يومياً . فكر بأن يحصل على جريدة البعث . ويتابع أخبار الحزب من الجريدة ، بعض رفاقه أصبحوا الآن ضباطاً في الجيش ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين ضابط ورقيب مجند

أو عريف .

خرج من عند المساعد أول مخلوف إلى خيام المجندين وأجرى تفقداً عليهم وعلى أسلحتهم . الجميع يحملون البنادق إضافة إلى رشيش واحد ٢٤ ـ ٢٩ يحمله جندي الفصيلة . ويقود الفصيلة المساعد أول مخلوف ، وهاهو الآن العريف المجند الوحيد في الفصيلة ، وقد قال عند المساعد أول مخلوف أنه معاون قائد فصيلة . وبدأ يصل إليه بعض الأفراد تباعاً من السرية الثانية ليتأكدوا ماذا حل به ، لم يصدقوا الرقيب خمسان وقالوا له أنت تكذب معقول بعد الذي حصل يصبح معاون قائد فصيلة . لقد وصل نويصر أيضاً ظهر ذلك اليوم واطمأن على صديقه بأن الأمور سارت عكس ما توقعه أفراد السرية ، وعكس ما أشاعه رقيب أول السرية والعريف زيد .

وصل قائد السرية عصراً ودخل إلى قائد الفوج ، لم يبق طويلاً في مكتبه وعاد إلى سريته وقد ظهر عليه أنه غير متضايق ، لكنه قال للمساعد أول مخلوف قد يخطىء الانسان أحياناً ، نحن بشر . لقد حصل خير ، وساعة غضب كنت فيها ، لا أعرف ما حدث .

ولذ أظهر النقيب بكري رغم كل صفاته السيئة ، أن في داخله شيئاً طيباً ، كان يحب النظام ولا يتساهل مع أحد ، وأحياناً لا يأتي وأحياناً يشتم الأغنياء ويشتم القيادة . ثم يخاف أيضاً من الذين حوله . عاد إلى السرية .

الوحيد الذي حاول أن يتابع العريف محمد ويدس عليه كان رقيب أول السرية ولكن لمن ؟ الى المساعد أول مخلوف فقد أخطأ هذه المرة ، لقد وصل قبل الغروب بقليل . في سيارة قائد السرية ودخل عند المساعد أول مخلوف ، وتحدث معه عن العريف محمد . قال عنه إنه بعثي . كان المساعد أول مخلوف يكره الحزبية فهو ينفذ القانون وفي الجيش الأحزاب ممنوعة . استمع إليه جيداً وخاصة بعد أن سمع بكلمة بعثي ، ثم أردف انه خلق كثيراً من المشاكل في السرية فهو قد حرض الجنود قائلاً ان الاسلحة فاسدة ، وكذلك القيادة ، لقد دس مافيه الكفاية ، لكن المساعد مخلوف لم يجرؤ أن يسأل قائد الفوج لماذا لم يعاقبه اطلاقاً لا بل كافأه بأن جعله معاون المساعد أول في قيادة فصيلة الاحتياط

الوحيدة بيد قائد الفوج . ومرت عدة أيام وهو في قيادة الفوج ، كانت عائلة المساعد مخلوف في مدينة القنيطرة ، وقد ورد من استطلاع الفوج أن العدو تسلل إلى منطقة الأبراج شمال قيادة الفوج ، وتحركت فصيلة الاحتياط بقيادة العريف محمد إلى منطقة الأبراج ، وطوال الليل كانت تبحث عن متسللين ولكن الاستطلاع كان واهماً فقد عبر الحدود قطيع من الخنازير ، في منطقة غير ملغومة . وظن الاستطلاع أنها العدو وقد عبر بفصيلة إلى الأبراج لتفجيرها . والأبراج فيها سرية مضادة للدبابات ، ولا تؤثر فيها قذائف المدفعية ولا الهاون ، وكم كان مسروراً قائد الفوج عندما قدم العريف محمد تقريره حوالي الساعة الواحدة بعدم تسلل العدو وان تقرير الاستطلاع كان واهماً . وانه عاد بالفصيلة ولم يحدث أي حادث وقد سيطر عليها سيطرة كاملة على الرغم أن عناصرها مجندون أغرار لم يتدربوا مافيه الكفاية .

كثيراً ماكان يلتقي مع المرشح أحمد ويتبادلان التحية والحديث وكذلك مع المساعد أول حسين وأغلب جنود السرية يأتون إلى قيادة الفوج في أوقات راحتهم لأنها على طريق مدينة القنيطرة، يوجد فيها دكان السمان الذي يتوفر فيه كل طلبات الجنود . وأي جندي يأتي من السرية لابد أن يمر على العريف محمد ويشرب عنده الشاي ، ويتبادل معه الحديث وينقل سلامه إلى أفراد السرية .

ولقد بذل جهداً مع المساعد أول مخلوف الذي كان يحترمه كثيراً بنقل الجندي نويصر من السرية الثانية إلى سلاح الوضع وعين في مخفر تل أحمر جنوب غرب جرابا بحوالي كيلو متر وبذلك تخلص الجندي نويصر من الفوج ومن سيطرة قائد السرية عليه ومن ملاحقة رقيب أول السرية له ، وأصبح بامكانه كل يوم أن يزور قرية جرابا . وبعد التحاقه عندما زار العريف محمد في الكمرك قال انه سكن في دار «أبو خلف» وكان نقله وتعيينه في مخفر تل احمر على سلاح الوضع اهانة لرقيب أول السرية . ان قائد السرية لم يفكر بمثل هذه الأمور إذا لم يكن يثيره رقيب أول السرية وبعد حادثة العريف محمد أصبح أكثر جدية وابتعد عن المدنيين ، ويبدو أن قائد الفوج أعطاه تعليمات مشددة وخاصة في زيارته للقرى فقد اقلع عنها نهائياً وأصبح في اجازاته يذهب إلى مدينة القنيطرة ومنع أبا

خليل من زيارة السرية .

قائد الفوج استمع مفصلاً للمرشح احمد ، وكذلك للمساعد أول حسين عن سلوك قائد السرية ، كل هذه الملاحظات استفاد منها العريف محمد الذي ظهر بمظهر المدافع عن المجندين في السرية ، واحتفظ له الجميع بنظرة الاحترام رغم بعده عنهم ، وقد التقى مع النقيب بكري قائد السرية بعد أكثر من اسبوعين على هذه الحادثة. وحياة العريف محمد باحترام ، وتوقف قليلاً وهو ينظر إليه ثم سأله :

ـ كيف حالك هنا أفضل أم عندي في السرية ؟

ورد العريف محمد : في أي مكان يا سيدي نقوم بواجبنا ، والخدمة معكم جيدة ، كنت أتمنى أن ابقى في سريتكم ، لكنكم لم ترغبوا بي .

وابتسم النقيب بكري قائلاً : سوف أحدث قائد الفوج وأعود بك إلى السرية .

وأردف العريف محمد : نحن نخدم الوطن في أي مكان وفي أي قطعة ومع أي قائد .

وتابع النقيب بكري انت رجل شجاع متى تصبح رقيباً ؟

فأجاب العريف محمد : نعم يا سيدي في آخر الشهر بعد عدة يام .

وقال النقيب : الآن اسبوع الجزائر كم أنا بحاجة إليك في السرية حتى تشرح للجنود معنى ثورة الجزائر ، وتكون أنت المشرف على جمع التبرعات من السرية !!!!

رد العريف محمد : نعم ياسيدي النقيب أنا جاهز للعودة للسرية ، وسوف أدفع الراتب الأول بعد ترفيعي تبرعاً لثورة الجزائر .

فرد النقيب بكري : أنت رجل شجاع . ولم يقل كلمة عريف ، وأردف سوف أتحدث مع قائد الفوج وستعود إلى السرية غداً أو بعد غد .

لم يخف العريف محمد من النقيب بكري ولم يفكر بانه سينتقم منه لأن كلام النقيب بدا صادقاً وهي الحالة التي يكون عليها عندما لا يكون ثملاً . كان العريف محمد يرغب في أن يكون بعيداً عن قيادة الفوج . لأن فصيل الاحتياط

مستنفر ليلاً ونهاراً ولم يستطع أن يحصل على أية استراحة ولم يستطع أن يقرأ أي كتاب وهذا الأهم خاصة أنه قرر أن يتقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية في آخر العام الدراسي .

احترام قائد الفوج له الذي كان يناديه باسمه ـ محمد تحرك ـ محمد استنفر ـ محمد اذهب . رفع من معنوياته . والخدمة مع المساعد أول مخلوف كانت جيدة انه يحب أن يطبق القوانين العسكرية وقد سمع ببطولته في ثكنة اللاذقية للمرة الخامسة عشرة ، واستدعاه قائد الفوج عصر يوم في نهاية شهر تشرين الثاني وكان المطر غزيراً . قال له : إلى السرية الثانية ، كن انضباطياً ولا تخالف الأوامر العسكرية . عريف شجاع ، اشرح جيداً للجنود ثورة الجزائر .

كانت مفاجأة للسرية الثانية عندما كانت سيارة النقيب تدخل السرية والعريف محمد يركب في الخلف وقد شاهده الجنود عائداً . كانت ثيابه مبلولة بالمطر وخوذته على رأسه وكيس البحار انزله من العربة متجهاً إلى الفصيلة الثانية ، وقد استقبله الرقيب خمسان والمساعد حسين قائلاً : عد إلى حضيرتك ، آمراً للحضيرة الثانية .

لقد استثمر عودته مع قائد السرية وأصبح رقيب أول السرية يخشاه كثيراً وبدأ يشرح معنى ثورة الجزائر بين المجندين افرادياً . وقد تنازل عن راتب الشهر الذي ترفع فيه إلى رتبة رقيب مجند . تحلق حوله المجندون عندما كان يشرح أفكاره عن الوحدة العربية وحرية الانسان وكيف يمكن الانتصار على العدو . بالاقتصاد المتين المبني على الأسس الاشتراكية .

بدأ اسبوع الجزائر في نهاية شهر تشرين الثاني وكان قد مضى على استشهاد الملازم أشرف أربعون يوماً، كانت العاصمة تقيم له حفلة تأبين مترافقة مع مظاهرات تجوب الشوارع مؤيدة ثورة الجزائر وتدعو للنضال ضد مشروع ايزنهاور ، وكذلك ضد كل الأحلاف في المنطقة . كان النشاط في الجيش واسعاً لشرح ثورة الجزائر وكفاح الشعب العربي ضد الأحلاف ومن أجل الاستقلال ووحدة الشعب العربي .

بدأ شهر كانون الأول ماطراً وقد غطى الثلج قمم جبل الشيخ وكساه حلة

بيضاء . وساد هدوء في القطاع الأوسط وعلى طول خطوط وقف اطلاق النار وارتفعت نسبة الاجازات حتى خمس وعشرين في المئة ، وسمح للمتزوجين إذا لم يكونوا مناوبين أن يناموا في بيوتهم . وعاد الضباط للسهر ثانية في نادي ضباط الفوج .

كان الرقيب محمد يطالع جريدة البعث ويتابع ثورة الجزائر وثورة مصر والصراع على قناة السويس ، والناس بين أخذ ورد وقيل وقال ناس مع الغرب وناس مع الشرق . وعندما يتحدثون عن الاتحاد السوفييتي يقفون طويلاً ، وطويلاً جداً ، ويدور نقاش حاد هل هم معنا رغم أنهم ملحدون أم ضدنا ؟ وديننا لا يسمح بالاتصال بهم وكلمات غير مسؤولة تقال هنا وهناك ؟!!! كان هذا هو الوضع العام في العاصمة .

البعث ضد الشيوعية لماذا ؟ لا أحد يعرف . الحزب الشيوعي لا يعرف لماذا هو ضد حزب البعث أيضاً ؟!!! يبدو أن التخلف امتد إلى كل شيء ، لف المجتمع لفاً وعصب عيون قادته فاعمتهم انانيتهم عن مواجهة الحقيقة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، يريدون الهروب إلى الأمام ، العدو يضغط بكل ثقله ، وليس هناك من يستطيع تحمل هذا الضغط فيهربون من هذا الواقع المؤلم وأحياناً يتقاتلون .

تتقاتل القوى الوطنية بين بعضها البعض تحرضها البرجوازية والاقطاع ، الأحزاب الرجعية متحالفة مع بعضها وتربطهم صداقات خارجية مع دول استعمارية .

في دمشق كان المطر والمظاهرات والنقاشات الحادة ، والحركة الدائبة .

كان الرقيب محمد يشرب الشاي مع قائد فصيلته المساعد أول حسين في الخندق ، وحضر الجلسة الرقيب خمسان ، ودار الحديث عن الجندي نويصر . لقد تذكره الرقيب قائلاً : الآن يعمل في مخفر تل أحمر قرب جرابا ، هل اتفق مع «أبو خلف» أم لا يزال ينتظر ؟ وحزن الرقيب خمسان بل وتغير لونه من ذكر كلمة جرابا ، هذا السر الخفي الذي يطويه الرقيب خمسان لم يبح به أبداً رغم كل المحاولات .

كان الرعاة قد ركنوا إلى بيوتهم لغزارة الأمطار المتواصلة وفوق الهضبة بدا الثلج كلفّة شيخ جليل . ومدينة القنيطرة بدأت تغطي بالثلج شيئاً فشيئاً . تل «أبو الندى» كان كمن شاب رأسه ، ورقيب أول السرية لا يزال على عادته في الدس على رفاقه . أما قائد السرية فقد كان يسكر في نادي الفوج ويأتي مخموراً وينام فور وصوله . لم يغير طبيعة لسانه كثيراً ولكنه أصبح أكثر حذراً من ذي قبل بسبب توصيات قائد الفوج وملاحظاته المتكررة له .

كانت بوسطة قرية البطيحة رغم كل هذه الأمطار تشق طريقها ذاهبة باتجاه مدينة القنيطرة ، وقد ركب في أعلاها بقدر حمولتها ، فهي تستوعب حوالي ثلاثين مقعداً ويقف في داخلها عشرة بين المقاعد ، وعلى سطحها عشرون ، ويتعلق على السلم الخلفي حوالي خمسة أشخاص أيضاً ، وسائقها ، يشرب الشاي بشكل دائم رغم انه قد اركب راكباًعلى يساره بدون كرسي .

وتتوقف البوسطة ويهبط منها الجندي نويصر الذي حصل على إجازة ولقد أتى إلى السرية لزيارة رفاقه فيها . فرح الرقيب محمد والرقيب خمسان عندما شاهداه وقد وقف في باب الخيمة الصغيرة في تلك الحفرة وهم يشربون الشاي .

قال الرقيب محمد : لقد انطبق المثل (اذكر الديب وجهز القضيب) الان يا رجل كنا نتحدث عنك . كان فرحاً وان كان وجهه ينم عن حزن وألم عميقين وقد بدت بدلة العمل التي يرتديها نظيفة إلى حد ما ، فعلق على ذلك الرقيب محمد قائلاً : لقد غسلت لك بدلتك غزالة ؟

وضحك الرفاق جميعاً وصب الرقيب خمسان شاياً ساخناً ، ثم قال كيف الخدمة في سلاح الوضع ؟ وتنهد الجندي نويصر قائلاً : سلاح ثابت بدون جنود ، تسمع هناك مخفر تل أحمر وتتصور أن هناك فصيلة ، نحن ثلاثة فقط . فالخدمة ليلاً ونهاراً على هذا الرشاش الثقيل . وقد يفاجئنا العدو في أي وقت . ليتني لم أنقل إلى هناك ، الآن اذهب الى قرية جرابا في النهار ساعة واحدة فقط ويجب أن تكون محترساً من كمائن العدو ولكن كل شيء مقدور ، هذا قدري ، وسوف اعمل جاهداً حتى أتزوج وعندها سأنتقل من كل هذه الجبهة .

العريف زيد كان في الخيمة المجاورة عندما شاهد الجندي نويصر أراد أن يستفسر عنه أيضاً ، وبعد أن سلّم عليه بادره قائلاً : كيف جارك أبو خليل هل تأخذ غزالة أم يأخذها هو ؟

ونظر الرقيب محمد إلى العريف زيد ، وقال له : يازيد غزالة خطيبة نويصر وسوف يأخذها قريباً جداً .

ـ ما رأيك كل شيء جاهز في بيت أهلها والدها موافق تزوجها وبعد ذلك تنتقل ؟

ولاح برأسه قائلاً : ومن يحسم هذا الأمر مع والدها ؟

ونظر الرقيب محمد في وجه الرقيب خمسان . غدا اجازتنا النهارية وقد نذهب .

كان العريف زيد يستمع ولكنه لم يبد أية معارضة وخاصة مع الرقيب محمد . الجميع عندما يتحدث يستمعون إليه بمن فيهم المساعد أول حسين . اصبح يتحدث عن افكار حزب البعث دون خوف . قائد السرية لا يزال نائماً والمرشح أحمد في خيمته ،ـ هيا بنا إليه نعرض عليه هذه الفكرة ـ تمتم المساعد أول حسين بالشركسية .

كان المرشح احمد يحلق ذقنه على مرآة صغيرة مدورة يشاهد فيها نقطة الحلاقة فقط . وكان الجنود والضباط يحلقون اسبوعياً .

كان المرشح احمد يمزح احياناً وكان مرحاً وشجاعاً ، قال وهو يحلق موجهاً حديثه الى الرقيب محمد : كنت عريفاً واربكتنا فكيف الآن وقد اصبحت رقيباً ؟! على كل حال مبروك عليك رتبة رقيب . وصب الشاي للشباب ، ولكن الجندي نويصر أسرع قائلاً : أنا اصب الشاي لكم جميعاً يا سيدي .

وأردف المرشح احمد : كيف مخفر تل احمر ، لقد ارتحت من رقيب أول السرية ، سوف تتزوج غزالة كما سمعت ، المهم ان تتزوج ، ولكن انتبه يكفي عشرة أولاد ، امها عندها ذزينة ، وضحك الجميع .

وتابع المرشح : الطقس ماطر ، بدأ الشهر على مطر والثلج بدأ يغطي جبل الشيخ ، لا يستطع أن يتحرك أحد في هذا الطقس لا العدو ولا الصديق يبدو

أن البرد سوف يشل الجميع .

ورد الرقيب محمد : ما رأيك ان نخطب غزالة للجندي نويصر غداً ؟

ولاح المرشح برأسه قائلاً : يارجل ، هي عنزة حتى نذهب غداً ؟ يجب أن نكون على ضوء قبل أن نذهب وأردف الرقيب خمسان : كلامكم ياسيدي هو الصحيح ، يجب أن ينهى كل شيء وبعد ذلك نذهب الى هناك . وأردف المرشح احمد قائلاً : اتفق مع والدها .

ورد الجندي نويصر : يمكن أن يذهب معي الرقيب محمد ويساعدني وقد أيد الاقتراح المرشح احمد .

لكن الأخير اصر ان يكون معه الرقيب خمسان ، أو المساعد أول حسين ، وقد أجاب المساعد أول حسين : «لا يفهم علي» قاصداً غزالة وراح يذكر المؤنث ويؤنث المذكر كعادته ، كان المساعد أول حسين مرحاً صاحب نكتة في أوقات الفراغ ، غيوراً على مرؤوسيه ولكنه يطبق القانون لأنه يخاف من ملاحظات رؤسائه ، دائماً كان يقول خمس وعشرون سنة خدمة مع الفرنسيين والانكليز والان الاستقلال ، لا توجد في سجلي ملاحظة . كان نويصر يشوي على الكاز في زاوية الخيمة طيوراً من الزرازير اصطادها المرشح من شجر الكينا قبل يوم وتناول كل من الحاضرين زرزوراً فعلق المرشح احمد قائلاً : هنا مطعم الانشراح (مطعم شعبي بدمشق) وضحكوا جميعاً ، كان تعليقاً ساخراً ، وكان صوت المطر يقرع على الخيمة . قال الرقيب خمسان :

ـ ان الله يكثر من تبواله علينا هذه السنة .

ورد المساعد أول حسين : حتى هذه اللحظة لم يحضر رقيب أول السرية المشمعات التي تقينا المطر . وخاصة الكمائن والدوريات .

فأجاب الرقيب خمسان قائلا : يمكن استلمها وباعها للرعاة ، من يدري ؟

وأردف الرقيب محمد : لنسأله أين المماطر .

فقال المرشح احمد : سوف نسأله ، اليوم ذهب باكرا الى الفوج وقد يأتي بها الان لا نظلمه يا جماعة رغم أنه يدس على الجميع هذه عادة تعلمها يبدو من حارته في المدينة ولم يستطع الاقلاع عنها .

تسربت المياه إلى داخل الخيمة وعمل الجندي نويصر على درئها بواسطة رفش صغير موجود في الزاوية . وشد حبالها أكثر رغم أنها مشدودة لأنها مبلولة ، وقال يجب أن يكون حبل الخيمة مثل الوتر .

كانت الغيوم موجات موجات هابطة من جبال الجليل أو من منطقة صفد . الريح قوية تصفق الخيام رغم صغرها . ويصرخ جندي من هناك شاتماً كل قوى الطبيعة التي وجدت على هذه الأرض عندما خلعت الريح خيمته ، ويسرع ليساعده الرقيب محمد أيضاً فيثبتون الخيمة ثانية .

كان الدخان يتصاعد من بيوت الرعاة وخيامهم وقد تسلل كثير من المجندين والجنود إلى هناك ، ليتسلوا بالسماع على سوالف الزمان الماضي ويسترقون النظر إلى الصبايا والنساء .

كان الهدوء عاماً ، حتى الخنازير انحشرت في وادي السمك ، واتجهت جنوباً في الوادي باتجاه الدفء حيث بحيرة طبريا بمستوى أقل من سطح البحر .

بقيت الذئاب فقط التي يسمع عواؤها ليلاً ، ويختلط عواؤها بصوت الريح عندما يشتد ويدخل بين شقوق الخيام .

الأرض كثر وحلها ، رغم الصخور البازلتية والشجيرات المتناثرة على السفح ، وقرب النهر أو في الخنادق كانت تغوص رجل الانسان في الوحل وتصبح الحركة صعبة جداً . ونظراً للهدوء الذي شمل المنطقة والقطاع الجنوبي اصبح الجنود يذهبون على الطريق المرصوف الواصل إلى قرية البطيحة على شاطىء بحيرة طبريا . وينبسط سهل بين قرية علمين باتجاه الجنوب الغربي ، حتى قرب تل مشنوق الذي يرتفع على شكل قلعة فسمي بالمشنوق . وتستمر الهضبة حيث بعد التل تقع قربة جرابا ، ثم تل أحمر الذي يقع عليه مخفر نويصر ، ثم يليها سهل البطيحة المنبسط تدريجياً حتى شاطىء بحيرة طبريا ، المشهور بخصوبته ؛ وتقع قرية البطيحة على الشاطىء الشمالي للبحيرة .

وفي الزاوية التي يصب فيها نهر الشريعة في البحيرة يقع مركز الحاصل العسكري كما يطلق عليه المدنيون ، لأن مدخل وادي السمك يطلق عليه اسم الحاصل أيضاً حيث تكثر البيوت ويعيش كثير من صيادي الأسماك هناك وقرية

البطيحة تقع بين الحاصلين ، وسهله مشهور بزراعة الخضار حيث تنقل خضاره المبكرة إلى العاصمة ومتعهدو تموين الجيش في الجبهة يحصلون على الخضار من سهل البطيحة وكذلك السمك ، وينحدر نهر الشريعة حاداً عندما يخترق الهضبة ليصب في البحيرة .

المنطقة المحتلة قرب البحيرة وغرب النهر مشرفة على الحاصل العسكري على ذلك السهل لأن الهضبة هنا أعلى بكثير وترتفع باتجاه مدينة جرابا باتجاه الشمال غرب جبال صفد .

أما في القطاع الشمالي فيكون العكس ، فالهضبة ترتفع من الشرق وتصبح مشرفة على القطاع المحتل في سهل الحولة . وأرض الجولان بمجملها سواء في الهضبة العليا أو في السهل يميل لون تربتها إلى السواد اللون الغامق وتكثر فيها الصخور البازلتية والسلاسل كلما صعدت إلى الأعلى حيث يكسو الثلج الهضبة يصل حتى جبال الشيخ .

وفي بداية شهر كانون الأول كثرت الأمطار في المنخفض والثلج في القمم ، ولذلك كان الهواء بارداً إذا أتى من الشرق ، ورطباً إذا أتى من جهة البحر من فتحة طبريا الواصلة إلى البحر ، والبحر يمتد هنا أقل من خمسين كيلو متراً وهو القطاع المحتل من قبل الانكليز واحتله الآن العدو الجديد الصهاينة .

ورغم هذا الطقس فقد حزم الرقيب محمد والرقيب خمسان أمرهما وسارا باتجاه قرية جرابا مشياً على الأقدام حاملين بنادق 49 حيث كانت الأوامر الجديدة تقضي بأن يتحرك الجندي في منطقة وقف اطلاق النار مع سلاحه في أي مكان يمكن أن يشاهده العدو ، وأيضاً لحماية الجنود من الوحوش الكاسرة وخاصة الضباع والذئاب وما أكثرها في تلك المنطقة .

لقد عبرتهما بوسطة جرابا كعادتها ولم يتوقف السائق لهما بل لاح لهما بيده من خلف راكب كان يجلس على يساره ، ورغم المطر المنهمر فقد ركب على سطحها الناس وتعلقوا على سلالمها أيضاً . اقتربا من مخفر تل مشنوق وصعدا سفحه من اليمين ثم تسلقا الهضبة باتجاه القرية . بدت تسمع كلاب القرية ، ليس هناك أي أثر للمواشي التي حبست في زرائبها من جراء هذا الطقس

الماطر . كانا مبللين بالمطر ومع ذلك تابعا سيرهما على الطريق الترابية وقد تسلل الماء إلى احذيتهما . عندما اقتربا من القرية كان الرقيب خمسان يزداد كآبة وحزناً حتى انه صمت . ظهرت فجأة السنديانة الكبيرة شمالي القرية ، والدخان يتصاعد من الدكان ، وهاهي ملامح العجوز تستمر في قعدتها تنتظر كالعادة : المجهول . كان الناس محشورين داخل الدكان لكن الدكنجي هادي كان غائباً وزوجته هي التي تدير الدكان بدلاً منه ، وكالعادة أيضاً كان هناك أبو خليل والمختار والشيخ وعدة رجال ونساء، والمرأة تبيع .

القيا السلام . فنهض الرجال جميعاً . وقال أحدهم : بالأمس كنت عريفاً هل ترفعت ؟ كانوا يستمعون جميعاً إلى الراديو الذي يذيع رسائل اللاجئين ، ويسمع اسم العجوز انها على قيد الحياة وترجو من يسمع رسالتها في هذا العالم من الفلسطينيين أن يخبر ولدها أو اقرباءها في أي مكان كانوا داخل الأرض المحتلة أو خارجها أو في أي بلد عربي أو أجنبي . ويكرر المذيع الرسالة مرة ثانية ، ويتابع رسالة ثانية من داخل الأرض المحتلة . عن كهل لم يغادر أرضه بعد ، انه لا يزال على قيد الحياة ، وقد احتل الاسرائيليون داره وهو يقيم في الحاكورة جنوب الدار في خيمة ، وتسمع رسالة الشيخ عبد الجليل والمختار من قرية عين شمس الان . كان الجميع يريدون أن يعرفوا أماكن أقرباءهم حتى زوجة هادي كانت تتكلم بصوت خافت حتى يتمكن الجميع من سماع المذياع الذي يزعق برسائل اللاجئين اليومية .

لم يكمل الجنديان سماع النشرة وخرجا مودعين وقد اخذا حلاوة ، باتجاه بيت «أبو خلف» . لم يسمعا صوت المجنون يبدو أن المطر حشره في أحد البيوت . لقد استقبلتهما كلا ب «أبو خليل» خارج الدار واستقبلهما أبو خلف داخل الدار . ورحبت أم خلف بهما كثيراً ، فمنذ حوالي شهر تقريباً لم يأت اليهم الرقيب محمد ، ووصل الجندي نويصر بعدهما بقليل ، اقتربوا من النار يجففون ثيابهم بعد أن عصروها من المياه . وأخذ يتصاعد منها البخار ، كانت أم خلف قد نهضت وقوي جسمها بعد الولادة الهرج الذي احدثته الكلاب اثناء دخولهم دار «أبو خلف» نبه أم خليل أن عسكريين أتوا الدار . رغبت أن تعرف

ماذا يحل بغزالة لأن زوجها هددها أن كل شيء تم بينه وبين «أبو خلف» وسوف يأخذها رغماً عنها . وتسللت كعادتها لتفاجأ بالرقيب محمد والرقيب خمسان ، لقد عرفت خمسان لأنها كانت تعرفه أكثر من العريف محمد ولكن الذي تراه كان عريفاً . ومحمد كان عريفاً فكيف ينادونه بالرقيب ؟ انه شبه العريف محمد كثيراً .

سألت الضيف الغريب عن العريف محمد ، فضحك الرقيب محمد قائلاً : إنه أخي .

وأردفت : سبحان الخالق الناطق كأنك هو . ولم يتوقف عند كلامها كانوا جميعاً ، يشربون الشاي ، وغزالة وأمها تعدان الفطور ، وجدتها تجلس شاردة دون أن تتكلم ، قطع الصمت الرقيب قائلاً :

متى نأخذ غزالة ونقيم عرس نويصر يا «أبو خلف» ؟

ولأول مرة يتدخل خلف بالحديث قائلاً : يا جماعة كل يوم أبو خليل وأم خليل يعملان لنا عرساً لهذا السبب أنا أرى أن يخطب غزالة ويكتب كتابها ويتزوجها متى يشاء . جدتي تقول حتى نعود إلى ديارنا ويفرح كل الأهل والاخوان ، وآخرون لهم آراء كثيرة ؟ وصاحت به جدته قائلة : الكلام لوالدك ياولد اسكت أنت وضع الطبق على الأرض . كانت البنت الثانية تجهز الطعام .

قال أبو خلف : لقد تحدثنا سابقاً عن النقد ؟

وأردف نويصر : وقد اتفقنا ، كان بيعاً وشراء وأخيراً اتفقنا على يوم العرس في منتصف الشهر وقرأت جدتها الفاتحة تيمناً برسول الله على هذا الاتفاق . وزغردت عند الباب أم خليل لقد ارتاحت الآن وسوف تنام . كان اتفاقاً نهائياً ودفع نويصر مبلغاً من المال كان معه إلى أبو خلف عربوناً . وزغردت أم خلف أيضاً . لقد نسوا انهم جاؤوا بحضيرة من البنات والشباب ولا يزالون يتناسلون بكثرة . وقد يتزوج أزواجهم ثانية ؟

تحدث الجندي نويصر قائلاً : ان حوالي خمسة رؤوس من البقر عبرت النهر شمال مخفر الحاصل العسكري ولو كان حاضراً لأتى باحداها هدية «لأبو

خلف» ، ودار الحديث كيف عبرت هذه الأبقار النهر في هذا الطقس إلى الضفة الشرقية .

رغم النهار كان البيت مظلماً ، حتى إن الطعام لم يكن ليميز كثيراً .

قالت أم خليل موجهة حديثها للرقيب خمسان :

ـ الناس ينتظرونك . لا تخذلهم ، صحيح عندهم أولاد ولكن لا يزالون شباباً .

تنهد الرقيب خمسان وأردف : كل إنسان ذهب في طريق يا أم خليل عندي زوجة وأولاد وانتهينا ، ثم حرف الحديث وقال متوجهاً الى نـويصر : مانوع البقر الذي عبر النهر هل هو جولاني أم أجنبي ؟

فأجاب نويصر : مختلط وأغلبها بقر جولاني (تسمى الأبقار التي حجمها صغير بالأبقار الجبلية وبقر المنطقة منها) .

كانت غزالة فرحة فقد انتهى الآن كل شيء وجلست حد نويصر والتصقت به . قال خمسان اصبري قليلاً وينتهي كل شيء . وضحك الجميع وتحسس أبو خلف النقود في محزمه ، وأهدى الجندي نويصر الى غزالة منديلاً جميلاً، وأهدى أخاها خنجراً . أما أم خلف فقد قبل رأسها ، وقبل رأس الجدة أيضاً وقال : وعلى البيعة أقبل رأس أم خليل .

وأسرعت غزالة إلى الدكان لتشتري الراحة (حلويات) وتنشر الخبر . كان الدكان مركز نشرة الأخبار والاشاعات في القرية . ثم عادت بسرعة .

انتهى الغداء فقفل الرقيبان راجعين إلى السرية

. وعندما غادرا القرية كانت العجوز تنتظر كعادتها . ووصلا السرية على نفس الطريق ، وزارا المرشح احمد واخبراه بما حصل ، كان المرشح احمد مسروراً وتمنى أن يذهب إلى قرية جرابا مع أنه كان يذهب إليها خلسة بين حين وآخر .

« ١٧ »

وصلت برقية إلى السرية تخبر أن أبقاراً عبرت النهر في قطاع السرية الثالثة ، شمال الحاصل العسكري ، وأي أبقار تعبر قطعاتكم أرسلوها إلى قرية البطيحة ، وسيصل المساعد أول علي من قيادة الجبهة لمعالجة هذه المشكلة .

في اليوم الثاني وصلت برقية ثانية عن قصة الأبقار هذه فقد عبرت عدة بقرات الى الضفة الشرقية من النهر في قطاع الحاصل العسكري ـ لأخذ العلم .

قال المرشح أحمد : لو أرسلوها إلى قطاعنا !!!!

وسأل مجند : كيف هربت هذه الأبقار في هذا الطقس الماطر هل هذا معقول : عشرات الأبقار تهرب من الأرض المحتلة إلى منطقة البطيحة دون أن يردها أحد ـ كنت راعياً للأبقار في احدى القرى على العاصي ولم اسمح لأي بقرة أن تغادر القطيع إلى جهة ثانية .

قال مجند ثان : قد تسوقها الريح أحياناً .

ورد مجند آخر : أنا لا أقتنع بأنها هربت ، نحن رعاة ونعرف متى يضيع أو يهرب القطيع ؟ـ!!!!

وانتهى الحوار دون أن يستطيع الجنود أن يصلوا إلى أجوبة كافية على اسئلتهم المحيرة .

حصل المرشح جهاد على اجاز ة عشرة أيام ، كما حصل الرقيب وهدان على اجازة لمدة يومين ، وحصل المساعد أول حسين على اجازة يومين . وفي اليوم السابق مر في موقع السرية الثانية قائد السرية الثالثة . وقد حصل على اجازة يقضيها في الداخل ، حوالي ربع السرية حصل على اجازات قصيرة

وطويلة وخاصة المتزوجين .

في مساء ذلك اليوم جرى تراشق بالمدفعية في القطاع الشمالي ، لفترة قصيرة ثم ساد الهدوء بعد ذلك .

زار الرقيب محمد بعض الرعاة بجانب السرية وتحدث معهم عن الرعي والبدو فاحترمته العائلة ورحبت به امرأة البيت وكان عندها بنات صبايا فخبزت بسرعة على الصاج ، خبزاً ساخناً وقدمته له مع الحليب، كان الكلب يقف في باب العتبة قد اجتازها قليلاً حتى لا يصيبه المطر ، وكانت قصة هروب الأبقار من الأرض المحتلة حديث الرعاة أكثر من المجندين .

ورغم الدخان الذي ملأ البيت اثناء الخبز ، فقد جلس المجندون مع الرقيب محمد ، كانوا يألفونه ، يتحدثون معه عن مشاكلهم ويكتب لهم الرسائل ويقرأ ما يرد إليهم ، كان يشجعهم بأن العدو مثلنا بشر يخاف ، ويقتل . وكثيراً ما تحدث مع الفلاحين والرعاة بأن يملكوا الأرض ولا يردوا على الاقطاعي الجالس في البرلمان ، والذي يأخذ حصته من الرعاة ، لا يعرفون وجهه قسم كبير منهم لم يشاهده ، يتصورون انه يذهب مع الفرنسيين والانكليز ووكلاؤه يأتون ويأخذن حصته .

قالت بنت : انه مثل الغول .

وضحكوا جميعاً لكلماتها البسيطة انه غول حقاً يأكل كل شيء ، وكانت هذه الكلمات البسيطة تحز في نفس الرقيب محمد ، انه يعرف الاقطاع جيداً يعرفه اكثر من أي شخص ، يعرف الاقطاع على حقيقته في المنطقة الوسطى والشمالية ، لقد ذاق الويلات من الاقطاع ، عندما كانت تلك الفتاة تتحدث وهم ملتفون حول الموقد يتدفأون على النار ويأكلون الخبز الساخن ، تذكر الاقطاعي ، وتذكر شوك الدردار والميرة والمدام في المحطة ، وسوط الاقطاعي يلهب ظهور الفلاحين ، اذن هو كما تقول هذه الفتاة الحافية الصغيرة ـ غول ، ولكن اليوم أتى الحزب ليفجر في وجه ذلك الغول قوى الشعب . الحزب ، الجماهير . كل هذه التعابير كانت ترتسم في مخيلته ، ولكن اليوم هو رقيب مجنـد ، عليه أن يدرس أن يتابع حتى لا يضيع الوقت ، قائد الفصيلة اجازة

يأتي بعد يومين وكذلك الرقيب وهدان ، قائد السرية لا يزال نائماً ورقيب أول السرية أيضاً في إجازة . كان يكره هذا الرقيب بعد أن أساء له خلال هذه الاشهر التي قضياها معاً .

معاد إلى السرية مع المجندين وسأل المرشح أحمد عن قائد الفوج فقيل له انه في اجازة في الساحل . وان رئيس أركان الفوج النقيب موجود .

هطلت الامطار بغزارة وبشكل متواصل ، وعلى الجنود أن يجدوا مخرجاً للمياه التي تأتي إلى الخنادق ، والوقت عصراً ، وقد حضرت الكمائن والدوريات بناء على توجيهات سابقة مع قائد الفوج اصبح قادة الفصائل يخرجون بالتناوب كل ثلاثة أيام .

عصر ذلك اليوم في ١٠/ ١٢/ ١٩٥٥ وردت برقية تذكر بأن عدداً كبيراً من الأبقار هربت من القطاع المحتل في الفاصل بين تل أحمر والحاصل العسكري . المساعد أول علي من قيادة الجبهة نزل إلى المنطقة لمعالجة هذا الموضوع . أي ابقار في قطاعكم حولوها الى الحاصل العسكري في منطقة البطيحة . لقد علق أحد المجندين قائلاً : ستكون حرب أبقار بيننا وبين العدو .

وعلق آخر : معقول هذا ياناس ؟

وأردف آخر : أنا خائف من هذا اليوم .

وتواردت تعليقات هامشية من مجندين اصلهم رعاة . لم يدركوا كيف فكرت قيادة الجبهة ، بل كيف فكر رئيس أركان الفوج . كانوا يشربون الشاي مساء ، ويجهزون الدوريات والكمائن عندما علق أحد الرقباء قائلاً : اصبحت السرية الثالثة في الحاصل العسكري ترعى البقر .

وتحلقوا في خيمة المرشح أحمد يسألونه عن الأبقار . وكم كانوا يأملون أن تأتي الأبقار إلى قطاعهم !!!!

الغيوم السوداء الماطرة تخيم على المنطقة بكاملها . لم تشاهد الشمس وقد حجبتها كثافة الغيوم عند العصر . والنهار كان قصيراً جداً حتى جبل الشيخ غطته الغيوم ولم يعد يشاهد الثلج الذي يغطيه المطر يهطل وموجات الغيوم

تسوقها الريح باتجاه الشرق .

استيقظ قائد السرية وأسرع المرشح أحمد حيث أعلمه عن تحضير المهمات . واحضرت له السيارة وخرج من خيمته وهو يرتدي مشمعاً وكان حاسر الرأس . وقفوا له باستعداد فرفع يده والتفت إليهم قائلاً :

ـ كيف الرقيب محمد . كان يسير معه إلى جانب السيارة المرشح أحمد ، ولم ينتظر الجواب بل تابع طريقه .

ورد الرقيب محمد الذي كان واقفاً باستعداد : نحن بخير يا سيدي .

كان السائق قد وضع العربة في وضع يسهل فيه دفعها باتجاه الطريق . فشخرت السيارة ، وانطلقت ونبحت الكلاب قليلاً لحظة اقلاعها . ومضى إلى قيادة الفوج .

بدأت الظلمة تزحف من الشرق ، وخرجت الدوريات والكمائن ، واشتد هطول المطر من أول الليل . خرج المرشح احمد مع أحد الكمائن من فصيلته كما هو مخطط في مهمات السرية . لم يبق في السرية إلا ثلاث حضائر وعددها عشرون جندياً مع بقية جماعة الهاون وزمرة الرشاش الثقيل أيضاً .

وقد ذهب الرقيب محمد الى الرعاة في أول الليل لأن المناوبة في السرية منظمة ، وهو رئيس حرس في حضيرته ، بجانب بيوت الرعاة وخيامهم . كان العريف زيد مناوباً في أول الليل ويأتي دور الرقيب محمد بعد الساعة الثانية عشرة . ومعه أحد المجندين ، وقد تذكر الجندي نويصر الذي خطبوا له قبل ثلاثة أيام ، تذكره عند البدو عندما تحلقوا حول النار وراحوا يشوون طيور الزرازير التي اصطادوها نهار ذلك اليوم . وتتكرر الحكايات حول المدفأة والحديث يدور حول الرعي والذئاب ، والعدو، والقذائف التي ترعبهم ، ولكنهم في هذه المنطقة ولدوا غرب النهر والان لجأوا الى هذه القرية التي هي اشبه بالخربة . يرعون فيها مواشيهم قريباً من قراهم التي احتلها العدو . ويسمع صوت ذئب جائع من بعيد يبدو أصابه البرد وتسمع أصوات ثعالب ايضاً . وترد الكلاب من داخل الزرائب ويسود صمت ما عدا قرع صوت المطر على الحجارة وصوت الريح الذي يهز حبال الخيام وقد شدها الرعاة بطريقة

محكمة افضل من خيام الجنود . انهم يسكنونها صيفا شتاء ويشعلون النار فيها .

سمع صوت انفجار ضخم في القطاع الشمالي ، وعلى أثره أنهوا السهرة وعادوا الى موقع السرية . شق لمعان قذيفة مضيئة من قنبلة هاون الليل في القطاع الشمالي ، وعاد قائد السرية في الساعة العاشرة الى السرية وتفقد الحراسة ، لم يكن المرشح أحمد موجوداً سأل عنه وعلم انه خرج مع الكمين ، وكذلك المرشح الاخر كان في اجازة والمساعد أول وكذلك الرقيب أول .

عاد إلى خيمته ، ونظر إلى برقيات الفوج ، وعلق على برقيات الأبقار قائلاً : هل هربت ؟ معقول هذا يجب أن نتصل بالحاصل العسكري ؟ كان الرقيب محمد واقفاً بحالة الاستعداد فأمره بالجلوس وسأله عن دراسته وتحضيره هذه السنة ، وشجعه على الدراسة . قال له :

ـ أهم شيء يا محمد أن تنجح . أن لا تضيع الوقت هنا وهناك ، تدرس في كل وقت . كان يتكلم هادئاً فهو لم يشرب الكحول بكثرة كعادته ، رائحة الكحول تخرج من انفاسه ولكنه لم يكن ثملاً ومع ذلك بدأ يكيل الشتائم لقيادة الجبهة على برقيات الأبقار . ثم اتصل بالهاتف مع الحاصل العسكري . كان قائد السرية الثالثة مجازا . وجد المساعد ، وسأله عن أوضاع السرية وحذره قائلاً : أخشى **أن يكـون** العدو اجرى لكم خداعاً بالأبقار يجب أن تكونوا يقظين . كان قلقاً لم يعلق على الرقيب محمد وصرخ بأحد العساكر الذين يعملون مع رقيب أول السرية ، وقال : اغل الشاي . ثم كال شتائم لقيادة الجبهة . اتهمهم بالكسل ، وتحدث بالهاتف مع رئيس أركان الفوج ، حديثاً طويلاً عن اوضاع الفوج وقلة المشمعات ومشاكل التموين في السرية ، ومشكلة المسدسات الفاسدة التي سحبت ولم تعوض . كان يتحدث وقد خلع نطاقه والقاه مع المسدس على سريره الفردي . كان الكاز قد خف في القنديل فأسرع الرقيب محمد وملأه كازا ، واحضر الجندي ابريق الشاي . لم تكن هناك كؤوس زجاجية فاحضرت الكارات التي يشرب بها الجنود احضر ثلاثه منها قائلاً : ان رقيب أول السرية قفل على الكاسات ، ورغم انه كان يتحدث مع قائد الفوج ، شتم رقيب أول السرية قائلاً : رقيب أول حمار . هل من المعقول ان نبقى بدون شاي حتى

يعود وتابع قائد السرية الحديث مع رئيس أركان الفوج ، حول الأبقار التي اجتازت النهر بعد الظهر شمال الحاصل العسكري ، كان يتشنج وهو يستمع على الهاتف وبعد أن انهى المكالمة قال رئيس أركان الفوج حمار ، يقول الريح ساقتها ؟! الريح تسوق الأبقار إلى شرقي النهر هل هذا معقول أغلب الجنود والمجندين كانوا رعاة لم يصدقوا ما يقوله رئيس أركان الفوج . شرب الشاي بكار المجندين ، كان الرقيب محمد يتابع حركاته ، رغم أنه لم يطمئن له ، ولكنه بدا له رجلاً طيباً في حقيقته وان كان لسانه بذيئاً تحدث عن الفقراء والأغنياء في حلب ، وشتم العدالة الالهية وقال : هناك من يعيش في القصور ولا يعرف كيف ينفق ماله ، ونحن نعيش مثل كلاب الرعاة من أجل ان نحرس الذين في القصور . لبس نطاقه ثانية ، وممطره ، وخرج من الخيمة قائلاً : اتبعني رقيب محمد .

عرج على جماعة الهاون الصغير ، وتفقد الرشاش وجاهزيته . سار في الخنادق وتفقد الرشاشات وجاهزية المناوبين .

عبر في منطقة الرعاة وتحدث مع الرقيب محمد قائلاً : لابد أن فتياتهم جميلات . لم يسمح له مركزه بالاحتكاك الدائم معهم ، ومع ذلك تردد في الدخول إلى أحد البيوت وعاد إلى السرية قائلاً : الوقت متأخر . سمع صوت انفجارات متلاحقة في القطاع الشمالي ، من موقع معاد وقذيفة مضيئة وكان اللمعان خافتاً لأن الغيوم تحجب حتى ضوء القذيفة ، فتبدو الاضاءة وهجاً أحمراً مكتوماً . عاد إلى خيمته مع الرقيب محمد ، لم ينم . شربا سوية الشاي ، سأل عن اقطاعي حماه واصحاب الخانات المرابين وقال : هؤلاء أسوأ منهم . كان المطر يقرع على الخيمة . وحدث انفجار ضخم في القطاع الجنوبي على الحاصل العسكري . خرجا من الخيمة ونزلا في الخندق ، أعطى الأوامر باحتلال موقع السرية وتجهيز الرشاش الثقيل وشقت الظلمة بضوء أحمر من القذائف المضيئة المتلاحقة . كانت على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا . وعلى الحاصل العسكري .

كان النقيب بكري متوتر الأعصاب ، تحدث مع مركز الحاصل

العسكري . ورد المساعد قائلاً : نقصف بالمدفعية والسرية احتلت الخنادق ولكن القصف مركز وكثيف ، وقع بعض الجرحى ، ويوجد قتيل بعد الدقائق الأولى من رشقة المدفعية الأولى . ولكن العدو ركز قصفه على كل المخافر على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا وخاصة على الدوكا ، والكرسي ، وسكوفيا ، كانت تسقط في كل ثانية قذيفة وبشكل متواصل . فبدت السماء مشتعلة وأضيئت أرض المعركة بأشعة مختلفة الألوان .

عند بداية الرشقة عاد المساعد أول علي من قرية البطيحة وأعلم بالهاتف الحاصل العسكري **في علمين عن ذهابه ولم يجتز إلا بضعة كيلو مترات حتى وجد الطريق مقطوعاً بواسطة كمين معاد ، وأخذ أسيراً مع السائق ، وأفاد مخفر المشنوق أن العدو يقصف مخفر تل أحمر بالهاون .**

كان مقسم السرية ينقل البرقيات الى قائد السرية وهو في موقعه لكنه بعد فترة خرج من الخندق ودخل المقسم وأخذ يتصل برئيس أركان الفوج وفي السرية الأولى ، والسرية الثالثة بالحاصل العسكري .

كان القصف شديداً، حتى كلاب الرعاة نبحت في بداية القصف ولكن الأمور تطورت بشكل أسرع من المتوقع فلقد كرس العدو كميات كبيرة من قذائف المدفعية آلاف الطلقات صبت على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا .

انقطع الاتصال مع مخفر تل احمر من الرشقة الأولى ، ذات يوم تحدث الجندي نويصر عن قوة هذا المخفر ؟ فيه رشاش واحد ثقيل مع رقيب وجنديين احدهما نويصر . يجب أن يناموا ثلاثتهم خلف هذا الرشاش وماذا بوسعه أن يعمل ومهمته أن يمنع أي عبور وتغطية الفاصل بين السرية الأولى والسرية الثالثة . ومخفر المشنوق يغطي الفاصل بين الثالثة والثانية .

كانت بداية القصف الشديد متوجهة الى الساحل الشرقي ويبدو أن زوارق حربية اشتركت في القصف المباشر على تلك المخافر .

وصلت برقية من قيادة الجبهة تفيد بأن **العدو يقصف** المخافر الأمامية في القطاع الجنوبي . لأخذ الحيطة والحذر ، واطلقت بعض الرشقات على الحاصل العسكري . لأخذ العلم .

واستمر القصف دون توقف وبكثافة أعلى من البداية . ضرب النقيب بكري بقبضته على الطاولة التي عليها المقسم ، واردف شاتماً الاركان وقيادة الجبهة . وقال غاضباً : ماذا يعملون . ماذا تعمل الأركان انهم كذا . . وكذا . . الخ وتحدث مع رئيس اركان الفوج سائلاً : ماذا يعمل اذا هوجم الحاصل العسكري .

كان وجه عامل المقسم أصفر مربداً شبيهاً بالأموات ، وعلى ضوء القنديل الهوائي ، الذي يتراقص ضوؤه بدا وجهه حزيناً . وكذلك كان وجه النقيب بكري ، رغم البرد والمطر المستمران كان العرق ينضح من جبهته فخلع خوذته ومطره وجلس على كرسي عامل المقسم .

كان الكشاف يمسح قطاع السرية ولكن انارته كانت ضعيفة بسبب كثافة الغيوم والوهج الأحمر على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا . كان واضحاً جداً ، ان المعركة طاحنة فقد اصبح الصوت دوياً هائلاً متواصلاً . لقد هب قادة السرايا لنجدة مخافرهم التي طوقها العدو . وكانوا أول المندفعين بدون أوامر . فصائلهم يبيدها العدو مع ذلك جمعوا ما أمكن جمعه ، ونزلوا في هذا الطقس الرديء متحمسين ، استشهد قائد السرية الملازم أول ممدوح . كان نشيطاً متحمساً ، قاد حضيرة ممن بقي عنده من الاحتياط في السرية ونزل مسرعاً دون خوف ، اصطاده كمين في الطريق فقاتل بمسدسه حتى استشهد ولقد روى الجنود : انه اطلق عدة طلقات من مسدسه واستشهد وهو يصيح ، قاتلوا حتى الموت ، لا تراجع ، لا تخافوا ، كان يصرخ بهم . الموت أو النصر ، انهم جبناء ، سيهربون قبل الشروق ثم لفظ أنفاسه وهو يصرخ .

ثم أوصى إلى والدته قبل أن يفارق ، وهذا ماقاله الرقيب الجريح الذي شفي فيما بعد . بلغوا والدتي ، انني كنت شجاعاً ، ولم أهرب ولم أتخاذل ورفاقي لا ينامون على الغدر ، لا تخافوا، كان يئن فلم يستطيعوا اسعافه كانت اصابته قاتلة ففارق الحياة بعد دقائق .

صمد الجنود رغم سلاحهم المتخلف في البنادق ٣٦ والرشيش ٢٤ ـ ٢٩ صمدوا في مخافرهم وكان عددهم قليلاً أمام هجوم اللواء المعادي ، وهجم

العدو بتشكيل كامل وشن هجومه ضد أربعة مخافر صغيرة على طول الساحل الشرقي لبحيرة طبريا . ورغم تحضير المدفعية والزوارق وزوارق الانزال فقد احدثت به خسائر ، فقد قاتل الجنود بأسلحتهم حتى الطلقات الأخيرة ، لم يستسلم أحد معه طلقة كانوا جرحى أو قتلى ، ولم يسلم إلا نفر قليل .

كانت المعركة عنيفة على مخفر الكرسي ، قتل قائد السرية منذ بداية الهجوم ، وقاتل ذلك المخفر بحضيرة واحدة ساعة كاملة وجرح أغلب افراد الحضيرة وقتل قائدها وانتهت الذخيرة بعد أن قتل أو جرح كل من كان في هذا المخفر لم يستسلم أي فرد منهم . كانت معركة عنيفة في النهاية اصطدم فيها الطرفان بالسلاح الأبيض واستطاع احد الجنود وهو جريح ان يقاتل مع رامي الرشيش حتى النهاية . بقي رامي الرشيش وملقمه في الملجأ ، وتراجع العدو ولم يحتل مخفر الكرسي . كانت تهاجم تلك الحضيرة الصغيرة سرية معززة بالمهندسين وقاذفات اللهب ، وتحت ستار من المدفعية الثقيلة .

بقي الرشيش صامداً يقاتل ، وتراجع العدو عن الكرسي فلم يستطع احتلال المخفر ، وبدأ يسحب قتلاه وجرحاه من أمام مخفر الكرسي .

كم كان بطلاً ذلك الجندي رامي الرشيش ، كان رامياً أمياً ؛ وكان الملقم مجنداً . كان آمر الحضيرة الرقيب يصرخ ، يحمّس المجندين ، اليوم ولا كل يوم ينتقل من رامي الرشيش الى الجوالة ، ويعود إلى الرماة . يصرخ ، لا يموت في الحرب إلا الجبناء ، ثم اصيب وجرح جرحاً خطيراً . في نهاية المعركة بدأ العدو بالتراجع وانسحب تحت ستار من المدفعية عن الكرسي . بقي ثلاثة أحياء جرحى من الحضيرة اسعفوا صباحاً ، وقتل خمسة وآمر الحضيرة . مات رامي الرشاش وهو ينزف فوق الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ والملقم يمسك بالمخزن . دون أن يتخاذلوا أو يتراجعوا . كم كانوا ابطالاً اولئك الجنود الأميين الشجعان . لقد أخطأ العدو في حساباته بالهجوم على هذه المخافر الصغيرة وظن أن تدميرها سهلاً ، فأصيب بخيبة أمل ، ورغم ان كمائنه قتلت النجدات التي اسرعت اليها ، فقد قتل أيضاً قائد السرية الثانية الملازم أول سعيد . وقد قاتلت تلك المخافر ولم يستطع العدو احتلالها رغم الخسائر التي منيت بها ، فلم يبق منها إلا عدد قليل من الجرحى الذين اسعفوا صباحاً بينما مات أغلبهم بسبب النزف

عمل السماسرة والوسطاء ، والجواسيس على شرائه من أوروبا الغربية ، ومن يدري ماذا فعلت الصهيونية لتصديره إلى سورية وغير سورية من البلدان العربية؟

ورغم كل ذلك قاتل أولئك الجنود قتالاً عنيفاً ولم ينسحب منهم أي فرد ولم يسمحوا للعدو أن يحتل تلك المخافر رغم قلة عددها وقد أعد العدو لتلك الغارة على المخافر في القطاع الجنوبي بلواء مشاة معزز بكل انواع المدفعية ، ومعزز بكتيبة هندسة ، وزوارق نقل وزوارق رمي ، وزوارق رمي صواريخ .

أما الحاصل العسكري فوضعه مختلف ، فقد خصص لهذا المركز فوج مشاة من المغاوير ، معزز بسرية هندسة ، وكانت نسبة الوسائط متفوقة تفوقاً كبيراً .

فقد عبر الفوج على النهر من المكان الذي عبرت منه الأبقار ، ولم يكن عبور الابقار إلا للتأكد من عدم وجود الألغام في منطقة العبور ، وتبعد منطقة العبور عن المركز حوالي ثلاث كيلو مترات وقد عبرت طلائع الفوج وقطعت الطرق قبل التمهيد المدفعي بقليل ، وأسرت المساعد أول علي الذي جاء كي يعالج مشكلة الأبقار التي هربت كما تصورت القيادة قبل يوم . لقد ركز القصف المدفعي ونقل الرمي من الساحل الشرقي على الحاصل ، ولم يكن قائدالسرية موجوداً ، لقد شاهده الرقيب محمد في اليوم الثاني . كان حزيناً بائساً قليل الكلام لأنه لم يكن موجوداً .

استمر القصف ساعة كاملة . بمعدل قذيفتين في الثانية ، اضافة لزوارق الصواريخ التي استخدمت من داخل البحيرة . كان الحاصل على اتصال مستمر بمقسم علمين الذي لم ينقطع .

وكان الجنود في مركز السرية الثانية متوتري الأعصاب ، ويطلبون من قائد السرية أن يشنوا هجوماً على مركز تل أسود المعادي ، لتخفيف الضغط عن الحاصل العسكري .

كان النقيب بكري ، يخاف ان يخالف الأوامر العسكرية في مثل هذه الظروف ، كان يضرب كفاً بكف بين حين وآخر ، والسماعة على أذنه ، ما عدد

وعدم قدرة الوحدات على اخلائهم .

كان الملازم أول سعيد شهماً قاتل بشجاعة . أسرع لنجدة مخفريه بحضيرة ووقع في كمين للعدو فقتل . قاتل في مخفر سكوفيا ولم يستطع العدو احتلاله . لم يبق إلا رامي الرشيش وملقمه والباقي كانوا جحرى وقتلى ، استشهد اغلبهم . قال احد الجوالة الجرحى : اعلموا زوجتي ان تربي أولادي وأخبروها اني كنت شجاعاً لم أهرب ولم أتخاذل لعلها تفخر بي أمام الناس . كان راعياً أمياً .

قاتل مخفر الدوكا قتالا عنيفاً ، أوقع خسائر كبيرة في قوات العدو ، ولم يتركه يخلي قتلاه . قتل أغلب عناصر المخافر ، استشهدوا قبل أن يسعفوا ، لم يتخاذلوا ولم ينسحبوا رغم أن الطريق الى مواقع سراياهم كان مفتوحاً .

هذا ما فكر فيه العدو أن يكمن لهم في الخلف ويضغط عليهم من الأمام فينسحبون ويقعون في الكمائن التي أعدها وفوجىء بتلك المقاومة العنيفة . وتراجع العدو دون أن يستطيع احتلال تلك المخافر الصغيرة .

توقفت المدفعية المعادية عن القصف على تلك المخافر وصبت جام غضبها على مركز الحاصل العسكري . فالحاصل العسكري مركز يقع في أرض سهلية ، من الجنوب ساحل البحيرة مباشرة . ومن الغرب مجرى نهر الشريعة ، ومن الشرق على بعد مئات الأمتار قرية البطيحة ، ومن الشمال مفتوح على نهر الشريعة حيث توجد بساتين تحيطه ، والمركز محصن بعدة منع اسمنتية وخنادق وملاجىء . وتتمركز فيه سرية مشاة ، معززة برشاش هوتشكيس ثقيل وهاون ٨١ فرنسي وهاون خفيف وأغلب قادة الفصائل من رتبة مساعد لكنهم مختبرون سابقاً وقائد السرية ملازم أول . لقد خطط العدو لهذا المركز بشكل مختلف عن المخافر الشرقية على ساحل البحيرة ، فقد استهتر في الهجوم عليها ، جواسيسه يعلمون كثيراً عن تلك المخافر وعن الجنود الأميين الفقراء واسلحتهم فظنوا أنهم لن يقاتلوا . انهم سيهربون ، جنود غير مدربين تدريباً جيداً ، هذا صحيح ، ولكن ايمانهم بوطنهم كان كبيراً جداً ، يقاتلون بسلاحهم المتوفر لديهم ، وإذ كان هذا السلاح رديئاً من مخلفات فرنسا ومن مخلفات الحرب العالمية الثانية .

القتل . لا يوجد طبيب ؟ طبيب واحد فقط ، عريف حسن ممرض يعمل في السرية . نخبر قيادة الفوج . طيب اصمدوا نحن صامدون لن يحتلوا المركز وفيه جندي حي ، هذا أكيد . رئيس أركان الفوج ، أعطى أمراً للسرية الثانية ، باحتلال الطريق ومنع تقدم العدو باتجاه قيادة الفوج . أمر صادر عن الجبهة في حال تقدمه باتجاه الكمرك .

قال النقيب بكري : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأجاب يا سيدي نحن نحتل النقطة منذ شهرين ألم تعلم ذلك ؟ بلغ القيادة كيف نساعد مركز الحاصل العسكري . الان هل نفتح النار على تل أسود ؟

نظر الى الرقيب وقال : عجيب قيادة الجبهة تأمر بأن نحتل الموقع الأوباش لا يعرفون اننا نحتله منذ شهرين ، أعطني مطرتك لقد جف ريقي .

قال عامل المقسم : سيدي الحاصل معك .

- ايه . كيف صمودكم .

يا سيدي العدو يشدد القصف قتل عندنا حتى الان عشرون وجرح ثلاثون والقصف يزداد . افادنا مدنيون من قرية البطيحة ، بان قوات معادية عبرت النهر تقدر بالمئات لم يستطيعوا احصاءها . وسوف يكون الهجوم بالانزال سيكون من الشمال الشرقي ، الوضع حتى الان غير واضح ، اقسم الجنود بانهم سيقاتلون حتى الموت ولن يتراجعوا .

دمر هاون ٨١ ، ودمر الهاون ٦٠ مع طاقمه ، الرشاشات هوتشكيس تعمل بشكل جيد ، رغم أن بعض أفرادها جرحى ، سأتصل بكم .

- لابأس اصمدوا قد نفتح النار لتخفيف الضغط عنكم ، نطلب ذلك من قيادة الفوج ، السرية الأولى في وضع لا تحسد عليه أغلب حضائرها دوريات وكمائن ، والقسم الباقي احتل مخفر تل مشنوق لمنع العدو من التقدم باتجاه قيادة الفوج .

استغل الرقيب محمد احدى المكالمات وسأل عن العريف حسن . كانت تربطه بالعريف حسن روابط كثيرة ، فقد عاشا معاً في قرية واحدة قبل أن

يفترقا ، وتقع هذه القرية في الشمال الشرقي على بعد حوالي عشرين كيلو متر من حماه .

كان العريف حسن في السرية الثانية وطلب نقله إلى الحاصل العسكري وقد خطبت له أمه فتاة من القرية ، وكان يجهز لزواجه غرفة في قرية البطيحة . لأنها قرية كبيرة إلى حد ما ويمكن أن يعيش فيها هو وزوجته هكذا كان يخطط ، ونظراً لفقر عائلته في القرية فقد فكر أن ذلك يوفر لهم قسماً كبيراً من راتبه في مركز الحاصل العسكري ، لأن الاطعام على حساب القيادة رغم أنهم يأخذون بدل الاطعام اضافة . كل هذه المغريات دفعت بالعريف حسن ان ينتقل من السرية الثانية الى السرية الثالثة في الحاصل العسكري . وعندما انتقل كان الرقيب محمد لا يزال عريفا وقد شجعه على الانتقال ، ولكن الأخير كان مجنداً ولم يخضع لهذه المغريات .

كان العريف حسن شجاعاً ، محباً للنكتة ، لكن حياة الفقر دفعته إلى الهروب من القرية للتطوع في الجيش ، كان يقرأ ويكتب لم يقتنع يومها والده بالمدرسة ، لأن المدرسة في المدينة والذاهب الى المدينة كالذاهب الى المجهول هذا ما زرعته فيهم فرنسا ، وسلوك الاقطاعي والحجي صاحب الخان عزز قناعة والده ، وكان والده رجلاً متديناً يحب رجال الدين ويجلس طويلاً معهم ثم اصبح شيخ دين في القرية ، رغم انه اقرب الى الأمي فقد تعلم متأخراً القراءة ، وأخذ يقرأ الكتب الدينية ، ورغم أن حجمه كان صغيراً فقد كان صاحب نكتة ، يتهكم على رجال الدين . ويبدو أن النكتة عنده بالوراثة تعلمها العريف حسن من آبائه وأجداده ولكن الشجاعة والكرم كانا من طبعه ، بل وفي طبع العائلة فوالده رغم فقره ، كان يأوي إليه الفقراء . وخاصة زمن الصيف عندما يفتح بيته للنوم في العراء فكان الضيوف يلتحفون السماء كغطاء لهم .

اتصل الرقيب محمد بالحاصل العسكري : (أين العريف حسن الممرض)؟

ورد العامل: انه يعالج الجرحى ـ. وكان الصوت من الطرفين صراخا ، ولكن بعد فترة قصيرة سمع صوت العريف حسن على الجانب الثاني .

قال : من ؟ أنا العريف حسن .

ـ حسن أنا محمد . كيف الوضع ؟

ـ الوضع سيء جداً . خاصة في الفصيلة الثالثة . وقع فيها خسائر كبيرة ، القذائف توقفت الان المعركة بالرشاشات . صد الهجوم مرتين من اتجاه ساحل البحيرة ، ولكن العدو يعاود الهجوم بقوى اكبر ، أمامنا من العدو أكثر من عشرين قتيلاً . والجرحى اخلي قسم منهم ، وعندنا ستة جرحى معادين اختلط الجرحى والكل يتحدث العربية يبدو أنهم من يهود المغرب ، ومن يهود اليمن ، لكن القسم الشمالي هاجم مرتين وصد هجوم العدو والطلقات المضيئة فوق الحاصل العسكري يبدو أن القسم الشمالي من الأجانب ، لم نعرف عنهم إلا القليل سحبنا جريحاً منهم وضعه سيء نستطيع أن نتفاهم معه . حتى يهود اليمن لم يفهموا عليه تصور لا يعرف العبرية هو انكليزي .

سأخبرك بعد قليل ، لقد عاودوا الهجوم . ماقاله العريف حسن كان الرقيب محمد يسجله ، وناول الورقة الى النقيب بكري ، الذي كان واقفاً عند باب ملجأ المقسم يدخن ، ويستمع . قال توقف القصف يبدو أن الهجوم بدأ على الحاصل العسكري . قرأ ماقاله العريف حسن وأردف قيادة جبهة حقيرة لماذا لم نفتح النار من هنا على مستعمرة تل أسود ؟ ولو قتل منا الكثير نستطيع بذلك أن نخفف الضغط عن الحاصل العسكري .

وراح يصرخ برئيس اركان الفوج ثانية . كان يرتدي بدلة العمل ، وقد خلع الممطر ، كان يخرج الى الخنادق ويلحق به عسكري حاملاً الممطر . النجوم النحاسية تلمع على بدلة العمل ، وسيدارته عليها ثلاث نجوم هي رتبته رماها عند عامل المقسم . وتشكل الزبد على شفتيه . ياسيدي النقيب ماذا تعملون لانقاذ مركز الحاصل ؟ هل اخبرت الجبهة ؟

كان يضع السماعة وينظر الى المقسم ويشتم أم رئيس اركان الفوج ، وام قائد الجبهة وام رئيس الاركان العامة ، ويخبط بقبضته على الطاولة ويخرج الى الباب ويعود للاتصال بالحاصل العسكري ثانية .

ـ ألو أنا النقيب بكري . (ماهو الوضع ـ نعم سيدي ـ الهجوم مركز على

الفصيلـة الثالثة من اتجاه الساحل وصد الهجوم ، مرتين ، وقذائف الهاون كثيفة على اتجاه الفصيلة الثالثة . القتال بالقنابل اليدوية لقد قتل من العدو الكثير ، اشاهد من كوة المنعة ، اكثر من ثلاثين قتيلاً على الأرض . انسحب العدو شرقاً ، وقع في قطاع الفصيلة حتى الآن عشر قتلى والجرحى يصمدون .

ـ اسمع مساعد احمد . خذ من الفصيلة الأولى اربع جنود ومن الفصيلة الثانية ايضا اربع جنود وعزز مواقع الفصيلة الثالثة .

ـ نعم ياسيدي : لا يهمكم لن يحتلوا الحاصل العسكري وفيه جندي حي .

ـ انت شجاع يـا أحمـد المهم الصمود . قد تقوم القيادة بعمل ما . سأتصل بك . معكم عامل المقسم .

ترك النقيب بكري المقسم وقال : القيادة تقوم بعمل ؟ قال القيادة تقوم بعمل ؟ حتى أنا اكذب عليهم ، المهم ان لا يحتل الحاصل العسكري .

وضع الرقيب محمد السماعة على اذنه من جديد : ألو الحاصل العسكري . مقسم ماهو الوضع ؟

ـ الوضع لا يبشر بخير ـ القتال شديد باتجاه الفصيلة الثالثة . يشدد العدو الضغط عليها . والهجوم يشن للمرة الثالثة من الشمال على الفصيلة الأولى ولكن الفصيلة متماسكة ولم يستطع العدو الاقتراب من الاسلاك حتى الان المركز منار بكامله بواسطة القذائف المضيئة ، ونشاهد العدو من كوة المنعة واضحاً .

ـ أين العريف حسن ؟

ـ العريف حسن عنده أصعب مهمة . وقع عدة جرحى وقتلى معادون أمام الفصيلة الثالثة ، سحبوا القتلى لأخذ سلاحهم . وكذلك الجرحى أتوا بهم إلى ملجأ الجرحى ، اخذوا سلاحهم والعريف حسن يعالجهم أصبح عنده حوالي خمسة عشر جريحاً معادياً وعشرين جريحاً من السرية ـ الكل مع بعض في الملجأ . لكن الوضع سيء ، العدو ينزل من الزوارق شرقي المركز على شكل مجموعات . مجموعات تتقدم باتجاه المركز على الفصيلة الثالثة .

يعاود العدو الهجوم من الشمال على الفصيلة الأولى . الفصيلة الثانية

منعت أي زورق من الاقتراب من الشاطىء من الجنوب ونحاول تعزيز الفصيلة الثالثة الآن . لكن قذائف المدفعية والقنابل اليدوية مزقت كثيراً من الأسلاك الشائكة . والدفاع الان من الخندق مباشرة . لا لا يستطيع أي فرد أن يخرج ليصلح الأسلاك الشائكة .

ـ طيب يا عبود ـ اسمع اذا وصل عندك العريف حسن أنا عند المقسم ، المهم ان تكونوا رجالاً ـ لا يهمكم سنقاتلهم حتى الان قتل منهم وجرح اكثر منا . كان صوته صلبا وهادئا ، دخل النقيب بكري وأخذ السماعة وصاح : اين المساعد احمد ؟ انا النقيب بكري .

كان المساعد احمد يشترك مع الفصيلة الثالثة في صد الهجوم ويقودها .

ـ أي مساعد أو رقيب قريب عليك .ـ نعم سيدي .

في ملجأ الجرحى العريف حسن .

العريف حسن . نعم يا سيدي ـ ماهو الوضع ؟ الوضع سيء ، لقد تم اختراق الفصيلة الثالثة ، والآن تدافع الفصيلة الأولى من الشمال والفصيلة الثانية من الجنوب .

اغلب عناصر الفصيلة الثالثة قتلى أو جرحى ، لا تزال هناك مقاومة في موقع الفصيلة الثالثة ولكن الوضع سيء حتى الجرحى لم نستطع أن نخليهم ، واختلط الحابل بالنابل في موقع الفصيلة الثالثة وقتل قائد الفصيلة المساعد كما قتل أمار الحضائر وبقي الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ يقاوم .

يوجد قتلى من العدو أمام الفصيلة بعددها مرتين لم يخلوا القتلى ، عندنا حتى الآن عشرون جريحاً من السرية وخمسة عشر جريحاً معادياً ، فقدت ابر الغرغرينا . الملجأ ممتلىء بالجرحى لكن الدخان يغطي الموقع رغم هطول المطر .

نعم سيدي وصل المساعد أحمد .

نعم سيدي ـ الوضع تدهور بالفصيلة الثالثة لم يبق لديهم ذخيرة ماعدا رشيش من الفصيلة الثانية انتهت الذخيرة ، احتل العدو جزءاً من موقع الفصيلة الثالثة والقتال بالحراب ، انسحب العدو من الشمال ، واتجه الى موقع الفصيلة الثالثة ، وقد يشطر المركز الى شطرين .

اسمع يـا أحمـد ـ ليكن الدفاع دائرياً من قبل الفصيلة الأولى والفصيلة الثانية المهم أن لا يسقط المركز بأيدي العدو .

ـ نعم سيدي لكن الذخيرة أصبحت قليلـة ـ نقاتل بالوحدة النارية الأخيرة .

بدأ الهجوم على الفصيلة الثانية ، وهي لا تملك إلا رشيشاً استهلكنا اثنين من رشيشاتها بموقع الفصيلة الثالثة . الوضع تدهور بالفصيلة الثانية ، وقتل أغلب عناصرها وجرح الباقي . ومع ذلك فهي تقاوم . القتال بالحراب الآن . عض جندي اسرائيلي أحد الجنود بأذنه وقطعها . قتل من العدو ضعف عدد السرية وجرح أكثر ، كان الهجوم فوج مغاوير مدعم بسرية هندسة وبعض الزوارق .

أصبح أكثر من خمسين جريحاً في الملجأ ، مختلطين اكثر من النصف جنود معادون . . وانقطع الاتصال مع العريف حسن وعرف فيما بعد ماذا حدث في تلك اللحظة لقد اقترب العدو من الملجأ وصاح العريف حسن انهم جرحى لكنهم لم يرتدوا والقوا على الباب القنابل اليدوية ، رغم أن الجرحى كانوا يصرخون بالعبرية ، نحن يهود جرحى ، لا فائدة ، حرقوا الجرحى بعدة قنابل يدوية دوت في هذا الملجأ ، قبلها بدقائق تحدث العريف حسن مع الرقيب محمد قائلاً : الوضع تدهور بسرعة الساعة كانت تشير الى الثالثة والنصف صباحاً . ومع ذلك قال له : قد لا أشاهدك بعد اليوم ، بلغ والدتي ووالدي تحياتي ، قل لهم كنت كما تعرفون شجاعاً ، وانساناً قل لهم انني اعطيت الأدوية وعالجت الصديق والعدو . اسمع يا محمد بالله عليك سلم على خطيبتي وقل لها بالأمانة ، لا تحزن ، وأرجو أن تتزوج بسرعة . النهاية محزنة يا محمد ولكننا نكافح ، من بقي منا عليه أن يكافح العدو ، كم هم جبناء ، هربوا اكثر من مرة ولكن اعدادهم كبيرة جداً قتلوا مجموعات مجموعات . الوداع ، إذا استطعت سأكلمك ثانية .

عامل المقسم كان يصرخ . لا . لا ـ فجروا الملجأ ، مات الجرحى لا . لا . كانت اصوات الرشاشات وانفجار القنابل تسمع بالهاتف ، صاح عامل

المقسم لا . وسمع دوي وانقطع الاتصال الساعة الرابعة صباحاً . كان صوت الرشاش الثقيل الوحيد المسموع . صوت انفجارات القذائف . كان الرقيب ماجد شجاعاً فقد اعاد ترتيب الدفاع في الفصيلة الأولى واصبح المساعد أحمد في الفصيلة الثانية .

احترق الجرحى بكاملهم داخل الملجأ من العرب واليهود ، والقوا عليهم القنابل فاختنقوا ثم احترقوا ثم فجروا الملجأ عليهم .

لقد انتهت الفصيلة الثانية بين قتيل وجريح . بعد أن انتهت ذخيرتها . وبدأ الصراع عنيفاً باتجاه الفصيلة الأولى وكان الرقيب ماجد شجاعاً هادئاً نشيطاً . سيطر على الفصيلة واحكم الدفاع بواسطة الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ والرشاش هوتشكيس لم يستطع العدو أن يخترق الدفاع وتراجع ، ليخلي جرحاه ، كان القتلى كثيرين . لم يخلهم جميعاً ، لقد حشروهم بحفرة وصبوا عليهم الوقود واحرقوهم . استمر القتال عنيفاً باتجاه الفصيلة الأولى وتراجع العدو وبدأ بالانسحاب . قبل أول ضوء أخذ معه الجرحى من الفصيلة الثانية وجرحى من الفصيلة الثالثة لم يصلوا إلى الملجأ ، وكان عددهم ثلاثين جريحاً . فجر المنع في الفصيلة الثالثة والثانية ومقر يقيادة السرية ، والملجأ ، والمقسم . وحاول جاهداً أن يحتل المنعة في الفصيلة الأولى فلم يستطع ، وانسحب تحت ستار من قصف الهاون بواسطة الزوارق عبر بحيرة طبريا .

لقد انسحب العدو وهم يطلقون النار عليه . ولم يبق له أثر في الموقع كانت جراحهم بليغة . بقي لديهم أربعة أشرطة ، وقد أطلق ٩٥ شريطاً في كل شريط خمسون طلقة اطلقت خلال اربع ساعات متواصلة من الصراع مع العدو . الذي ترك الساحل ودماء جنوده باقية اثارها . كانت عدة جثث معادية لم يجدوها بين الشجيرات شمال مركز الحاصل العسكري . وكانت هناك جثث طافية في البحيرة . لقد سلم من الفصيلة الأولى رقيب وثلاثة عساكر جرحى .

بعد أن غادر العدو بقيت آثاره في الحرائق . لقد ارتكب فيها جرائم أسوأ بكثير من جرائم النازية .

انتقل الرقيب والجرحى الثلاثة الى قرية البطيحة ، واستقبلهم فلاح هناك

حيث اركبهم بغاله ونقلهم الى مركز السرية الثانية على الطريق العادية . كانت سريةالهندسة من قيادة الفوج قد استنفرت ليلاً ، واعطيت الأوامر بالتحرك الى الحاصل العسكري . وطلب من السرية الثانية تعزيزها ، فأمر النقيب بكري بأن يذهب الرقيب محمد مع حضيرته المتواجدة في موقع السرية ليعرف ماذا حدث بالضبط . لم يفكر بالألغام ، ولم ينبه من قبل قائد سرية المهندسين .

كان الوضع كئيباً ، فقد التقى شرقي تل احمر بالفلاح وبغاله التي تحمل الجرحى ، واستفسر من الرقيب ان العدو انسحب ولا أثر له ، ولم يستطع أن يلغم الأرض التي انسحب منها . وتابعت سرية المهندسين مع الحضيرة الى الحاصل العسكري .

بدأت أشعة الشمس الحمراء باهتة بـل محتجبة بواسطة الغيوم الماطرة.

وقد روى الرقيب الجريح للرقيب محمد بكلمات مختصرة قائلاً :

ـ لم يستطيعوا ان يقفوا لحظة واحدة في الحاصل العسكري ، هربوا بسرعة . وظل رشاش الرقيب ماجد يلاحقهم ، حتى بدأت المدفعية ثانية بقصف المركز .

كان الرقيب ماجد يصرخ بالجنود ، لن يحتلوا هذه المنعة مهما حاولوا ، كم قتيل معاد سقط امامها .

كانت ليلة مظلمة حمراء ، وبدأ نهار عبوس . لازالت الغيوم الداكنة السوداء تغطي المنطقة ، واقترب الرقيب محمد من الحاصل العسكري ، كانت رائحة الجثث المحروقة تعم المنطقة لازالت جمراً أحمر ، ولازالت هناك جثث ملتهبة . في تلك الحفرة وفي ذلك الملجأ الذي يخرج منه لهب النار ، الرائحة تزكم الأنوف تنبعث من جثث متناثرة . هنا وهناك.

القسم الغربي والقسم الشمالي كانا هادئين ، المنعة باقية محصنة . آلاف الحفر في المركز ، في كل متر مربع وقعت قذيفة مدفع ، وقد يكون أكثر . البنادق ملقاة الى جانب الجثث بدون ذخيرة ، والمسدسات الرشاشة المعادية ملقية جزافاً . اثناء سحب الجثث بقيت الأسلحة على أرض المعركة .

وفكر الرقيب محمد :

كم خدعوا اليهود اليمنيين والمغاربة ، بـأرض الميعـاد ، لكن هل أرض الميعاد هي أرض قتل وتشريد ؟ كم قتل منهم في هذه المعركة ؟ صحيح قتل وجرح اغلب افراد السرية لكنهم لم يستطيعوا أن يحتلوا المركز أو أن يبقوا فيه ساعة واحدة . هربوا بالزوارق . الاحياء احرقوا الاموات . ظنوهم اعداء . لم يستطيعوا أن يميزوا اصوات بعضهم البعض انها مأساة البشرية ، النازية الجديدة .

قرأ الرقيب محمد قبل أيام كتاباً عن النازية الجديدة . كيف فعل رجال هتلر في معسكرات الاعتقالات كيف كانوا يحرقون الناس وهم أحياء ، لقد حرقوا الجرحى في الملجأ القوا عليهم قنابل يدوية ثم صبوا وقوداً من برميل من الوقود في الملجأ واشعلوه ، اكثر من ستين جريحاً اغلبهم من أفراد العدو كان يعالجهم العريف حسن مع جرحى السرية، حرقوا مع الجميع ، كان عملاً رهيباً ، شنيعاً ، لقد قامت النازية في معسكرات الاعتقال في بولونيا بحرق الالاف وهـم أحياء دون ذنب أو خطيئة ، لمجرد الاشتباه بهم على انهم معادون للنازية ، لقد احرقوا المانا لانهم شكوا باخلاصهم للنازية ، وهاهي النازية الجديدة في اسرائيل ، تحرق الجرحى يهوداً وعرباً في ذلك الملجأ .

كان صعبـاً عـلى الرقيب محمد أن يحصي عدد القتلى كانت النار متوهجة جمراً هنا وهناك ، عظام مفحمة ، وجماجم كثيرة ، كان المنظر مرعباً ، لم يستطع الرقيب محمد أن ينظر إلى ذلك الفرن الرهيب في الجنوب الشرقي من موقع الحاصل بعيداً عن الفصيلة الأولى . كان الدخان هنا وهناك يتصاعد من جثث تحترق جثث ملقاة هنا وهناك . أيد مبتورة وجثث ممزقة . لم تجمع اجزاؤها بعد . لم يعرف العدو من الصديق على مساحة اكثر من خمس هكتارات . ملاجىء مدمرة ماعدا القسم الشمالي الغربي من الموقع .

كان الرقيب محمد مصعوقاً لهول المنظر ، معقول هذا ما يرد في كتب التوراة ، وهل هذا عمل يصدر عن بشر لهم احساس ؟ كان يقرأ الكتب عن النازية أما الذي يشاهد بعينه غير الذي يقر أ وهو مرتاح ، يقرأ كتاب ويتخيل . أما الآن في الحاصل العسكري في هذا الملجأ فقد احرقوا الجرحى احياء .

كان يرتجف من هول المنظر ، انه الرعب ان تحرق انساناً حياً . تخيل ما قرأه عن النازية اذن النازية حقيقة وليست وهماً مصطنعاً .

كان يتساءل لماذا احرقوا اليهود ؟ لأنهم خونة ؟ قال العريف حسن انهم سكارى ، واذا كانوا سكارى يحرقون بعضهم البعض ؟

في زاوية الملجأ ، كان جريح يحاول الهرب من الحريق ، لازال رأسه سالماً لم يتفجر بعد . لقد تشبث بمصراع الباب لينقذ نفسه ولكن تمسك الاخرون به فاحترق معهم ماعدا يده ورأسه لم يستطع احد ان يقترب من النار كانت رائحة شواء لحم البشر مريعة . لا تملك السرية الهندسية معدات سوى الرفوش ، ولم تستطع ان تقترب من الملجأ والحفرة ، فأعطى قائد السرية الملازم أول امراً بجمع الأعتدة أولاً ثم جمع الجثث المتناثرة هنا وهناك . ونقلهم في سيارة كميون الى قيادة الجبهة ، وكذلك العتاد المشكل من مختلف انواع الأسلحة الانكليزية والفرنسية والأمريكية .

لقد اتجهوا الى المنعة في شمال الغربي ـ كانت صامتة . كبيرة . وأحس الرقيب محمد انها قلعة فيها جيش تلخص بشخص الرقيب ماجد ، كانت يداه متدليتين على جانبي سبطانة الرشاش ، ورأسه عليها . كتب على السبطانة بدمه يعيش الوطن ، تعيش الأمة العربية . نزف وفارق الحياة قبل لحظات من وصول الرقيب محمد وجماعته ، فلازال دمه ساخناً . ينزف من طلقة مرت بخاصرته ثلاثة اشرطة مفرغة ، بيد الملقم الذي فارق الحياة لتوه ولازال يمسك بالشريط .

حوالي خمسة آلاف طلقة فارغة بجانبه ، السبطانة مبدلة هناك سبطانة يبدو أنها انتهت ، الملقم ملقى على ظهره ، كأنه نائم أصيب بطلقة في رجله اليمنى ، تحته بركة من الدم ، كانت الفوارغ من الطلقات تغطيها الدماء كان وسيماً ، يبدو أنه حلق ذقنه استعداداً للاجازة . كان خد الرقيب ماجد ملصق بالسبطانة وصدره يحتضن الرشاش الثقيل .

كانت واضحة كتابته بدمه خطها بسبابته بعد أن انسحب العدو خارت قواه من كثرة النزف وقد اعتصر الألم والأسى قلب الرقيب محمد ان تلك المجزرة

البشرية أكبر من أن يتحملها عقل الانسان العادي ، لماذا قام العدو بهذه المجزرة ؟ لماذا ؟؟!!!!

لم يستطيعوا أن يحتلوا أي مخفر ، إذن لماذا قاموا بهذه الجريمة ؟ دفعوا بأولئك الفقراء الذين اجبرتهم الصهيونية على الهجرة الى فلسطين ، ثم بدؤوا بإرسالهم إلى الجحيم ، لماذا احرقوهم ؟ هذا هو السؤال السؤال الذي لم يجد له الرقيب محمد جواباً .

ركّب المقسم وأعيد الاتصال مع قيادة الفوج ومع مقاسم السرايا .

واتصل النقيب بكري طالباً عودة الحضيرة فوراً ، كان الرقيب محمد يقف صامتاً أمام الملجأ المتوهج الذي حرق فيه الاسرائيليون الجرحى ، كان العريف حسن ممرضاً . تذكر كلماته ليلاً ، عندما قال قد لا نلتقي بعد ، إن صوته يدق في أذن الرقيب محمد ، إنه الآن مع هؤلاء ، البشر ، ضحية الغدر ، ضحية غدر الذئاب الضالة التي اعماها الحقد والكراهية للبشرية ، فارسلت ببنيها ليموتوا ثم ليحرقوا أحياء بأمر الرب ، يبدو أن رب اليهود هو من النوع النازي المتوحش !!!!

وقال الرقيب محمد في نفسه : لا . لا يمكن ان يكون كذلك ، فالديانات قديمها وحديثها تبشر بالخير وتدعو للتسامح إلا رب اسرائيل يدعو للحقد وعندما يقولون ان الله وعدهم بهذه الأرض يتصورون الاله سمسار عقارات لا أكثر ولا أقل . هنا يرقد العريف حسن وهو يسعف الجرحى الأصدقاء والأعداء وهنا تثبت شجرة زيتون على قبره لأنه كان أعزل إلا من ضماد أو دواء لجريح يصرخ أو ملهوف يستغيث عدواً كان أم صديقاً . قتلوه وهو يسعف جرحاهم وحرقوا جرحاهم أيضاً .

لقد أرسل الرقيب ماجد ، والجندي حمدان الى قريتهما وروى والد الرقيب محمد انه عندما وصل جثمان الجندي حمدان الى القرية سألت والدته ، اذا كان الرصاص في ظهره أو صدره . وعندما علمت انه كان بطلا ، زغردت وحولت المأتم إلى عرس حقيقي . لقد أحضرت عروسه وصاحت بأعلى صوتها اليوم عرس ولا كل الأعراس ، اليوم عرس الشهداء ، الذين يدافعون عن الوطن ،

يدافعون عن شرفنا ، كانت كلماتها معبرة بليغة وبسيطة . كانت تزغرد وهي تسير الى المقبرة ، تصرخ بالنساء أن يقرعن الدفوف أن يزغردن . كانت حافية وهي تسير في وداعه الى العالم الاخر . لقد صمت والده ولم يقل أية كلمة سوى (الله اكبر لقد مات ، ولكنه مات بطلا) .

لقد ألقى العدو رشقة من مدفعيته عند انسحابه أيضاً على قرية البطيحة . كان الفلاحون في تلك الليلة يقظين على طول الجبهة ، مذعورين ، كل منهم صنع ملجأ صغيراً تحت الأرض بجانب منزله .

ناموا فيه رجالاً ونساء صغاراً وكباراً . وقد هدمت عدة بيوت تحت القصف . انهار جامع القرية الصغير ومات عدة كهول بسبب الضغط ، من صوت الانفجارات . وقتل عدة أطفال بعد ان انهارت الملاجىء على رؤوس أصحابها .

وصل مختار قرية البطيحة وتحدث لقائد السرية عما أصاب القرية في هذه الليلة . وطلب اسعافاً من السرية التي وصلت لتوها . كان عدة أطباء قد وصلوا عند العاشرة . فالتحق احدهم بالقرية مع ممرضين لمساعدة جرحى القرية . وأصا ب قرية جرابا عدة طلقات من هاون ثقيل ووقعت قذيفة واحدة على البيوت فيها ، فكان حظها أتعس من حظ قرية البطيحة لأن البيوت أسوأ . اعتقدوا أن العدو لن يطلق عليهم النار فلم يختبئوا بالملاجىء . تطايرت البيوت تحت القصف واصابت الشظايا حشداً من الناس المتجمعين امام دكان هادي . فجرح أبو خليل في وجهه وقلعت عينه ، وكسرت رجل غزالة عندما هربوا باتجاه الوادي حيث تعثرت وانزلقت من على صخرة . كان قلبها يخفق تريد أن تعرف أخبار الجندي نويصر ولكن كيف في تلك الساعة ؟

كان مجنون القرية يصرخ طوال الليل وهو يجوب الشوارع والأزقة تحت المطر بأنشودة يحمس فيها الجنود . كان يتوقف ويصرخ هاهم ابناؤك ياعلي يا أبا الحسن ياقالع باب خيبر بيدك ، انهض انظر يارسول الله ، أمتك استيقظت وأحفادك يدافعون عن شرفهم .

وكان يعاود بعد ذلك انشودته :

(اليوم اليوم ، طاب الكون ، اليوم اليوم ماتدرون بيوم حنين طاب الكون) .

علم الرقيب محمد من الدكنجي هادي الذي كان واقفاً على الطريق ما حل بالقرية ، ونقله مع الجماعة حيث أتى بسيارة ونقل الجرحى الى المشفى ، مات أطفال صغار وجرح طفل أم خلف الصغير . بعد ذلك جاءت سيارة من الشرطة العسكرية ونقلت الجرحى ولم تسمح لأحد ان يسألهم عما وقع في تلك الليلة الرهيبة .

كانت السرية تحتل موقعها استعداداً لكل طارىء . عاد قائد الفوج الذي استدعي من الساحل وصل عند الشروق وزار السرية فور وصوله ثم ذهب الى الحاصل العسكري ، حيث أشرف على سرية المهندسين ، وعاد الى السرية الأولى ، ومر بمخفر المشنوق . كان كمن مسه شيء من الجنون مقطبا عابسا . غاضبا . كان الوجوم يسود الوجوه . يبدو أن النقيب بكري قد كبر لعدة سنوات في تلك الليلة وكذلك المرشح أحمد .

قطعت اجازات كل الجنود والمجندين والمساعدين والمرشحين وعادوا في ذلك اليوم الى وحداتهم .

كانت الغيوم الداكنة تجتاح المنطقة والمطر يهطل ، والريح تصعد كأصوات الذئاب الجائعة ، والغربان لجأت الى اعشاشها .

قائد السرية يجلس وعيناه حمراوان ، والزبد على شفتيه والهاتف بجانبه ، لقد بدل بدلة عمله ، وارتدى ممطره . كان ينظر الى جنود السرية دون أن يتكلم . وفي تلك اللحظة تقدم عامل الهاتف حاملاً برقية :

«استعدوا للتبديل خلال الليل . كونوا جاهزين ستأتي سرية من الفوج الأول مكانكم ، اعلموهم بأماكن الكمائن والدوريات . وانسحبوا قبل الفجر. خمس عربات كميون العربات التي تأتي الى السرية استخدموها في الانسحاب» .

قرأ البرقية قائد السرية على ضجيج الراديو الذي كان مذيعه يصرخ . ببرقيات الاستنكار على جرائم العدو الصهيوني والتضامن من قبل الملوك

والرؤساء والشيوخ والأمراء العرب المرسلة الى رئيس سورية .

جمع قائد السرية قادة الفصائل وقرأ عليهم البرقية . وقال :

ـ تهيأوا للمسير .

الجزء الثالث

« ١٨ »

في الأفق غيوم دكناء تقترب من الأرض تسوقها الريح ببطء لتغلف التلال والمرتفعات والبيوت القليلة . آليات قليلة تحمل الجنود المرهقين ، فقد مضى الليل وهم مستنفرون في الخنادق بلا نوم . لقد بللهم المطر ، هدهم الجوع ، لم يشربوا شاياً ساخناً بعد .

كان النقيب بكري في أشد حالاته صحواً ، حزيناً متأملاً تأمل العاجز ، فلم يتكلم مع أحد . الراديو وحده هو الذي يتكلم . والمرشح احمد بين حين وآخر يغيّر ابرته . ادارها على اذاعة العدو ، والخبر كان مثيراً ، لقد استمع اليه الرقيب محمد بانتباه (قام جيش الدفاع الاسرائيلي في الليلة الماضية بغارة تأديبية على المخافر السورية المحيطة بطبريا فدمرها وأسر خمسين جندياً ، وعادت القوة قبل الفجر بعد أن خسرت قتيلاً وثلاثة جرحى . وسبب الغارة ان المخافر تزعج صيادي الأسماك وتخيفهم أثناء الصيد) . كان الخبر مثيراً فعلاً .

كان محمد يفكر ، ويدق صوت العريف حسن في أذنه ، كانوا أكثر من ثلاثين جريحاً معادياً ، وهاهي اذاعة العدو تقول قتيل وثلاثة جرحى ، لقد شاهد الرقيب محمد آثار عشرات القتلى على ساحل البحيرة بجانب الحاصل العسكري ، وعشرات القتلى المعادين داخله .

لكن الصورة التي علقت بذاكرته كانت رهيبة لا يمكن أن يمحوها الزمن والسؤال ظل عالقاً في ذهنه ، لماذا احرق الاسرائيليون الجرحى ، لماذا احرقوا

القتل ؟ حرقوا بعضهم البعض ، هو يعرف ان الصهيونية عندما تريد تنفيذ هدف ما ـ لا تفكر بالضحايا ، فتاريخها دموي أسود وحشي . لقد سمع عن حرق الكنيس في حلب وقتل التاجر اليهودي ، من قبل اليهود أنفسهم ثم اتهام العرب ، ان الصهيونية تساوي النازية كيف يفكر قادتها ؟ أي شر يحشو أدمغتهم ضد البشرية ؟ لقد قرأ كتاباً عن معسكرات الاعتقال في بولونيا وعن الحرب العالمية الثانية ، ولكن الذي يقرأ غير الذي يشاهد ، غير الذي يشترك ، لقد شاهد الرقيب محمد قبل ساعات عشرات الجثث التي احرقت ، ولكن كيف استطاعوا ان يحرقوا الجرحى من رفاقهم وهم يصرخون نحن رفاقكم ، نحن جرحى ؟ كانوا يستغيثون يصرخون ، بالعبرية ، بالانكليزية بالعربية ، بالفرنسية ، بالايطالية ، بالبولونية ، بالألمانية ، كانوا يصرخون بكل اللغات . ولكن دون فائدة ، اكثر الجرحى من الاسرائيليين . أكثر من ستين جريحاً كانوا محشورين في هذا الملجأ ، ينقذهم مع مجموعة الاسعاف العريف حسن رغم أنه جريح ، كان ينقذ أي جريح يلقاه أثناء مروره بالخنادق بدوافع انسانية . الجميع يتكلمون العربية اضافة الى لغاتهم ، احرقهم قادتهم حتى لا يكونوا شهوداً على المجزرة .

كان الرقيب محمد يفكر حسب ادراكه ، هل يكون السبب فعلاً كما تدعي الاذاعة الاسرائيلية ؟ من أجل صيد السمك يقومون بهذه الأعمال البربرية ويخسرون جنودهم ؟ لم يستطع أن يجد جواباً لهذا السؤال إلا عندما قرأ كتاب مارشال الاتحاد السوفيتي بهرميان هكذا بدأت الحرب ، وهكذا كانت الفاشية واليوم هكذا هي الصهيونية على حقيقتها .

كان الدخان يتصاعد من بيوت الرعاة ، مساكين اولئك الرعاة ، كانوا في حالة من الرعب الدائم

عاد الرقيب محمد الى الفصيلة ، كان الرقيب خمسان قد عاد من اجازته يستطلع الاخبار ماذا حدث ؟ ماهي الأخبار ؟ وكذلك عاد المساعد أول حسين عصبياً حزيناً ، كان يشتم العدو بالشركسية ، ومع ذلك تلا التعليمات بتجهيز الفصيلة للرحيل .

غادرت البغال قبل الغروب مع حصان قائد السرية (جماعة البغالة والهاون) لم يعرف الجنود الراحة منذ الليلة الماضية ومع ذلك كانت التعليمات واضحة ودقيقة .

سأل الرقيب خمسان عن مخفر تل أحمر ، عن نويصر ، ولكن الرقيب محمد لم يستطع أن يجيبه كل ماهنالك أن بعض القذائف اصابت قرية البطيحة ، وقرية جرابا ، ولم نعرف خسائر المدنيين بعد ، يقال تهدم الجامع وقتل وجرح أطفال ونساء ورجال ، أما العدد فقد كان مجهولاً .

دارت أحاديث شتى ، ورغم الوضع المأساوي المشحون في السريةكان رقيب أول السرية يحاول الدس على بعض الرقباء والعناصر ، ولكن قائد السرية لم يعره أي اهتمام .

وصلت السرية القادمة بعد الغروب بقليل وأخذت موضعها ومهمات السرية الثانية . وانسحبت السرية الثانية الى الطريق ، كانت سيارة قائد السرية في المقدمة وخلفها خمس سيارات لكل فصيلة سيارة ولقيادة السرية سيارة والأسلحة الثقيلة سيارة . تحركت السيارات ولم يقل المساعد أول حسين إلى أين . كانت الحركة بطيئة جداً .

لقد حشرت الفصيلة الثانية في سيارة واحدة ، وركب المساعد أول حسين الى جانب السائق كان تحركها خلف الفصيلة الأولى .

بدأ مسير السيارات على ضوء خافت . وقد نبحت كلاب القرية قليلاً واختلطت اصواتها بأصوات محركات السيارات ، ثم اختفت ، حتى لم يعد تسمع أية همسة في هذه العتمة . وتقلقلت السيارة يمنة ويسرة ، ولكن ما يساعد على توازنها انها كانت تسير ببطء . الصمت ثقيل اثناء الحركة ، كان صندوق العربة مكشوفاً والمطر يهطل ، وقد لف الجنود انفسهم بخيامهم الفردية ، ان المماطر قليلة جداً ، ثلاثة أو أربعة مماطر في الحضيرة الواحدة ، وآمر الحضيرة يرتدي ممطراً ، أكياس البحارة مكدسة فوق بعضها داخل الصندوق . فجلس عليها المجندون .

الرقيب خمسان قلق وصل عند الغروب من اجازته ، يريد أن يعرف كل

شيء بسرعة ، جلس بجانب الرقيب محمد ، الجنود اصبحوا قطعة من العربة .

همس الرقيب خمسان باذن الرقيب محمد ماهي أخبار العريف حسن لقد انتقل الى الحاصل العسكري ؟

ورد الرقيب محمد : لا نعرف عنه شيء ، لكن يقال انه قتل مع الجرحى لا تسألني الآن . كان المطر يقرع على خوذ الجنود وثيابهم .

والرقيب محمد يفكر بالعريف حسن ، ماذا يقول لوالده ، لأمه ، لخطيبته ؟ كان يرسل كل شهر راتبه لأهله وخطيبته ويجهز الغرفة في قرية البطيحة ليتزوج فيها ، ماذا يقول لخطيبته ؟ هل يبلغها ماقاله له ، تزوجي ولا تنتظري ، لقد غادر الحياة ، مضى بشرف ، كان انساناً بسيطاً هرب من القرية من ظلم الاقطاعي ولم يعد ، فقده أهله شهوراً لم يعرفوا عنه شيئاً خلالها ، وأخيراً علموا انه تطوع في الجيش . عندما أرسل لوالدته النقود ، زغردت وقالت ان ابنها جندي وهو حي يرزق ، وفرح أهل القرية وقدموا التهاني لوالده ، وذبح خاروفاً نذراً عنه ، كان يفخر به كونه جندياً يقاتل العدو لا يخاف ، يحب الدفاع عن الوطن ، والده هرب من الجيش التركي في بداية الحرب العالمية الأولى وقاتل مع الثورة ضد الفرنسيين ثم هرب ثانية إلى البدو وعاش بينهم . كان البدو يجلونه ويعتبرونه من أولياء الله الصالحين ، والآن خسر ابنه الذي كان يعينه على مواجهة أعباء الحياة . دارت هذه الأفكار في رأس الرقيب محمد والعربةتسير وأصوات عجلاتهاتعلو وتهبط في الحفروالمحرك يشخر ، والمطر يهطل . اشتدت الظلمة عند منتصف الليل فتوقف الرتل عند قرية العليقة لفترة طويلة ، لم يسمح للجنود بالهبوط ، إلا لقضاء حاجة ما . ومع ذلك لم ينزل من العربة إلا المساعد أول حسين الذي ذهب الى عربة قائد السرية . أكثر من ثلاث ساعات توقفت العربات ، وبدأ الجنود يتهامسون . قد تكون القيادة غيرت رأيها ، قد تكون العودة الى العليقة اذن لماذا لا ننزل الى القرية ونحن محشورون كالسردين والمياه تسيل من الصندوق من تحتنا .

على مقربة من توقف القافلة كان مقام الخضر أبو العباس في قرية العليقة .

ومن هناك تصاعد بكاء النسوة في الليل لقد وصلت جثة أحد المقاتلين الى القرية من المخافر . كانت الأم تبكي وتنوح وتتمنى لو زوّجته ليخلف وراءه ابنا يعزيها . والأب يهدئها قائلاً : ان الله اعطانا عشرة أولاد وهذه فلسطين لا تعود بالدعاء ياامرأة والذي اعطانا اياه الله يأخذه اليوم ألم تسمعي ان للشهداء الجنة ، من يسكن الجنة يسرع اليها ، علينا جميعاً ان نجاهد ونموت شهداء ، ويكرر الرجل الحمد لله الذي أماته شهيداً في قتال اعداء الله . وتندب امرأة ثانية لا تعرف مصير زوجها ولديها أولاد كثر ، قيل انه جريح وأسير ، وقيل انه مفقود ، تندب بصمت حظها وتدعو الخضر أبو العباس أن يقف معه في محنته ، كانت رائحة البخور ودخانه تتصاعد رغم المطر الممزوج بالثلج من سطح قبر أبو العباس وكانت تنهدات ودمدمات تسمع دون ضجيج ، فالخضر أبو العباس لا يقبل النواح والضجيج ، كل امرأة مع زوجها أو عجوز بمفردها . تأتي في هذا الليل الى هذا المقام وتدعوه لمساعدتها وتدعوه ان ينصر جند الحق على الأعداء الظالمين الكفار ، ويكرر شيخ القرية وقد جلس يقرأ الفاتحة ويدعو الله ورجاله الصالحين ان يصبر قلوب المنكوبين ، ويأخذ بيدهم ، في جو مليء بالدعوات والهمسات والدمدمات والبكاء الصامت . وأصوات الغربان التي تقبع على اشجار الكينا ، وزقزقات الزرازير التي وجدت لها مأوى في شجرات الخضر أبو العباس .

كان صوت الرجل الذي يهدىء زوجته يرتفع : قد يثأرون له لا يمكن أن ننام على ضيم والبدوي اعاد له حقه أحفاده ، لا يمكن لهؤلاء الذئاب ان يسكنوا هذه الأرض ، كان الرجل واعظاً متماسكاً أمام جمع من العجائز اللواتي رافقن المنكوبات الى مقام الخضر ، وبدأن ينسحبن على ضوء قناديل هوائية تاركات حفنة من البخور تنتشر رائحتها ، ولحقت بهن كلابهن . بينما كانت بومة تنعق على صخرة قريبة بين حين وآخر ، تذكر الأحياء بالأموات وبأن كل شيء هالك في النهاية .

قال الرقيب خمسان) لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد ترملت نساء كثيرات وتيتم أطفال ، وثكلت أمهات ، وقال آخر : انها الحرب ، والحرب لا تكون

بدون قتلى وأسرى وجرحى .

وقال آخر : وطارد ومطرود .

وصاح مجند راع ، وقاتل أو مقتول ، مثل غارات الذئاب اما قاتلة أو مقتولة ، وقد تكون قاتلة ومقتولة . هؤلاء الذئاب أنا واثق ليس لهم حياة في هذه الربوع . لأن ليس عندهم حتى قيم القتال ، فهم مثل الذئاب غدارون ماكرون ، مخادعون ، وهذه صفات من لم تستقم لهم الحياة ، ألم تسمع أقوال ذلك الرجل ماذا كان يقول لزوجته ؟ إذا لم نأخذ بثأره فأولادنا سيفعلون ، وان لم يكن فأحفادنا . هؤلاء ليس لهم وجود بيننا .

وأردف آخر : انهم جسم غريب لصق بنا لا يمكن بقاؤه .

وأردف الرقيب محمد الذي كان متعباً ومرهقاً : ان الانكليز زرعوهم هنا ، وامريكا تسقيهم حتى يعيشوا ولكن إلى حين سيموتون عطشاً كما ماتوا سابقاً .

ويرد آخر : هنا قرية عين شمس .

وقال اخر : لو شاهدنا الشيخ عبد الجليل قد يدعو لنا .

وأردف آخر : الدعاء لا يكفي العمل هو الأساس .

ورد آخر : ولكن دعاء المؤمنين مفيد .

وأردف جندي جالس : لو كان الدعاء مفيداً لما حدثت معركة ساحل طبريا . ولم يغتصبوا فلسطين وهي أرض مقدسة .

وقال آخر : اين كانت قيادة الجيش ولماذا لم ترد عليهم فوراً وتأخذ بالثأر ؟

ورد آخر : قيادة نائمة أخذت على حين غرة .

وتابع مجند : أنا قلت ان هذه الأبقار لم تهرب ولم تسقها الريح ، لقد كشفوا بواسطتها حقول الألغام لم يصدقني أحد .

وأردف آخر : الراعي يعرف حركة الذئاب أفضل من أي شخص آخر .

وتنهد الرقيب غسان قائلاً : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا أريد كلاماً ، ناموا .

ورد جندي آخر : ان صوت المطر مثل الموسيقى يقرع على خوذاتنا وعلينا

أن ننام عليه .

كان الرقيب محمد ، يفكر . لقد ترملت نساء وتيتم أطفال ، لماذا هذه المجزرة ؟ شاهد قتلى بالعشرات داخل تلك الخنادق اعداء وأصدقاء ، متشابكين بالحراب ، انهوا حياتهم ، اشلاء ممزقة ، مزقتها قذائف المدفعية ، غير معروفة هي عدوة أم صديقة ؟ العدو أحرق حتى جرحاه ، لم يكن لديه وقت لانقاذهم أو سحبهم أحرقهم بعدد من القنابل اليدوية وقليل من الوقود ، اذن هذه هي النازية حقيقة ؟ ما قرأه في الكتب عن الحرب العالمية الثانية الحرب لا ترحم ، ان سبب البلاء يعود إلى الوراء إلى اتفاقية سايكس بيكو ، ووعد بلفور الى الحرب العالمية الثانية ، ان اساس بلاء الشعوب الاستعمار ، هو الشر ، وهو الذي يخترع الشر ويدعمه ، هل صحيح ما ورد بالتلمود ، من أن رب اليهود وعدهم بأرض الميعاد ، وبالقصور والملبساتين والعقارات ؟ معقول ، ان يكون الدين هكذا ؟

كانت أفكاره مضطربة مشوشة ، تجول في هذا العالم منذ القدم وهو محشور بجانب الرقيب خمسان في صندوق هذه السيارة بجانبه عناصر حضيرته مع الفصيلة الثانية والمطر يقرع على خوذاتهم ، أغلبهم نيام انهم متعبون لم يناموا بعد ، ولم يصل إليهم الطعام بعد ، قد يوزع عليهم في الليل لم يشربوا شاياً ساخناً خلال أربع وعشرين ساعة ، لم يعرفوا أين يتجه بهم قادتهم حتى الآن ؟ كل ما هنالك حشروهم داخل هذه العربات وتوقفت عند قرية العليقة .

كان الرقيب محمد يفكر ، ان مشروع ايزنهاور مطروح على الساحة العربية ، ولتنفيذه لابد من ارهاب العرب والانكليز لم يتركوا فلسطين لاهلها زرعوا فيها الصهيونية وجمعوا اليهود من كل انحاء العالم واشتركوا بقتل العرب وتشريدهم ، لم يتصوروا ان الصهيونية تجير لغيرهم ، ولذلك بدأ الحقد يأكلهم ضد البلدان العربية ، هذا ما كان يقوله الاستاذ علي في منظمته الحزبية ، كم هو بحاجة الان ليعرف ماذا تعمل قيادة الحزب في العاصمة وبقية المدن ؟ والفرنسيون حاقدون الان على العرب بسبب دعمهم لثورة الجزائر ، والجماهير في سورية ملتهبة حتى الان لم ينته اسبوع الجزائر بعد .

لقد ضغط عليه التعب وهو يقلب الامور على وجوهها ، وبين حين وآخر كان يقطع عليه سلسلة أفكاره الرقيب خمسان ليسأله :

ـ محمد انت ذهبت الى الحاصل العسكري ، مررت بجانب مخفر تل أحمر ألم تعرف شيئاً عن نويصر ؟ ماذا حل به ؟

ويرد الرقيب محمد : لم أسأل لم يكن هناك وقت لأني لم أجد أحداً يعرفه حتى أسأله عنه ، ومن هول المنظر نسيت كل شيء ، نسيت نفسي أنا ، ويسود صمت ، ثم يعاود السؤال ألم تعرف شيئاً عن غزالة ، عن قرية جرابا ؟

ويرد : قلت لك لم يكن هناك وقت للمرور ، شاهدت هادي يطلب سيارة لنقل جرحى ، قيل انّ ابو خليل قلعت عينه وقيل أن غزالة كسرت رجلها وأن أطفالاً وشيوخاً قتلوا ، ولكن لم اشاهدهم أنا لم أذهب الى القرية ، اعادني النقيب قائد السرية ، وانت تعرف قائد السرية ولسانه ، وخاصة في هذا الوقت العصيب ، قد لا يرحمني إذا تأخرت ، ولذلك عدت فوراً . على كل حال بعد أن تهدأ الأمور ، سنعرف كل شيء . وذهب الرقيب محمد بأفكاره الى مدرسته ، الى معلمه الذي نسبه الى الحزب ، كيف كانت تلقى عليه المحاضرات عن الاستعمار ، الاستعمار الانكليزي ووعد بلفور الاستعماري الفرنسي ، الانكليزي واتفاقية سايكس بيكو ؟ والان بدأ الاستقلال ، وبدأ استقلال البلدان العربية ، وكل بلد ذهب منها المستعمر مخلفاً فيه اذنابه وخوازيقه في كل انحاء الوطن العربي ليحاول من خلالهم أن يمرر مشاريعه واحلافه ، مشروع ايزنهاور ، وحلف بغداد ، والنقطة الرابعة ، كل هذه التسميات كانت تجول بخاطره ، ولكن الجماهير التي هشمت حلف بغداد قادرة على تحطيم كل الاحلاف الأخرى ، ان الامال معلقة ايضاً على ثورة مصر ، لقد طرد الثوار الانكليز من مصر ؟

« ١٩ »

تحركت العربة عندما كان الرفيق محمد نائماً وداهمته كوابيس كثيرة ، شاهد العريف حسن وهو يتحدث معه بالهاتف ، شاهده على بيادر القرية ، عندما كانا يلعبان ليلاً في الهجوم والدفاع (ويضعون كومة من تراب يدافع عنها نصف العدد ويهاجمها النصف الآخر) شاهده وهو يتحدث مع خطيبته وقد خجل منه ، كما شاهد العريف ماجد وهو نازف فوق رشاشه وقد كتب عليه ليعش الوطن .

استيقظ على صوت المحرك وهو يصعد طريقاً صعبة ، استيقظ قائلاً ، رقيب خمسان هل سرنا . ورد عليه الآخر : انظر الأرض بيضاء الثلج يغطيها ، وفتح عينيه رغم الظلمة ، كان قد توقف المطر ، وبدا الثلج خفيفاً أبيض رغم النور الحربي فعلى ضوء السيارة الخلفي تلمع نتفة بيضاء . قال : لقد نمت كثيراً ـ آه ـ كان الثلج قد علق على الممطر وثياب الجنود ، وقد رص الجنود اجسامهم والتصقوا ببعضهم البعض .

وقال : أين وصلنا ؟ ولكن الرقيب خمسان لم يجب ، وعرف ان القافلة تسير باتجاه مدينة القنيطرة ، فعاد الى صمته .

انقطعت الفصيلة الثالثة بسبب عطل في السيارة ، وتخلف رقيب أول السرية قال عنه احد المجندين الذين يكرهونه : قد يكون مر بدار البغاء من يدري ؟

توقفت العربة في العتمة وتوقف محركها فصاح المساعد أول حسين : ممنوع النزول ، كانت الساعة قد اجتازت الرابعة بقليل ولا يزال الثلج يتساقط

امام نور (بيل هوائي) كان بيد المساعد أول حسين الذي **ذهب الى عربة قائد** السرية ، كانوا نياماً ومستيقظين في آن واحد ، بعضهم يتحدث مع بعض همساً ، أين نحن ، قال أحدهم وقد أيقظ الرقيب محمد ، لقد وصلنا . أما الرقيب خمسان فقد نزل من العربة ، وانتحى جانباً ، ثم عاد وقال ، (الدنيا زمهرير) ثلج ، ثلج حتى الركبة .

لا تزال العتمة تلف الأرض والسماء ، ولا تزال الريح تعبث بالكون والوقت يمر بطيئاً ثقيلاً ، البرد دخل الى عظام المجندين ، ومرت الساعة الخامسة وبدأ الضياء أول خيط من الشرق ، اذن من هناك اتجاه الشرق ، وسمع نباح كلاب اثناء توقف محركات السيارة ، كما سمع صياح ديكة «اذن نحن قريبون من مدنيين» ؟ ديكة كثيرة تصيح «اذن هنا قرية كبيرة»؟ ثم سمع صوت المؤذن ، صوته ليس بعيداً .

قال أحد المجندين : الله أكبر .

وأردف آخر : والحمد لله كثيراً .

ورد ثالث : لا إله إلا الله .

وأردف رابع : لا حول ولا قوة إلا بالله من هذه الأيام السوداء التي نحن فيها .

كان كلامهم تجاوباً مع الآذان .

قال أحدهم : لو اوقفونا بجانب الجامع كنا تدفأنا .

وأجاب آخر : هل هذا وقت نقاش ؟ قالها بحدة ، أين نحن ؟ غير الله لا يعرف .

عاد المساعد أول حسين وأمر بالنزول من السيارة ، كل يحمل كيس بحار ، هيا ـ على أمار الحضائر أن يلحقوا بي بسرعة .

قال الرقيب محمد منبهاً أن الثلج سميك ، لقد غاص حذاؤه وكانت الريح تضرب الوجوه ولأول مرة في هذه السنة يصيب الجنود برد بهذه القوة التي كان عليها .

وأردف الرقيب محمد : لعنة الله على رقيب أول السرية لم يسلمنا السراويل

الطويلة ، ولا الأحزمة الصوفية .

ورد آخر : لا نزال في بدلات العمل، كانت علمين دافئة أكثر من هنا .

وقال آخر وهو يهبط من العربة : لقد تكسرنا ، والسير على الأقدام أفضل من الركوب في هذا الصندوق ،

وصاح المساعد أول حسين ، هيا بسرعة الحقوا بي ، هيا أمار الحضائر ، كل يقود حضيرته ويلحق بي . ولا وقت للتعليقات .

حمل الجنود أمتعتهم وأسلحتهم وأسرعوا يتسلقون تلة قريبة من الطريق ، كانت بيضاء تلمع من الثلج ، وصلوا إلى الأعلى وبدأت العتمة تهرب ، والضياء يلوح متأرجحاً بين الغيوم المثلجة .

وأشار المساعد أول حسين إلى تمركز كل حضيرة ، وكان الدفاع دائرياً وحددت قبل الشروق مواقع الرشيشات ، وتمركز كل فرد ، وطلب تجهيز الحفر بالأدوات الفردية التي بحوذة الأفراد .

لقد بدأ تجهيز الموقع في هذا الطقس الرديء وجرف الثلج بالأيدي ، وبدأ الحفر . كانوا مثل كتل سوداء على تلك الرابية ولكثافة الغيوم لم تشاهد بقية الفصائل ، والعربات .

كان الرقيب محمد يبحث هل توجد حفر سابقة ، ولكن تبين له انه لم يأت الى هذه الهضبة جنود سابقون . وان وجدت فقد مسح الثلج الأرض فبدت متساوية .

ضحى ذلك اليوم انهى الجنود الحفر كيفما اتفق وأصبح الموقع مقبولاً إلى حد ما ، حفر فردية صغيرة ، وصلت الشاي . فاترة ومع ذلك كان طعمها لذيذاً ، كما وصل طعام الغداء ، وزع على الجنود من السيارة التي وقفت على الطريق . على بعد مئتي متر من الموقع ، تبدو اثار الجنود قد صنعت دروباً بين السيارة والموقع . وعندما انتشر ضوء الصبا ح ظهرت قرية كبيرة قريبة قال المساعد أول حسين : هذه قرية المنصورة . وهي الى الشمال الغربي من مدينة القنيطرة ، لقد فرح الجنود ، انهم امام قرية كبيرة وبعيدين الان عن خط وقف اطلاق النار ، لم يسمعوا اصوات رشاشات أو انفجارات .

وقال الرقيب محمد : ستكون لنا استراحة في هذا المكان .

ورد مجند : لقد كتب علينا العذاب ولا راحة لانسان إلا في قبره .

وأجاب آخر : الضريبة من اجل الوطن لابد من دفعها ، هكذا يقول الرقيب محمد دعه يرتجف من البرد الان . أين حزبه كي يساعدنا الآن ؟

ولكن الرقيب خمسان قال : ان هذا البرد أسوأ من العدو . قد نمرض ونموت منه ، لو أماتنا العدو فقد نسجل عند الله في قائمة الشهداء أما هنا فنموت مثل كلاب الرعاة .

كانوا يتحدثون وهم يستلمون من العربة طعامهم ، لم يشاهدوا قائد السرية ، كما لم يشاهدوا قادة الفصائل . والحق ان قائد السرية نام في سيارته الدودج التي يغطيها مشمع لأنها واقفة خارج الطريق في السفح ، وبجانبها مقطورة المياه .

بدا على وجوه الجنود انهم في اعماقهم مسرورون لأنهم ابتعدوا عن الخطر الحقيقي ، لا تزال عالقة باذهانهم معركة طبريا ، ولا تزال آذانهم تدوي فيها انفجارات القذائف لكنهم في أعماقهم كانوا مطمئنين لنجاتهم من الخطر .

قال العريف زيد : الحمد لله البرد ولا الموت . من كان يدري ؟ ما يحل بالسرية إذا هاجمها لواء . لو قتل ربع اللواء ، وبعد ذلك تقتل السرية ولا يبقى الا الذي له عمر .

وأردف الرقيب خمسان : كلام زيد صحيح . لو أعطونا اجازة ساعة أو ساعتين نذهب خلالها الى القرية فقد نشتري حاجاتنا ونشرب شايا ساخنا . لكن المساعد أول حسين الذي كان يسمع الحديث قاطعه بكلمة ممنوع منعاً باتاً مغادرة السرية الا بأمر من قائدها شخصياً .

وعلق جندي قائلاً : هذا يعني اننا لن نستطع ان نذهب الى القرية .

ورد المساعد أول حسين : اطلاقاً ومن يهرب ستكون عقوبته قاسية ، وأنتم تعرفون ان قائد السرية ، اعصابه متوترة بعد معركة طبريا وغاضب بشكل دائم ، قد نعود في الليل الى المخافر الأمامية ، كما أن الأوامر غير واضحة .

وعادت الفصيلة الى موقعها ـ وغطى الجنود الحفر بالخيام الفردية لأنهم سينامون داخلها ، وأصبحت أوكاراً صغيرة ، على سفح هضبة اكتست بالثلج .

لم تتسلم السرية طعامها ليوم كامل ، وقفلت السيارة التي جاءت بالتموين راجعة ناشرة خلف عجلاتها زوبعة من الثلج الأبيض . عمل أحد الجنود شايا في خيمة المساعد أول حسين ، واعطى أوامر بتحضير القناديل الهوائية ليلاً .

كانت الغيوم كثيفة جداً ومنخفضة ، غيوم ثلجية ، تسوقها الريح شرقاً ، الثلج والبرد القاسي منعا الناس من الخروج من منازلهم ، الدخان يتصاعد من سطوح القرية التي يغطيها الثلج .

كما أن الجنود لا يزالون يعملون بتحسين الموقع الجديد الذي تغطيه خيمهم الصغيرة ، وأغلبهم يملك (طباخ كاز) وقد اشعله داخل خيمته .

السرية في وقت استراحة ، لم يجمعها قائد السرية بل أتت التعليمات على نحو أفضل . كما حظر المساعد أول حسين من مغادرة أي فرد للسرية مهما كان الثمن ومع ذلك ذهب بعض المجندين الى دكان القرية وأتوا بتمر وحلاوة وراحة ، رغم أن الوقت كان قصيراً . كان ذلك بمعرفة أمار الحضائر فقط . وبدأ الضياء يخبو ، والعتمة تزحف ، كانت العتمة مسرعة . لجأ الرقيب محمد كغيره الى خيمته ، لحق به الرقيب خمسان ، وكان العريف زيد مناوباً ضمن الحضيرة ، لقد استعادوا احداث الأمس ، احداث طبريا .

عندما اشتدت العتمة ساد هدوء واستكانت السرية الى نوم عميق هادىء ، لم يسمع اثناءها رشاشات ولا قذائف ولا انفجارات ، يقطع هذا الصمت بين الحين والآخر نباح بعض الكلاب الكسالى في القرية ، التي أوت خوفاً من الثلج والبرد ، وبدأ الثلج يتساقط ثانية . اعطيت الأوامر وأتت كلمة السر ، والموقع مكشوف رغم تحسين الحفر الفردية والخيام ، وقام الجنود بل ارتاحوا ورغم كل ذلك عاد الرقيب محمد وعلى ضوء ذلك القنديل الهوائي الى كتبه وأخذ يقرأ نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب ، وبدأ خياله يعيده إلى اعماق التاريخ ، علي بن أبي طالب الذي قتل اليهود في حصن خيبر ؟ لماذا قتلهم ثم وزعهم ؟ ومن مجرى اقواله ، يفهم أن اليهود في ذلك العصر كانوا جواسيس

للرومان في فلسطين والجزيرة العربية التي لم يصل اليها الرومان ، واستخدم الرومان حصن خيبر اليهودي مركزاً للتجسس على العرب ، اتبع سليمان جد اليهود نفس الأسلوب واستخدم نفس الطرق الجاسوسية على جيرانه وهذا ما دفع العرب الى تهديم حصن خيبر وانهاء مركز الجاسوسية ضد العرب ، وهاهو الأمر يتكرر في فلسطين ، فانكلترا وامريكا والاستعمار والصهيونية يستخدمون اليهود ضد العرب ويجمعونهم من كل انحاء الكرة الأرضية . لم يقرأوا التاريخ ، الفوا لهم كتباً ، وراحت الماسونية تغريهم بفلسطين وشددت الصهيونية قبضتها عليهم بل وقتلت الكثير منهم حتى ارهبوا وخافوا وانصاعوا . تذكر اسحاق في حلب كيف قتله اليهود في الجيش الفرنسي وحرقوا الكنيس ونهبوا الايقونات واتهموا العرب جيرانهم .

كان يقرأ هادئاً ، وبين فترة واخرى يتذكر الاقطاعي في قريته وسوطه يلهب ظهور الفلاحين رجالاً ونساء معقول هذا . وعلي يقول في الكتاب (ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ؟) كم ذلت هذه الأمة العربية مئات السنين ؟ قروناً طويلة من الحكم الأجنبي تسحقها ، وهذه الهمجية الاستيطانية الجديدة الى متى ؟ سؤال وقف عنده طويلاً وهو يقرأ كل جملة ليعرف معناها ، وخف الضوء كان الكاز قد انتهى وأخذ منه النعاس ونام وهو يلف نفسه في بطانيته .

استيقظ على صوت بعيد يقيم الاذان في قرية المنصورة ، كان الصوت بعيداً عميقاً كأنه يأتي من اعماق التاريخ ، ودق بوق الانذار في السرية في تلك اللحظة وهب الجنود جميعاً كل خلف سلاحه وفي المكان المحدد ، ولكن يبدو أن الأمر كان مختلفاً ، فقد أصدر قائد الفصيلة أمراً : عشر دقائق ونكون جاهزين للمسير ، حدثت ضجة بين الجنود ، وتابع قائد الفصيلة : لا تنسوا شيئاً غادروا دون أي أثر خلفكم ، هيا بسرعة .

قال الرقيب محمد : اياكم ان تنسوا أوتاد الخيم ـ خلال دقائق دب التنافس بين الحضائر اذ من يسبق سوف يحصل على أول اجازة لاحقاً . أسرع المجندون ولم يمض أكثر من عشر دقائق حتى كانت الفصيلة تهبط الى الطريق

جاهزة تماماً .

كان الرقيب محمد يتصور أن هناك عربات واقفة لكنه لم يجد أحداً سوى قائد السرية مع المرشح أحمد ، ووصلت الفصائل الى الطريق واصطفت واخذت شكل المسير ، وصوت المرشح احمد يتناهى عالياً يغطي على كل شيء ، وعندما قدم له قادة الفصائل الجاهزية أعطى أمراً بالاستعداد وقدم الصف الى قائد السرية ، ثم أعطى أمراً بالمسير وفق التراتيب المحددة .

كانت مصابيح صغيرة تشق الظلمة مع قادة الفصائل وأمار الحضائر وعندما تشعل تلك الوهجة السريعة يلمع سقوط الثلج كثيفاً ، وصوت أحذية الجنود على الطريق المغطى بالثلج وتقصيف الجليد تحت ارجلهم يسمع من بعيد ، رغم أن معالم الطريق غير واضحة ، لولا بعض الشجيرات على جانبي الطريق .

كان مسار الرتل مزدوجاً ، صامتاً لا يسمع إلا أنفاس الجنود أو صوت أحذيتهم وهي تضرب بالثلج ، كل جندي يحمل كيس البحار المملوء بعتاده اضافة الى بطانياته الملفوفة بخيمته الفردية ، ويعلق بكتفه سلاحه ، وعلى رأسه خوذته ، في البداية كان الجنود يرتجفون من شدة البرد ولكن بعد أن انطلق الرتل ، وبدأ يتحرك مسرعاً لم يشعر أحد بالبرد .

بعد أن قطعت القافلة حوالي نصف ساعة من الزمن بدأت الهمهمات بين الجنود أين نسير في آخر هذا الليل ، ثم اصبحت الهمهمة همساً ، وعلا صوت المرشح أحمد : هيا اسرعوا افتحوا خطواتكم ، قائد السرية يسير امامكم . وصاح قائد السرية : مرشح احمد بلغهم بفتح الخطوة . وتحمس الجنود وتهامسوا ، هيا قائد السرية النقيب بكري أمامنا» .

كان الجنود مع أمار الحضائر يحملون نفس العتاد ، راحت البغال تلحق بالسرية تحمل الرشاش الثقيل ، والهاون .

بدأ الجنود يتحدثون بصوت مرتفع اختلط بوقع اقدامهم ونتف الثلج التي تضرب وجوههم ومع ذلك اسرعوا خلف قائد السرية .

لم تمر ساعة الا وكانوا قد اجتازوا فيها مسافة كبيرة ، وعندما بزغ الفجر ،

وبدا اول خيط للضياء من الشرق كانت السرية قد اجتازت اكثر من اثني عشر كيلو مترا .

مرت السرية بالقرية قبل الضياء ، لم يكونوا يعرفون اسمها ، ولكن بيوتها وأصوات الكلاب فيها ، وصياح الديكة ، اظهرها قريبة من الطريق وتابعت السرية مسيرها .

عندما احمرّ الأفق ، كانت السرية تسير بجانب حرش كثيف، ثم توقف اول الرتل ، وانحرفت السرية داخل الحرش ، كانت اشجار السنديان العالية ، تحمل على اغصانها الثلج .

بعد أن دخلت السرية حوالي ثلاثمائة متر توقفت في فسحة من الأرض ، هناك ظهرت سيارة قائد السرية ومقطورة المياه تحت شجرة كبيرة ، وكذلك خيمة قائد السرية كانت منصوبة ورقيب أول السرية قد حضّر كل هذا قبل مسير السرية ، وكأن قائد السرية استطلع موقع السرية مسبقاً أعطى تعليماته الى الفصيلة الأولى والثالثة وفصيلة القيادة والرشاشات والهاون . ثم قال: الفصيلة الثانية تلحق بي مع المساعد أول حسين :

وعادت الفصيلة الثانية الى الطريق ثانية ، حيث دخلت قرية جميلة يتصاعد الدخان من سقوفها .

في الجانب الشرقي للقرية تلقت الفصيلة الثانية المهمة ، بمنع تسلل العدو من خلف قيادة السرية والفوج ومنع المرور ليلاً في هذا الوادي ، وأعطى قائد السرية الذي لف حول عنقه لفحة من الصوف عسكرية وارتدى رداء واقياً للمطر والثلج من مشمع اصفر ، أوامره من جديد ، ولفت انتباه الرقيب محمد الى جزمته التي لا تخترقها المياه لانها من الكاوتشوك ، وقد قلب القسم العلوي منها فبانت كأنها حذاء فوقه (الكيتر) الطماق . كانت حركته سريعة وكلامه واضحاً حيث قفل راجعاً ، والفصيلة الثانية تجمعت عند جدار منزل ، وقد جلس الجنود فوق أكياس البحارة .

كان المساعد أول حسين قد استطلع المكان مع أمار الحضائر وأمر بنصب الرشيش ٢٤ - ٢٩ وحدد أماكن الحضائر ووزع المهمات ، وأعطى أمراً بالجاهزية .

« ٢٠ »

فتح باب أحد البيوت قليلاً فظهر داخله ، عدة أطفال ، ثم أغلق وفتح ثانية فظهرت هذه المرة مع الأطفال أمهم ، كان الرقيب محمد قريباً من الباب ، وكانت المرأة التي لفت رأسها بمنديل أبيض ، تبدو طويلة إلى حد ما وعيناها جميلتان ، اغلق الباب ثانية ، وفتح وخرج منه رجل في الأربعين من العمر قوي البنية ، يرتدي سروالاً أسو د وفوقه رداء من الصوف وعباءة من الشعر ، وله شاربان أسودان طويلان تركهما دون تشذيب ، القى السلام ، وسأل هل وصلتم هنا اليوم ؟

ورد عليه الرقيب محمد : نحن هنا من أجل أمنكم ، وتابع ان هذه السنة جيدة ، والثلج يبشر بالخير وبموسم جيد .

فقال الرجل : هذا صحيح ، ولكن ماهي اخبار معركة طبريا ؟ هل اتيتم من اجل دعم الجبهة الامامية ؟

ورد عليه الرقيب محمد : نعم .

فقال الرجال : هل تريدون شاياً ساخناً ؟

فأجابه الرقيب محمد : وهل المكرمة تحتاج إلى سؤال يارجل؟

عاد الرجل الى منزله مسرعاً ، وبعد اقل من نصف ساعة خرج ومعه ابريق كبير من الشاي ، وخبز طري ساخن ، وزع الخبز على الجنود وسكب الشاي في كارات .

فسأله الرقيب : مااسمك ؟

فأجاب : العبد الله (كمال).

فقال الرقيب محمد : شكرا يا كمال على عملك هذا ؟

تمركزت الفصيلة بجانب منزله ، له خمسة أولاد لا يزالون في مقتبل العمر وزوجته أصغر منه بقليل لكنها تبدو شابة فهي في الأربعين تقريباً ولكنها جميلة . خاصة عندما فتحت الباب ثانية وهي تصيح كمال ـ خذ الشاي ثانية .

مر الزمن سريعاً وتمركزت الفصيلة في هذه النقطة بعيداً عن مركز السرية وغير خاضعة لمراقبتها المباشرة . واستمر سقوط الثلج متقطعاً خفيفاً مع ريح خفيفة تسوق الغيوم المنخفضة .

عاد قائد السرية النقيب بكري عند الغروب وتفقد الفصيلة ، كان معه المرشح أحمد ، سلم على كمال ، كانت زوجته تقف داخل الدار وكان الباب مفتوحاً ، ولكن لم يكن هناك وقت وكانت نظرات النقيب بكري تدعو للخجل ، ولاح الرقيب محمد برأسه رغم أن الحديث كان يدور مع المساعد أول حسين ومع كمال عن القرية ، واسم المختار وعدد السكان ، وما إلى ذلك ، والحديث مجرد كلام لان كل شيء معروف في القرية .

استطاع الجنود أن يحصلوا على الحطب من الفلاحين ، وأن يأخذوا الخبز الساخن والشاي واشتروا من دكان القرية علباً من السردين ، والحلويات والحلاوة ، وحصلوا على قهوة وشاي ، حتى الخبز يباع في دكان القرية ، كان ذلك جيداً بالنسبة للجنود فقد حصلوا على الطعام وأشعلوا النار ، وحلقوا ذقونهم لأن في القرية كما قالوا بنات جميلات جداً .

كان الطقس رديئاً لا يساعد على التدريب فاكتفي بصيانة الأسلحة . لكن المناوبة والحراسة الليلية ، استمرت في الفصيلة الثانية على أشد مما كانت في الخطوط الأمامية ، والسرية داخل حرش مسعدة ، شأنها شأن الفصيلة . ونهاراً كان الجنود يجوبون القرية ، وقد تعرفوا على أهلها .

كانت عجلة الحياة ومرور الزمن ينسيان الجنود المأساة ، لم يعودوا يفكرون بماحدث في طبريا ، والطبيعة جميلة ، وأوضاع أهل القرية الاقتصادية جيدة

ومستقرة واختلاط الجنود معهم وتآلفهم مع السكان أنساهم ، قرية جرابا ، وعلمين ، والعليقة .

عندما كان الرقيب محمد والرقيب خمسان يشربان القهوة في مضافة القرية الدافئة والمفروشة على مصاطب كان المختار يحدثهم عن قصص وحكايا جميلة عن التاريخ والجليل الأعلى . يقول علينا أن نقاتل لاعادة الجليل واسترجاع الحق ، ومهما حاول العدو عليهم أن لا يتركوا الأرض ، الأرض اغلى من الرجال ، والشهيد لا يموت ، كان حديث المختار هادئاً وهو يعد القهوة ، ويدخن ، والدخان يعبر شاربيه الكبيرين وقد غطى نصف وجهه ، في وجهه تجاعيد كبيرة دلت على قسوة الحياة معه ، كان الرقيب يتحدث عن حزب البعث العربي الاشتراكي واهدافه ودور الفلاحين في الكفاح ، وخاصة أن هذه المناطق قاتلت فرنسا عبر خمس وعشرين سنة ، وكذلك في المناطق الجبلية على الساحل ، وكل الشعب السوري قاتل فرنسا طيلة هذه المدة .

ورد الرجل كان جالساً يدخن ويستمع الى الحديث قائلاً ، : ان كلام الرقيب محمد صحيح ، الكفاح يجب ان يكون منظماً وفلسطين لا تعاد في برقيات الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء ، نحن أمة واحدة ، عندنا رسالة في التاريخ يجب الكفاح حتى نحقق رسالتنا ونوحد الأمة ، وكان الرجل على علم بأمور الدين والسياسة أيضاً ، فتحدث عن الخيانات والأسلحة الفاسدة ، ومكافحة الأنظمة العميلة التي سببت نكسة سنة ١٩٤٨ في فلسطين .

كان الرقيب محمد يقول في نفسه ، كل شيء يدعو الى التفاؤل في هذه القرية . يوجد مدرسة هذا جيد جداً ، مدرسة فيها خمسة معلمين .

حضر النقيب قائد السرية أيضاً إلى المضافة واجتمع الى المختار والرجال في القرية ، كان لطيفاً مع السكان ، ولم يبق طويلاً . وقد زار الرقيب محمد المعلمين وتعرف عليهم هناك ، كان أحدهم ينتمي إلى حزب البعث ، ووجد عنده نشرات حزبية ومنشورات ، المعلم حامد كان قد تخرج من دار المعلمين بدمشق عنده مناشير عن حزب البعث العربي الاشتراكي ، وزع قسماً منها ورغم ذلك كان كما يبدو يخاف أن يوزعها علناً . لكن الرقيب محمد شجعه وأخذ

أعداداً منها حيث وزعها داخل الفصيلة والسرية .

ـ لماذا يـا رفيق حامد تخشى من توزيع المناشير في القرية ؟ سأله الرقيب محمد .

كان الرفيق حامد طويل القامة نحيفاً ، وعيناه سوداوان وحاجباه مقوسان ، خجولاً عندما يتكلم مع الآخرين وتغلب عليه التربية الدينية ، وفهم الرقيب محمد ان سلوكه يشبه سلوك رجال الدين الأتقياء ، وفي قرية مسعدة كلام رجال الدين يعتبر أمراً ، والعادات والتقاليد تأخذ مجراها بدون أن يجرؤ أحد على مسها ، وان كانت تخالف مبادىء الحزب ، فلا يجرؤ المعلمون ان يناقشوا فيها ، هذه نقطة ضعف لدى المعلم حامد ، ولقد شرح له الرقيب محمد عن مجتمع البدو ، وانه أشد تخلفاً من هذه القرية ومع ذلك فقد انتشرت افكار الحزب بين البدو وتحدث عن العادات والتقاليد وخاصة البالي منها وقال :

ـ إذا لم نشرح وجهة نظر الحزب بكل افكاره لماذا نحن اذن بعثيون ؟

نشر الرقيب محمد مناشير الحزب في مضافة القرية وأعطاها الى المختار وجيران الفصيلة والتلاميذ . ولم يجرؤ أحد من المعلمين المعارضين على منع توزيع المناشير ، التي تدعو إلى نصرة ثورة الجزائر وإلى الوحدة مع مصر ، نواة الوحدة العربية لمكافحة الاستعمار ، وخاصة مشروع ايزنهاور الاستعماري . كان النقاش حامياً في مضافة القرية .

سأل المختار : ولكن الجزائر بعيدة عنا ، ولكن الرقيب محمد اقنعه ان الجزائر جزء من الأمة العربية ، ورسم له خريطة الوطن العربي ، وماذا عمل الاستعمار القديم والحديث في هذا الوطن ؟ ورغم ان المختار كان رجلاً أمياً ، وشيخ الدين في القرية كان حذراً في الكلام ، إلا أنهما تفهما الأفكار . ورغم كل الصعوبات فقد نشط المعلمون في الدفاع عن أفكار الحزب .

مر اسبوع كامل تعرف فيه الجنود والرقباء والمرشحون وقائد السرية على سكان القرية . وفي اليوم السابع من وصول السرية تلي أمر بنقل قائد الفوج الرائد سليمان . حزن الرقيب محمد لنقل قائد الفوج ، لقد حماه من قائد السرية في وقت كانت ظروف الرقيب محمد سيئة ، واليوم ينقل ، من سيكون

قائد الفوج ؟

في اليوم الثاني نقل رئيس أركان الفوج النقيب مدثر ، وبذلك اصبح اقدم ضابط بالفوج النقيب بكري ، وأخذ يسيّر العمل داخل الفوج . ورغم رداءة الطقس فقد قرر قائد السرية النقيب بكري تدريب السرية وإعادة تنظيمها وذهب بفصائل السرية لاجراء رمي تدريبي داخل حرش مسعدة .

كانت فسحة داخل الحرش لمسافة أقل من مئتي متر ، وقد نصبت فيها (الأهداف) ، وعلى كل جندي أن يحضر بطانيته التي سينبطح عليها اثناء الرمي ، كانت الريح عاتية ، تكاد تخلع الأشجار من جذورها . وكان النقيب بكري يريد أن يثبت للقيادة بأنه قائد ويمكنه أن يقود الفوج بالظروف الصعبة ، ولذلك لم يتردد في تنفيذ أمر أصدره ، فالتدريب يجب أن ينفذ وعاد إلى سلاطة لسانه وخاصة إذا فشل أحد الجنود أو المرشحين في إصابة الهدف ، كان يكيل له اقذع الشتائم . كان الرقيب محمد يسجل في سجل الرمي ، عدد الاصابات ، وكان قد وصل قبل يومين مرشح جديد الى السرية لم يسلم بعد فصيلة، ولم يستلم لباساً ميدانياً فلا زال بلباس كلية الاحتياط ، لباس طلاب الضباط كان شاباً وسيماً ، ويبدو أن حياته كانت مريحة كما يبدو عليه ومع ذلك أخذ إلى الرمي فور وصوله . لقد رمى على الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ ولكنه لم يصب الهدف .

كان المرشح واقفاً باستعداد أمام الهدف ولم يصبه فنظر إليه النقيب بكري ، كان الرقيب محمد يمسك الدفتر والقلم ، فلم يسجل اسمه في عداد الفاشلين . كان يقف جامداً من شدة البرد ، وقد احمر وجهه ، بل ازرق ، ومع ذلك لم يرحمه ، بل قال له ، لقد عشت سنة في كلية الاحتياط بحلب آه ؟ وصار يكيل له الشتائم بكلمات بذيئة . وامتزج صوته بصوت الريح ، ومشى المرشح دون أن يتفوه بكلمة لكن الرقيب محمد رغم البرد الشديد ، وهذا التدريب الذي لا يجدي في هذا الطقس ، فقد كان يسير خلف النقيب بكري وهو يضحك لأنه أول مرة يشاهد مرشحاً يشتم ويوبخ بكلمات قاسية .

عندما عادت السرية كان قد وصل أمر بنقل المساعد أول حسين من السرية الى قيادة الجبهة ، لقد حزنت الفصيلة الثانية ، وبكى بعض المجندين

عليه ، كان رجلاً طيباً قال بلغته العربية المكسرة آه (نقلوها الى قيادة الجبهة) مفيد جداً سوف ازوركم لا تنسوني ، كانت كلماته وهو يودع الفصيلة مؤثرة ، لقد عانق الرقيب محمد وقال : محمد شجاع أتمنى أن اراك في القنيطرة . كان وداعاً مؤثراً جداً ، رفض أن يحمل له أحد المجندين امتعته ، حملها بنفسه وأصر الرقيب محمد أن يساعده رغم معارضته فرافقه الى قيادة السرية حيث سلم سلاحه وأخذ براءة ذمة من السرية إلى قيادة الفوج ، كان رقيب أول السرية رغم لؤمه متأثراً من نقل المساعد أول حسين ، لم يكن هناك جندي أو مجند يحقد عليه . ودع قائد السرية والمرشحين ، وغاب وسط الحرش ضمن الضباب الكثيف الذي يخيم على المنطقة .

« ٢١ »

لقد تذكره الجنود مساء ، عندما كانوا يشربون **الشاي داخل خيمتهم** الجماعية . قال الرقيب خمسان انه رجل طيب يحب النظام وينفذ القانون ، رغم انه وضع القيد بيديك يوم حادثتك مع قائد السرية .

فقال الرقيب محمد : كان مع الحق دائماً والقانون دائماً مع الحق ، وتابع الرقيب محمد آه متى تكون القوانين لصالح الجماهير ؟ عندها تكون مع النظام والحق ، مسكين المساعد أول حسين نفذ حتى قوانين فرنسا ، ويقول (هي نظام) هي الحياة .

ورد مجند كان يسكب الشاي : يالله كل موظف معزول . والمتطوعون موظفون كبروا أم صغروا ، اشربوا الشاي ، اقترب الغروب ، وزحفت الظلمة على القرية وبدأت الريح تعوي ويشتد عواؤها ، وانخفضت الغيوم تسوقها الريح بسرعة تحمل ذرات الثلج من أعلى جبل الشيخ ، لم تخرج المواشي اطلاقاً في هذا الطقس ، وهدأ كل شيء في القرية ، بل نامت القرية باكراً ، ولم يسهر الفلاحون في بيوتهم خشية أن تعرض الدوريات الليلية حول القرية للالتباس . ومع ذلك سهر مجموعة من الجنود في بيت كمال ، وشربوا شاياً. لم يكلف قائد السرية أحداً بقيادة السرية ولكنه وصل ليلاً بالسيارة ، ودخل الخيمة الجماعية ، وتفقد الفصيلة وأعطى أمراً مخالفاً للقواعد العسكرية ، الفصيلة بامرة الرقيب محمد بدلاً من الرقيب خمسان .

كان قائد السرية يبحث عن شيء ما ولكنه كان حذراً ، ويبدو أنه وعد أحد الفلاحين بالسهر في منزله ، فهو قلق مضطرب ماذا يعمل ؟ من يصطحب معه ؟ يكفي رقيب أول السرية ، أم يأخذ العريف زيد أيضاً ؟ العريف زيد خطب فتاة من القرية واتفق مع أهلها على أن يأتي والداه حسب الطريقة التقليدية ولكن العريف زيد ؟ كان يستعرض بنفسه كما يبدو أفراد الفصيلة التي اختلطت بالسكان اكثر ، كونها تحرس من الشرق وخيامها على جدران بيوت القرية ، وأخيراً اصطحب معه العريف زيد ورقيب أول السرية . كان رقيب أول السرية لا يرتاح الى الرقيب محمد ولكن الوضع هنا مختلف ، ذهبوا وأخذوا معهم العريف زيداً .

تركوا السيارة عند خيمة قائد الفصيلة الثانية ، وذهبوا على ضوء بطارية يدوية كهربائية (بيل) عندما غادروا الخيمة بقي السائق يشرب الشاي لم يعلق السائق الا بكلمة واحدة (القائد يحب البنات) ولم يتابع الرقيب محمد هذا الحديث لكن الرقيب خمسان غمز بعينه وقلب الحديث الى الجندي نويصر ، وماذا عمل مع غزالة في قرية جرابا ؟ قال : سمعنا انها شفيت من مرضها وعادت الى القرية ، وتنهد الرقيب خمسان قائلاً : ما أحلى جرابا !!! تذكروا عين سمسم والشيخ عبد الجليل والمختار وما حل بأبي خليل في قرية جرابا ؟

وتابع الرقيب خمسان : رحم الله العريف حسن كم كان طيباً وكريماً وشجاعاً (كان صاحب نخوة)!!!!

فقال الرقيب محمد : عندما نحصل على اجازة ماذا نقول لوالدته ؟ ماذا نقول لأهله ؟ انه فقد أو قتل أو أسر ، العدو لم يعترف بأسره ، قيل أن اسماء الأسرى مع البوليس الدولي لم يكن له اسم بينهم ، تذكر محمد كلماته المؤثرة في آخر لحظة ، وشاهد آثار المعركة في الصباح (تصور يا خمسان كتب بدمه على سبطانة الرشاش يعيش الوطن ـ يعيش الشعب ، لم يمروا ، ومات وهو ينزف ولم يصل العدو الى منعته ولم يترك العدو يستقر في الموقع فانسحب العدو قبل الفجر .

سمع دوي انفجار عميق ، ولاح الرقيب خمسان برأسه ، قد يكون قصف

مدفعي أو انفجار ألغام كبيرة ؟ ونظر إلى الجندي قائلاً : صب الشاي يارجل .

كان قنديلاً هوائياً ينوس داخل الخيمة ينشر ضوءه على الوجوه التي اكتسحها البرد رغم أن ناراً مجمرة داخل الخيمة .

كان الرقيب خمسان والسائق يتحدثان عن الرعي في قراهم والبادية ، والذئاب ، توجد ذئاب كثيرة في هذه الهضبة وفي أراضي القرية ، وكذلك في الحرش الكبير ، كما توجد الضباع ، ويتحدث عنها الفلاحون يومياً ، كان الحديث في هذا الاتجاه . بينما كان الرقيب محمد يقرأ نشرة صادرة عن حزب البعث العربي الاشتراكي حديثة التاريخ منذ أقل من شهر قبل احداث طبريا ، تتحدث عن الوطن العربي والوحدة العربية وكذلك عن لواء اسكندرون والمؤامرة التي حاكتها فرنسا وأرضت تركيا باعطائها محافظة من سوريا ، وتتحدث النشرة أيضاً عن تطور الثورة في الجزائر وتدعو المواطنين الى زيادة التبرع لثورة الجزائر ، وتنتقد النشرة الحكومات البرجوازية التي لازالت تسير بركاب الغرب ، لقد حصل على هذه النشرة من مدرسة القرية نهاراً ، وقرأها الرقيب خمسان أيضاً ، بصوت عال وعلق أحد المجندين الأميين الذين كانوا يسكبون الشاي للمرة الخامسة في ذلك المساء ما أسهل كتابة النشرات (كلام جميل ولكن كيف ينفذ ؟) قنابل فاسدة ، ومسدسات رشاشة فاسدة ، وثياب بالية ويريدون ان نحرر فلسطين والجزائر ، ونوحد العرب ؟!!!! ، آه ـ ونظر في وجه الرقيب محمد الذي قرأ في وجهه كل مآسي الأمة العربية ونكباتها .

لقد عاد قائد السرية متأخراً وذهب بالسيارة . لم يدخل الخيمة وأوصى باليقظة ، وراحت سيارته تجعر في هذه العتمة يمتزج صوت محركها بصوت الريح .

لم يطرأ جديد ، سوى تعيين قائد الفوج المقدم تمر ، علق على الاسم أحد المجندين قائلاً :

ـ تمر ، هذا جميل سوف لا نجوع .

لقد حزن النقيب بكري الذي كان يأمل ان يصبح قائداً للفوج ولكن لم تعط له هذه الفرصة ، وسرح عدد من المجندين الذين انتهت خدمتهم . وسيق

الى الفوج بدلا منهم اغرار ، وخصص للسرية عدد منهم كان نصيب الفصيلة الثانية سبعة مجندين اغرار ، وشدد على تدريبهم ضمن قوام الفصيلة ، كما سمح بالاجازات اليومية ، وبالاجازات الطويلة ، وخففت درجة استنفار الفوج وأعيد برنـامج التدريب والرمي رغم ظروف الطقس السيئة . قبل نهاية السنة حصل الرقيب محمد على اجازة قضاها في دمشق كانت اجازته قصيرة لكنه زار جامعة دمشق وتعرف على حزبيين جدد في العاصمة ، كما اطلع على برنامج الشهادة الثانوية ، واشترى الكتب الجديدة التي تنقصه ، كما اشترى عدة كتب مطالعة ، معظمها عن التاريخ العسكري ، وديوان شعر لحافظ ابراهيم ، وكذلك ديوان المتنبي ، والتقى مع الاستاذ عادل الذي شاهده مصادفة قرب مكتب الحزب في شارع الصالحية، كانت تربطه بالاستاذ عادل روابط قديمة لأن الاستاذ عادل هو أول من ادخل في ذهنه افكار الحزب عندما كان صغيراً في الصف الخامس وعلّمه توزيع المناشير في قرى الاقطاع وفي خان الحجي في مدينة حماه ، كان فرحاً به تبادلا الأفكار حول التطورات التي تجري في سورية ، ونمو الحزب وتقويته ، كما حدثه الاستاذ عادل عن ثورة الجزائر والآمال المعقودة على تحرر الجزائر من فرنسا ، وتحدثا طويلاً عن مصر والآمال المعقودة عليها لقربها من سورية .

قال الرقيب محمد : اذن أهداف الحزب قريبة من التحقيق ، ولكن يا أستاذ عادل الذي شاهد معركة الحاصل العسكري ، يتصور أن أفكارنا تحتاج الى زمن طويل للتحقيق وليس كما تتصور من السهولة ! لقد أحرق اليهود جرحاهم مع جرحانا ، تصور يشوى البشر في الملجأ لم أكن أصدق ما قرأت عن النازية !!!! ولكن بعد الذي شاهدته بالحاصل العسكري ، أخذت الصورة تتوضح في رأسي .

ورد الاستاذ عادل مدهوشاً : يجب ان نصدق كل ما يقال عن الاسرائيليين لأن قادتهم عملوا رؤساء عصابات قتل في التاريخ وهؤلاء الذين قتلوا قد يكونون من يهود المغرب أو اليمن أو فقراء اليهود عند السوفييت الذين أغوتهم الصهيونية وهاجروا .

وتحدث المعلم عادل عن نشاط الحزب في المنطقة وقال ان الصراع محتدم مع الاقطاعيين والمعركة بين الفلاحين والاقطاعيين يقودها الحزب ثم تابع : نتذكرك في حماه دائماً خاصة عندما تبدأ معركة الحجارة مع الشرطة والمقاليع ولكن العدد أصبح كبيراً وأصبحنا نخيفهم في حماه . المهم أن تكون رجلاً في الجبهة .

وأجاب الرقيب محمد : وهل تتصور أن أكون جباناً في يوم من الأيام ؟ لكن ما يحز في نفسي أنني لم أنجح في الشهادة الثانوية ، وسوف أدرس هذه السنة رغم كل الظروف الصعبة في الجبهة ومهما كانت قسوة الحياة .

ورد الاستاذ عادل : هذا رائع ـ المهم أن تنجح في النهاية ، وأنا معك في هذا الرأي .

بدأ المطر يهطل في الشارع حيث بادره الرقيب محمد قائلاً : سلامي للاستاذ علي ولكل الرفاق وبلغهم أنني سأكون نشيطاً في أي مكان أتواجد فيه ، وسوف أعمل لنشر أفكار الحزب بمختلف الطرق . لن أخشى أحداً ، حتى في الجيش رغم التعليمات التي تمنع الحزبية فيه سأنشر أفكار الحزب.

ورد الاستاذ عادل : يا رجل عندما وصلت جثث شهداء الحاصل ومعركة طبريا الى حماه ، هبت المدينة بكاملها ، ونزل الفلاحون وتفجرت مظاهرات ومهرجانات خطابية ، تحدثوا عن تلك المعركة رغم دعاية الصهيونية وأكاذيبها ، ودعاية الاستعمار وأمريكا ، وعمت النقمة على القيادة لأنها لم ترد فوراً على العدوان .

وأردف ضاحكاً : (برقيات الملوك والرؤساء ، قال ارسلوا برقيات) مجموعة عملاء لأمريكا ، من يدري ؟ قد يلتقون مع اسرائيليين في امريكا الله أعلم . الخيانة لا تتجزأ يا رجل .

وقال الرقيب محمد : تصور أسلحة فاسدة ، الأسلحة الايطالية بكاملها فاسدة ، مخلفات الحرب العالمية الثانية ، يجب اعدام الذين استوردوها . كان القتال بالأسلحة الفاسدة من يصدق ، لكنني ياستاذ رغم انني كنت عريفاً والآن رقيباً ليس للرتبة الصغيرة قيمة تذكر بالجيش ولكن أفكار الحزب أهم شيء

عندي كانت حافزاً لي ، ولم أسكت على الأسلحة الفاسدة ولم أخف من الضباط .

ورد الاستاذ عادل وقد شرد قليلاً ، وهما يسيران باتجاه البرلمان قائلاً :

ـ الانتخابات قريبة وسوف ينجح الحزب فيها ونسقط الرجعيين ، وتأكد يا رفيق محمد سوف لن يمر مشروع ايزنهاور ونحن أحياء . المعركة الان بين الشعب واعدائه ، وليس فقط في طبريا انت تعرف . المهم ان تدرس وتصبح ضابطاً . وافترق الصديقان .

نام الرقيب محمد في بيت الرقيب كامل . كان الرقيب كامل يتحدث عن العريف حسن الذي فقد في معركة طبريا وعن خطبته لفتاة من القرية ومشروع زواجه في الربيع المقبل ، وعن ظروف العمل وترك انطباعاً حسناً في كل احاديثه .

عاد الرقيب محمد في اليوم التالي الى قطعته في مسعدة ، ليجد امامه قائداً جديداً للفصيلة الثانية الملازم عبيد ، لقد تخرج من الكلية حديثاً فعيّن في السرية الثانية . كان الملازم عبيد ، شاباً نشيطاً أكبر من الرقيب محمد بسنتين ، وكان يميل الى القصر ، ابيض اللون عيناه زرقاوان، يحب الرياضة كثيراً . وفي أيام الشتاء القاسية ، ورغم ظروف الخدمة والمناوبة المتواصلة كان على الفصيلة أن تجري يومياً خمس كيلو مترات ، ولا يقبل بأقل من ذلك ، ويجري هو في مقدمة الفصيلة . لا يترك لأحد من أفراد الفصيلة الخيار أو التعليق . يجري في المقدمة وهو يردد : ماذا تريدون ؟

قال أحد المجندين معلقاً ؟ سيعلمنا الجري ، ونحن الرعاة نجري وراء الخيول ونسبقها .

وقد أجرت السرية تدريباً بالذخيرة الحية على أرض مغطاة بالثلج قرب بحيرة مسعدة ، في منتصف كانون الثاني وفي نهايته اجرى الفوج تدريباً بالذخيرة الحية بكل قوامها ، وبنهاية التدريب عادت السرية الى موقعها في حرش مسعدة ، ونقل النقيب بكري من الفوج نهائياً ، وحل محله قائد للسرية الثانية الملازم أول عبد الوهاب .

كان الملازم أول عبد الوهاب عكس النقيب بكري رغم انهما من بلد واحد ، طويل القامة ، أسمر اللون ، هادىء الطبع ، وكأنه لم يخلق ليكون ضابطاًهكذايبدو من منظره وهذامايعبر عنه في داخله رغم أن عينيه تنمان عن ذكاء حاد ، حاجباه مقوسان وعيناه سوداوان له شارب نحيف ، يتكلم بهدوء ، كان كريماً ، ومتواضعاً ، يصافح الرقباء حينما يسلم عليهم ، وهذا ممنوع بالقوانين العسكرية ، نقل رقيب أول السرية ايضاً وحل محله مساعد . كما عين ضابط جديد هو الرائد خيري قائداً للفوج ، وعين رئيساً لأركان الفوج النقيب زهـير ، وأعيد ترتيب السرايا واستكمالها في نهاية شهر كانون الثاني . كان الثلج يهطل على قرية مسعدة فيغطي سطوح المنازل والأرض ! وتهبط الغيوم الثلجية الى الارض والرياح العاتية ، لأن الثلج يساق سوقاً إلى الأرض ، وعطلت المدارس من شدة البرد ، وانخفضت الحرارة الى تحت الصفر ، ولجأ الجنود الى خيامهم أو إلى بيوت أصدقائهم ، وفي هذا الطقس الذي لم تظهر فيه الشمس طوال عدة أيام ، وقبل ان تزحف الظلمة بقليل ، صدر أمر تحرك الفصيلة وعودتها الى السرية ، لقد حزمت الفصيلة الثانية خيامها بسرعة . وكذلك بطانياتها وعتادها

« ٢٢ »

كان الملازم عبيد يريد أن يبرهن لقائد السرية انه بدقائق سيكون داخل السرية وصلت السيارة وحملت الخيمة الجماعية ، وصناديق الذخيرة الاحتياطية ، وكيس بحار قائد الفصيلة وكرت تشق طريقها في الريح .

كان التحرك سريعاً ، فلم يسمح للعريف زيد بوداع خطيبته ولم يسمح لأحد بأن يودع مدنياً ، سارت الفصيلة من جنوب القرية ، تقاوم الثلج والريح يتقدمها الملازم عبيد ، وآخرها الرقيب محمد ، قال العريف زيد : قد تفكر انصاف بانني تركتها وانني محتال . كان الرقيب محمد يسمع كلام العريف زيد ، ويهدئه بأن الأيام المقبلة سوف تكشف لها حقيقتك .

اجتمعت السرية في حرش مسعدة ، في لباس الميدان الكامل . كانت الفصائل متباعدة ، وفصيلة الدعم كذلك ، البغال ترتجف من البرد وقد حملت بالهاون الخفيف والرشاش هوتشكيس ، استعرض قائد السرية الفصائل ، وأعطى أمراً بتفتيش المكان وازالة الاثار ان وجدت .

اكثر من نصف المجندين لا يوجد معهم مشمعات تقيهم الثلج ، كان الجنود يريدون الحركة من شدة البرد ، الغيوم الثلجية تغطي الحرش وقد بدأت الظلمة تطرد الضياء ، حتى الكلاب لم يعد يسمع نباحها . كان صوت محرك سيارة يدوي داخل الحرش لقد غرقت في الأرض وتوقفت . عرف ذلك من صوت المحرك الذي يضغط عليه السائق وأعطى قائد السرية أمراً بالاحتراز . الفصيلة الأولى على اليمين ، الثانية على اليسار بينهما فصيلة الدعم ، الثالثة في الخلف .

بدأ المسير . سأل الرقيب محمد الملازم عبيد عن الاتجاه ؟

ورد الملازم : فيما بعد تعرف ، ليس الان . سارت السرية وهبط الظلام . في مقدمة السرية قائدها ، يحمل (بيلا) يشعله بين حين وآخر يتلمس الطريق وآثار السيارة . الثلج يغطي الأرض ويتوالى سقوطه ، والريح تضرب وجوه الجنود بشدة .

قال الرقيب محمد : ان هذا المسير اسوأ بألف مرة من قتال العدو ، فهل هذا مشروع أم نقل أم قتال لماذا يبقى الأمر سراً ؟

الجنود يمسكون بعضهم ببعض الفصيلة بكاملها كأنها قطار . كانت الحركة بطيئة داخل العتمة الرهيبة . قطعت السرية خلال ساعتين الحرش ووصلت الى طريق عرضاني في القسم الجنوبي الغربي منه كما أشارت البوصلة . لم تتوقف السرية وحول منتصف الليل اجتازت الهضبة . هبطت باتجاه السفح الغربي ، وقد خف الثلج وأصبح المطر يهطل بغزارة ، ووصلت السرية الى قرية . نبحت فيها الكلاب داخل دور اصحابها ولم يلمع أي ضوء في تلك القرية ، وفهم من قائد الفصيلة انها قرية خربة السماق .

لم يتوقف قائد السرية عند القرية إلا قليلاً ، وواصل السير على طريق ترابية سيئة . المطر يسيل عليها كأنه جدول سريع الجريان . وعندما اصبحت السرية في اسفل السفح بدأت تلمع عدة أضواء من بعيد ، تحجبها بين حين وآخر الغيوم الداكنة التي تسوقها الريح . واستمر المطر ينهمر ولم يتوقف طوال الليل . كانت السرية قد وصلت الى النقطة المحددة التي سارت اليها طوال عشر ساعات في العتمة وقطعت مسافة عشرين كيلو متراً .

لقد استقبل عدة جنود السرية في هذه النقطة ، كان ثمة بيت واحد قائم في هذا الموقع من جهة الشرق ومن الشباك يسطع الضوء .

كان يسمع صوت غامض في الليل اثناء المسير ، أهو صوت الخنازير ، أم **أصوات جنود يسيرون ، أم صدى يتهادى في ظلمة الليل ، من وقع اقدام الفصائل الأمامية أو الخلفية ؟**

عشر ساعات متواصلة من المسير دون توقف لم يرهق الجنود التعب لكن

البرد والثلج والمطر أتعبهم أكثر من المسير .

لم يعد الانسان يفكر في الماضي لأن الطقس شل تفكيره حتى لم يعد يفكر بالعدو لم يقل لهم قائد السرية إلى أين يسيرون ولكن عندما تحول الثلج الى مطر ، وارتفعت الغيوم قليلاً عرف الرقيب محمد انهم يهبطون باتجاه سهل الحولة الدافىء ، الذي لا يعلق عليه الثلج لأنه منخفض جداً ويقترب سطحه من سطح البحر ، ولكن امطاره غزيرة ، وهكذا مروا بجانب قرية صغيرة لم يعيروها انتباههم لأن المطر كان غزيراً ممزوجاً بالثلج . والريح العاتية تضرب وجوههم . وصلت السرية الى بيت منعزل واستقبل السرية عدد من الرقباء الادلاء ، وقادوا كل فصيلة الى موقعها داخل الخنادق ، وانسحب جنود آخرون ، كانت فصيلة واحدة معززة في الموقع ، انسحبت الساعة الرابعة بعد أن أخذت السرية موقعها ، وحدد في الليل اتجاه الرشيشات واتجاه رمي كل فصيلة وحضيرة .

احتفظ كل فرد بعتاده وانسحب الجنود الذين كانوا يشغلون الموقع دون أن يتعرف أحد على وجوههم كانوا جاهزين للانسحاب والتبديل فلم يستغرق التبديل اكثر من نصف ساعة ، انسحبوا على اثرها وسمع وقع اقدامهم على نفس الطريق التي سارت السرية عليها .

بزغ الفجر ، وأصبح بامكان الجنود التعرف على ما حولهم وأين هم الآن ؟

موقع معد لتمركز سرية ، فيه منع من أجل الرشاش هوتشكيس . وخنادق قسم منها مغطى للأفراد .

جمع قائد السرية قادة الفصائل ، وأعطى تعليمات بتحسين الموقع واعادة ترميمه في الأماكن التالفة من الخنادق بسبب الأمطار . كما اعاد ترتيب الدفاع وتوزيع الرشاشات الثقيلة ومربض الهاونات وكل فصيلة وحضيرة اشرف على توزيعها بنفسه وخاصة السلاح الجماعي ، واستغرق هذا العمل بعض الوقت ثم أمر بنصب الخيام الفردية بسرعة .

بداية يوم عاصف ، عندما ترتفع الغيوم ، قليلاً ، تشاهد ، مستعمرة أمامهم .

قال أحد المجندين : انظروا قرية قريبة منا ، على بعد أقل من كيلو متر واحد ، انظروا ، لكن قائد الفصيلة أوضح انها محتلة من قبل العدو . اسمها مستعمرة كفر شامير ، وعلى يميننا مستعمرة كفر سلط ، وهناك دانا ودفني وشرياشوف . ولم تكن القريتان الأخيرتان تظهران من الغيوم ، فأشار الى موقعهما .

لقد اتخذت السرية وضعية الدفاع الدائري ، في الموقع ، وقربه من الشمال ينحدر واد غير عميق وهو مسيل ماء ، ينحدر ماؤه باتجاه سهل الحولة ، بينما في الجنوب يمتد سهل منبسط يرتفع تدريجياً باتجاه الشرق والطريق الواصل من الشرق هو الطريق الترابي الوحيد الذي يصل الى الموقع ، وهنا يمتد طريق فردي آخر باتجاه الجنوب ، والتربة سوداء في الموقع تكثر فيها الأحجار البازلتية الضخمة التي لم يحركها احد من مكانها اضافة الى عدة منع اسمنتية . لم يطل الوقت حتى كانت الخيام منصوبة ومموهة جيداً ، والأسلحة اخذت مواضعها ، لم يقع حادث في الطريق الا ماندر، فقد كسرت رجل أحد المجندين الأغرار وحمل على بغل وأعيد في الصباح على بغل القوى المنسحبة .

كانت سيارة قائد السرية تقف بجانب جدار البيت . وضع أحد المجندين شاياً على طباخه ، وبدأ الجنود يشربون الشاي حيث لم يصل التموين ، كان الفطور كيفياً . حتى لم يسأل قائد السرية ، ولكنه شدد على الحضائر المناوبة ، داخل الفصائل .

لم يدخل موقع الرصد بل ، وقف ينظر الى العدو بالمنظار . خف المطر قليلاً ولكنه لم يتوقف طوال ذلك اليوم ، ورغم ذلك فقد رتب الجنود خيامهم ، فالموقع هنا مختلف عن قرية مسعدة .

قال أحدهم : هنا رغم المطر الطقس دافىء جداً .

وأردف آخر : في ذلك الحرش جهنم باردة، وضحك آخر ، جهنم حارة وليست باردة .

نام الجنود في منتصف النهار بعد أن أنهوا تجهيز الموقع ماعدا جنود حضائر المناوبة .

مجمع قائد السرية قادة الفصائل وأمار الحضائر في ذلك البيت ، وأعطى المعلومات عن العدو والصديق والجوار ، كم ا سقاهم شاياً ساخناً ، . كان لطيفاً شجع الجميع على الصبر ، وان كان التعب بادياً عليه اكثر من الملازم عبيد . حضر هذا الاجتماع مساعد السرية ، المساعد علي ، وقد رتب خيمته الجماعية ، بجانب ذلك البيت ، وكان يبدي اهتماماً ، فيما يتعلق بالذخيرة والعتاد، كانت كل خيمة منظمة بطريقة كأنها ملجأ مكشوف، داخل حفرة عميقة سواء كانت الخيمة كبيرة أم صغيرة لأن الموقع بدا مقصوفاً بالمدفعية لكثرة الحفر وآثار القصف الباقية عليه .

قال قائد السرية : هناكَ جنوباً على بعد أكثر من كيلو متر يقع مخفر البرجياتوهو تابع لنا ، سنبدله الآن نهاراً ، ونستفيد من هذا الطقس ، وأفضل أن تكون الحضيرة من الفصيلة الثانية ، ونظر في وجه الملازم عبيد فأجاب الآخر : كما ترغبون يا سيدي . وتابع وهو ينظر الى الرقباء من الفصيلة الثالثة ، وأشار الى الرقيب محمد الذي وقف باستعداد وقال : حضيرتك ستكون قبل الغروب هناك وتنسحب الحضيرة افرادياً باتجاه قرية السماق . وأعطى تعليمات الدفاع عن مخفر البرجيات ومراقبة العدو ، ثم تابع : لا يمكن مساعدتكم الا بنيران الهاون والرشاش الثقيل ، وحدد اتجاه النيران إذا هوجم المخفر ، كما حدد المناوبة فيه ، يجب ان يكون الرشيش قبل الغروب جاهزاً والمناوبة ليلاً ونهاراً ، وهناك حفر تبادلية ، سيذهب الملازم مع الرقيب وحامل الرشيش قبل الغروب ، ويلحق به ثلاثة جنود مع الرقيب خمسان ، حيث سيعود الملازم والرقيب خمسان ، يمنع التجول خارج الموقع افرادياً ، لأن العدو قريب من السرية ويشاهد بالعين المجردة .

عندما اجتمعوا مع قائد السرية كانت ذقونهم طويلة لليوم الثالث لم يحلقوها ، حتى قائد السرية كانت ذقنه طويلة . وعيونهم محمرة بسبب قلة النوم خلال أربع وعشرين ساعة مضت لم يناموا ، كانوا وقوفاً يعلقون أسلحتهم على اكتافهم بلباس الميدان الغارق بالماء . شربوا شاياً ساخناً قدمه لهم احد المجندين ، شربوه مع قائد السرية ، وكان قد ركّب مدفأة في غرفته الكبيرة التي

هي أشبه بملجأ ، بابها إلى الجنوب ، ولها نافذة من الشرق ، لا تخترق سطحها قذائف مدفع مهما كان عياره فهي مصممة كمنعة ، لقائد السرية . يقود السرية منها إذا ما وقع اشتباك ، لا يزال خط الهاتف ممدوداً ، وقد وصل بالجهاز وهناك إلى جانبه مقسم صغير داخل مقسمه . للاتصال بقادة الفصائل لا يزال عامل المقسم يعالج فيه ، وقد نقل مع سيارة قائد السرية لقد شرح شرحاً مفصلاً عن العدو ، وقال : على اليمين الفوج التاسع عشر في القطاع الشمالي . وعلى اليسار الفوج الأول في القطاع الأوسط ، ونحن في الفاصل بين الفوجين ، وتابع تعليماته المشددة حول اطلاق النار لأن المسافةقريبة وأي اطلاق نار حتى من بندقية يصل إلى مستعمرة كفر شامير وهناك نساء وأطفال ومواش ، وسكان هذه المستعمرة أغلبهم سوريون ، ويمنيون أتوا حديثاً ، بينهم بعض البولونيين والانكليز ، فهم من شعوب مختلفة ولذلك جزئت إلى مستعمرة دفاعية كل له لغته وموقعه ، أما مستعمرة كفر سلط فأغلبها بولونيون وايطاليون ، ورومانيون ، ودفته ودانا ، وشرباشوف امامنا على اليمين بمواجهة الفوج التاسع عشر ، بمواجهة السرية فقط مستعمرة كفر شامير ، وبمواجهتنا سرية دبابات ، وسرية مشاة داخل المستعمرة وهناك كما أفاد الراصد للقوة السابقة ، يوجد مخفر شرقي مستعمرة كفر شامير . والسلك الشائك المستقيم هو خط وقف اطلاق النار ، ونقطة البوليس الدولي في جنوب المستعمرة ، كما توجد نقطة للبوليس الدولي في أراضينا قرب تـل المالكي . أما حقول الألغام ، فلا توجد الغام بسبب صعوبة الأرض الواصلة بين العقدة القديمة والطريق الواصل بين كفر شامير وكفر سلط . ولا تستطيع أي آلية أن تسير في هذا القطاع .

هناك سفح صغير للرعي ، بين موقعنا هنا ومخفر البرجيات ترعى فيه مواشي قرية السماق ، ويسمح بالرعي فيه وينبه على الرعاة أن لا يقتربوا من خط وقف اطلاق النار حتى لا يطلق العدو عليهم النار ونضطر للرد أو الدفاع عنهم ، كما لا يسمح للمجندين بالتجول خارج الموقع إلا بمهمة دورية أو كمين . وعلى كل حال ليلاً الكمين في العقدة القديمة ، وهي قرية على الطريق الواصل بين كفر سلط وكفر شامير واقرب الى المستعمرة من موقع السرية ،

وتبعد عن المستعمرة أقل من نصف كيلو متر ، وتنظم الكمائن دورياً كل يوم من فصيلة تذهب حضيرة مع الرشيش بعد الغروب وتعود قبل الشروق وتشرف على الأرض المبسوطة باتجاه مخفر البرجيات .

بين العقدة القديمة والطريق المعادي سلك ليس له أهمية وقد يكون مقطوعاً لأن الأرض معقدة من جانبنا ولا يمكن اجتيازها ، حتى الطريق ، من جانب العدو غرب الطريق ويتمركز فيها مقر مراقبة ، هي كذلك كل هذه المعلومات استمعوا إليها من قائد السرية .

وسأل الرقيب محمد : وهل نذهب اليوم ياسيدي ؟ ونظر قائد السرية في وجهه قائلاً : طبعاً وفي الحال استغلوا الطقس الغيوم المنخفضة ، هيا ـ لا ندري قد يتعدل الطقس غداً أو بعد غد ، هذا شهر شباط الطقس فيه مزاجي ، يوم عابس وآخر ضاحك ، وعلى أي حال البرد هنا أخف من قمة الهضبة ، ونظر في وجه الملازم عبيد قائلاً :

ـ خذ حضيرة الرقيب محمد .

كان لطيفاً ينادي الشخص باسمه وبدون رتبته ، كان وجهه ينم عن عزم وثقة بالنفس في كلامه وأوامره . وقد بدل ثيابه وعلق ثيابه المبتلة قرب المدفأة فكان البخار يتصاعد منها ، وكذلك المساعد على كانت بدلة عمله غير مبتلة ، ولكن بدا الارهاق على المساعد أكثر لكبر سنه .

أوصى قائد السرية بتسليم الرقيب محمد وحدة نارية اضافية ، ومنظار وبوصلة ، وتابع جهاز التلفون مع المرصد شرقي مخفر البرجيات لأن الاتصال يتم إذا شاهد تحركات للعدو يخبر المرصد ، ويخبر قيادة الفوج ، لأن الهاتف مربوط مع المرصد مباشرة ولا يوجد خط مباشر مع السرية .

نعم . أجاب الرقيب محمد ، كل شيء واضح .

وأردف قائد السرية هيا كل إلى مكانه ، حسنوا من الموقع ومن تمركز الأفراد .

عندما غادروا الملجأ ، صاح قائد السرية : رقيب محمد انتظر . وعاد الرقيب حيث وقف باستعداد ، وقال قائد السرية الذي ذهب الى جانب

المدفأة ، هل تعرف لماذا اخترتك ؟ ونظر إلى الرقيب محمد وهو يمد يديه فوق المدفأة ، وصمت الرقيب محمد ولم يجب ، فتابع قائد السرية لو نجحت في الشهادة الثانوية العام الماضي كنت الآن قائد فصيلة مثل المرشح أحمد كما أتصور أنت أفضل من يعمل في مثل هذه الظروف ، كن شجاعاً وقد حدثني المساعد علي عنك وهو الذي رشحك الى مخفر البرجيات ، كان المساعد علي يقف بجانبه وينظر إلى الرقيب محمد ، فقال المساعد علي : بيّض وجهنا ، وهذا أملي ، وابتسم الرقيب محمد قائلاً : سأبذل جهدي لأكون عند حسن ظنكم ، احترامي سيدي ، وحيا ثم غادر .

لحق بالملازم عبيد الذي بادره قائلاً : ماذا قال لك قائد السرية؟

فأجاب الرقيب محمد : قال كن حذراً حتى لا تقتل بدون ثمن .

وأردف الملازم عبيد : آه ـ هذا صحيح ـ هيا بسرعة ، الحضيرة الثانية خلال عشر دقائق جاهزة لمغادرة الموقع ، بسرعة .

صاح الرقيب محمد : هيا أيها الشباب ، عشر دقائق ونغادر الموقع ، أولاً رامي الرشيش معي ، يليه الملقم وجوال ، كل عشرين دقيقة ينطلق اثنان وآخركم العريف زيد مع جوال .

وقال : لا داعي لكم يا سيدي إذا رغبتم غداً تأتون . وعبس الملازم عبيد قائلاً : أوامر قائد السرية تنفذ سأذهب معك الآن .

انطلق رامي الرشيش والرقيب محمد والملازم عبيد ، كان يتقدمهم الملازم عبيد وقد لبس ممطرا وعلى رأسه خوذته المزدوجة ويحمل في وسطه مسدسه اضافة الى عصا طويلة بيده ، وخلفه الرقيب محمد وقد حمل كيس البحار وعتاده ، وأمسك بيده بندقيته جاهزة ، وحامل الرشيش في الخلف ، كانت الرؤيا سيئة جداً . بدؤوا سيرهم صامتين باتجاه مخفر البرجيات ، المسافة ليست بعيدة أكثر من كيلو متر بقليل ، قطع الصمت الملازم عبيد قائلاً دون أن ينظر إلى الخلف : انت من حماه يا رقيب محمد ؟

وأجاب الأخير : نعم يا سيدي من ريف حماه .

لم يشاهد أحد منهما تعابير وجه الآخر وحركاته ، فقال الملازم : قلت من ريف حماه .

ـ نعم يا سيدي من ريف حماه . فقال الملازم : هناك في منطقتكم مشاكل كثيرة نسمع عنها .

فأجاب الرقيب محمد : نعم يا سيدي مشاكل بين الاقطاعيين والبعثيين ، والريف مع البعث والمدينة مع الاقطاعيين .

وتابع الملازم : اذن انت من البعثيين هذا يفهم من كلامك ؟

فقال الرقيب محمد : نعم يا سيدي أنا ضد الاقطاعيين .

ـ صحيح ولكن الأحزاب في الجيش ممنوعة ، انصحك أن تبتعد عن هذه الأفكار المسمومة .

ورد الرقيب محمد الذي كان يمسح المياه العالقة على شفتيه : هل تعتقد أن أفكار البعث مسمومة ياسيدي

وأجاب : على كل حال الأفكار الاشتراكية مستوردة ، هكذا قال الشيخ عبد الحميد الزعبلاوي عندنا .

وأردف الرقيب محمد : ألم تسمع الشاعر يقول عن الرسول الاشتراكيون انت امامهم ، فكيف هي مستوردة ؟

ومن أين استوردناها ، هل هي مسدسات ايطالية فاسدة ؟؟

وأردف الملازم : يقولون ان ستالين صدرها الينا .

وأجاب الرقيب : لقد مات ستالين ياسيدي الملازم .

وأجاب متعجبا : مات ستالين ، متى مات ستالين ؟

وأردف الملازم : المهم ان لا تنشر أفكاراً حزبية في السرية ، لقد قالوا لي عنك عندما وصلت بانك تنشر افكار البعث ، هل هذا صحيح ؟

فقال الرقيب محمد : وهل الذين يدعون الى وحدة الأمة العربية يرتكبون عملاً غير صحيح ؟ طبعاً نحن عرب ، ولكن قوانين الجيش تنفذ .

ـ اذن مات ستالين ؟

ـ نعم مات يا سيدي .

كان الرقيب محمد يراقب حديث الملازم فلم ير فيه أكثر من شاب درس وحصل على الشهادة الثانوية ثم درس في الكلية الحربية وتخرج حديثاً ، ولا يعرف إلا القليل عن الأحزاب . كان يعتبر الاشتراكية كفراً .

اذن يا سيدي قلتم ان الاشتراكية كفر ؟ هكذا قال الشيخ عبد الحميد الزعبلاوي ؟ قد يكون هذا الشيخ من جماعة الاقطاعيين وقد اشتروه بالمال ليقول ذلك ، وأنا أعرف شيخاً اشتراكياً مارأيك ؟

ورد الملازم : هل هذا معقول شيخ اشتراكي ـ نعم شيخ اشتراكي انظر لقد اقتربنا ، كيف نعمل رياضة الصباح ، لقد بدل الحديث الرقيب محمد لكن الملازم كان جاداً عندما قال ان اقرباء قائد السرية من حزب الشعب فأرجو أن لا يغضب منك إذا عرف بأنك تنشر أفكاراً اشتراكية انني انبهك .

وتابع الرقيب الحديث قائلاً : كيف سنلعب الرياضة في هذا المخفر ؟ لقد اقتربنا ، انظر انهم ينتظرون . لقد استقبلهم رقيب أول قائد مخفر البرجيات ، وكأنه لم يصدق انهم سيأتون في مثل هذا اليوم ، لم يكن هناك شيء يتركه سوى هاتف ملقى في أرض المنعة موضوع على حجر ووضع تحته كتاب قديم عن قصص خرافية لسيرة بني هلال ، وأراد الرقيب أن يأخذها معه ولكنه قال سأتركها لتسلية الجنود ، وضحك الرقيب محمد .

« ٢٣ »

الغيوم المنخفضة تغطي السهل حتى مستعمرة كفر شامير القريبة ، وكذلك موقع السرية فلم تعد تشاهد ، اشار الرقيب أول الى موقع الرشيش ومواقع الجنود في حال الاشتباك ومكان الهاتف في حال الاتصال ،

سأل الملازم كيف تريد ان تنسحب افراديا أو جماعة ؟ فأجاب الرقيب محمد : الغيوم تغطي كل شيء وليس عند العدو جان تخبرهم ولا يمكن أن يشاهد العدو أحداً الان أنا أرى ياسيدي الملازم ان ينسحبوا الى قرية السماق ، وهناك يذهبون الى فوجهم هذا رأيي ، ولا داعي لأن ينسحبوا كل اثنين ، لقد اتينا ولم نشاهد المستعمرة القريبة .

وافق الملازم عبيد على رأي الرقيب محمد قائلاً : هذا صحيح ، وقد وصلنا ومعنا الرشيش هيا . انسحبوا بسرعة ، لم يصدق الجنود انهم يغادرون مخفر البرجيات ، كانوا قبل وصول الملازم قد حزموا كل امتعتهم واسلحتهم ، انهم حضيرة ناقصة ثلاثة منهم فهم رقيب وعريف وستة أفراد ، لقد سلكوا طريقاً في سفح تلك الهضبة والريح تدفعهم بظهورهم باتجاه قرية السماق الصغيرة التي تبعد نفس بعد موقع السرية عن مخفر البرجيات .

غابوا داخل الغيوم على بعد أقل من مئتي متر ولم يعد يظهر لهم أثر ، وصلت الحضيرة خلال أقل من ساعة . وهكذا وصلت الحضيرة الثانية إلى مخفر البرجيات في نهاية شهر كانون الثاني في يوم ماطر عاصف ، وعاد الملازم مع الرقيب خمسان الذي لحق ليطمئن على صديقه الرقيب محمد . ورغم ان الرقيب

محمد أخذ بتوصيات الملازم عبيد فقد أعد بنفسه كيف يقاتل في هذا المخفر المعزول الذي تسنده السرية بنيران الهاون والرشاش الثقيل .

كانت الحضيرة كاملة تقريباً ، رقيب مجند وهو الرقيب محمد والعريف زيد ، وثلاثة رماة واربعة جوالة ، منهم جندي متطوع وهو رامي الرشيش والعريف زيد وستة مجندين خمسة منهم أميون ، لا يعرفون القراءة أو الكتابة لم يكن هناك ما يسعد في هذا المخفر المنعزل ، ولولا الهاتف المربوط مع المرصد لكان هذا المخفر مقطوعاً عن العالم ، إلا من الحيوانات البرية التي تأتي إلى مجرى نبع البرجيات لتشرب منه ، وتجول حول المركز .

ويتمركز المخفر على نبع البرجيات الذي يشكل حوضاً أشبه بمسبح ، طوله حوالي اربعين متراً تقريباً لأنه يشكل حفرة دائرية . يتدرج حتى تخرج المياه من تلك الحفرة وتسيل باتجاه الغرب وتشكل جدولاً قوياً في الشتاء والربيع ، لكنه يخف قليلاً في الصيف ، وتربى في هذا الحوض أسماك صغيرة ، تخرج المياه منه من القسم الشمالي الغربي ، ويشكل جداره حاجزاً ضد أي رشاش معاد فإذا كان أي شخص في الحوض وجرى اطلاق النار من العدو بالرشاشات لا يصاب لأن القسم الغربي منه بارتفاع مترين وأكثر مائلا باتجاه الغرب وهذا المخفر هو الموقع المتقدم ، ومخفر الانذار الذي تخضع له مستعمرة كفر شامير ، وقبل أن يسميها العدو مستعمرة كفر شامير ، كانت قرية تسمى الشمرية وسميت بذلك لأن سكانها من عرب الشمريين (وكفر بالعبرية معناها قرية) ومياه البرجيات تمر في قرية الشمرية ويشرب السكان منها سابقاً ، ولا يزال يسكنها قسم من العرب ومن المستعمرين اليهود والانكليز ، وأهل قرية السماق من البدو الذين نزحوا من قرية الشمرية قبل سبع سنوات ، فالشمرية اخذها المستعمرون سنة ١٩٥٠ بعد اتفاق رودس وحوادث الانقلابات العسكرية في سوريا بعد نكسة سنة ١٩٤٨ التي قادها الانكليز ، لقد عمل الانكليز قادة للعرب واليهود في آن واحد ، ومخفر البرجيات الحالي يراقب المنطقة ويقع على بعد ستمائة متر من اسلاك الأمم المتحدة ، وكون سكان قرية السماق لا يزال لهم اقرباء في قرية الشمرية ، فلم تزرع بالألغام وبقي السهل الضيق عبر

الوادي البسيط الذي ينتهي بالمستعمرة ، وكثير من نساء قرية السماق ، وقرية الشمرية المحتلة يتنادون ويتحدثون مع بعضهم البعض حول قضايا عائلية كثيرة ، وقد تقع حوادث احياناً من قبل الانكليز الذين دخلوا القرية وعملوا جنوداً ومزارعين بينما عمل العرب عمالاً زراعيين لديهم .

وفي مخفر البرجيات ثلاث منع اسمنتية ، وعدة مواقع تبادلية ، والأهم أن هناك ملجأ يستوعب اكثر من عشرة اشخاص ، صمم من اجل الطعام والراحة ونوم العناصر غير المناوبين ، وله مدخلان احدهما من الخندق مباشرة ، والآخر على نبع البرجيات مباشرة.

لقد جرى استطلاع الموقع بدقة . وأخذ الرشيش مكانه وعلم الرمي وفق التعليمات السابقة ، ووفق الزوايا المعطاة من قبل الحضيرة السابقة كما نظمت الحراسة . وجهز القنديل الهوائي في داخل الملجأ ، وارتاح الجنود ، اصبح كل شيء واضحاً في التعليمات عن المخفر . الخنادق في هذا المخفر لا تقف بها المياه لها مصارف تذهب باتجاه الغرب ، فقد نظم آمر الحضيرة السابق الخنادق بشكل ان تبقى نظيفة فلا تتجمع المياه فيها وبشكل يمكن أن يسير فيها الانسان دون أن يشاهده العدو ، وهناك مراكز لرمي البنادق خارج المنع .

على كل حال فالموقع لا بأس به ، فهو افضل من مركز السرية ، ومنظم أكثر من مواقع الحضائر في السرية . وفي هذا الموقع يوجد موقد للنار في الملجأ من أجل الطبخ وغلي الشاي والتدفئة .

ما تزال الغيوم منخفضة ماطرة والرؤيا محدودة ، اقترب الغروب ، ونام أغلب افراد الحضيرة حتى الرقيب محمد نام نوماً عميقاً لأن التعب أخذ منهم كل مأخذ .

قبل الغروب استيقظت الحضيرة . غلوا شاياً ساخناً وشربوا ، لقد نشفوا ثيابهم على النار ، كانت لديهم ثلاثة مماطر فقط ، هنا ك لا يحتاجون إلا لمطر واحد في الليل للمناوب خارج المنعة ، أما المناوب عند الرشيش والملقم ، فلا يحتاجان لمماطر لأن المنعة اسمنتية مغطاة ومحصنة ضد قذائف المدفعية والدبابات . نظمت الحراسة ثلاث نوبات ، وأخذ الرقيب محمد بالحراسة على

أن تكون مناوبته في منتصف الليل أو القسم الأخير منه وبهذا أحبه جنوده في هذا المركز ، قرأ أحد المجندين في سيرة بني هلال مساء . ثم ساد صمت وكتب لهم الرقيب محمد رسائل لذويهم وأهلهم ، وتحدث العريف زيد عن خطبته في قرية مسعدة ، وتحدثوا عن الماضي ، وعن قرية جرابا ، ومعركة طبريا ، احاديث شتى جرت عند الغروب بينما كان المطر يقرع ، وسمع صوت انفجار ضخم بالشمال الشرقي من تل المالكي ، فخرجوا من الملجأ كانت الرؤيا سيئة ، ومع ذلك جرى تراشق بالمدفعية في القطاع الشمالي لعدة دقائق وتوقف الرمي .

قال الرقيب محمد : الآن نحن في مواجهة العدو على بعد مئات الأمتار يجب أن يكون كل منا في حذر . وسمع في القطاع جنو ب البرجيات رمي بالرشاشات الثقيلة . وأتت رشقة من رشاش ثقيل على المخفر مباشرة حيث اخترقت البراكة التوتياء ، وسمعت الطلقات وهي تحدث صوتاً اثناء ذلك ، وهب الجنود الى مواقعهم ، ثم ساد صمت ، لقد توتر ت أعصاب الجميع الآن ، سأل المرصد بالهاتف عن مصدر اطلاق النار وأجيب بأن اطلاق النار من الجهة المعادية ، وتحدث قائد السرية عبر المرصد مع الرقيب محمد قائلاً : لا تطلقوا النار جزافاً .

وأجاب : كما تأمر سيدي .

عاد المجندون عدا المناوبين الى الملجأ ، يشربون الشاي ، اشتد المطر بعد الغروب ، وازداد الليل ظلاماً ، لم يعد يسمع في هذا الليل إلا زخم المطر يقرع على الحجارة وفي حوض المياه ، والريح شديدة لكن هنا لا توجد خيام يخشى عليها ، كانت الليلة الأولى ، هدأ المطر في آخر الليل ، الثلج يسقط في أعلى الهضبة ، ولكن في سهل الحولة الحرارة مرتفعة أقرب إلى حرارة سطح البحر .

كان الرقيب محمد قلقاً في تلك الليلة رغم أن مناوبته آخر الليل فلم ينم اطلاقاً . سمعت أصوات ذئاب حقيقية وليس عدوا أو تمثيلاً كما يفعل العدو وسمعت أصوات كلاب في الغرب ، وكلاب قرية السماق أيضاً . لا يعرف ماذا حوله . وفي الصباح ، هدأ المطر قليلاً وارتفعت الغيوم ، ولأول مرة يشاهد

القـرية المحتلة . قال أحدهم موجهاً حديثه للرقيب محمد : انظر قرية قريبة منا .

ورد آخر : هذه قرية محتلة من العدو .

وقال آخر : معقول يارجل نسمع اصواتهم ؟ انظر فاننا نستطيع أن نميز المرأة من الرجل في زواريب القرية .

وأردف الرقيب محمد : على أي حال فهي قرية محتلة من قبل العدو ، وقلت لكم ان فيها الانكليز . كان الجنود مرتفعين باعناقهم ، وقد توسعت حدقات عيونهم وهم ينظرون الى مستعمرة كفر شامير ، يهزون برؤوسهم .

وتابع الرقيب محمد ، في هذه المنطقة لا يوجد فاصـل بيننا وبين العدو ، سوى سلك بسيط وضعته هيئة الأمم المتحدة .

وعلق مجند أمي : معقول الانسان يطرد من داره وبيته وقريته ، ولن يعود ويسكت ، هل هذا معقول ؟

وجرى نقاش : كيف يعود اللاجئـون الى قراهم ؟

قال مجند : على كل انسان ان يشتري بندقية وبدون سلاح لا يمكن العودة ؟

الحق لا يثبت إلا بالسلاح ، والرجل الضعيف جاره يأخذ جزءاً من أرضه أو يميل عليه اثناء الفلاحة ، فكيف اذا كان قوياً ويملك سلاحاً .

وعلق آخر : يقولون كانوا عصابات مثل هتلر يقتلون الناس رجالاً ونساء ، وأتوا إلى هنا بالاتفاق مع الانكليز .

وعلق مجند آخر : (لعنة الله على الشيطان) من أين أتانا هذا البلاء ؟

قال أحدهم : انظر انها امرأة تلبس ثوباً أحمر .

وقال آخر : هناك رجل يحمل بندقية ، ثم هدأوا وذهبوا يشربون الشاي ، وكل لحظة ينهض أحدهم ويتابع النظر الى مستعمرة كفر شامير ، ثم يدقق بالمنظار في اشكال الناس رجالاً ونساء .

عادت الغيوم ثانية وعاد المطر ، وبعد الظهر تحسن الطقس قليلاً ، وظهر مركز السرية وعرف الجنود موقعهم ، أين تذهب المياه من نبع البرجيات ؟ شاهد الجنود السمك في الحوض ، وتحدث الرقيب محمد مع المرصد عن مشاهداته

القريبة كما تحدث مع قائد السرية ، وزار المساعد علي الحضيرة ظهراً ، واطمأن على التموين ، والذخيرة . وزود الحضيرة بعشرين قذيفة مضادة للدبابات وقاذف قنابل يدوية دفاعية ، ومنظار ، ووحدة نارية اضافية . وقد سر لأن معنويات الجنود جيدة ، وشرب شاياً ساخناً . ودّعه الرقيب محمد إلى بعد أكثر من اربعماية متر حيث سار معه ، يناقشه ويشكره على موقفه السابق في قيادة الفوج يوم كا ن الفوج في الكمرك وقائد الفوج الرائد سليمان .

وأردف المساعد علي : « لقد كان الرائد سليمان رجلاً ، وقد خسره الفوج ، لقد تبدل ثلاثة قادة أفواج في خلال اقل من شهرين ، ونحن في مواجهة العدو وعلى بعد مئات الأمتار منه ، في عدة أيام يتبدل القائد ، في الفوج وفي السرايا كذلك ؟

مسكين هذا الجيش لم يستقر بعد وتتدخل الأهواء والمآرب الشخصية في نظامه وادارته ، على كل حال انصحك يا محمد ان تبتعد عن الحزبية لأنها لا تفيدك بشيء ، حاول ان تدرس ، شكره الرقيب محمد وودعه وعندما ابتلعته الغيوم الماطرة التي تزحف على الأرض ، كان الرقيب محمد يشيعه بنظراته بحزن .

ان المساعد علي لا يعرف الاقطاع ولا يعرف دور الحزب في الكفاح ضد الاقطاع ومن أجل اهداف الأمة العربية . رجع الى حضيرته ، لقد عززت الحضيرة بكميات من الذخيرة ، واستمر العمل ، وفق توجيهات القيادة .

في اليوم الثاني خف المطر صباحاً ، وعند الظهر وصلت عدة نسوة يحملن قرباً على ظهور الحمير ، من أجل أخذ الماء من نبع البرجيات . كن حفاة ثيابهن لا تقي الحر أو القر ، لوحت شمس الجولان اللاهبة وجوههن وقسم منهن وشمن وجوههن ، ورغم منظرهن البائس فقد كانت مسحة من الجمال والحزن تبدو على وجوههن ، كن جريئات .

صحن للرقيب ، خالد ـ خالد . ولكنهن فوجئن بوجوه جديدة غير التي يعرفنها، خرج الجنود من مكامنهم ، حتى المناوب على الرشيش ترك مكانه ووقف يراقب النسوة ، وكذلك الرقيب محمد . وصاحت امرأة متوسطة بالعمر :

أين الرقيب خالد ؟

وردت ثانية : الجميع جدد يبدو أنهم تبدلوا .

قالت أخرى : شاهدنا في هذا المكان أكثر من عشرين رقيباً تبدلوا خلال فترة ليست طويلة لا نكاد نعرف الشخص حتى يتغير .

وصاح مجند : من انتن والى اين ذاهبات ؟

وقالت المرأة : نحن . ألا تعرفون نحن من ؟ نحن من قرية السماقية .

وتدخل بالحديث الرقيب محمد الذي خرج من الخندق قائلاً : انتن من قرية السماقية ؟

وأردفت المرأة : نعم ونحن نرد يومياً ونأخذ مياه الشرب من هنا .

تذكر الرقيب محمد عندما كان في الخامسة من العمر ، ان والدته كانت ترد على منهل يبعد عن القرية كيلو متر أو أكثر وتأخذه معها حيث تركبه فوق القربة (الراوية) واحدى المرات قلبت القربة عن الحمارة وأتت فوقه ، وفكّت يده اليمنى وجبّرها مختار القرية ، ووقع خطأ في تجبيرها ، وحمل الرقيب محمد خطأ تجبير المختار طوال حياته ، لقد زرعت تلك الحادثة وتلك القرب في ذاكرته آثاراً لا تنسى وهاهو يشاهدها اليوم من جديد ، لم يختلف المنظر عن منظر الفلاحات في القرية التي عاش فيها ، ومثل هؤلاء النسوة أهله وأهل المجندين والجنود .

قالت امرأة شابة في الثلاثين من عمرها : هل تشترون حليباً أو لبناً أو بيضاً ؟

فأجاب الرقيب محمد : نعم حتى الخبز يمكن ان نشتريه .

كانت المرأة حاملاً . فقالت : نحن من قرية السماقية حالياً وقبل النزوح نحن من قرية الشمرية (كفر شامير) التي احتلها الانكليز ، وهاهي امامنا، وأشاحت بيدها باتجاه (كفر شامير) ولا تزال والدتي ووالدي فيها ، وأخذت تعدد من بقي من العرب الكبار في السن والذين لم يستطيعوا النزوح ، وهي وزوجها وابنها وبقية الموجودات معها ، توقفوا في خربة السماقية ، ولا يزالون هنا ينتظرون العودة الى الشمرية .

سألت الرقيب : ما اسمك ؟

- اسمي محمد ، وردت : اللهم صل على النبي محمد . أنا خديجة اللهيبة من عرب اللهيب . قبل عدة شهور سمعنا ان والدة زوجي في الجليل الأعلى توفيت وذهب زوجي عبر لبنان الى هناك وقبل وصوله انفجر فيه لغم وقتل وتركني وعندي ولدان وبنت وانتظر المولود القادم الذي لن يشاهد أباه .

اننا نعيش في تلك الخربة على الرعي ، ومزروعات قليلة ، وكل من يأتي الى المخفر أو العقدة ، من الجنود نبيعهم حليباً ولباناً وبيضاً ، وأنت ترى الظروف التي نعيش فيها بالأمل ، أمل العودة الى قريتنا . قالت كل ذلك دفعة واحدة ، كان وجهها جميلاً رغم انها موشومة قليلاً ، ورغم جمال عينيها فقد كان الحزن بادياً عليها . وقد جرت مفاصلة مع مجند حول سعر الحليب والبيض واتفقا على أن تأتي كل يوم بكيلو حليب أو لبن وخمس وعشرين بيضة وقد ترتب أمور جارتها من أجل البيض لأنها لا تمتلك كل هذا العدد ثم ابتسمت لهذه الصفقة مع الجنود ، فهي قد تحصل على ليرة وربع ثمن الحليب والبيض ، وقد تأتي بالخبز مجاناً أحياناً ، وترتب على الجميع مبلغ حوالي أربعين ليرة سورية شهرياً ، وقسم المبلغ بحيث يدفع المجند ليرتين ، والجندي خمس ليرات والعريف سبعاً ، ومابقي يتحمله الرقيب محمد بمفرده ، واقنع الجنود بذلك رغم أنهم شعروا ، بانه مظلوم ولا يحق لهم ان يأكلوا على حسابه ، ولكن الرقيب محمد كان يفكر انه رقيب مجند وهذا وضع شاذ ومؤقت يجب ان يحبه الجنود ويحترموه ، والكرم يعتبره جزءاً من الشجاعة ، وجزءاً من مكونات الرجل المقدام ، وكونه ينشر افكار الحزب ، فلابد من ذلك أيضاً .

عادت النسوة الى دوابهن حاملات قرب الماء باتجاه قرية السماقية ، وقد نبههم الرقيب محمد الى الخطر من اقتراب السلك أو الاقتراب من كفر شامير بشكل عام .

رغم الغيوم الماطرة التي تحجب الشمس تحتها ، فقد كان الطقس دافئاً لأن سهل الحولة المحتل بارتفاع سطح البحر ، فكر الرقيب محمد بالنسوة ، كان الأمل يرتسم على وجوههن ، أمل العودة ، ينظرن الى الجليل الأعلى وسهل الحولة وينتظرنه ويعشن حياتهن العادية ، انها مفارقات الحياة الصعبة القاسية ،

وهذا الوضع الشاذ الذي نشأ في هذه المنطقة متى ينتهي ؟

هطل المطر عند الغروب ناعماً ، ثم اشتد هطوله وقويت الريح . وتفقد قائد السرية المخفر عبر المرصد بالهاتف ، كل شيء على ما يرام .

لقد شرد الرقيب محمد الذي بدأ يرتب نفسه وأفكاره استعداداً للدراسة في هذا المخفر ، وكان القنديل الهوائي ، ينوس داخل الملجأ ، وصوت قرع المطر على البراكة ، وفي حوض المياه كان مسموعاً رغم صوت الريح الذي يطغى حتى على اصوات الرشاشات البعيدة .

وفي الصباح هدأ المطر قليلاً وأتت خديجة حاملة ما اتفق عليه وكان حديثها اطول من السابق ، الان جلست في الخندق مع المجندين وأخذت ثمن الحليب والبيض وشربت شاياً ، وتحدثت عن قرية الشومرية وأن بيت أهلها فيها ، وكانت تشير بيدها . هناك بيت والدي ، هناك بيت خالد ، وإلى يساره بيت خليل ، وشرقه بيت حسين . . كانت تلوح برأسها وقد خنقتها العبرة ، وسقطت دموعها ، وكانت حافية ، فصارت قدمها كخف مفصول عن بقية جسدها .

بعد عدة أيام انتهى الاستنفار وسمح لخمس القوة باجازات وأصر العريف زيد على اجازة لمدة خمسة أيام ومجند آخر لن يذهب الى أهله ولكنه سيذهب الى قرية عين شمس وضحك الجنود اثناء مناقشة من يذهب .

قال الرقيب محمد موجهاً كلامه الى المجند : اجلب لنا اخباراً عن الجندي نويصر وقرية جرابا .

فرد المجند : طبعاً لابد من ذلك . ثم التفت الرقيب الى العريف زيد قائلاً : هل انت جاد في الخطبة ؟

فأجابه العريف : كل الجد ياحضرة الرقيب .

استمر الحال هكذا وتحسن الطقس في شهر شباط وحصل الرقيب محمد على اجازة لاسبوع ذهب خلاله الى أهله في ريف حماه ، بعد ان قدم طلب امتحان الثانوية في دمشق ، ولم يخبر أهله بذلك خوفاً من الرسوب أيضاً وحتى لا يشمت به بعض الناس المعادين للحزب هناك ، والتقى معلميه في مدينة حماه

وجرت مناقشات حول مشروع ايزنهاور وحلف بغداد ، ومشاكل كثيرة تهم الحزب والبلاد ، كما جرى نقاش حول الوحدة مع مصر ، وثورة الجزائر ، وأمضى أغلب اجازته في مكتب الحزب قرب الثانوية التي كان يدرس فيها ، التقى رفاقه في الريف وفي القرية ، وأصدقاءه وزملاءه في الثانوية ، كما تحدث عن معركة طبريا لرفاقه وقد شتم كل من سمع قصصه القيادة السياسية والعسكرية ، وقال الاستاذ علي :

ـ لا نتخلص من خونة حتى يحل محلهم أسوأ منهم ، كم زرع الاستعمار من العملاء وراءه ، لعنة الله عليهم وعلى كل المستعمرين .

انتهت الاجازة وعاد الرقيب محمد الى وحدته في نهاية شهر شباط لقد حل الربيع ، وأصبحت الأرض خضراء مفروشة بالورد من مختلف الاشكال والألوان ، كانت بداية آذار شهر الخير والبركات كما يسميه الفلاحون . وكون الحرارة هنا عالية أكثر من قمة الهضبة ومن الداخل فقد دخل فصل الربيع مبكراً ، واصبحت مواشي قرية السماقية ترعى في الفاصل بين العقدة ومخفر البرجيات ، في هذا السهل الصغير الممتد حتى قرية الشمرية . كما ان نسوة القرية ورجالها لهم دالة على المخفر ، لأن جنوده والعريف زيد يذهبون الى القرية كثيراً وكذلك اصبحت خديجة كأنها جزء من المخفر يحمل لها الجنود الماء الى القرية بصفائح صغيرة ، والكلفة مرفوعة حتى الأوامر الممنوعة من الاقتراب من كفر شامير المحتلة (الشومرية) كانت تخترق احياناً وخديجة تلوح بمنديل ابيض لامها كلما مرت في الطريق كانت الأم تقف على السطح وتلوح لها أيضاً بمنديل من هناك ، ورغم كل الأوامر الصادرة ، فقد تجاوب الرقيب محمد مع هذه المخالفات وفكر لا يمكن للانسان ان يموت إلا بيومه ، والانسان يموت مرة واحدة فلماذا يموت جباناً ؟ والعمر مهما طال سينتهي عاجلاً أم آجلاً ، ومائمن هذه الحياة الذليلة التي يحياها العرب مطرودين من بيوتهم وعززت خديجة الفكرة في ذهنه . كانت تقول له : امنا على بعد أمتار منا لا نستطيع ان نحدثها ، هل هذا معقول ؟

وينصحها الرقيب محمد : اسمعي يا خديجة هؤلاء لا يعرفون الرحمة ولا

الانسانية .

وكانت خديجة ترد قائلة : انا اخت الرجال ، وكانت تتصرف مع الرقيب محمد كأنه اخوها الصغير ، فلا تخاف منه .

« ٢٤ »

كان يوماً صحواً ، الا من نتف من الغيوم التي تنتشر في كبد السماء في نهاية الاسبوع الأول من شهر آذار ، والطقس جميل والهواء لطيف ، ظهرت كفر شامير بزواريبها حتى الوان ثياب النسوة كانت واضحةفيها بالعين المجردة .

هتف قائد السرية اليوم جميل ـ محمد مارأيك بأن نتغذى على نبع المياه عندك ؟

ورحب الرقيب بذلك . كان قائد السرية يحترم مرؤوسيه ، وكان يحترم الرقيب محمد ويشجعه على الدراسة وكان للمساعد علي أثر في ذلك .

الوقت ضحى عندما هبطت بعض مواشي القرية بعد أن عادت خديجة من مخفر البرجيات حاملة الحليب والبيض والخبز الـذي أوصى عليه الرقيب محمد ، كـما أوصـى على فراريج وقد حملتها إليه مذبوحة جاهزة للشوي والسلق . علقت ضاحكة ، يبدو أنكم تحبون قائد السرية ؟ لم يأكل القائد السابق ولا مرة في هذا المخفر . واشارت الى مجند كان يحترمها قائلة : خذ لي المياه في كل صباح وسوف تعود بالحليب والبيض والخبز مقابل ذلك . ثم عادت إلى القرية .

هبطت بعض مواشي القرية من سفح الهضبة الى السهل باتجاه كفر شامير ، وكانت خديجة ترافق تلك المواشي لأن لديها بقرتين وعجلتين صغيرتين وخمس نعجات ؛ ساقتها باتجاه كفر شامير ، كانت تحمل عصا طويلة اعتادت أن

تحملها وتنشر على رأسها منديلاً أبيض ترفعه الى أعلى حينما تشاهدها امها كانت ترفع لها منديلاً من على سطح بيتها في المستعمرة .

لقد اقتربت اكثر من اللازم لكأن العاطفة انستها الأوامر والحد الذي يجب أن لا تجتازه ، نسيت نفسها ، بل نسيت العالم . كانت أمها تلوح بمنديل أبيض أيضاً وكانت تراها بدون منظار . والرقيب محمد يشاهد ذلك من المخفر ، وقد صاح احد المجندين باعلى صوته : ارجعي ياخديجة ، ارجعي ، ارجعي ـ كان يصرخ ويصرخ . ودق جرس الهاتف حيث رد الرقيب ونبه المرصد من الأعلى بالايعاز للراعية التي اقتربت من المستعمرة ، لقد اطلقت رشة من المستعمرة ، وهربت الحيوانات الى الوراء ، وكذلك هربت خديجة أيضاً ولكن الرشات المتلاحقة القتها على الأرض وسقطت معها بقرة تتخبط بدمائها ، ثم سقطت ثانية على بعد مئة متر من الأولى .

لقد تصدى رامي الرشيش ٢٤ ـ ٢٩ لمصدر اطلاق النار واصلاه بوابل من الرشات المتواصلة ، وجرى اشتباك عنيف بالرشاشات وفتحت النار بالرشاش الثقيل هوتشكيس من موقع السرية داعماً المخفر بالنيران . ولكن خديجة اصيبت مع انها لم تقع بعد . كان الرقيب محمد يراقبها ويراقب مصدر النيران من شمالي المستعمرة . وخديجة ابطأت حركتها عند الطريق العرضاني الواصل بين مركز السرية ومخفر البرجيات ، لا يزال رشاش معاد يلاحقها .

قال الرقيب محمد : أسكتوه بأي طريقة .

لقد اشترك الجميع بالرمي حتى البنادق ، ولكن المرأة أصيبت ووقعت على الأرض .

توقف الرمي من مركز السرية وكذلك من المستعمرة ، ورفع علم الأمم المتحدة ، ودق الهاتف من قيادة الفوج يطلب ايقاف الرمي . لكن الرقيب محمد اجابه لقد قتل كثير من الحيوانات ، وأعتقد أن راعية قد اصيبت ووقعت على الطريق الواصل بين مركزالسرية والمخفر . كان الأمر حاسماً أوقف الرمي ، سيصل البوليس الدولي ، خلال أقل من نصف ساعة .

اسرع مجند باتجاه خديجة . يبدو أن الاصابة كانت قاتلة لقد نزفت كثيراً .

عاد مسرعاً يطلب اسعافاً ، وأسرعت عربة من هيئة الأمم المتحدة ، عربة جيب باتجاهها . اسرع الرقيب محمد ، إلى هناك ، كانت المرأة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، حيث كانت الاصابة ببطنها . كانت تحاول أن لا يسقط وليدها على الأرض فأمسكت بطنها ، لكنها فارقت الحياة وهي تمسك بيدها اليسرى منجلها . وليدها مغمض العينين قتل أيضاً قبل وفاتها بقليل وفارق الحياة . كان وجهه أبيض ، والقسم السفلي منه متخضب بالدماء ، لا يزال الدم يجري منذ دقائق فارقت الحياة .

قال مندوب الأمم المتحدة ، قتلة كلاب . لم يستطع أن ينظر إلى المرأة الغارقة بدمائها . قتلت خديجة وهي تلوح بمنديل أبيض لأمها ، وقتل جنينها قبل أن يشاهد النور بعد ، مندوب الأمم المتحدة ، أدار ظهره واغمض عينيه وهو يقول للمترجم لا أريد أن أرى لا أريد ، مجرمون ، مجرمون . .

لقد انطبع هذا المنظر في رأس الرقيب محمد . لم يكن يصدق أن انساناً يمكن أن يطلق النار على امرأة حامل ، خاصة وهي ترفع منديلاً أبيض ، راعية مسكينة معها قطيعها ترعاه ، قتلوها بدون ذنب ، اطلقوا النار على المواشي قتل عدد منها في السهل الصغير ، احرقوا العشب الموازي للسلك ، هل يقوم بهذا العمل بشر ؟ أنا لا أعتقد ، أما هم قوم معتوهون ، أو مجرمون . امرأة حامل في الشهر الثامن ، حافية القدمين ، مع منجل صغير لقص العشب من أجل مواشيها ، مسكينة خديجة ، قبل شهور قتل زوجها بلغم عندما ذهب ليطمئن على والدته . وهاهي خديجة تلحق بزوجها ، لأنها رفعت منديلاً أبيض تحيي به والدتها . والدتها هناك في المستعمرة تمزق ثيابها لا تعرف ماحدث ولكنها شاهدت ابنتها تسقط على الأرض ، هل قتلت ؟ هل جرحت ؟ هي لا تعرف ولكن عندما كان الرقيب محمد يدقق بالمنظار في المستعمرة كانت تقف على السطح امرأة بحالة من الذعر الحقيقي . لقد ارشدته اكثر من مرة الى سطح والدتها ، حب ابنتها لها قتلها مع جنينها ، لفت المرأة القتيلة في بطانية ووضعت في سيارة البوليس الدولي .

غادرت سيارة البوليس الدولي المكان ، وعاد الرقيب محمد الى مخفره مع

مجند آخر ، واحتدم النقاش بين جنود الحضيرة . من العار أن يطلق انسان النار على امرأة . قال احدهم وهو أمي كان راعياً في قريته . وتابع الرقيب محمد الحديث : تصوروا قبل مئات السنين قال علي بن أبي طالب عندما اقتحم حصن خيبر اليهودي ـ صاح بفرسانه اياكم ان تقتلوا امرأة أو طفلا أو شيخا أو رجلا القى سلاحه ، تصوروا العرب في التاريخ . أما هؤلاء الفاشست الذين لا يحللون ولا يحرمون ، كل شيء مباح عندهم ، دينهم القتل . هؤلاء لن يستمروا وان طال زمنهم ، وكثير من العصابات تعمر ، ثم تنتهي .

أصبح الوقت عصراً وتلبدت السماء بالغيوم ، وحجبت الشمس وتغير الطقس قليلاً ، لقد غطت الغيوم الجليل وجبل الشيخ . وبدأ المطر يهطل رذاذا . وبدأت الظلمة تزحف من الشرق طاردة الضياء ومع ذلك كان الجنود داخل المنع ، يعلمون الرمي على منع العدو بجانب المستعمرة من الشمال . كانت صورة خديجة وجنينها وهي مرمية على الأرض قتيلة تدق في رأس الرقيب محمد لا تفارقه ، وتدق في رأسه أقوال علي بن أبي طالب اثناء معاركه ووصاياه في الحرب والسلم ، لم يستطع أن يقرأ . الحضيرة بكاملها أعصابها متوترة . لقد زحف الظلام على المنطقة واشعلت أنوار المستعمرة ، لم يستطع أن يشاهدها مضاءة كما كانت كل يوم ، فأعطى أمراً باطلاق رشاشات على منع العدو ، لاطفاء انوارها ، وهكذا بدأت لعبة متواصلة ، لن يترك تلك المستعمرة تشعل ضوءاً .

ودق الهاتف يسألون عن اطلاق النار ؟ ـ يستفسر قائد الفوج . ولكن الرقيب محمد لم يجب سوى : اشتباه بدورية فأطلقنا النار .

كان النقاش في أوقات الفراغ نهاراً يدور حول القتال مع العدو ، لقد سأل الرقيب محمد مجندين : هل تطلقون النار على امرأة يهودية ؟ ونظر المجندون في وجوه بعضهم البعض ثم قال أحدهم : ماذا دهاك ياحضرة الرقيب حتى تسألنا هذا السؤال ؟

ورد آخر : لقد قال لي والدي اياكم ان تطلقوا النار على النساء والأطفال ، اذا شاهدتموهم . هل يعقل رجل مقاتل يطلق النار على امرأة حتى

لو كانت معادية ؟ هذه ليست من شيم الرجال ولا من شيم المقاتلين .

وأردف آخر : لا يمكن ان يقتل امرأة الا مجرم أو معتوه ، أو انسان اعماه الحقد فبدا يتصرف تصرفاً غير طبيعي ، ولا يمكن ان نرد على العدو بقتل امرأة بدلاً من خديجة .

وقال آخر : اذا قمنا بنفس الفعل يقول عنا البوليس الدولي ، قتلة مجرمين ، ونكون نحن وهم على قدم المساواة .

كان الرقيب محمد يسمع رد فعل الجنود . رد فعل يدل على اصالة في نفوسهم ، يتألم ، ولكن هذه المستعمرة لا يمكن ان تعيش الا في الظلام ، اسبوعاً كاملاً ، فقرر الاشتباك بين منع المستعمرة ومخفر البرجيات من بداية العتمة . كلما اشعلت أنوارها يطلقون بالرشيش عليها ، فتطفأ الأنوار .

قلق قائد الفوج من جراء هذه الأعمال المتوترة بين المخفر والمستعمرة وكان مضطراً اثناء كل اطلاق أن يستنفر القوى المناوبة وخاصة مدفعية الفوج ، ويبدو أن هناك اتصالاً مع قائد السرية جرى حول ذلك اكثر من مرة ولكن دون جدوى ، فقد كان قائد السرية مع مخفر البرجيات على اتصال مستمر بشكل يومي .

لم يغب منظر خديجة وجنينها من ذاكرة الرقيب محمد ، رغم انه شاهد عشرات القتلى ، والمحروقين من العدو والصديق في الخنادق المدمرة في الحاصل العسكري ، ويكاد المنظر يطغى على كل شيء في ذاكرته ، وصوت العريف حسن وهو يوصي لوالدته قبل استشهاده ، كل هذه الصور كانت تمر سريعة في ذاكرته وتتوقف عند منظر المرأة وجنينها .

لقد غيرت النسوة من قرية السماقية اتجاه الرعي ، أصبحن يأخذن المياه من نبع البرجيات ، لكن كلما مر الزمن تبدو في عيونهن المأساة اشد وأعمق ، ولقد ولدت عدة نسوة في القرية وأي بنت ولدت كان يطلق عليها اسم خديجة .

قلق قائد الفوج كثيراً وزار مخفر البرجيات شخصياً مع قائد السرية . وبعد ان غادر أمر بتبديل الحضيرة ، ووصلت الحضيرة من الفصيلة الأولى ، وعاد الرقيب محمد الى العقدة في مركز السرية بعد أن امضى خمسين يوماً في مخفر

البرجيات .

كان قائد السرية يتحدث مع قادة الفصائل وأمار الحضائر ، وأتى على ذكر خديجة قائلاً : لا يمكن لرجل أن يقتل امرأة وخاصة نحن العرب في التاريخ إذا رجل قتل امرأة يقاطعه الناس ويهرب من وجوه الرجال حتى لو كانت امرأة عدوة .

لقد عاد الرقيب محمد بذاكرته الى اقوال المجندين الرعاة .

حصل الرقيب محمد على اجازة قصيرة ، كي يسجل طلباً من أجل امتحان الشهادة الثانوية في العاصمة ، ورغم الوقت الضيق فقد شاهد بعض الرفاق لفترة قصيرة تحدثوا معه عن التطورات اللاحقة حول الوحدة ومشروع ايزنهاور ، وثورة الجزائر ، وقفل راجعاً إلى السرية .

لقد شجعه قائد السرية على الدراسة وقد تناقش معه طويلاً حول أفكار الحزب ، والأحزاب في البلاد والحكم البرجوازي .

وصلت المسدسات الرشاشة من تشيكوسلوفاكيا وكذلك بنادق حديثة في أواخر شهر آذار . فرح الجنود حيث سحبت البندقية ٣٦ منهم وحلت محلها البندقية نصف اتوماتيك التشيكية وكذلك المسدس الرشاش التشيكي . وحل هدوء كامل في الأسبوع الأخير من شهر آذار على طول خط وقف اطلاق النار .

يأتي الربيع مبكراً في سهل الحولة . لان الحرارة مرتفعة بشكل دائم ، تنتشر فيه الأحجار البازلتية الكبيرة منذ آلاف السنين . ويفصل بين العقدة القديمة والطريق الواصل بين قرية السلط وقرية الشومرية المحتلتين . من الصعب بل من المستحيل على الاليات ان تعبر باتجاه العقدة من هذه المنطقة ، وأي هجوم معاد ، يجب ان يمر عبر السهل الذي قتلت فيه خديجة ولقد اسماه سكان قرية السماقية بسهل خديجة لأنها قتلت فيه . مركز السرية من الخلف ، وعلى يسار العقدة الجرف الصخري الذي تجري فيه السيول القادمة من أعلى الهضبة اثناء ذوبان الثلوج وتصب في بحيرة الحولة سابقاً ، لقد جفت البحيرة واصبحت سهلاً زراعياً والمياه تصب في مجرى النهر الذي يذهب إلى بحيرة طبريا ، التي تنخفض عن سطح البحر بمقدار مئتي متر ، أما سهل الحولة فهو

بمستوى سطح البحر واقل بقليل ، والأزهار والأعشاب فيه كثيرة ومتنوعة ، والحيوانات البرية ايضاً كثيرة ومتنوعة وتعيش بين هذه الصخور وفي الجرف الصخري الفاصل بين السلط والشومرية اسراب الحمام البري .

كان العدو رغم توتره ساكناً فأصيبت السرية بالكسل ، وبدأ الجنود يذهبون شرق الموقع ويصطادون الأرانب والخنازير ، وبعض الغزلان ، وهناك حيوان رديء شكله قذر سموه خاروف اسرائيل لمنظره القبيح . وارتاح الفوج قليلاً وسمح بالاجازات الطويلة .

في أواخر اذار اقيمت محاضرة في قيادة الفوج للرقباء القاها قائد الفوج مباشرة ، حزن يومها الرقيب محمد عندما ناقش قائد الفوج بأفكار سببت لقائد السرية بعض المشاكل .

سأل قائد الفوج بعد أن تحدث عن فلسطين ، وثورة الجزائر ، وثورة مصر ، ويقظة العرب قائلاً : من له سؤال ؟

ورفع الرقيب محمد يده قائلاً :

- الرقيب المجند محمد من السرية الثانية رقم . . . وقاطعه قائد الفوج قائلاً : لقد سمعت عنك وسمعت ان لك مشاكل كثيرة في الفوج ، وما يغفر لك انك شجاع ، قل ماذا تحب ان تسأل ؟

كادت كلمات قائد الفوج ان تهبط من عزيمة الرقيب محمد ولكنه وهو مجند وسيسرح قريباً لابد أن يسأل .

قال الرقيب محمد : نعم ياسيدي ، الذين يقولون الحق يقال عنهم ان لهم مشاكل . كانت انظار الرقباء وقادة السرايا وقادة الفصائل ترنو إليه متسائلة ماذا يقول . كان قائد السرية الملازم أول عبد الوهاب يهز برأسه .

تابع الرقيب : نعم ياسيدي سؤال - قبل مئات السنين قال علي بن أبي طالب (ماغزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا) وهانحن ياسيدي الرائد قد غزانا الاسرائيليون والامبرياليون ونحن ننتظر . لقد أسر ياسر وقتل أشرف ، وقالوا سيثأرون ثم ، كانت معركة ساحل طبريا ، وقتل قادة سرايا ، وقتل مئات الجنود من الطرفين ، وقلنا سنثأر ، ومنذ أيام اعتدوا حتى على الأبقار

وقتلوا الرعاة ، وقلنا بسيطة المهم ضبط النفس . اذ ا لم ننتصر هنا في فلسطين فلا قيمة لكل الثورات في الوطن العربي قد تساعد ولكن الأصل هنا يا سيدي الرائد . متى سنثأر لقتلانا ؟

لم يتصور الرائد مثل هذه الأسئلة من رقيب ، ولذلك سأل ماذا تعمل بحياتك المدنية يارقيب محمد . ووقف الرقيب ثانية ـ وأجاب : «معلم مدرسة» وابتسم الرائد وهز برأسه ثم قال المعلمون يحبون الكلام ، حتى يقنعوا التلاميذ بآرائهم ثم أردف قائلاً :

المثل يقول (الذي يعرف يعرف ! والذي لا يعرف يقول كف عدس) بسيطة . المهم ان نسيطر على أنفسنا وان لا نخاف من العدو . وقال : طلبت قيادة الجبهة بعض الرقباء المتطوعين لأعمال فدائية وهذا لا يفرض عليكم ، ورفع عدة رقباء ايديهم راغبين في التطوع ، ونظر الرائد قائلاً :

ـ رقيب محمد ألا تريد أن تكون فدائياً ؟

فأجاب الرقيب محمد : نحن في العقدة اذا قررتم العمل اصدروا الأوامر لقائد السرية .

أنا لا أرغب بالذهاب الى قيادة الجبهة . وقال ضابط من قيادة الجبهة كان حاضراً الاجتماع ـ وتشك في قيادة الجبهة .

وقال الرقيب محمد : كنت أتمنى يا سيدي أن يكون النقيب بكري حاضراً ، عندما كانت المعركة دائرة على ساحل طبريا ونعلم قيادة الجبهة ، حتى عن الأبقار :ـ اجابوا الريح ساقتها ، المجندون الأميون قالوا يومها أرسلوها ليكتشفوا حقول الألغام ولم تقتنع قيادة الجبهة ، وتقول الشك ، فأنا اشك هل أنا انسان أم حيوان ؟ يطلق علي النار كما فعلوا بمواشي قرية السماقية ورعاتها ، وتقول أشك ؟!!؟

لقد نسي الرقيب محمد انه أمام قائد الفوج وضباط من قيادة الفوج والجبهة . لقد احمر وجه قائد الفوج رغم ان لونه يميل الى الشقرة . ولكن الضابط من قيادة الجبهة . اردف انت رقيب وقح لم تتعلم العسكرية ، تتصور انك مع معلمين نسيت نفسك ، لقد انفعل الضابط ولم يعد يعرف كيف يتصرف

وكان برتبة نقيب . ولكن الرائد هدأه قائلاً : الرقيب محمد عندك عقوبة .

ولكن الملازم أول عبد الوهاب رفع يده ، وأردف : لم يتكلم الرقيب بقلة انضباط ، ولم يتكلم إلا الحقيقة ، فلماذا ياسيدي النقيب انفعلتم هكذا ؟

فقال النقيب : يبدو أنه من سريتك ؟ـ نعم من سريتي فقاطعه النقيب ساخراً ولذلك يبدو عليه الانضباط . انفعل الملازم أول عبد الوهاب وقال صائحاً :

ـ قيادة الجبهة مقصرة وأنا أشك أن هناك من لهم ارتباطات لا تزال مع الأجانب . لأن أغلب القيادات من مخلفات فرنسا . نعم . لم يقل الرقيب شيئاً من عنده ، أنا أشك ، فكيف بالجنود ؟

وصاح الرائد قائلاً : ياعبد الوهاب لا أريد ان اسمع هذا الكلام منك ، وعلق النقيب قائلاً :

ـ هذا الكلام له حساب ياعبد الوهاب وصاح الملازم أول عبد الوهاب قائلاً : حساب ؟ اذهبوا حاسبوا العملاء والجواسيس في القيادات العليا ، نحن في مواجهة العدو ، فإذا كانت هناك أوامر قتال بلغونا الأمر . ونهض الملازم عبد الوهاب واستأذن من قائد الفوج وحياه ثم انسحب وفرط الاجتماع بانسحاب قائد السرية الثانية .

عندما عادوا الى السرية مشياً على الأقدام خلف قائد السرية ، كان الملازم أول عبد الوهاب مغتاظاً ، وقد قال موجهاً حديثه للرقيب محمد باللهجة الحلبية (هذا النقيب اتى يبيض مراجل هنا) كان لا بد من شرشحته حتى يكتب تقارير الى رؤسائه .

وصلواعند الغروب وقد بللت ثيابهم الداخلية من المطر . كان الجميع يحملون اسلحتهم . لـم يقس قائد الفوج على قائد السرية لاعتبارات كثيرة ، فقائد السرية هو صهر قائد الفوج التاسع عشر ، وكذلك هو صهر قائد اكبر تجمع في البرلمان . وقد اخذ قائد الفوج هذه الاعتبارات في حسابه . ولكن بالنسبة لقائد السرية فهو في تكوينه شجاع وأصله من البدو سكن أهله بحلب من زمن طويل والحقيقة الأساسية أ ن الأركان كانت محرجة من قبل السياسيين

فيما يتعلق بمعركة طبريا . فقرروا اجراء دورات فدائية واعطوا قيادة الجبهة الصلاحيات بذلك .

واختلف قادة السرايا هل يحق لقائد سرية ان يوجه نقداً الى القيادة ويساند رقيب مجند من سريته ، وحسماً للمشاكل ولهذه النقاشات فرض رئيس أركان الفوج النقيب زهير خمسة عشر يوماً سجناً عادياً بالرقيب محمد ولكن الملازم أول عبد الوهاب رفض الأمر بسجنه واكتفى بتسجيل يوم واحد حتى لا يكسر قرار رئيس اركان الفوج .

كان الرقيب محمد يراقب كل ذلك من بعيد بالشكل الذي تسمح به رتبته الصغيرة ، كان على قناعة بأن قائد الفوج الرائد خيري ، ضد حزب البعث بدون نقاش ورئيس أركانه غير مبال . مجرد ضابط ، ينفذ الأوامر العسكرية لا أكثر ولا أقل ، وكذلك فهو يعلم جيداً أن أغلب الضباط ليسوا على علاقة جيدة بحزب البعث ، ولذلك فقد استثمر صداقة الملازم أول عبد الوهاب قائد سريته ، ورغم انه غير حزبي إلا أنه وطني غيو ر على الوطن وصاحب وجدان حي ، كم تمنى الرقيب محمد أن يصبح الملازم أول عبد الوهاب يوماً ما بعثياً ، كم تحدث الى رفاقه عنه ، كان يعلم ان نشرات حزبية تصل الى السرية عبر الرقيب محمد يتجاهلها وكأنه لا يعلم عنها ولم يبلغ عنه اطلاقاً . لقد قلق المساعد علي كثيراً على الرقيب محمد كان يؤنبه احياناً ويعنفه لكثير من الأعمال ، مرة قال له (انت مجنون ، تناقش الضباط ، قد يسجنونك ، قد يرتبون لك تهمة وتذهب الى المحاكمات ، ألم تشاهد بنفسك ، يقتلون بعضهم البعض ـ ألم تشاهد المحاكمات بالعاصمة والاغتيالات ـ من أنت ؟ مجرد رقيب صغير تدعسك سيارة وتنتهي ، ليس لك ثمن). يقول كل هذه الكلمات محموماً من الغضب ، وهما يشربان الشاي سوية .

ويرد الرقيب محمد : يا سيدي ، العمر قصير في كل الأحوال . هذا ما حصل ياسيدي المساعد دبرها بمعرفتك ، ويهز المساعد علي برأسه ويقول : «قال ـ دبرها شوبدي دبر حتى دبر هذا العالم الخربان» وينتهي النقاش عند هذا الحد .

« ٢٥ »

كان شهر نيسان جميلاً جداً ، بدأت الحرارة ترتفع وقد ذابت الثلوج عن الهضبة ، وصوت المياه العالية تهبط في المسيل على يمين تمركز السرية ، عندما أعلم أن قائد السرية الثالثة النقيب يوسف قادم بسيارة الدودج قبل ظهر ذلك اليوم من بداية شهر أيار اقيمت في السرية احتفالات الجلاء بدون ضجيج ، كان الاحتفال باطلاق عدة قذائف على العدو من الهاون ، ورد العدو بالمثل على النار ، وجرى اشتباك بالرشاشات الثقيلة . والهاون واضطر قائد الفوج ان يستنفر الفوج ويلغي الاحتفالات حتى الاجتماعات انهاها واكتفى بتهنئة قادة السرايا .

قال الرقيب محمد لقائد السرية ، في تقديري إن قائد الفوج الرائد غير شجاع ونمام . وان كنت لا أعرف عنه ذلك إلا في الاجتماع أو زيارته لمخفر البرجيات ، ولكن قائد السرية كا ن يضحك لمثل هذه الكلمات ، لم يكن على علاقة طيبة مع قائد الفوج ولكن قائد الفوج في رتبة رائد وهو ملازم أول . أضف الى ذلك فالنظام هو النظام عندما تحتدم الأمور .

وصل قائد السرية النقيب يوسف ، وشأنه شأن كل الضباط يشعر انه مغبون لانه قائد سرية فقط في حين أنه يجب ان يكون قائد الفوج . كان النقيب يوسف مغروراً ، ولكثرة غروره كان يطلق عليه رفاقه الضباط «الأمير» اتى الأمير وذهب الأمير . له شاربان طويلان عقفهما الى الأعلى على طريقة الفرسان القدماء

وان كان يميل الى القصر وشكله لا يناسب شاربيه ، ومع ذلك فهو ذو ثقافة واسعة وخاصة انه يتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة كأنه تربى في باريس ويرتدي سيدارة عليها النجوم الثلاث الصغيرة التي تدل على رتبته .

وصل الى السرية واستقبله قائد السرية الملازم أول عبد الوهاب وحياه بالتحية العسكرية ولكنه لم يقدم له الجنود المنتشرين في الخنادق والخيام الفردية .

كان مسدسه يتدلى من نطاقه بحمالة ، وقد تجول في الموقع قليلاً مع قائد السرية ثم عاد الى مقر قيادة السرية . استدعى الملازم عبيد ، ثم استدعى الرقيب محمد والرقيب خمسان أيضاً .

كانت الشمس ساطعة في نهاية نيسان الجميل الذي يقرر في نهايته الفلاحون مواسمهم ، حسنة كانت أم سيئة . نيسان شهر الربيع فيه تلد الخيول والأبقار ، والمواشي ، فيه تظهر البراعم ، وتعقد السنابل ، وتكثر الزيجات ، ويحل الدفء محل البرد . وتذوب الثلوج ، انه شهر الخير والأمل والتفتح ، فيه تفقس الطيور وتكثر الفراخ ويزداد النحل . في هذا الشهل الجميل ، حاول الرقيب محمد ان يحضّر للامتحان وان كان الوقت ضيقاً . كان أمله بالنجاح في الشهادة الثانوية ضئيلاً لكن حلمه بأنه قد يعدل من وضعه ويصبح ضابطاً . كان ينمو ، كان يحلم بأن ينتهي من ذلك الوضع المهين اذ كلما غضب منه ضابط يقول له عندك عقوبة . لقد سار الى مقر السرية وهو قلق تساءل لماذا ؟ قبل فترة طلب من الرقيب خمسان ان يتنظم بالحزب ، ولكن الرقيب خمسان في حالة من حالات ضعفه تحدث مع الملازم عبيد وهذا بدوره أخبر قائد السرية ، فلم يتحمل الملازم عبد الوهاب ، واستدعى الرقيب من اجل ذلك . كانت افكار شتى تدور في ذهنه عندما شاهد كميوناً من الجنود قادماً باتجاه السرية وكميوناً آخر بعده بمئات الأمتار يلحق به . وصلوا الى مقر السرية . كانوا مجموعة من الرقباء المتطوعين هكذا بدا على وجوههم لا يوجد ولا رقيب مجند لماذا ؟ لقد دخل الملازم عبيد غرفة السرية بينما رحب الرقيب محمد بالقادمين قائلاً : أهلاً بالشباب ، عساه خيراً . طبعاً زيارة اطلاعية لخط وقف اطلاق النار في حده الأمامي .

وأجاب احدهم قائلاً : ولكنها زيارة طويلة . نحن متطوعون فدائيون .

ونظر الرقيب محمد في وجهه نظرة تعجب قائلاً : متطوعون فدائيون ـ وتابع ـ هذا رائع ـ التضحيات واجبة ، واليوم تزورون خط وقف اطلاق النار . ياأهلا بكم . لحظة وسأعود خلال ثوان .

فرح الرقيب محمد . وعندما دخل ، كان الضباط يشربون الشاي والرقيب خمسان يقف باستعداد لأن النقيب كان حاضراً ولا يسمح أن يجلس رقيب بوجوده . دخل الرقيب محمد وحيا ووقف بجانب الرقيب خمسان . نهض النقيب يوسف وأخذ المنظار وراح ينظر من كوة في الغرفة ، يزرع سهل الحولة بذلك المنظار ثم خرج من الغرفة ولا يزال الصمت يلف المكان . الملازم أول عبد الوهاب يتابع حركات النقيب ، والملازم عبيد صامتاً . قطع الصمت الملازم أول عبد الوهاب قائلاً : اسمعوا بناء على توجيهات من قيادة الجبهة فإننا نحن اكثر وطنية . نسوا ان كل الناس وطنيين عندما تكون القيادة قوية وجادة . ولكن حتى يحرجونني في هذا المركز ، قرروا ارسال دورة فدائيين . وصمت ونظر في وجوههم لحظة ثم رشف شاياً ، وراح يعبث بعصا بين يديه ، يدقها على الأرض ، نحن ندرب دورة فدائيين هنا شهراً كاملاً مارأيكم اذا كنتم انتم المدربين ؟

لقد وقع هذا النبأ على الرقيب محمد وقوع قذيفة هزت الأرض التي يقف عليها . ولكنه تماسك ليرى جواب الملازم عبيد ، قال الملازم نحن ندربهم رياضة ، ندربهم دوريات ، لكن من يدربهم زرع ونزع الألغام ، وتخريب عتاد ، واستخدام اسلحة العدو ؟ ليس لدينا نحن هذه الامكانيات هنا ياسيدي . وصمت . ونظر الملازم أول عبد الوهاب في وجه الرقيب محمد وسأل ، ما رأيكم ؟

وأجابه : نعم ياسيدي ، وتابع : ولكنني اعتقد ان الملازم الذي اجرى مسابقة الجري في قيادة الجبهة وكان الأول خدعهم ، لعلهم اعتقدوها دورة جري يدربهم فيها الملازم عبيد على ذلك .

قبل أسابيع اجرى الملازم عبيد في بداية نيسان مسابقة جري من قبل

الفوج في قيادة الجبهة وكان الأول في الجري . كان رجلاً طيباً لم يفهم ما قصده الرقيب محمد . لم يقرأ كتابا بعد ان تخرج من الكلية الحربية حتى الملازم أول عبد الوهاب مطالعاته العامة كانت قليلة جداً كان يسمع الراديو ، كأنه جزء منه .

وأردف الرقيب محمد وهو ينظر في وجه الملازم : كما تأمر ياسيدي ، وأنت تعلم رغم ان الامتحان في نهاية الشهر فهذا واجب اذا صمدوا في هذا المركز ؟ سوف نتعرف عليهم الان ، اذا سمحتم . واشار اليهم قائد السرية اخرجوا . ثم استبقى الملازم عبيد . وخرج الرقيب محمد مرحبا بهم : اهلا وسهلا ، فدائيون تتدربون هنا . كان قسم منهم قد انتشرفي الخنادق ولأول مرة يزورون فيها الجبهة ، انهم يعرفون القنيطرة والمراصد العالية . أما هنا في مركز العقدة لا داعي للمناظير ، الذي لديه نظر وقاد كنظر الرعاة يميز الرجل من المرأة داخل مستعمرة كفر شامير (الشومرية) .

قال احدهم : معقول هذه محتلة ؟

ورد الرقيب محمد : نعم محتلة .

وجرى نقاش حول أسس التدريب هنا . حقول ألغام أين لا ندري ؟ كيف زرعها العدو في قطاعه لا ندري أيضاً ؟

كان النقيب يوسف يدقق بالمنظار من الخنادق . خرج الملازم أول عبد الوهاب ، وكذلك الملازم عبيد ، كما حضر الان المرشحان والمساعد أول علي الذي كان يتحدث مع احدهم . ويقول معقول هنا التدريب ، يمكن ان يكون هنا استطلاع اما تدريب فأنا لا أصدق . أنا اعلم ان التدريب يجري في الخلف ، فنحن لا نستطيع تدريب حتى فصيلة ، لا نجرؤ على جمعها فكيف بنصف سرية رقباء يتدربون آه ـ من يخطط لهذا العمل ؟

تحلق الملازم عبيد والمرشحان حول النقيب يوسف . فبادرهم قائلاً :

ـ ارى دبابات تنتشر في السهل . لكن الملازم أول عبد الوهاب أجاب قد تكون جرارات مجنزرة . وقد تكون حصادات مجنزرة !!!!.

لكن النقيب حسم النقاش ، وهو يدقق ثانية بالمنظار . كان شارباه مع المنظا ر يشكلان حلقة واحدة . وقد طوى كم قميصه ومسدسه يلوح على جنبه ،

حسم النقاش مؤكداً انها دبابات .

الملازم أول عبد الوهاب مع الملازم عبيد قررا عدم تدريب الدورة واعادتها الى قيادة الجبهة وفي أسوأ الحالات اعادتها الى قيادة الفوج ، فالتدريب غير وارد اطلاقاً داخل موقع السرية . وخاصة أن التدريب لمثل هذه الدورة يحتاج الى مدربين من سلاح الهندسة مختصين في الألغام ، وليس الأمر مجرد شكليات أصدر الملازم أول قائد السرية أمراً باستطلاع العدو والكشف . هل هي دبابات أم حصادات ، ولم يجادل النقيب يوسف وقال بصوت آمر : محمد خمسان مع رامي رشيش ٢٤ ـ ٢٩ استطلعوا العدو ، وتأكدوا من الوضع القائم في سهل الحولة .

ورقيب محمد اللاسلكي مع مسدس رشاش تشيكي . خمسان مسدس رشاش تشيكي . رامي رشيس مع وحدة نارية يلقم اثناء الاشتباك الرقيب خمسان الرشيش ـ الطريق المتبع العقدة القديمة ، الطريق الواصل بين المستعمرتين ، الاستطلاع نهاراً ـ هيا . كان صوته واضحاً وأمام جميع الرقباء القادمين الذين يجلسون فرادى وجماعات داخل الخنادق .

كان الرقيب محمد يعرف هذا الطريق جيداً ، كل أسبوع ينزل باتجاه العقدة القديمة ليلاً في كمين أو دورية ، لمراقبة العدو ولم يكن غريباً عنه إلا أنه يستطلع الآن في وضح النهار ، لم يكن العدو يتوقع مثل ذلك، كان يدفع بكمائن ودوريات معاكسة على طول الطريق ليلاً .

تحركوا . . المسافة ليست طويلة اقل من كيلو متر واكثر من نصف المسافة خنادق . حتى العقدة القديمة ، والباقي صخور واعشاش بينها .

كان قائد السرية يراقب الدورية حتى العقدة القديمة ، السرية منشورة في الخنادق . بدون بوق الانذار ، والرشاش الثقيل جاهز كالعادة لأي طارىء ، والهاون كذلك ، كل شيء جاهز ومستعد .

كان النقيب يوسف في وضع نفسي متوتر ، ماذا سيجري للدورية ، ماذا سيحدث لها ، قد تؤسر أو تقتل . كان يسير داخل الخندق ذهاباً وإياباً ، ثم تحدث مع قائد الفوج قائلاً : ياسيدي أرى بعض التحركات المدرعة بالسهل ،

ولابد من تدقيقها .

ورد قائد الفوج : المرصد يفيد بذلك لكن يؤكد انها حصادات مجنزرة لان السهل مغطى بطبقة طينية ، ومع ذلك دققوا الموقف ؟

نعم ياسيدي ارسلنا دورية استطلاع .ـ هذا جيد ؟ لكن يجب ان تؤمن يخشى من وقوعها في الأسر ، عليكم ان تدققوا بالمناظير ، ومرصد القيادة يؤكد إنها حصادات ـ هذا ما حدث ماهي اوامركم ؟ فقال المساعد علي : لماذا هذا النقيب موهوم كل هذا الوهم ؟ انها حصادات ولا داعي لارسال دورية .

وعاد وأكد ياسيدي النقيب نحن متأكدون انها حصادات لكن الان المشكلة ارسال دورية وسط النهار ، اذا اكتشفها العدو قد تقتل أو تؤسر هذه هي المشكلة .

كان الملازم أول عبد الوهاب هادئاً عندئذ قال : اذا قتلوا أو أسروا فهذه هي الحرب ، وان عادوا يكون ذلك جيداً ، فلماذا التفكير الان بالدورية ؟ لم نطلب منهم فتح الجهاز إلا إذا اكتشفهم العدو واحتاجوا الى تغطية .

كان قائد السرية يراقب السهل ومستعمرة كفر شامير . جهاز اللاسلكي في السرية مفتوح على استقبال جهاز الدورية ، كان في السرية صمت مطبق ، داخل السرية ، اعصاب الجنود مشدودة ، الجميع علموا أن دورية استطلاع ذهبت الى السهل ، الى الطريق الواصلة بين المستعمرتين لتدقق موقف العدو . كل الجنود أخذوا مواقعهم داخل السرية ، حتى قادة الفصائل وأمار الحضائر ، والرشاشات ٢٤ ـ ٢٩ ، السرية في الجاهزية الكاملة وقد تم توزيع الرقباء الجدد داخل الخنادق .

بقي قائد السرية والنقيب يوسف ، يدققان بالمنظار حركة العدو ماذا يحدث ؟ لا يحتاجون الى وقت طويل ، في زمن اقل من الساعة يجب ان تعود الدورية وإلا ستكون مشكلة .

كان الرقيب محمد والرقيب خمسان ورامي الرشيش قد قطعوا المسافة بأسرع مما يتصور قائد السرية . لقد وصلوا الى الطريق بين المستعمرتين وهم متأكدون انها حصادات ، لقد ظهر لهم فعلاً كما شاهد النقيب انها حصادات

محروسة بدبابات ، لم يكن يخطر على بال أحد أن الحصادات في هذا السهل تحرس بالدبابات . ولماذا يحرسون الحصادات ؟ هذا ماكان يفكر فيه الرقيب محمد . لقد احصى فصيل دبابات حوالي عشر حصادات . قسم متوقف عن العمل هل هي في حالة استراحة ؟ أم غارقة في الطين ـ المنعة المعادية على بعد ثلاثمائة متر فقط ، هناك مدفع مضاد للدبابات معاد ، بجانبه رشاش ، جنود في حالة استراحة كانوا قريبين جداً من موقع العدو لكن لم تكن اعصابهم متوترة لم يكشفهم العدو . دققوا كل شيء بهدوء الوقت ظهراً والشمس في كبد السماء ساطعة . نتف من الغيوم البيضاء العالية ، منتشرة مبعثرة في السماء الصافية .

نظر الرقيب محمد والرقيب خمسان بالمنظار على التتالي، كل شيء متطابق . اراد رامي الرشيش أن يحصد اولئك الأفراد ، كانوا خمسة عند منعة . أراد أن يحصدهم بالرشيش ، لكن الأمر ليس كذلك كان يهز برأسه غاضباً . قال للرقيب محمد : مخزن واحد وسآتي عليهم جميعاً ، لكن الرقيب محمد الذي كان يفكر بهؤلاء القتلة السفاحين بالأمس اطلقوا النار على الرعاة وقتلوا خديجة ، لازال منظرها هي وجنينها ماثلاً في ذاكرته ولا تزال كلمات البوليس الدولي تطن بأذنه . مجرمون ـ مجرمون ـ مجرمون . . . ولكن الأوامر العسكرية غير ذلك . انه في مهمة استطلاع وليس في مهمة قتال . كان يعود بذاكرته وهو يدقق بالسهل الذي كا ن بحيرة جميلة وقد جفت الان . طرد أغلب اهله من حوله ، ويتذكر معركة طبريا ، والقتلى والجرحى في الخنادق وعلى ساحل تلك البحيرة الجميلة . ولكنه رفض رفضاً قاطعاً اطلاق أي طلقة ولا يزال اللاسلكي مغلقاً لم يفتحه .

كان الطريق مستقيماً بين المستعمرتين إلا من ثنيات عند الجسر فوق المسيل على يمين العقدة . وفوجئوا بسيارة قادمة على بعد كيلو متر . سيارة دودج كندي مكشوفة ، اقتربت . حامل الرشيش كان جاهزاً للتدخل . كان في السيارة سائق وبجانبه امرأة ترتدي فستاناً أصفر . عندما أصبحت السيارة على بعد أقل من مئة متر ، قال للرامي مستعد ؟ ممنوع اطلاق اي طلقة إلا إذا أنا اطلقت أولاً من المسدس الرشاش . كانوا منضبطين أعصابهم هادئة ، اقتربت السيارة أكثر وظهر فجأة الرقيب محمد امامها شاهراً سلاحه . لقد فرمل السائق

بقوة، وتوقفت العربة وقفز السائق هارباً باتجاه المنعة ولكن المرأة ، نزلت بهدوء ، كانت حاملاً ظهر بطنها مدفوعاً للأمام لم تستطع أن تركض أو تهرب . تذكر الرقيب محمد خديجة . هل يثأر لها وواحدة بواحدة ؟ وتذكر قول البوليس الدولي ، مجرمون . . . كما تذكر قول الامام علي لا تقتلوا امرأة وأوصيكم بالحامل خيراً حتى ولو كانت عدوة . وفي لحظة مرّ تاريخ العرب القديم في خياله . الاصالة والحضارة العريقة منعتاه من اطلاق النار ، انها انسان ، غرر بها انها بشر لا ذنب لها حتى اقتلها الان كانت على بعد أمتار منه لا تحتاج لطلقة واحدة . لقد حمت الرجل الهارب ، لأن اطلاق النار عليه قد يقتلها . لقد صاح الرقيب محمد بأعلى صوته ، لا تسرعي لن اطلق النار عليك امشي مهلاً . التفتت الى الوراء وتوقفت قليلاً وهي تنظر الى الجنود وهم يصعدون الى السيارة مسرعين . والمرأة وهي تسير سيراً عادياً وبين لحظة وأخرى تلتفت الى الوراء . كانوا يراقبونها . انسحبوا بسرعة .

دخلوا العقدة القديمة وأصبحوا داخل الخنادق وفتحوا جهاز اللاسلكي ـ نعم ـ قف . العدو ـ عشر حصادات وخمس دبابات منشورة في السهل بين المستعمرتين الى الغرب ، اوقفنا عربة دودج هرب السائق ، وامرأة حامل لم نطلق عليها النار . نحن في العقدة القديمة قادمون اليكم .

لم تصل المرأة الى المنعة حتى فتح العدو النار بالرشاش الثقيل ومسحوا به الصخور والعقدة القديمة ، ثم بالهاون الخفيف وألقى بعشرات القذائف ورد الرشاش الثقيل من مركز السرية على النار وكذلك فعل الهاون . دقائق وتوقف اطلاق النار . كان أفراد الدورية يراقبون من العقدة القديمة تصرفات العدو ، لم يغادروا المنعة اطلاقاً ولم يعودوا يرون رجالاً إلا أن قذيفة مضادة للدبابات اطلقت على العربة ومزقتها .

تساءل الرقيب محمد من يصدق أنهم يفجرون العربة ، لماذا فجروها ، لقد انسحبوا عبر تلك الخنادق ووصلوا الى مركز السرية ، كانت النفوس متوترة جداً . وكل في مكانه جاهز خلف سلاحه وكذلك كان في ملجأ قائد السرية النقيب يوسف وقائد السرية الملازم أول عبد الوهاب يراقب من الخندق من

مرصد السرية ، لماذا فجروا السيارة ؟

وصلت الدورية ومعها خقيبة طبية مملوءة أدوية وعقاقير وقطناً وشاشاًوإبراً متنوعة ، واربطة ، ومقصات يبدو أن السائق أو المرأة يعملان في الخدمات الطبية .

قدم الرقيب محمد مع الرقيب خمسان تقريراً شفهياً : فوجئنا بالسيارة ولم نعط امراً باطلاق النار إلا في حالة الدفاع عن النفس ولم نكن في وضع الدفاع عن النفس ، السائق هرب ، والمرأة حامل .

أيد كلامه الرقيب خمسان وكذلك رامي الرشيش . في السهل عشر حصادات وخمس دبابات . ودار نقاش حاد بين النقيب يوسف وقائد السرية ، لماذا هذا التصرف الطائش من الدورية ؟ وكونه وقع لماذا لم يطلقوا النار عليها ، أيضاً هذا جبن ويحتاجون الى عقوبة . وكذا . . وكذا . . ؟ كان وجهه أصفر لأن الرشاشات لازالت ترمي رشات متقطعة . القى نظرة على الحقيبة الطبية وأخذ قسماً من الأدوية ، لم يفكر فيما تؤول إليه الدورية ، بل اعتذر وركب سيارته باتجاه الفوج ، قال قائد السرية الذي ابتسم بعد أن غادر النقيب باتجاه قيادة الفوج : مغرور ، سواء دبابات أو حصادات ماذا نعمل لهم ، عندما يفتحوا النار علينا نرد عليهم من هذا الموقع . واقتحامه يكلفهم اكثر من طبريا . ثم ربت على كتف الرقيب محمد وقال : عملت جيداً ، وأنا مسرور لأنك لم تقتل تلك المرأة . ثم عاد والقى نظرة على الخنادق والرقباء المنتشرين فيها وجمعهم، ثم قال أنا أعلم أيضاً أنكم جميعاً شجعان ومقاتلون اشداء وترغبون قتال العدو وأنا أشكركم على هذا الحماس ، ولكن هنا في هذا المكان لا مجال لتدريبكم وهاأنتم شاهدتم بأعينكم ، اتمنى ان تتدربوا في الخلف وعندما تنهوا تدريبكم نستقبلكم وندخل لقتال العدو سوية ، مع جنود السرية . ارى ان تعودوا الى القيادة التي ارسلتكم وشكرا . هيا لا اريد نقاشاً ، قد يجري اشتباك في أي لحظة لا داعي للنقاش .

كانت السيارتان اللتان أقلتهم لا تزالان واقفتين في الحفر المعدة لها ، لقد كروا راجعين واجتمعوا في ملجأ السرية مع الملازم عبيد والمرشحين والرقباء

والعريف الممرض الذي بدأ يتفحص الحقيبة الطبية وقد لف كل شيء ليرسله الى قيادة الفوج .

كان قائد الفوج قلقاً مضطرباً لماذا الاشتباك ؟ ماذا حصل للدورية ، ماهي نتائج الاشتباك ؟ لقد طمأنه قائد السرية عن كل شيء بشكل جيد. وأردف سيصل البوليس الدولي الى السيارة المعادية المتفجرة . اياكم واطلاق النار .

ودار نقاش آخر بين قائد السرية والرقيب خمسان . بالامكان قتل الجنود قبل وصول السيارة . ولكن قائد السرية كان يجيبه هادئاً . كان مسروراً جداً للنتائج التي حصلت ، قال : الجندي الشجاع من يضبط نفسه اثناء اطلاق النار على العدو .

« ٢٦ »

كانت الشمس قد مالت عن قبة السماء واصبح الوقت عصراً بل هبطت أكثر باتجاه المغيب ، وظهرت الغيوم العارضة التي تغطي الجليل الأعلى وقمة صفد ، وبدا الهواء لطيفاً ، واحمرت صابغة اياها بلون أحمر قان منشور على بطاح فلسطين إنه دم الشهداء والأبرياء من النساء والأطفال الذين قتلتهم الصهيونية والامبريالية والاستعمار الانكليزي في تلك البطاح المقدسة .

كان الظلام دامساً وأطفأت المستعمرات انوارها ، وبدأ الاشتباك بالرشاشات الثقيلة في بداية الأمر ، ثم تطور وشمل قذائف الهاون . لقد اضطرت قيادة الفوج التي طالتها قذائف المدفعية الثقيلة أن ترد على القصف المدفعي بالهاون الثقيل ومدفعية الفوج ، كان ليلاً مضاء من كثرة القذائف المضيئة من قبل الطرفين . لقد وقعت عشرات القذائف على مركز السرية ، ثم توقف القصف قبل الشروق ، لم ينم قائد الفوج طوال الليل وهو على الهاتف مع قائد السرية يستفسر عن أوضا ع السرية .

كانت السرية جاهزة لصد أي هجوم ، والجنود مقاتلون اشداء لا يرهبهم العدو ، وخاصة أن قائد السرية ، كان حازماً وشجاعاً ، نشيطاً ينتقل من فصيل إلى آخر ضمن الخنادق ، رغم القصف المعادي . منعت الاجازات في اليوم اللاحق، وجرى اشتباك بالرشاشات ، توقف بعد الظهر ، لقد توترت النفوس من كلا الطرفين ، لمدة يومين ، ثم هدأت الجبهة ثانية ، كان الليل هادئاً لم تسمع فيه إلا أصوات الذئاب من الوادي الشمالي . ذئاب حقيقية ، لقد اقترب

الامتحان جداً ، بعد يومين حصل الرقيب محمد على اجازة لتقديم الامتحان وغادر السرية إلى دمشق .

كانت النفوس قلقة ومضطربة رغم الهدوء الحذر الظاهر ، وانفجر ثانية القطاع الشمالي باشتباكات متقطعة ليلاً ونهاراً ونشط البوليس الدولي لتهدئة الوضع إلى حد ما .

كانت المظاهرات في العاصمة تعم الشوارع ضد مشروع ايزنهاور وكذلك أغلب الأحزاب في المعارضة حتى الأحزاب الرجعية معارضة لمشروع ايزنهاور وحلف بغداد ، لم يكن معهم إلا العملاء وحتى هؤلاء لم يجرؤوا على العلانية ، الجماهير في سورية متحفزة في الأرياف والمدن ، حتى البدو الأميون وقفوا ضد كل الأحلاف مع الامبريالية وأعوانها . كان الشعب رائعاً ، وكان حزب البعث العربي الاشتراكي نشيطاً . نشراته تغطي الأرياف والمدن ، وندوات كثيرة يعقدها هنا وهناك ، واتسع نشاطه بين الجماهير إلى أن وصل إلى القوات المسلحة المحيطة بالعاصمة ، استغرق الامتحان اسبوعاً كاملاً ، لم ينزل الرقيب محمد بالفندق أو في ثكنة إنما امضى وقت الامتحان مع رفيقه الرقيب كامل ، في حي ركن الدين . بجانب جبل الأربعين ، كان الامتحان في دار المعلمين الكتب كبيرة وصفحاتها كثيرة ، التاريخ بجزئيه القديم والحديث وكذلك الجغرافيا العربية والعالمية . كتاب التاريخ ألف صفحة ويضاف إلى ذلك اللغة العربية ، لكل مادة من هذه المواد مئتا علامة وعليه أن يحصل على نصف المعدل ، ولكنه لم يدرس اللغة الانكليزية انه يكره هذه اللغة . لأنه يكره الاستعمار ، وخاصة الاستعمار الانكليزي الذي سبب البلاء ، لم يستطع أن يقرأ حاول ما أمكن أن يتعرف على العاصمة رغم ضغط الامتحان فقد كان يتجول بعد امتحان كل مادة في شارع الصالحية وخلال الاسبوع الذي أمضاه قرأ الجرائد التي كانت تصدر ، وقرأ جريدة البعث اليومية وزار مكتب الحزب ، والتقى مع كثير من رفاقه وتبادل معهم الرأي ثانية حول الأوضاع العامة ومستقبل اهداف الحزب ، ومخاصة ان الوحدة مع القاهرة تدق أبواب دمشق . كم كان مسروراً رغم كل الظروف الصعبة التي تحيط به ، ومكتب الحزب مثل خلية

النحل مليء بالرجال والنساء حلقات كبيرة وصغيرة ، غرفة ملأى بالناس . العمل الحزبي رائع بين الجماهير الكادحة ـ قال لنفسه ـ وهو يخرج من مكتبه يحمل اكثر من مئتي منشور عن الأحداث السياسية القائمة وعن مشاريع وأحلاف الاستعمار ، وعن الصراع بين الفلاحين والاقطاع ، كل ذلك كان مكتوباً في مناشير مكدسة في زوايا غرف الحزب لمن يأخذ ويوزع ويعمل ، مهما كانت كثيرة امام اعضائه .

في هذه الظروف المعقدة من حياة العرب ، العرب المصريون كثيرون في شوارع دمشق يستقبلهم سكان العاصمة بالترحاب ، بوجوه بشوشة مشرقة يحدوها الأمل بالمستقبل ، بتحرير فلسطين ، بوقف الهجوم الصهيوني الاستيطاني الجديد ، الأمل يعلو وجوه الجماهير الوحدة قادمة مع مصر ـ أي أن التحرير قادم بعد الوحدة ، كل هذا كان يقرأ في وجوه الناس في كل مكان من القطر . العسكريون الذين التقاهم ، كانوا مستبشرين خيراً بالمستقبل سيثأرون لطبريا ، لشهداء فلسطين لخديجة ، لكل المنكوبين سيعودون الى قراهم ، الى مدنهم ، لن يبقوا طويلاً في الخيام التي تهزها الرياح المنتشرة صفوفاً في المدن وعلى محاور الطرق سيعودون الى ديارهم .

مخيم هنا ـ ومخيم هناك في الاردن وسوريا ولبنان ومصر والعراق . والوطن العربي خيام مضروبة يعيش تحتها النساء والأطفال .

كان الرقيب محمد يراقب كل ذلك وقد انهى الامتحان ، ثم قفل راجعاً الى سريته يحدوه الأمل بالنجاح .

الجماهير تتظاهر بشكل دائم بكل المدن السورية ، الجماهير تزحف مطالبة البرلمان الاتفاق مع مصر العربية ، تدفع المسؤولين دفعاً . والمسؤولون في الدولتين ايمانهم ضعيف كل يخاف على منصبه في حال قيام الوحدة قد يفقد مكانه ؟ العدو الصهيوني ينشط عالمياً ضد هذا التيار الجماهيري المتصاعد باتجاه الوحدة ، وأي وحدة هي بين مصر وسوريا ؟ أي يصبح العدو بين فكي الكماشة ، لذلك جنّت اسرائيل واهتاج الاستعمار الغربي . بريطانيا تهدد العرب والقتال على أشده بين الجزائر وفرنسا ، واستعراض القوات في البحر

المتوسط تهدد سوريا ومصر ، وحشود على سوريا من الشمال بواسطة الحلف الأطلسي ، وضغط القوى الرجعية من الداخل ، ونشاط العملاء للغرب والامبريالية الامريكية من الداخل .

ورغم كل ذلك كان زحف الجماهير أقوى من كل شيء ، عمال يريدون نسف خطوط النفط البريطانية ، فلاحون يحملون المناجل ، لقطع رؤوس العملاء والاقطاع .

كان الرقيب محمد يشارك في هذه المظاهرات ، وهذه المهرجانات التي تقام في كل حي وقرية من سوريا ضد مشروع ايزنهاور وحلف بغداد ، الشعب مع ثورة الجزائر ، الشعب مع الوحدة مع مصر ، لم يجرؤ حتى الجاسوس ان يقول غير ذلك وإلا يسحق تحت أقدام الجماهير ، ما أرهب العدو ، لقد حرض الغرب بكل قواه على العرب ووقفت الامبريالية تقطف ثمار ذلك التحرك الرهيب ضد العرب ، وضد استقلالهم وتحررهم .

كان الرقيب محمد يصرخ مع الجماهير مطالباً بالوحدة ، يشارك بالمظاهرات الزاحفة من الجامعة الى البرلمان .

عاد بعد أن انتهى من الامتحان يحمل الأمل ، الأمل بالنجاح في الشهادة الثانوية ، الأمل في الوحدة ، حاملاً معه مناشير حزب البعث وجريدة الحزب ، لقد حمسه رفاقه ، لا تخف أنت رقيب مجند ماذا يعملون لك ، وزع المناشير ، هو بالأصل مندفع لا يحتاج لمن يشجعه انه يشجع الآخرين ، مرّ بطريقه بمدينة القنيطرة ، وأعطى لرفيقه الرقيب سعود منشورات عن الحزب ، وتابع طريقه ، مشيا على الأقدام الى قرية واسط ، ثم القلع ، ثم سريته في قرية العقدة . كان ذلك عصراً ، استقبله الرقيب خمسان ، وكذلك افراد حضيرته وقدم نفسه للملازم عبيد ، وزار المساعد أول علي ، الذي سأله عن الامتحان ، فأجاب : قد أنجح .

كان الوضع متوتراً في السرية ، منعت الاجازات لأنه قد يقع الاشتباك في كل لحظة ليلاً أو نهاراً .

أحضر معه بعض الحلويات وتحلق حوله العريف زيد والرقيب خمسان

والرقيب وهدان ، ومجندون آخرون يسألون ، ماذا يحدث في العاصمة ، أسئلة كثيرة انصبت على رأسه من الرقباء ، وسأله الملازم عبيد عن صحة المظاهرات في العاصمة واستدعاه قائد السرية الى مقر قيادة السرية حياه بأدب ، ووقف ، ورحب به قائد السرية قائلاً : اخبرنا عن الامتحان أولاً .

وأجاب الرقيب محمد قد انجح . المظاهرات ، على أشدها تطالب بالوحدة واسقاط كل الأحلاف ، هذا جيد ، شعب رائع ، قالها ثم أمر الرقيب ، اجلس واشرب الشاي ، صبه لنفسك .

حضر بعد ذلك قادة الفصائل . جلس الرقيب محمد معهم يشربون الشاي ، يتحدثون عن المستقبل عن الوحدة عن ثورة الجزائر ، عن الأمة العربية ، وقطع حديثهم دوي قصف من هاون انفجرت القذائف في موقع السرية ، كانت حركة الجنود مستورة ومتخندقة في خنادق مغطاة . دق بوق الانذار كل في مكانه . ورد على القصف بالرشاش الثقيل من المنع ، كما قصف موقع العدو بالهاون .

كان قائد الفوج قلقا من استمرار الاشتباكات بين السرية والعدو وفي نهاية حزيران في وقت هادىء أجرى تبديل السرية بشكل مفاجىء ليلاً .

عادت السرية إلى النسق الثاني في القلع ، وتجمعت الفصائل كل فصيلة في موقع ، لقد تمركزت الفصيلة الثانية خلف المرصد في مخفر البرجيات في المرتفع ٦٤٠ واعيد التدريب للسرية لرفع قدرتها القتالية .

كان الرقيب محمد ينتظر نتيجة الامتحان بفارغ الصبر . وفي الأسبوع الأول من تموز قرأ الجريدة ولم يجد له اسماً ، لقد حزن كثيراً وتألم ولكنه كظم غيظه . أسف قائد السرية ولكنه شجعه ، كانت هناك دورة ثانية في شهر أيلول ، هيا يا محمد إلى الدرس ثانية . . العمل في الموقع الجديد أقل تعقيداً .

لقد أمر قائد السرية أحد المرشحين بعد أن علم انه قصر في الرياضيات ، ومادة اللغة الانكليزية ، بأن يساعده ، لقد لعن الانكليز واللغات الاستعمارية ، ولكن لابد من الدراسة ، فقد ساعده قائد السرية ورفاقه المرشحون ، حيث كان أحدهم اختصاصياً في الرياضيات ويجيد اللغة

الانكليزية ، واعتبارا من أول تموز أعفاه قائد السرية من كل الواجبات وصرفه داخل السرية للدراسة فقط . وكان ينظر إليه معاتباً إذا شعر بأنه تكاسل أو تقاعس عن الدرس ، كان الرقيب محمد ملماً بالتاريخ القديم والحديث ولذلك كان يقول له ، سوف أراك مدرساً لمادة التاريخ .

عندما كان يريد أن يناقش مسائل حول الحزب ، أو أي وضع كان يقول له نستمع لرأيك بعد الامتحان .

كانت الشهادة الثانوية عقدة بالنسبة له ، لقد جد ودرس ، ولكن جاءت مستجدات كان يسمعها من راديو قائد السرية ، لقد أممت قناة السويس ، وبدأت بريطانيا وفرنسا تهددان مصر ، وانضمت اليهما اسرائيل . ولكن قائد السرية لم يسمح له بالنقاش ، كان يقول له القراءة هي كل شيء راجع الدروس لقد اقترب الامتحان ثانية .

في وقت الهبت مصر الجماهير العربية من المحيط الى الخليج ، عندما أعلن قائد ثورة مصر عبد الناصر تأميم قناة السويس يوم ٢٦ تموز سنة ١٩٥٦ بخطاب من الاسكندرية وشن هجوماً على بريطانيا والاستعمار واسرائيل .

اليوم بدأ كفاح العرب الحديث ، افتحوا عيونكم على أرضكم ايها العرب ، بريطانيا تنهب ثرواتنا وشعبنا يجوع ، انهضوا ، كافحوا ، قاتلوا ، لا رجعية ولا تراجع . . . قناة السويس ملك لمصر . . الخ .

لقد جنت بريطانيا العجوز ، وفرنسا التي شبهها الشاعر العربي بالمومس عندما هاجمها هتلر من الأمام ، وأكمل عليها الحلفاء من الخلف .

لقد لاقت اسرائيل ضالتها ، وبدأ العمل في الخفاء هذه هي الصهيونية تتحرك في كل اتجاه هذه استراتيجيتهم منذ عشرات السنين ، ضالتهم باليهود متعصبون لخاخاماتهم الذين يأمرهم دينهم بذبح المسيحيين وصنع الفطائر لخاخاماتهم (ما أسوأ دين يذبح البشر من أجل فطير يأكل رجل الدين ليشفي حقده من البشر ، هل هذا معقول) ولكنها الحقيقة القائمة الساطعة ، في كل انحاء الأرض ، الذئاب القوية تقتل الذئاب الضعيفة ، هذه شريعة الذئاب المتوحشة التي تهاجم المواشي أو فرائسها وإذا قصر ذئب لسبب ما تمزقه بقية

الذئاب .

والصهيونية وجدت ضالتها اليوم بتحريض بريطانيا وفرنسا على العرب ، نسيت فرنسا المخزوة المحتلة حق الشعوب ، الجزائريون يخلعون جذورها من الوطن العربي ، نسيت بريطانيا وفرنسا والصهيونية ، ثورة اكتوبر الاشتراكية التي تساند الشعوب وتقف مع حركات التحرر في العالم ، ان الذئاب والكلاب الضالة تنسى نفسها عندما تهاجم . لأنها تقتل بعضها احياناً . تريد النهب والسلب والقتل . هذا شأن بريطانيا عبر القرون الماضية ، وكذلك فرنسا ، ماهذا اللقيط الجديد التي أتى به الانكليز لمثل هذه المهمات ؟ هي الحقيقة اعماهم حقدهم ، فنسوا البشر جميعاً ، وتصوروا أن البشر قطعاناً من المواشي يسوقونها ، هذا في ديانة اسرائيل في تلمودهم ، البشر حيوانات عدا اليهودي ، مساكين حقاً وقد يحتاجون إلى الشفقة اكثر من غيرهم .

جاءت الأخبار متناقضة متضاربة . صوت راديو قائد السرية يصرخ طوال الليل والنهار ، بالأخبار من كل محطات العالم .

كان الرقيب محمد يدرس ويستعد للامتحان ، هذه المرة إذا لم ينجح تكون كارثة بالنسبة إليه ، سيعود معلماً ويمضي الزمن .

مر تموز وآب ، وحصل على اجازة ، لتقديم الامتحان ، في دار المعلمين في دمشق . قدم الامتحان ، وفي نهايته زار مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقدم طلباً شرطياً للكلية الحربية والتقى مع عدد من رفاقه الذين تقدموا أيضاً للكلية الحربية . ولكنه كان ينوي دراسة التاريخ ، ان يسجل في الجامعة ، ان الحياة العسكرية تقيده ، لا يستطيع أن يتحدث كما يرغب ، والحزبية في الجيش ممنوعة ، ولكن على سبيل الاحتيا ط واختصاراً للزمن وظروف أهله الاقتصادية فكر بالكلية الحربية .

كان نشيطاً في مكتب الحزب ، رغم قلة معرفته ، ذهب الى حماه ، هناك يعرف القرى ، يعرف المدينة يعرف كل البعثيين حتى الأنصار ، هنا يتحلق حوله رفاقه من السلمية ، ومن الغاب ، ومن الريف ، يتحدث معهم ، عن المقاليع في النضال ، عن الاقطاع ، عن السماسرة ، عن المرابين من اليهود في حلب ، وخانات المدينة وبؤس الفلاحين .

لقد قدّم الامتحان واثقاً هذه المرة لأنه حضّر له جيداً ، ولقد أنهى الامتحان في الأسبوع الاول من أيلول ، وقفل عائداً إلى سريته في القلع ، هناك في المرتفع (٦٤٠) الجبهة هادئة ، لا تسمع طلقة واحدة ، سوى بعض الألغام التي تفجرها الخنازير البرية ، حتى مخفر البرجيات لم تعد تسمع منه طلقة واحدة .

كان الاجتماع يجري صباحاً للفصيلة لم تكن سابقاً تجمع خوفاً من القذائف ، وشهر آب كان هادئاً جداً وهاهو شهر أيلول يحل لا تطلق فيه طلقة واحدة على طول الجبهة .

لقد كانوا يتحدثون عن هذا الهدوء مع قائد السرية ، الذي قال لقد تعبوا واتعبونا ، ولكن هناك ما يبيتونه ضربة قوية لنا أين لا أدري ؟ ان هذا الهدوء لا يعجبني ، كانوا يرمون على بقرة إذا اقتربت والآن المواشي تصل حتى الأسلاك ولا يرمونها ، وسمعنا أن بعض الفلاحين والفلاحات ذهبوا وعبروا الأسلاك وشاهدوا أهلهم ولم تطلق عليهم النار . ان هذا الأمر خطير جداً وعلينا أن نكون يقظين حتى لا نؤخذ على غرة .

كان قائد السرية الملازم أول عبد الوهاب يتحدث مع الجنود كل يوم . وأغلب قادة الفصائل وأمار الحضائر كانوا متحلقين حوله يشربون الشاي الذي يأمر بتحضيرها ، على طريقة القدامى يشرب الشاي في خيمته كل من يدخل اليها .

جرى الاجتماع الدوري في قيادة الفوج ، وجرت مناقشات حادة حول ذلك الهدوء ، ولم يصلوا الى تفسير له ، لكن احد المساعدين القدامى قال : قد يوجهون ضربة مشتركة مع الحلفاء الى مصر وتساعدهم اسرائيل لأنها لا تريد ان تقام وحدة بين مصر وسوريا كما نسمع اليوم . مسكين ذلك المساعد ، لقد هشمه قائد الفوج عندما قال ذلك . أصبح المساعد يتحدث عن أعمال استراتيجية قال قائد الفوج : (شر البلية ما يضحك) . وصمت المساعد وقال احدالضبا ط من قادة الفصائل : ان موقعنا يحكم العدو لذلك هدؤوا عندما توقف من جانبنا اطلاق النار .

ورد عليه الملازم أول عبد الوهاب : لكن الجبهة بكاملها هادئة ، وليس فقط قطاعنا .

وانتقل البحث عن الوضع السياسي العام ، فكرر قائد الفوج سمعت ان بعض الرقباء المجندين يأتون بالجرائد الى الجنود ، وقد أمرت بأن كل شخص يمسك معه منشور حزبي أو جريدة حزبية سوف يعاقب لأن العمل السياسي في الجيش ممنوع .

وتشاحن قائد السرية الثانية مع قائد سرية المهندسين ، حيث أصر قائد السرية الثانية ، على أن الجنود مواطنون قبل أن يكونوا جنوداً ومن حقهم قراءة الجرائد ومعرفة الأمور العامة ، والآن ثورة في مصر وثورة في الجزائر ، وانتصر قائد الفوج لقائد السرية الهندسية ، وارتفعت اصوات من الخلف في القاعة ، السياسة ممنوعة في الجيش أيام فرنسا أما الآن ، فنحن مستقلون ولابد من معرفة ما يدور داخل البلاد .

نتف غير واضحة هنا وهناك حتى في رؤوس القادة غير واضحة ، ورغم كل ذلك يبدو أن قائد السرية غير قانع بطريقة العمل العسكري ، فاحدث مشاحنة هذه المرة مع قائد الفوج ، وأعادوا ذكر أحداث طبريا والتقصير من القيادات العليا وعدم المحاسبة .

كان قائد الفوج الرائد خيري لا يتقبل النقد القاسي من الملازم أول عبد الوهاب ، وكادت تحصل مشادة بين الاثنين حيث اتهم قائد السرية قائد الفوج بالجبن ، وخاصة اثناء الاشتباكات . وانتهى الاجتماع . وعلم صف ضباط السرية أ ن الملازم أول عبد الوهاب أصر على موقفه ، وقدم استقالته من الجيش نهائياً ، وقيل انه عوقب بأربعين يوماً سجناً عادياً من قبل رئيس الأركان وأقاويل شتى، ولكن جنوده كانوا يحبونه رغم كل هذه الاشاعات .

نجح الرقيب محمد في الشهادة الثانوية في نهاية شهر ايلول ، لم يستطع أن يكتم الفرحة ، كان يقرأ الجريدة التي أتى بها المساعد علي من مدينة القنيطرة وفيها أسماء الناجحين وقرأ الاسم ناقصاً مختصراً ولكنه عرف أنه اسمه ، اذن لو كان يحملها قبل سنتين لكان ضابطاً .

لقد أقام قائد السرية حفلة شاي لكامل عناصر السرية بمناسبة نجاح الرقيب محمد بالشهادة الثانوية ، اقتربت خدمته من نهايتها فحصل على اجازة في بداية تشرين الأول ، حيث ذهب الى الجامعة وسجل هناك في كلية التاريخ ، كما ارسل نسخة من شهادته الى الكلية الحربية احتياطاً . وتوقف في العاصمة لانجاز هذه الأعمال التي أخذت منه يوماً كاملاً ، وسافر ليقضي الاجازة في ريف حماه ، لقد مر بخان الحجي لم يستطع أن يفارق هذا الخان ، كان الفلاحون متجمعين من أجل الحصول على بذار القمح ، والتحضير للشتاء المقبل ، ورغم وجودهم في الخان كانوا يتحدثون عن الوحدة .

قال أحدهم موجهاً حديثه لمحمد : متى تكون الوحدة يا أستاذ ؟

ـ الوحدة قريبة جداً .

كان الحجي يساير الفلاحين في هذه الفترة ، لأن حزب البعث اكتسح الشارع كاملاً خاصة ان كل الفلاحين الآن يذهبون الى مكتب الحزب ، داخل المدينة ، ومضافة القرى تلصق فيها المناشير ، ويتحدثون عن الحزب مع المختار وأعوانه .

خرج للقرية عصر ذلك اليوم ، والتقى والدته التي رحبت به كثيراً كانت والدته تحبه تشعر معه بوجودها وكان يحترمها كثيراً ، كانت المشجعة له في حياته على الدراسة بل واجبرته عليها في المدرسة . ويحزنها انه حتى الآن لم يحصل على الثانوية . نجح قسم من رفاقه وذهبوا الى الكلية الحربية ، لم يخبرها عن نجاحه لم يخبر احداً في القرية ، بأنه نجح ، كان يحدثها بانه سيسرح خلال أيام قريبة ويذهب ثانية الى دير الزور ليعلم هناك .

وترد والدته : لو تنجح وتصبح ضابطاً .

كانت والدته كما يتصورها اشبه بالقديسات فهي مؤمنة تحترم رجال الدين ، وتقدرهم ، كانت تعمل شبه حكيمة في القرية للحنجرة والتهاب اللوز ، والتهاب سقف الحلق ، وتعالج كل هذه الأمراض بيدها التي أكل منها المنجل والفأس ، وقطف القطن فاصبحت راحة يدها جزءاً من عصا الفأس ، كانت تحدثه لو نجح لكان عمل جيداً ولكن هذه هي ارادة الله كان يضحك

عندما يراها مصرّة على نجاحه في الشهادة الثانوية ولم يرغب باخبارها .

كان والده قاسياً جداً ، لم يحدثه عن شيء ، انما قال كان أفضل لكم لو متم جميعاً ولا تتركوا صهيونياً دخل مخافركم يعود حيا . في طبريا . يعيش الانسان مرة واحدة ، ويموت في النهاية ، لماذا الموت على الفراش ؟ يجب ان يكون الموت في ميدان المعركة ضد الغزاة ، لماذا تخافون الموت ؟ (انه مدرككم) عاجلاً أو آجلاً . كان قد اقترب من السبعين من العمر عندما كان يتحدث مع الرقيب محمد وكانت بنيته قوية ، سأله : متى تسرح من الخدمة وتذهب الى التعليم مع البدو ؟

واجابه محمد : خلال أيام .

ورد والده ؛ : لقد زرنا مكتب الحزب في المدينة (يتحدثون كثيراً ، ويفعلون قليلاً) لازال البيك في قصره ، ولازال صاحب الخان يتحكم بالفلاحين وانتاجهم (والحزب يخطب علينا ليلاً ونهاراً) الوحدةمتى الوحدة ؟ والاشتراكية ؟ خلصونا أولاً من الاقطاع والمرابين ، بعد ذلك حدثونا عن الوحدة والاشتراكية ، قال كل هذه الكلمات ولم يسأله عن الشهادة الثانوية . وأخيراً أردف اتمنى ان تكمل دراستك وتذهب الى الكلية الحربية افضل لك ولنا من كل شيء .

اجابه محمد : سأعود غداً ، وخرج معه الى جدار القرية . وعندما ودعه علق محمد ستشاهدني ، وقطع كلامه قائلاً سمعت انك تريد الزواج ، وانا موافق على ذلك بعد تسريحك ، وأجابه الرقيب محمد : لن تشاهدني الا في الكلية الحربية . ونظر في وجهه وصمت .

ثم أردف قائلاً : افهم من هذا انك حصلت على الثانوية .

وأجابه محمد : نعم ياوالدي لقد نجحت في الدورة الثانية ، ضمه الى صدره وقبّله ، كان والده رجلاً أمياً وقد اشترك في الحرب العالمية الأولى وهرب من الجيش العثماني ، كما اشترك في مقاومة فرنسا لفترات طويلة اثناء دخولها سوريا . وكان يكره الغرباء ، وخاصة المستعمرين . ودعه وكر راجعاً ليودع والدته ، التي أوصته ، إياك ان تدير ظهرك للعدو وإلا سأغضب عليك ـ

وأجابها قائلاً : ادعي لي فقط وسأكون كما ترغبين سأذهب للكلية هكذا تريدين ، أنا أعلم ذلك تريدينني ضابطاً ؟ سوف البي رغبتك ,

واردفت : ارجو من الله أن أراك في الكلية ، لم يخبرها انه نجح في الشهادة الثانوية ولم تفهم عليه . وقبلته ثم ركب البوسطة الى المدينة ، ومنها الى العاصمة ، ونام عند زميله في حي ركن الدين وصل في منتصف الليل . كان كل شيء هادئاً في العاصمة .

وفي صبيحة اليوم التالي ، نزل واشترى جريدة البعث وذهب الى وحدته ، لقد مر أيضاً على صديقه سعود ، في مدينة القنيطرة وتسكع في شوارعها لا يزال لديه متسع من الوقت للعودة الى سريته . كان الوقت ظهراً عندما كان يسير في سوقها الصغير الضيق وأمام كراجها المتجهة سياراته الى الجنوب والجنوب الغربي والشمال والعاصمة جلس يشرب الشاي في مقهى الكراج ، المزدحم بالجنود وزوجاتهم واطفالهم ، الذاهبين اجازات والعائدين لتوهم ، لقد هزته يد من كتفه ، والتفت ليجد الجندي نـويصر ونهض ثم قال : نويصر ـ أهلاً ـ لقد اختفت اخبارك يارجل لم نسمع عنك شيئاً .

وأجابه نويصر : سلم على زوجتي غزالة إنها تجلس هناك في الطرف المقابل للشارع بانتظار بوسطة البطيحة . وهرع نحوها وحياها : اهلاً غزالة . كانت حاملاً في شهرها الثامن ، وأردف نويصر نتحدث عنك كثيراً في قرية جرابا .

والتفت الى غزالة قائلاً : لقد قلت لها سأكون رقيباً بعد عشر سنوات ويكون عندي عشرة أولاد ، لقد قررت معها ا ن تلد حضيرة كاملة ، مخفر كامل وأنا قائد هذا المخفر .

جلسوا يشربون الشاي ، سألها عن أهلها ، لقد ماتت جدتها ، وتزوجت أختها ، وحدثه نويصر عن كل شيء في القرية . ولد كثيرون في القرية ، وتزوج كثيرون ، مات الشيوخ لا تزال العجوز تنتظر وقد تعمر طويلاً تحت الشجرة ، فعمرها كما يحسب لها بعمر الشجرة ؛ كما عمل نويصر دورة عريف وسيصبح عريفاً آمر زمرة جوالة ، أما الآن فهو آمر زمرة رشاش ثقيل في الحرس الوطني .

لقد وصلت البوسطة وفرقتهم ، وذهب كل في اتجاه الى وحدته وصل عند الغروب الى القلع والتحق بالسرية . كان نشيطاً جداً في ذلك الأسبوع لم يبق له إلا القليل ليسرح من خدمته ، كثرت اجازاته الى مدينة القنيطرة ، وشاهد رفاقه القدامى المتخرجين من الكلية الحربية وشجعوه على الالتحاق بها ، ورغم النقاش الحاد معهم عن دور الحزب في الجيش كان أحدهم يسأله : هل يوجد أحد في قلبك يارجل ؟ فالحزب في قلوبنا ، ولابد من زيادة عدد الضباط البعثيين في الجيش ، هيا .

وأردف لقد قدمت كل شيء وأجريت الفحص الطبي والشفهي والمقابلات ، ولكن للطوارىء سجلت في كلية الاداب قسم التاريخ .

كان قائد السرية يشجعه على متابعة الدراسة في الجامعة .

كان الطقس خريفاً ودرجة الحرارة معتدلة ، في قمة ذلك المرتفع وكانت النجوم تتلألأ في كبد السماء ، عدا عن نتف من الغيوم المتناثرة وكان الهلال يبحر في هذه السماء ، ترافقه النجمة الساطعة ، كان يتأمل هـذا الكون العجيب وعاد بذاكرته الى طفولته عندما كان يعد النجوم ، وتنهره والدته قائلة : ان من يعـد النجوم ، تظهر على يديه التآليل ، كان يفكر في هذه الخرافات .

لديه متسع من الوقت ، لقـد سلم كل ما بحوزته ، عتاده وخيمته ومعوله ورفشه الصغير ، لم يبق معه شيء حصل على براءة ذمة من المساعد أول علي ، وصفى كامل حقوقه ، المالية والشخصية وهاهو يفكر غداً صباحاً سآخذ تلك الوريقة وأمضي ، استعرض واقعه في القرية ، وسيعود قريباً إلى مدرسته مع البدو يعلم فيها في الصور ، مدير المدرسة المرشح كنعان انتهت خدمته أيضاً التحقا بنفس اليوم ، هل سيعود أيضاً ؟ لكنه مدرب في كلية الاحتياط ، لا يزال هناك ، قد لا يقبل في الكلية الحربية وقع خلل في تناسبه لان وزنه أقل من سبعين كيلو غراماً ، معقول أن لا يقبل في الكلية لم يتوسط أحداً ؟ كل هذه الأفكار والهواجس كانت تراوده وينظر الى قمة ذلك المرتفع الى مستعمرة كفر شامير التي تقع في اسفل المرتفع امام مخفر البرجيات المضاءة ، منذ سنوات كان اسمها الشومرية ، واليوم بدلوها بشامير ، لاتزال مستعمرة مختلطة عرب ويهود

انكليز . وفرنسيون ، ماذا عملت الصهيونية لاقناع هؤلاء المساكين ، لقد قرأ التلمود ، كم في من المغالطات والدس والكذب فيه ، لا يمكن ان يصدقه انسان ، فكيف يصدقونه الآن ؟ لقد زوره الانكليز والجواسيس من أحبار اليهود عبر قرون من السنين ، هكذا كان يفكر ، معقول انسان يقتل انساناً آخر من اجل دمه لصنع خبز للحاخام اليهودي ليأكلوا خبزاً مجبولاً بدم النصارى ، أنا لا أصدق انهاتعليم مصلحين أو دين ، ولكن الجواسيس من الحاخامات عبر قرون زوروا التلمود لحقدهم ضد الطوائف الأخرى في العالم ، وصدقه الجهل لاحقاً واستثمره الانكليز مع هذا الشعب المسكين المغلوب على أمره الذي حشر كقاعدة استعمارية عسكرية في بحر من العرب ، هكذا قال استاذ الفلسفة في الجامعة عندما كان يسجل ويناقش دراسة العبرية في الجامعة .

والى متى هذه المجزرة المستمرة بين العرب واليهود ؟ بين العرب وأسياد اليهود ؟ لقد عاش العرب مع اليهود قروناً في سلام رغم ان اغلبهم من المرابين والغشاشين والمزورين ، وعندما يهان الشخص يقال له مثل اليهودي . كل هذه الأفكار كانت تدق دماغه وهو ينظر إلى السماء والمستعمرات وجبال الجليل، وسهل الحولة ، وبحيرة طبريا ، من قمة ذلك المرتفع يشاهد كل ذلك ، لم تطلق ولا طلقة الا على خنازير متجهة نحو الغرب تجتاز الحدود ، مرت بحقل الغام للأفراد .

تذكر خديجة ، وطبريا . والملازم أشرف لا يستطيع الانسان ان يتصور كم هي الحياة صعبة وقاسية وشاقة . تذكر كلمات والده لازال الاقطاعي في قصره ، وصاحب الخان ، ماذا يعمل الحزب سوى الخطابات ؟ قطع كل هذه الأفكار وصول قائد السرية ليلاً إلى المرتفع مع المرشح احمد الذي سيسرح غداً أيضاً ولكنه طلب الاحتفاظ به ، لقد جلسوا مع الملازم عبيد . تناقشوا كثيراً في تلك الليلة ، وعمل لهم الرقيب خسان الشاي ، كان ذلك بعد منتصف الليل .

قال الملازم عبد الوهاب ، انتهت خدمتك يامحمد ، غداً ليس لنا عليك أمر منذ الصباح تغادرنا .

قال له : ياسيدي ، أنا بامرتكم دائماً ، اذا قررت القيادة القتال فعلينا

الالتحاق فوراً ، لقد تسلمت ورقة الاحتياط ومنذ غد سأكون رقيب أول . وضحكوا لذلك ، وتابع قائد السرية ينجح محمد في حياته المدنية اكثر من العسكرية قالها موجهاً حديثه إلى الملازم عبيد الذي أجاب على ذلك . انه ينجح في حياته لأنه مؤمن ، لقد اشبعني نقاشاً خلال هذه الفترة ، أنتم تعرفون حبي للرياضة وكره السياسة ، ولكنه علمني النقاش حول الوحدة ، حتى قال زملائي عني يبدو أني تأثرت بأفكار البعث .

ورد قائد السرية : انا مؤمن بهذه الأفكار ، رغم انهم يتهمونني من عائلة عشائرية في حلب .

شربوا الشاي ، ونظر قائد السرية إلى الأرض المحتلة ، وتنهد وتجولوا في المرتفع ثم ذهبوا الى المرصد كان هناك ضابط رصد لمدفعية الجبهة الملازم عبد الرحمن ، وهناك القوا نظرة على المستعمرات والسهل ، وعادوا وقد سمع صياح الديكة الذي شق السكون ، في قرية السماقية يؤذن على روح خديجة وجنينها ويذكر فيها الأحياء ، المقاتلين المؤمنين بوطنهم ، وسمع عواء ذئاب . وهبط القمر الى المغيب وابيض الافق ثم احمر ، طارداً الظلمة .

التحق الرقيب محمد بمقر قائد السرية ، الذي اعطى له براءة الذمة وودعه قائلاً : سنلتقي في الجامعة . ودع المرشحين وقائد فصيلته ، والمجندين من زمرته ، وكذلك العريف زيداً ، الذي حزن كثيراً لأنه تسرح ، رافقه الرقيب خمسان بإجازة نهارية إلى مدينة القنيطرة ، وشربوا الشاي عند الرقيب سعود وكان كلما ذكر قرية جرابا ، يظهر عليه حزن دفين .

غادر القنيطرة الى دمشق بعد العصر ، حيث مكث فيها يراجع الجامعة ، لديه خمسة عشر يوماً ليلتحق في وظيفته كمعلم مع البدو . .

كانت الجماهير العربية ملتهبة حماساً ، شعر ان هناك أمراً يبين لها ، ولذلك كانت يقظة ومتهيئة ، الشعب يتدرب على السلاح ، والمقاومة الشعبية في كل قرية وناحية وحي ، لجان جماهيرية لرفع حماس الجماهير ضد تهديد بريطانيا ، وحليفاتها ، التهديد بالعدوان قائم ولكن هذه المرة باتجاه مصر ، مصر العروبة ، المشتعلة ، التي أججتها قيادة عبد الناصر حماساً .

كانت ليلة مظلمة ، اجتمع فيها الذين يعملون عبر تاريخهم في الظلام ، هناك في لندن ، تاريخ حافل بالخزي والعار ضد الشعوب وأساليب تمزيقها واخضاعها وارهابها .

انهم قبل اربعين سنة خططوا مع الصهيونية لتمزيق العرب في فلسطين حتى لا تكون وحدة بين آسيا العربية وأفريقيا العربية ، وخلال أربعين سنة يعملون ليلاً ونهاراً في الظلام ونهب العرب ، واليوم بدأ العرب يصحون من غفوتهم ، وإذا بهم ثانية ، يواجهون الكلاب الضالة ، ينقضون قبل الشروق على قناة السويس ، ظنوا أن الشعب هو كما هو قبل أربعين سنة ، شنوا هجومهم الجوي على طول قناة السويس . وكانت معركة الجماهير من المحيط إلى الخليج ، فرنسا المهزومة بالأمس تعود دولة استعمارية وتغزو العرب ثانية هكذا تصوروا ؟ انهم يعودون لاستعمار البلدان العربية .

هبّ العمال والفلاحون ، تحطمت أنابيب البترول الشرايين التي تمدهم بالحياة ، حرقت مصالحهم والقتال مستمر على طول القناة .

هب العالم مستنكراً تلك الجريمة ، عمت المظاهرات الشوارع ، في دمشق ، السلاح يوزع في كل مكان من سوريا ، تضامناً مع القاهرة ، العرب أمة واحدة ، هكذا كانوا دائماً وتحت هذه الفكرة وحدهم قائدهم الفذ ورسولهم في قهر الروم والفرس الرسول محمد ، ورغم كل المؤامرات والاستعمار والانحلال ينهضون اليوم ، العرب أمة واحدة . هكذا يصرخ الفلاحون والعمال ، كل الشعب بكافة فئاته وطوائفه يصرخ العرب أمة واحدة ، والعالم يصرخ بالغزاة ، اخرجوا من مصر أيها الغزاة ، العالم يصرخ بوجوههم ، حان الوقت لتتحرر الشعوب من نفوذهم ، كانوا مسعورين ، قال أحد عملائهم لقد هشموا سمعتهم ، وهل للاستعمار سمعة ؟!

كان الرقيب محمد يسير في شارع الصالحية ، مر على ماسح الأحذية ليمسح حذائه ، وكان النقاش حاداً بين ماسحي الأحذية .
قال أحدهم : هل فرنسا أفضل أم بريطانيا ؟

ويرد الآخر : انا اعتقد ان الفرنسيين حمقى ، ولكن الانكليز أخبث وأدهى ومع ذلك لعنة الله على الاثنين .

ويرد اخر : مارأي الأخ الذي يمسح حذاءه ؟ لم يتكلم .

أجاب : الاثنان سيان .

كلهم مستعمرون ، وعلينا أن نناضل لطردهم والحفاظ على استقلالنا وكان هذا المثل لاستاذنا زكي الارسوزي الذي أسس حزب البعث لقد هبت كل شعوب العالم مع مصر مع العرب في كفاحهم . وصاح صوت من الشمال ، اخرجوا ايها المستعمرون كان صوتاً قوياً مسانداً ، اخافهم ، كان صوت الاتحاد السوفييتي ، التي فتحت جماهير العرب من يومها عيونها على صداقته لم تنس ذلك الصوت المساند في ظروف معقدة وحاسمة من التاريخ .

غادر محمد دمشق ليلتحق بوظيفته معلماً ، وفي منطقة النبك اوقفت الشرطة العسكرية الباص سألوا : من سرح حديثاً ؟!!

ورفع عدة مجندين أيديهم وأمروا بالنزول ، نزل محمد ثانية قبل أن يصل إلى القرية وعاد إلى مركز التدريب الأول في ١٩٥٦/١١/١ ليصار الى تعيين القطعة الجديدة ، التقى مع دورته رقباء الدورة الثانية المجندين ، جمعوا في مركز التدريب الأول على اختلاف اختصاصاتهم .

كان العرب في كل مكان قد استيقظوا وعرفوا طريق الكفاح وبدأوا السير عليه الى الوصول (العرب أمة واحدة) ولازالت راية الكفاح مرفوعة والطريق طويل . . .

صدر للمؤلف

المرابي	رواية ترجمت الى الروسية
الطغيان (ج١)	رواية ترجمت الى الروسية
الطغيان (ج٢)	رواية ترجمت الى الروسية
الطغيان (ج٣)	رواية ترجمت الى الروسية
المرابي (ج٢)	رواية ترجمت الى الروسية
القناديل	رواية ترجمت الى الروسية
المطاردون	رواية ترجمت إلى الروسية والبلغارية والالمانية
نجمة الصبح	رواية ترجمت إلى الروسية والبلغارية
التحول الكبير	رواية ترجمت الى الروسية والالمانية
شوك الدردار	مجموعة قصص

تحت الطبع

الخان	رواية

صدر عن دار الشيخ

١ ـ قصص مختارة للكاتب عزيز نسين، ترجمة فاضل جتكر، الطبعة الثانية.
٢ ـ علم الاخلاق الماركسي، تأليف مجموعة من العلماء السوفييت، ترجمة ابراهيم قندور، الطبعة الثانية.
٣ ـ النطع، رواية، تأليف جنكيز اتمانوف، ترجمة الدكتور ماجد علاء الدين.
٤ ـ الشرق، افكار ومفكرون، تأليف ل. رتولونييكاواخ وافا، ترجمة الدكتور هاشم حمادي.
٥ ـ هل سيكون عام ٢٠٠٠ عام فناء البشرية، تأليف يوري بوف، ترجمة فايز علوش.
٦ ـ الاستعمار الفكري والروحي، تأليف ف. ي يرموشكين. س. ن وفا، ترجمة الدكتور نجيب غبرا.
٧ ـ النجم الغريب، تأليف جون غريين، ترجمة فائز فوق العادة.
٨ ـ قمر المخيم لا يساوم، قصائد من وحي الانتفاضة، تأليف ميخائيل عيد.
٩ ـ وتبقى الادغال، مجموعة قصص مختارة من الادب العالمي، ترجمة ميخائيل عيد.
١٠ ـ الموسيقا تاريخ وأثر، تأليف علي القيم.
١١ ـ اليراعات للشاعر الهندي الكبير طاغور، ترجمة الدكتور بديع حقي.
١٢ ـ فواز الساجر، مسرح توهج ولم ينطفىء، اعداد الدكتور نديم معلا محمد.
١٣ ـ باسل والتنين وحكايات أخرى للصغار، ترجمة فيوليت لازار.
١٤ ـ انتظار الفرح القادم، مجموعة قصص قصيرة، تأليف اسكندر نعمة.

١٥ ـ عشرون عاماً من كاريكاتير، ممتاز البحرة.
١٦ ـ كانون الثاني، مسرحية بلغارية، تأليف، يوردان دار يتيشكوف، ترجمة وليد قوتلي.
١٧ ـ محاولة طيران، مسرحية بلغارية، تأليف، يوردان دار يتيشكوف، ترجمة وليد قوتلي.
١٨ ـ سفينة الحرية، قصص وحكايات للاطفال، تأليف عوض مسعود عوض.
١٩ ـ مختارات من الادب البولوني، تأليف فلاديسلات، ترجمة الدكتور بدر لحود.
٢٠ ـ فوق الاراضي الخصبة، رواية، تأليف اورهان كمال، ترجمة فاضل لقمان جتكر.
٢١ ـ انت جريح، تأليف، برادال اوز، ترجمة فاضل لتمان جتكر.
٢٢ ـ الفانوس السحري، تأليف بوغوميل راينوف، ترجمة ميخائيل عيد.
٢٣ ـ البيريسترويكا والتفكير الجديد لاجل بلادنا وللعالم بأسره، تأليف ميخائيل غورباتشوف، ترجمة زياد الملا.
ـ السينما الساحرة، تأليف بندر عبد الحميد.
ـ يملكون ولا يملكون، تأليف ارنست همنغواي، ترجمة توفيق الاسدي